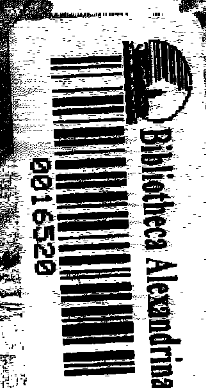
ألبرتو مورافيا

الانتباه!



دار الآداب

الانتباه ..

البرتو مورافيا

الانتباه ..

رواية

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣

تمهيد

ينبغي عليّ قبل كل شيء أن أذكر لمَ كتبت يومياتي. عديدةٌ هي الاسباب التي تدفع بالمرء الى كتابة يوميات : فقد يكون راغباً في تسجيل وقائع يعتبرها هامة ، او راغباً في المسارّة والمناجاة والاعتراف ، او راغباً في تلبية نداء غريزة التوفير والاقتصاد التي توحي احياناً للكتّاب باستغلال تفاصيل أحداث حياتهم كيما يزيد عدد كتبهم المنشورة . وهناك ايضاً حوافز الغرور والعجب بالذات . أما هذه اليوميات فقد كتبت على العكس لتكون فيما بعد أساساً لرواية ، أي كمجموعة مواد يمكن استخدامها فيما بعد في تحرير رواية . لكن لما كان من الممكن ان يخطر في بال البعض أن يتساءل لمَ لم اكتب الرواية مباشرة ، من دون أن أسبّقها بيوميات ذاتية ، لذا فقد لا يكون من العبث الذي لا طائل تحته ان أروي الاحداث والتأملات التي أوحت إلي بكتابة يوميات قبل ان أقدم على تدبيج الرواية .

في البداية كان هناك شعور الخزي الذي يوحي به إليّ الماضي . خزي كان سيكون مفهوماً لو كان في ماضيَّ شيء مخزٍ موضوعياً . لكن ليس هناك شيء من هذا ، وليس في ماضيّ ما يبعث فيّ حمرة الخجل . ليس فيه أي عمل يمكن ان اكون نادماً الآن على ارتكابه ، او يحرك فيّ شعور الإثم . كنت أشعر بالخجل ، لكني ، بمختصر الكلام ، لم اكن ادري لماذا . وإني

لأريد الآن أن أفصّل في طابع هذا الخجل . وسأقول ، على سبيل التشبيه ، إنني عندمـــا كنت أفكر بالماضي كان يخامرني إحساس كالإحساس الذي يعتورني عندما أتذكر ، في صباح اليوم التالي ، سهرةً أكثرت فيها من الشرب وأطلقت فيها العنان لنزواتي تحت تأثير الكحول . فإذا بكل ما بدا لي في تلك السهرة ، وانا فريسة للثمل ، مبرراً ، واقعياً ، دالاً ، ضرورياً ، منسجماً ، يتجلى لي على حين غرة لامعقولاً ، زائفاً ، غير واقعي ، مجانياً . اذن فقد كان هناك ، في قرارة ذلك الخزي الذي يوحي به إلي الماضي ، فكرةٌ مكدرة معذبة ، فكرة أنني تركت نفسي أنقاد بـــلا روية ، انني كنت لعبة في يد الوهم ، انني انخدعت بسراب . ولم يكن السؤال الذي يرتسم في خـــلدي آنذاك هو « لِمَ فعلت هذه الأشياء » بقدر ما كان « هل انا حقاً الذي فعل تلك الأشياء ، هل كنت لحظتذاك انا نفسي ام غيري ؟ » .

من الممكن أن نجد تفسيراً جزئياً للخزي الذي يوحي به إلي الماضي في مهنتي كصحفي . ولقد كان طابع مهنتي هذه عادياً بالأحرى في الظاهر : فبعد ان قمت بدراسات ادبية كتبت قصصاً قصيرة ومقالات لصحيفة يسارية . ولقد سنحت لي ، من غير مـــا انتظار ، فرصة للمساهمة في صحيفة يومية محافظة الميول . فلم أتردد وقبلت العرض . ورغم انني لم اكن منتمياً إلى أي حزب من الأحزاب ، فان افكاري السياسية كانت معروفة ، وعديدون هم الناس الذين أصدروا حكماً قاسياً عليّ قائلين انني ورطت نفسي وأسأت الى سمعتي شأن الكثيرين من الطموحين الذين بعد أن برزوا في معسكر اليسار باعوا أنفسهم لليمين . لكن هذا لا ينطبق عليّ في الحقيقة .

الواقع ان انتقالي من صحيفة يسارية الى صحيفة محافظة لا يمكن تفسيره برغبة ، ولو غير واعية ، في الربح والاستفادة ، ولا بتبدل في الرأي شاءت له الصدف ، كما يحدث غالباً ، أن يلتقي ومصلحتي الخاصة . لم يكن لي في العملية من غرض او فائدة ، وقبل كل شيء لأنني لم أكن طموحاً ، ولأن المال لم يكن يعني كبير شيء بالنسبة إلي لأنني لم أكن لا فقيراً ولا جشعاً .

أما عن أفكاري السياسية فلم أتحول عنها . وانما اكتفيت بأن أضعها جانباً كما لو انها شيء لم يعد له من اهمية ، مؤقتاً بلا شك ، في حياتي . كلا ، ان دافعي الى الانتقال من صحيفة يسارية الى صحيفة محافظة لا دخـــل له بالمرة، عندي، بالمصلحة او الطموح او السياسة . تخيلوا ، على سبيل التشبيه ، امرءاً يضرم النار في منزله حتى يشعل سيجارته . بديهي ان لمثل هذا الرجل بعض المصلحة في إضرام الحريق . لكن الضرر يتجاوز الفائدة ، والوسيلة غير متناسبة مع الغاية ، الى حد يمكن معه القول إن صاحبنا المدخن لا يهدف ، بإحراقه منزله ، إلى إشعال سيجارة ، بقدر ما يهدف الى إطلاق العنان لنزعة وبيلة فيه ، اي لهوس إشعال الحرائق . واذا لم تبدُ لكم هذه المقارنة كافية ، فإليكم هذا المثال الذي يبدو لي واضحاً . لقد كان مسلكي ، بانتقالي من صحيفة يسارية الى جريدة يومية يمينية ، أشبه بمسلك المجنون في تلك القصة المعروفة ، أعني المجنون الذي أعلن عن برئه التام بعد أن قضى حقبة طويلة في مصح عقلي .

بيد ان مدير المصح أراد ، قبل السماح له بمغادرته ، ان يخضع المجنون ، الذي شفي ، لامتحان . وبعد أن استدعاه سأله : هات يا صاح . هأنتذا قد عدت انساناً سوياً . تخيل انك ورثت عدة ملايين ، فماذا ستفعل بها ؟

فأجاب المجنون بلهجة الواثق من نفسه : سأشتري في هذه الحال مقلاعاً

فألح المدير ، وقد اختلط عليه الأمر ، لكن من غير أن يستسلم بعدُ للهزيمة : هيا ، فكـّر قبل الإجابة . لقد تكلمت عن ملايين عدة . والمقلاع لا يكلف سوى بضعة قروش . تريث ، فكر قليلاً ، ماذا ستفعل بهذه الملايين ؟

فأجاب المجنون هذه المرة : سأتزوج .

– آه ! مرحى ، لقد أحسنت الجواب . ستتزوج اذن ، وماذا ستفعل بعد ذلك ؟

– سأتزوج في الكنيسة ثم سأسافر مع زوجتي في شهر عسل .

– الى أين ؟

– الى باريس .

– اختيار ممتاز . وماذا ستفعل عند وصولك الى باريس ؟

– سأذهب الى احد الفنادق مع زوجتي .

– حسناً . ثم ماذا ؟

– سأغلق الباب علينا في الغرفة .

– وماذا ستفعل في هذه الغرفة ؟

– سأعري زوجتي . سأجردها أولاً من ثوبها ، ثم من قميصها الداخلي ، ثم من مشدها ، ثم من سروالها ، ثم من حذائها ، ثم من جوربيها ، وأخيراً من حمالات جوربيها .

– وآنذاك ؟

– آنذاك ، سأصنع من حمالاتها مقلاعاً .

ولا تذكر القصة إلامَ انتهى المجنون المسكين ، هاري المقاليع ، لكن من اليسير تصور ذلك .

والحال انني تصرفت الى حد مـــا مثل هذا المجنون . فأنا لم أنتقل من صحيفة يسارية الى صحيفة يمينية لا اهتماماً مني بمستقبلي ، ولا كسباً لمزيد من المال ، ولا لأنني بدلت رأيي السياسي ، ولا لأي دافع آخر معقول . وانما فقط لأسافر . فالصحيفة اليسارية كانت جريدة فقيرة ولا تستطيع ان تسمح لنفسها بترف تعيين مراسلين خاصين في البلدان الاجنبية . ومن هنا كان تعاوني مع صحيفة محافظة .

قد يسألني سائل : ما دمت غير فقير فلمَ لم تقم بأسفار على حسابك الخاص ؟ وسوف أجيبه بأنني لم أكن أملك ، بالرغم من انني لست بفقير ، وسائل كافية للسفر على نحو متواصل . ثم انني كنت بحاجة ، كيما أسافر ، الى ظاهر من تبرير مهني . ومـــا دامت نتائج السفر هي التي كانت تهمني

وليس السفر في حد ذاته ، ولو لم أفعل ما فعلته ، فلربما كنت سألجأ الى وسائل أخرى أقل وداعة وسلمية للحصول على تلك النتائج نفسها .

لكن ينبغي ان أقول لمَ كان السفر ينال مني بالغ الاهتمام . الحق انني اذا كنت قد أردت السفر كثيراً ، فهذا لأنني لم اكن أريد البقاء في روما . في روما التي عشت فيها ذلك الماضي الذي كنت ، كما ذكرت ، خجلاً منه . وليس ذلك لأن هذا الماضي ، الذي كانت توقظه الذكريات التي كان يهيجها إطار أليف ، كان يمثل أمام ذاكرتي من غير ان أشاء ذلك في غالب الاحيان . كلا ، فقد كان لماضيّ في روما اسم ، مظهر مادي ، عمر ، جنس ، وكان يقيم تحت سقفي : أعني زوجتي . وما كنت أسافر إلا لكيلا أبقى مع زوجتي ، او كي أبقى معها أقل مدة ممكنة ، اي فقط في المدة الفاصلة بين سفرتين .

لقد قلت انني بالرغم من خجلي من ماضيّ لم اكن أجد فيه ما يبعث على الخجل . ولقد كان هذا تناقضاً غريباً يستحق مجهوداً جدياً من الانتباه . لكن التفكير كان على وجه التحديد الشيء الذي لا أرغب فيه ، او بالأحرى الشيء الذي كنت أشعر بأنني عاجز عنه . وهكذا توصلت الى الاستنتاج بأنه من الأنسب لي ، آنيـــاً على الأقل ، أن أقف من ماضيّ ، أي من زوجتي ، موقفاً هو بالضبط نقيض الانتباه ، أي موقف اللاانتباه . مـــاذا يفعل الشخص غير المنتبه ؟ انه ينظر الى بعيد ، ويرى على الأرجح ، بفضل منظار قوي ، واضح الرؤية ، أنقاض المدينة التي هدمتها هزة ارضية شديدة اثنـــاء الليل . لكنه لا يتبين في الوقت نفسه ان الارض ، تحت ناظريه ، تنشقّ وأن بيته على وشك الانهيار . تلك كانت حالتي ، فقد كنت أهتم ، في تحقيقاتي عن البلدان الاجنبية ، بحضارة المـــايا او بتصنيع اليابان ، لكنني توصلت بفعل إرادي أولاً ثم آلياً ، الى جهل كل شيء عن زوجتي ، بل حتى الى جهل شخصها بالذات بالرغم من انها عاشت معي ، تحت سقفي .

أعتقد ، وقد وصلت حيث وصلت ، أن من واجبي ان اعطي بعض

معلومات عن امرأتي . كانت كورا – هـــذا اسمها – امرأة من الشعب ، مهنتها الخياطة ، ابنة غسالة وبستاني أما كيف تزوج الفتى البورجوازي الذي كنته ، ابن البورجوازيين ، المثقف والميسور الحال ، من كورا ، فهذا قـــابل للتفسير بكلمات قليلة : كنت قد ولدت في مجتمع منقسم الى تلك الدوائر التي يركب بعضها بعضاً والتي تبدأ من جحيم البؤس لتنتهي الى غبطة فردوس الغنى والثروة ، دوائر شاع اصطلاح تسميتها بطبقات ، ولما كنت أعيش في الفردوس فقد شدهت للزيف المخيم عليه . كان هذا الزيف من نوع خاص ومحدد ، كان اللاأصالة المميزة لكل مسرحية مقلدة هي ، بالنسبة الى ممثليها ،غير مقلدة وانما غير ارادية ولا شعورية وكنقيض لهذه اللاأصالة ولدت فيّ على نحو بطيء لكن ايضـــاً بنفس الصورة الطبيعية التي يتم بها ، داخل المحارة ، تكوين نواة اللؤلؤة ، اقول ولدت فيّ أسطورة الشعب – الذي – هو – وحده – محط – لكل – ما – في – العالم – من – أصالة . كنا في عام ١٩٤٧ ، وكانت هـــذه الاسطورة قد وجدت توكيداً لها في الفاشية والحرب ، هاتين الكارثتين المتولدتين (اذا ما أمعنا التفكير) عن اللاأصالة . هكذا يتضح السبب الذي وقعت من أجله في حب كورا منذ أول لقاء لي بها . وخلاصة القول ان الاسطورة فعلت فعلها ككل الاساطير ، أي آلياً وعلى نحو غامض . أما كيف عرفت كورا فهذا غير ذي أهمية ولا يستحق ان أسرده . وحتى أقنع قارئي بأنه كان حباً حقيقياً ، يكفيني ان أقول إنني ، بعد ان استأذنت منها بالانصراف يوم لقائنا الاول ، رحت أسير في الشوارع بمفردي أردد بصوت عالٍ وبوجد ونشوة : « انها هي ، هي التي كنت أبحث عنها منذ زمن طويل طويل .. قد وجدتها اخيراً ! ».

بعد هذا النوع من الإشراق ، لا تعدو في الحقيقة قصة علاقاتي مع كورا أن تكون اكثر من قصة حب عادي بما فيه الكفاية . كنت نادراً ما أراها في البداية ولمدة ساعة او ساعتين فقط في غرفة كنت قد استأجرتها ، ثم رحت أكثر من لقاءاتي بها وحتى خارج الغرفة . كانت كورا ، كما قلت ،

خياطة ، اي انها كانت تعمل في ورشة خياطة لتتدارك أودها وأود طفلة صغيرة أنجبتها من جندي ألماني ابان الحرب . ولم تتأخر عن أن تطلب مني مساعدتها على تأسيس ورشة صغيرة لحسابها الخاص . ثم تلت ذلك مرحلة متوسطة كنت خلالها أعطي مالاً لكورا التي صرت أراها يومياً ، من دون ان اكف عن العيش مع أسرتي . كانت كورا تقطن مع ابنتها في شقة صغيرة مرتبطة بالورشة . ثم اقترحت عليها ، بدافع حبي لها الذي كان ما ينى ينمو ، ان نعيش معاً . ولقد كانت مفاجأتي كبيرة عندما لم تبد كورا اي حماسة . فقد قالت انها تريد ان تبقى حرة وألا تعاني من أي رقابة ، وان لها حياتها ولي حياتي . فما الحاجة لان نعيش معاً ؟ ثم ان الامور كانت تسير على الوجه المرام ، أنا بين أسرتي ، وهي في شقتها ، مع ساعة او ساعتي حب يومياً في الغرفة الملاصقة للورشة . وقد حسبت آنذاك ان كورا تنتظر مني دليلاً على الحب أكمل من الحياة المشتركة ، وبكلمة واحدة ، الزواج . ولما كنت قد أمسيت حريصاً على التفاهم والانسجام ، فقد سألتها ان تتزوجني. ولقد قبلت هذه المرة ، لكن من غير ان تبدي انفعالاً فائقاً ووضعت لقبولها الشروط ذاتها : انها مصممة ، سواء أكانت خليلة أم حليلة ، على ان تبقى حرة ، مستقلة بنفسها ، لها حياتها الخاصة المنفصلة والمختلفة عن حياتي . ولقد كان أجدر بي ان أقف متفكراً امام هذه التحفظات . لكني عزوتها على العكس الى الروح الاستقلالية لامرأة في ريعان الشباب تدبرت حتى الآن ، شأن كورا ، أمرها واشتغلت دوماً وكسبت ما يقوم بأودها . وهكذا تزوجنا في النهاية وأصبحنا بعلاً وبعلة .

وفي العام نفسه توفي والدي الذي كان مترملاً ، وتقاسمنا انا وأخي الاوحد تركته . ولقد اشتملت الحصة التي كانت من نصيبي على شقة ، قديمة بالطبع ، لكن كبيرة ونشطة ، في الطابق الاخير من منزل قريب من ساحة مازيني . وأقمت فيها مع كورا وطفلتها . ولقد فرشت الشقة ، من غير ان أدري السبب وربما وفاء لاشعورياً مني لذوق الطبقة التي أنتمي اليها ، بالطراز

الشائع آنذاك ، طراز النصف الاول من القرن التاسع عشر ، طراز الامبراطورية في عهد لوي فيليب . ولقد كنت أنوي ، إذ أتيت لاقيم في ذلك البيت المفروش على طريقة بيوت أعيان الريف ، ان أتفرغ لتأليف رواية ، وهو طموح قديم في حياتي . في تلك الرواية كنت سأروي قصة علاقاتي مع كورا ، منذ لقائنا الاول حتى قراننا . ولقد كان يخيل إلي بالفعل ان حياتي قد بلغت مرفأ السكينة بعد الكثير من العواصف . فقد كنت أتمتع بريع صغير يتيح لي ان أحيا من دون ان أعمل . وكانت لي زوج أحبها ، وطفلة أعتبرها كابنتي . وكنت على وفاق مع نفسي ، بمعنى انني لم اكن أشعر بالحاجة الى تغيير افكاري او نمط حياتي . فهل بإمكاني ان اطلب اكثر من ذلك ؟ مختصر القول انني كنت أحيا في شروط من الاستقرار كانت تبدو لي ضرورية لا غنى عنها للإقدام على تأليف رواية . لكن آنذاك طرأ طارىء غير متوقع : إذ لم أعد أحب كورا .

لا يكفي ان اقول انني لم أعد أحبها . لا يكفي ان اقول انني لم اعد أشتهيها وانني أمسيت لا أجد اي جاذبية او معنى في ذلك الجانب الشعبي الذي أوقعني في شراك الوله بها ، بل ينبغي ان أضيف انه قد بدأ يخامرني تجاهها نفور غير معقول وجد تعبيره الاول في رفض جامح ، مقلق ، متشنج ، لذاتي ولقد تجلى ذلك اولاً في العلاقات الجسدية ، إذ لم تعد تلك البساطة او بالأحرى تلك الخشونة في سلوك كورا وشخصها تعنيان شيئاً بالنسبة لي بل باتتا على العكس تحركان أحاسيس النفور والاشمئزاز فيّ ، مع انهما هما اللتان أثارتا في السابق إعجابي بكورا لأنني وجدت فيها تلك الأصالة التي كنت بأشد الحاجة اليها . وما عاد في وسعي ، وأنا أقف بلا حراك بجانبها ، أن أهبها قبلة واحدة من شفتي ، مداعبة واحدة من يدي ، حضنة واحدة من جسدي . والغريب في الأمر أنه لم يعد في روحي مكان حتى للامبالاة التي تسمح للمرءبأن يكون، بعد كل شيء ، مجاملاً ، أنيساً ، بل حتى عطوفاً ، وبأن يظهر ، بموجز

الكلام ، تلك المودة التي هي حق لجميع البشر لمجرد انهم موجودون . كلا ، انما كان يشدني ويهصرني على العكس عداء قاتم ، دفين ، يدهشني ويخيفني .
ومنذ تلك اللحظة بدأ الماضي يثقل علي كما تثقل ليـــلة من السكر والتهتك عندما تجري محاكمتها ، في صباح اليوم التالي ، من قبل عقل عاد الى رشده وتزمته . وكانت كورا ، التي كانت الى جانبي في هذا الماضي ، توحي إلي على وجه التحديد بتلك النفرة التي قد يوقظها ، في اليوم التــالي ، رفيق الفجور وشريكه في مثل تلك الليلة . ولقد كانت كورا ، من غير مـــا إرادة او اختيار منها ، شريكي في الوهم الذي يخيل إلي انني وقعت في شراكه عندما شغفت بها وتزوجتها . وكنت ادرك انها لم تذنب في شيء . ومـع ذلك لم اكن استطيـع أن أمسك نفسي عن كرهها كما يكره المرء السبب البريء لخطأ اقترفه .

لم يكن شعوري العدائي يتترجم في رفضي ذاتي فحسب ، بل ايضاً في احساس بغربة متسلطة وقسرية . كان يحدث لي ان افكر وأنا على المـــائدة اثناء وجبـــاتنا او في الفراش بينما كورا تغط في النوم : « من هذه المرأة الجالسة تجاهي ، والتي تكلمني وتبسم لي وتخاطبني بلا كلفـــة ؟ التي تتمدد بجانبي في الفراش وتدير لي ظهرها وتشخر ؟ ما علاقتي بهذه المرأة ؟ ما أتى بها ، بحق الشيطان ، الى هنا ؟ »

ومن حين الى آخر كنت أردد في نفسي : « كورا مانشيني » . وكان يخيل إليّ انني لا ألفظ اسم زوجتي بل اسماً وقع عليه بصري بالصدفـــة في دليل الهاتف او في إعلان لمخزن من المخــازن . وكنت أفكر : « اي شيء مشترك يمكن ان يوجد بيني وبين الشخص الذي يدعى كورا مانشيني ؟ »

وبلغ رفضي ذاتي حداً بت أتجنب معه تحويل ناظري اليها ، ضاناً عليهـا بما لا يضن به أحد على احد ،بنظرة. كنت اتذرع بأي ذريعـــة لأغير مكاني على المائدة حتى لا تكون في قبالتي . ورفض آخر : اذا دخلت زوجتي الى

الحجرة التي اكون موجوداً فيها ، كنت اتدبر أمري لأتسلل خارجها بأقصى سرعة ممكنة . ولم اكن غير راغب في رؤيتها فحسب ، بل لم اكن اريدايضاً ان تراني. وخلاصة القول ان نوعاً من الشلل المتدرج كان يزيدني تصلباً وتخشباً في موقف من عدم الاتصال التام : زهد ، غربة ، اشمئزاز .

طبيعي ان هذا الشلل نفسه كان يمتد الى جميع اولئك الذين كانوا مرتبطين، بصورة من الصور، بكورا . وقد كان سهلاً عليّ قطع كل صـــلة بأهلها الذين كانوا يعيشون في حي ناءٍ ، لكني وجدت صعوبـة في فعل الشيء نفسه مع غابرييلا ، الملقبة بابا ، ابنة كورا التي عاملتها واعتبرتها حتى ذلك الحـــين كابنتي من لحمي . ولقد كنت أفضل لو أنقطع بالمرة عن مشاهدتها ، ولكن لما لم يكن ذلك ممكناً فإنني لم استطع إلا أن اخفي عنها حرجي جزئياً . وفيما كانت غابرييلا تناديني ذات يوم بـ «بابا» ، أجبتهـا باندفاعة من غيظ أبله سرعان ما ندمت عليها «لا تناديني بابا ، فأنا لست بوالدك ، هل فهمت؟ لنتفق ، ولا تسميني بعد الآن هكذا ابداً ! » . ورأيتهـــا تنظر إليّ نظرة هادئة ، شبه مستغربة ، لم أعرف كيف أقابلها . لكن بدءاً من ذلك اليوم، اختفت التسمية المحببة من كلامها، ولاحظت بانشراح مشوب بشيء من تأنيب الضمير ، ان الطفلة تتجنبني ، او على الاقل ، لا تسعى ورائي كما في الماضي.

وكيما اعطي فكرة عن ذلـك الشعور المسخط بالغربة الذي كانت توحي به إليّ الحياة المشتركة مع كورا وابنتها ، سأضيف بأنني ، في قرارة نفسي، ما عدت أدعوهما باسميهما ، وبتّ أعطيهما ألـــقاباً. فكورا هي «الخياطة» . وكنت أقول بيني وبين نفسي : « ماذا تريد الخياطة ؟ ما الذي يشغل الخياطة الآن ؟» . وكانت بابا (وأنا آسف بقول ذلك) هي «بنت الحرام» . وكنت أتساءل « ما بها تصرخ ، بنت الحرام هـذه ، متى ستكف بنت الحرام عن الصراخ في المشى ؟ » . آه ! لقد بعد العهد بذلك الزمن الذي كان ينقسم فيه يومي الى قسمين متعادلين : الأول الذي كنت أرغب فيه في لقـــاء كورا ، والثاني الذي كنت أتحسر فيه على لقائنا . أو ايضاً ذلك الزمن الذي كنت

أصطحب فيه بابا الى الحديقة العامة، شاداً على يدها الرقيقة في يدي،ومصغياً الى هذرها يخالجني شعور أبوي كما لو انها ابنتي فعلاً .

كان قد بقي لي عملي ، اي تأليف روايتي . وقد وضعت فيها جميع آمالي بالنسبة الى مستقبل كان يبدو لي في السابق اكيداً للغاية ويبدو لي الآن غير موثوق الى حد رهيب . ولقد كتبت ، دفعة واحدة ، نصاً. أولياً – ثلاثمئة صفحة – في ستة شهور ونيف ، وأنا أتهيأ الآن لإعادة كتابته ، أو بالأحرى لنسخه وتصحيحه. ولقد كتبته بتوفيق ويسر لا مراء فيهما ، وكان إحساسي مع كل صفحة انني أصبح اكثر فأكثر كاتباً وروائياً . وعلى هذا فقد كنت اشعر، في هذا الجانب من حياتي ، بأنني موفور الحماية وواثق من نفسي. صحيح انني اخفقت في زواجي ، لكنه أفادني على الأقل في دفعي الى تدبيج رواية. وعلي ان أشير هنا الى واقعة هامة : فقد بدأت الرواية وأنهيتها قبل انهيار عواطفي العائلية ، وفي وقت كنت ما أزال اعتبر فيه نفسي رجلاً موفقاً في زواجه . وبالفعل ، تصف الرواية علاقاتي مع كورا بأنها ايجابية وناجحة ، وإن كانت القصة تقف عند عشية زواجي .

فتحت ذات يوم ، وأنا جالس الى طاولتي، مسودة روايتي لاباشر بضربها على الآلة الكاتبة . لكني لم أتجاوز الأسطر الاولى . فقد طوقني على حين بغتة شعور بالشك ، فأزحت آلتي الكاتبة وشرعت أقرأ الكتاب من جديـــد . ولقد قرأت طوال بعـــد الظهر تقريباً ، ثم أطبقت مخطوطي وأنا فريسة لإحساس مرعب بأن حياتي مفتوحة ومعروضة من الآن فصاعداً برمتها ، بلا اي حماية ، ولا حتى حماية الادب . كان وقع اكيد غير قابل للإنكار ،وقع من الزيف واللاواقعية ، واللاأصالة ، يصدر عن كل كلمة في المخطوطة .

لا أريد ان يساء فهمي . فلا يمكن القول عن روايتي انها لم تكن ناجحة ومن المؤكد انها لن تكون ، فيما لو نشرت ، بضاعة رخيصة بين الانتاج القصصي في الأعوام الاخيرة . فالموقف والاشخـــاص والاسلوب والتركيب والبنية تساهم جميعها بصورة طبيعية بما فيه الكفاية في تكوين عضوية متينة

تتمتع بكل ظواهر الحيوية . ومع ذلك كانت قصة البحث تلك عن الاصالة عبر حب فتاة من الشعب غير أصيلة بالمرة . بيد ان اللاأصالة ما كانت كامنة في الصفحات المكتوبة ، وانما - بلا شك - في الوقائع المسرودة فيها بالذات . كانت ، اذا جاز لي التعبير،لاأصالةتكوينية،كما لو أن الاحداث التي سعيت الى سردها هي في أصلها ، وحتى قبل ان أرويها ، غير أصيلة بصورة لا علاج لها . لكن هذه الاحداث لم أخترعها من بنات مخيلتي ، وانما استخلصتها من ماضيّ الأحدث عهداً . كنت أنا نفسي الممثل الاول فيها ، وكانت ابنة الشعب التي أحبها الممثل الاول وتزوّجها هي كورا وكان والد الفتاة ووالدتها هما أهل كورا . وكان أخو البطل الاول هو أخي. وكان اهله اهلي . وكانت بنت الأسرة الغنية التي آثر عليها البطل في النهاية كورا خطيبتي لمدة سنة من الزمن . وكانت المدينة التي يحيا فيها الاشخاص ويتحركون هي روما نفسها التي فيها أحيا وأتحرك . اذن ، ومن جديد اكرر ، لم يكن الكتاب هو العديم الأصالة وانما الواقع الذي استخلص منه .

لست واثقاً من قدرتي على التعبير عن الشعور الفظيع الذي أوحى به إليّ هذا الاكتشاف . واذا شئتم تشبيهاً فسأقول انني كنت كمن اكتشف على حين بغتة ان الله ، عندما خلق العالم ، قد استبدل هذه الخليقة بمواد بديلة ، اي بعناصر لا يبدو عليها انها العناصر التي كان ينبغي أن تكون . أو سأشبه نفسي أيضاً بآدم وحواء ، اول كائنين تحركا على هذه البسيطة ، عندما خيل اليهما أنهما متحابان في حين أن دافع اتحادهما كان في الواقع غير ذلك تماماً . وقد تبعهما نسلهما ، ومن ثم الانسانية قاطبة التي سلكت سلوكهما ، عبر قرون وقرون ، مدفوعة بأسباب غير أصيلة ، فضاعفت بذلك ، بتقدم هندسي ، اللاواقعية المبدئية . وكان التاريخ ، منظوراً اليه من هذه الزاوية ، يبدو كمقبرة من افكار زائفة يتبناها البشر تارة ويهجرونها تارة اخرى ، كمخزن للملابس التنكرية لم يظهر فيه وجه الواقع بعريه الحقيقي ولا مرة واحدة . ولقد كان من الطبيعي ان تأتي الرواية التي تسرد وقائع حدثت في عالم كهذا

فاسدة هي نفسها ، تنخرها لا أصالة أصلية وراسخة الجذور .

كنت أشعر – فلنرجع الى روايتي – بأن بطلي يحب ابنة شعبه لأسباب عارية من الأصالة ، الى حد يمكن معه التأكيد بأنه ما كان يحبها في الحقيقة قط . والحال انني عندما رحت أصوغ هذه الفكرة المثبطة للهمة ، كنت أعلم أن كورا هنا ، على بعد خطوتين ، في الغرفة المجاورة . وكنت أعرف أن المأمور الرسمي الذي عقد قراننا ما يزال حياً . وكنت اتذكر المرات العديدة التي ضاجعتها فيها وكيف فعلت ذلك . أجل ، لقد احببت كورا ، تزوجتها، لكن هذه الافعال تكشف، عند إعمال الفكر فيها، عن لا أصالتها التامة العضال . لا أصالة كاملة ، نهائية ، الى حد انني رحت أشك في ان تكون هذه الاشياء ، التي كانت واقعية ، قد حدثت فعلاً وواقعاً . وبالفعل، كيف يمكن لما لم يكن موجوداً، لما لم يكن كائناً ، اي اللاأصيل ، ان يكون أصل ما وجد ، أصل ما كان ، أي الحدث ؟ ومع ذلك ، فتلك هي القاعدة : من العدم تولد الكينونة ، ومن اللاواقعي الواقعي . واذا شئتم العودة الى التشبيه الذي سبق لي ان استخدمته ، فسأقول : لكأن الله بخلقه العالم قد خلقه خطأ . ومع ذلك فالعالم هنا ليشهد على انه قد خُلق ، سواء بصورة لا أصيلة ام لا . كذلك فان كورا هنا في الغرفة المجاورة لتشهد ، بالرغم من علاقاتنا اللاأصيلة من جذورها ، على اننا قد تحاببنا وتزوجنا فعلاً .

لا أريد ان ألح اكثر من ذلك على فاجعة روايتي . فقد حملتُ مخطوطتي ذات يوم ، فجأة ، بلا تفكير تقريباً ، بحركة اليأس الآلية، وذهبت أتكيء على نافذة في الشقة تطل على واجهة جانبية متصلة بأرض معدّة للبناء محاطة بسياج . وكانت هذه الارض تستخدم كمستودع للنفايات . وكانت اكداس من الاقذار تتراكم فيها هنا وهناك . وكان صبيان أشقياء ومتشردون وهررة يتسكعون بين حفر الارض وأركامها . واخذت أمزق مخطوطتي ، وأرمي في الهواء بمزق الورق التي كانت تتطاير في الفضاء طويلاً قبل ان تحط على الارض.

انني لاذكـر انني ، بينما كنت أقوم بهـذه العملية ، كنت أرنو الى الجادة التي يرتفع فيها مسكني ، والتي كنت ألمح ، في نهايتها ، أشجار الدلب تعانق كل منها أختها عند حافة النهر ، والضفة المقابلة من التيبر بدورها المتصافّة. وعلى هذه الدور يطل تل صخري تتوّجه غابة من أشجار الصنوبر ، وفوق هـذه الصنوبرات السماء الزرقاء لنهار صيفي مشرق . وقلت في نفسي إن الله ، بعد ان خلق العالم ، قد يكون أحس هو الآخر بأن هذا العالم عارٍ من الاصالة تماماً ، وربما راودته ، لهنيهة لا اكثر ، فكرة هدمه . لكنه ، بالنظر الى انه اكثر شجاعة مني او اكثر إصراراً مني على الخطأ ، عدل عن تلك الفكرة . وهكذا استمر العالم في حياته ، من زيف الى زيف ، ولا أصالته تترسخ اكثر فأكثر . وألقيت في الفراغ بالاوراق الاخيرة من مخطوطتي حتى من دون ان انظر اليها ، ورحت أتأملها وهي تدور في الهواء متجهة قصدياً ، إرادياً، كما لو بانشراح صدر ، نحو كوم الاقذار في الارض المعدّة للبناء . وعلى حين غرة خالجني شعور بأنني ، بهذه الحركة الفظـة في رمزيتها، قد صفّيت،فضلاً عن طموحي الادبي، كل حياتي الماضية .

وسرعان ما هويت ، بعد ذلك ، في خمول عميق . وكما يحدث أحياناً في الاحلام ، كان يخيل إلي انني معلق بحـافة صقيلة وعمودية ، وتحتي هوة لا قرار لها ، عـاجز عن الصعود او النزول ، او البقـاء حيث أنا . فأنا متزوج بامرأة تتقدمني في السن، اصبحت من الآن فصاعداً اجنبية بالنسبة لي، وابنتها ليست طفلتي . ولم أعد أؤمن بالاشياء التي آمنت بها حتى الآن ، ولا أعتقـد ان هناك اشياء أصبح منها قابلة لان تحل محلها . وأخيراً كان عليّ ان استسلم لفكرة ان العمل الذي تهيأت له طوال حياتي قد فشل كلياً. والعنصر الايجابي الوحيد على نحوٍ ما في وجودي هو انني ما أزال في الثلاثين . لكن وعيي هذا لشبابي كان يزيد من مرارة شعوري بحـالة العجز المطلق التي سقطت فيها . كنت أشعر بأنني ، على امتلاكي لإمـكانات لا محدودة ، لا أملك اي وسيلة للاستفادة منها .

ان احدى مميزات تلك المرحلة من الانحطـاط المعنوي انني لم افكر قط بالانفصال عن كورا ، كما كان سيفعل بلا شك اى شخص آخر مكاني . والحق ان الانفصال فعل،ولقد كنت أشعر انني عاجز عن العمل في هذا الاتجاه او ذاك ، ما دمت قد أقررت بأن العمل يعني الكذب ، أي خلق لاأصالة جديدة أدهى وأمرّ كلما ولد عمل جديد وتطور . ولقد كانت كورا (التي ما كان يبدو عليها مع ذلك انها تشاطرني افكاري عن لا أصالة العمل) هي التي بادرت الى القطيعة التي ما كنت لاجرؤ على مواجهتها .

ففي عصر يوم من الايام رقدت على ديوان غرفة الاستقبال ، بعد تأمـل طويل وباطل في وضعي . وعلى حـين غرة خالجني شعور ، في نومي ، بأن ثمة شخصاً ما يجلس على طرف الديوان ، ويرنو إلي . ففتحت عيني وجلست فجأة ورأيت كورا تتأملني بصمت .

كان وجه كورا يذكر بعض الشيء ، ببساطة تقاطيعه وفجاجة ألوانه ، بوجه تمثال قديم مدهون على نحو بدائي لإله او لبطل يوناني. فقد كان لون بشرتها شديد البياض ، وشعرها بسواد الغراب ، وكانت لها عينان واسعتان زرقاوان ، وأنف طويل مستقيم ، من النمط الجرمـاني ، وفم لَحِيم قاني الحمرة ، جامح قاسٍ في التوائه ، منفرج الثنايا كما لو انه دائم الابتسام . في تلك اللحظة كانت ساكنة بلا حراك كتمثال حقيقي ، وعيناها شاخصتان إلي ، ووجهها الضيق محاط بخصلتين طويلتين من شعر اسود لامع ، وجذعها مستقيمة ، وصدرها نافر ، ويداها متصالبتان على ركبتيها . هـذا الوضع والصمت الذي كانت ما تزال تلزمه ، رغم انني استيقظت وحطّ نظري عليها فلم يغادرها ، أرعباني بعض الشيء . وهتفت بلهجة من تفاجأ :

– ما حدث ؟ ما بك ؟ لم تحدقين بي على هذا النحو ؟

فأجابت من بين اسنانها من غير ان تحرك شفتيها تقريباً :

– سأذهب الى المحل . لكن عليّ قبل ذلك ان اقول لك شيئاً ما .

- ماذا ؟

- انت لم تعد تحبني .

وبذلت جهداً لاتكلم ، لكني لم اتمكن . فتابعت :

- قلت لي انه ينبغي ان ننقطع عن الجماع لان عليك ان تقف نفسك كلها على روايتك . وهذه الرواية انت لا تكتبها . ماذا تظن اذن ؟ اتحسب انني لم ادرك انك تمضي ايامك في هـذه الحجرة تستمع الى اسطوانات وتدخن ؟ انت لا تكتب رواية ومع ذلك ما عدنا نضجع معاً .

ومن جديد لم أحر بجواب . كان ذلك صحيحاً : فقد تذرعت بعملي الادبي حتى أبرر قطع علاقاتنا الجسديـــة . لكني اشعر الآن ، بعد ان مزقت مخطوطتي ، بالخجل وأنا استمع الى كورا تؤنبني على هذه الذريعـة . كانت تنظر إلي وفجأة سألتني :

- ما بك يا فرانشيسكو ؟ أبإمكاني ان اعرف ما بك ؟

فأجبت بشعور من يقول الحقيقة :

- ليس بي شيء.

- في السابق ، كنا نتحاب يومياً ، بل مرتين في اليوم ، وكان علي انا ان أوصيك بعدم المبالغة ، حرصاً على صحتك . اما الآن فعلى العكس ، وانت ما عدت تنظر إلي ...

- انها مرحلة ليس إلا .. ولسوف تمضي .

- لم تعد تحمل اي عاطفة نحوي .

- هذا غير صحيح ، ولكن ...

- بلى ، هذا صحيـح .

كنت على وشك الاحتجاج من جديد ، وليس ذلك لانني اخـــاف من الإقرار بهذه الحقيقة الخاصة التي لمّحت اليها ، بل لانني احسست ، كعـادتي ،

بأن الإقرار بها يعني بشكل ما إضافة زيف جديد الى الزيف القائم اصلاً . لكنها بادرتني بحركة ، حركة خاصة بها ، حركة امرأة من العامة وامرأة غانية في آن واحد : فبدون ان تحرك جذعها او وجهها مدت ذراعها القوية وجاءت يدها البيضاء الطويلة لتمسك بفرجي [1] وتشد عليـــه بينما كانت تحدجني بنظرة ثاقبة فيهـا نوع من أمل ، لنقل تكنيكي . وعانقتني لهنيهـة من الزمن بجماع جسدهـــا ثم أبعدت يدها بازدراء وقالت :

– أرأيت ، في الماضي كان يكفي ان انظر اليك حتى تأخذك المتعة . أما الآن فعلى العكس ، فكأنه ليس عندك شيء هنا . انت في الثلاثين . فلا تقل لي انك أصبحت عنيناً .

فقلت :

– من يدري . لعلي قد اصبحت كذلك فعلاً .

– اجل ، معي .

– أليس هناك غير هذا بين الرجل والمرأة ؟

– وماذا غيره ؟

– الحنان .

– بين الرجل والمرأة اذا لم يكن هناك هذا الشيء، فلا شيء بينهما البتة.

لم أجرؤ على مناقضتها . فتابعتْ :

– أعرف ما بك .

فسألتُ بفضول :

– ما بي ؟

– ما بك هو انك ما عدت تطيقني .

– من قال ذلك ؟

– هذه اشياء يشعر بها المرء شعوراً .

---

(١) هو في العربية للمذكر والمؤنث .

ومن جديد لم أشأ ان اكذبها . وتابعت كورا ، لكن بلهجة ساخرة بعض الشيء هذه المرة :

– لقد انقضى بسرعة شغفك بي ، أليس كذلك يا فرانشيسكو ! كنت تقول انك ستحبني مدى الحياة. أفتعرف انه لم يكد يمضي عام على زواجنا؟

صمت جديد من جانبي . كورا تنظر إلي الآن بتعبير لا يمكن تحديده ، تعبير انسان ينظر الى قطعة اثاث او اي شيء آخر ملبك،متسائلاً عن مكان يستطيع ان يضعه فيه . وأخيراً قالت :

– هل تريد ان ننفصل ؟

وأشرت برأسي أن لا . فأسرعت عندئذ كورا تضيف وكأنها خشيت ان أقاطعها :

– أتريد ان نبقى معاً ؟

– اجل .

– في هذا البيت ؟

– اجل .

وصمتت لحظة ثم استأنفت :

– كما تريد . لكن إليك ما أقترحه عليك . من الآن فصاعداً ستعيش لحسابك الخاص . انني لا ألزمك بشيء ، لا بفعل الحب ولا بالجلوس معي الى المائدة، ولا بالاهتمام بي ولا بالصغيرة. انني اكسب ما فيه الكفاية من المال، وهذا معناه انك ستعطيني بالضبط ما ينبغي لنفقات تدبير البيت . سأضع سريراً في الحجرة المجاورة للمدخل، وسيكون لك الاستديو للعمل، والصالون للاستقبال . أما نحن فسنكتفي بحجرة النوم والمطبخ . وسيمكنك الذهاب والمجيء كما لو انني غير موجودة. لكني سأهتم أنا بكل ما يتعلق بتدبير المنزل وبالمقابل، أسألك فقط البقاء هنا . أيلائمك الامر هكذا ؟

فوافقت بإشارة من رأسي . كنت قـــد شدهت بالدقة التي عرضت بها برنامجها ، ولا ريب في انها كانت تفكر بذلـــك منذ مدة . وأضافت على سبيل الختام :

– الخلاصة ان كل شيء سيبقى كما في الماضي،ما خلا اننا لن نمثل بعد الآن أحدنا على الاخر . والآن ، ينبغي أن أتركك لان عندي زبونة تنتظرني .

ونظرت إليّ ملياً ، وداعبتني على خدي مداعبـــة خفيفة ، ثم سألتني وهي تنهض :

– أما زلت راغباً في المزيد من النوم ؟

فأجبت بدمدمة توكيدية . فرأيتها آنـذاك تتجه نحو النافذة ، وتسدل الستائر ، ثم تنسل كالشبح من الغرفة التي أعتمت .

بعد بضعة أيام رن جرس الهاتف صباحاً في غرفتي . فتناولت السماعـــة وسمعت صوتاً يقول :

– صباح الخير ، انا جيانا .

– جيانا ؟ من ؟

– جيانا ، صديقة كلارا .

– ومن هي كلارا ؟

– صديقة رينا .

– لكن من هي رينا ؟

– رينا ، ألا تعرف رينا ؟

– كلا .

– مع انها هي التي اعطت رقم هاتفك لكلارا التي اعطتني اياه بدورها اذن ، هل انت مشغول ؟ ألا نستطيع ان نتقـــابل ؟ هل تريد الآن ان آتي اليك ؟

ولبثت لحظة من الزمن متردداً . كنت قد فهمت ما المسألة . وعلى حين غرة ، ويا لمفاجآتي ، أحسست باضطراب عميق فاجع بدا لي وكأنه يستمد قوته وتبريره من فكرة ان الفعل الجنسي هو العدم ، وانه لم يبق أمامي ، وأنا على ما أنا عليه من شدة ، إلا ان أرمي بنفسي خبط عشواء في هذا العدم . وأجبت جيانا بأنها تستطيع ان تأتي وبأنني انتظرها في الساعة الخامسة بعد الظهر من اليوم نفسه .

وصلت في الموعد المعين . لن أصفها لكم ، ربما لأنني لن استطيع ذلك حتى ولو كنت راغباً فيه ، نظراً الى ان لها ، في ذاكرتي ، جسداً ، لا وجهاً . ولم تكن جيانا ، صديقة كلارا ، صديقة رينا ، سوى المرأة الاولى في سلسلة طويلة . فبعدها عرفت لويزا ، صديقة جيانا ، ثم بينا ، صديقة لويزا ، ثم سيلفيا ، صديقة بينا ، ثم ايضاً ميريلا ، صديقة سيلفيا ، وهكذا دواليك ، من يوم الى يوم ، من مكالمة هاتفية الى مكالمة هاتفية ، من زيارة الى زيارة . فلقد وجدت ، من غير مشيئتي ، خيط الكبة ، فرحت أسحبه وراحت الكبة تنحل بانتظام . في البداية ، اكتفيت بزيارة واحدة في الاسبوع ، ثم استقدمت أولئك المومسات مرتين في الاسبوع ، ثم ثلاث مرات ، واخيراً يومياً تقريباً . وطوال عام او ما يقارب العام تكالبت على هذه الملذات ، أي سلمت نفسي لما سبق لي ان عرّفته بأنه العدم . كان يمكنني ، في ظرف غير هذا الظرف ، ان أعتبر زيارات المومسات تلك إشباعاً لطاقة ثرة طافحة . لكن العلاقة الجنسية كانت تبدو لي ، في عطالتي الكاملة المستسلمة ، الاختيار الوحيد حيال لاأصالة سائر أنماط العمل . ومن هنا ، ما كان في وسعي ان اخفي على نفسي أنني ، بمضاجعتي هؤلاء المومسات ، أنطلق من رغبة واعية في إفساد شيء ما ثمين ، شيء ما كان يسعني مع ذلك ان أرغب فيه او ان أستفيد منه . وإني لأقر بالأصل بأن هذا ينطبق على الشعور الكئيب الذي يخالجني في كل مرة أسفح فيها ، بلا حب ، زرعي على تلك الأجسام الخاملة والمجهولة . فقد كنت أهوى منتهكاً على المرأة وأنا

افكر :«انني أموت ، أموت .. انني سأعيش ، لكني لن أكون حيـــاً ، ابـــداً ... انني في سبيلي الى الموت ، ولسوف أموت ولن أعي ذلك ، وسأستمر في الذهاب والمجيء ، حياً في الظاهر ، لكن ميتاً في الواقع » .

في عصر يوم من الايام كنت أنتظر كعـادتي واحدة من أولئك الموسات العديدات ، واحدة تدعى جينا كان قد سبق لها أن قدمت مراراً . لكني عندما فتحت الباب وجدت نفسي تجاه امرأة لا أعرفها . وسألتني عمّا اذا كنت انا فرانشيسكو ، فأجبتها بالايجـــاب ، فدلفت عندئذ بصلف شخص واثق مما يستطيع ان يسمح لنفسه به ، من غير ان تنبس ببنت شفة ، بخطى وئيدة ، مزهوة ، واثقة ، وهي تميس وتتخلع . نظرت اليها وهي تتقدمني. كانت في ريعان العمر ، في العشرين لا اكثر . وكان لها رأس مدور مرصـع بخوذة من شعر أسود صقيل تتمرد خصلة منه فوق عينين صافيتين ، ربما كانتا رماديتين . وكان وجهها مستديراً ، بضاً ونضراً كوجه طفلة ، وكان انف صغير وفم كبير يؤكدان هذه السيماء الطفولية . ولاحظت انها ترتدي تنورة اسكوتلندية ، فضفاضة وكثيرة الثنايا ، تتدلى الى ما تحت ركبتيها . وبينما كانت تذهب وتجيء في المدخل ، متظاهرة بتفحص الرسوم المعلقة علىالجدار، كانت ثنايا هذه التنورة ، عند كل خطوة تخطوها ، تتماوج على نحو مثير بدءاً من خصرها حتى ربلاتهـــا المنينة . وفكرت بأن لها ، ولا بد ، جسماً متكوراً ، لدناً ، مليئاً بعض الشيء كجسم طفل نما بسرعة كبيرة ، وسألتها وأنا أمسك بخصرها :

— ما اسمك ؟

وّبدورة منها حول نفسها تحررت مني وقالت بلهجة مرحة :

— يا سيد فرانشيسكو ، بالنسبة اليك ، لا اسم لي . فجينـــا متوعكة الصحة ، وقد طلبت مني المجيء بدلاً منها ، هذا كل شيء .

وعلى إثر هذه الكلمات التي تفوهت بها بلهجة حاسمة، سألتني بنفاد صبر:

— لكن اين الغرفة ؟

فأشرت اليهـا ، فسبقتني وفتحت الباب بحركة أوحت لي وكأنهـا هي المالك . وبدأنا نتعرى بالقرب من السرير ، هي من جانب ، وانا من الجانب الآخر . وأبقيت رأسي مطأطئاً بينما كنت أخلع ثيـــابي ، ثم رفعت عيني ورأيت الفتاة ممددة ، عارية ، على السرير . ولبثت هنيهة من الزمن في مكاني أنظر اليها ، بلا حراك ، مذهولاً .

لم يكن ممدداً ، أمام ناظري ، الجسد الانثوي اللدن ، المليء ، الطفولي ، الذي تخيلته ، وانما هيكل عظمي مكسو بالجلد . ولم يكن تكور عُجزها الذي خيل إلي انني أحزره تحت تموجات التنورة سوى خداع بصري أوحى به إلي تثنـّي التنورة وسعة الحوض. كان الوجه والعنق والربلات هي وحدها اللحمة ، اما باقي الجسم فلم يكن غير عظام . وكانت الفخذان ، الملقتان كقضيبين بالحوض على شكل زاوية قائمة ، ترقدان متوازيتين على اللحاف ، وبينها فراغ كبير تلوح منه ، مثل رأس الوليد ، العانة المغطاة بكشة من شعر أسود طويل رخو . وكان القفص الصدري البارز فوق البطن المجوفة والصقيلة يكشف عن جميع الأضلاع تحت الجلد المشدود . ولم يكن الثديان اكثر من طيتين مسطحتين ، كما كانت عظام الذراعين ترتبط بعظام الكتفين بتخشب يشبه تخشب اللوحة الشريحية . ونظرت اليهـــا بصمت ، وكانت تنظر إلي هي الأخرى بـــلا حياء ، بل بنوع من تحدٍ راضٍ عن نفسه . وأخيراً سألتْ :

– ما بك ؟ لمَ لا تأتي إلى السرير ؟

فلم أجب . كنت ألمح ، بين عظمي الفخذين ، تحت كشة العانة ، شق فرجها بحافتيه المتنفختين ، كثمرة فلقها النضج ، لكنها بقيت معلقة ، كما لو بمعجزة ، بالغصن . وقلت أخيراً بجهد :

– لم أكن لأشك في أنك بمثل هذه النحافة ! كيف يمكن ان تكوني بمثل هذه النحافة ؟

فأجابت بعدم مبالاة :

– ليس لذلك من سبب . لقد كنت هكذا دوماً . انه تكويني .

فقلت :

– فاهم . لكن كيف تفعلين .. أقصد : ألا يضرك ، في مهنتك ، ان تكوني بمثل هذه النحافة ؟

فضحكت، وهي تصقل فخذيها بيدها الصغيرة المثلثة ، ثم أجابت :

– تصور ، ان نحافتي بالذات هي التي تنال الإعجاب ! في البداية يقف الآخرون مذهولين ، مثلك ، ثم يعجبهم ذلك . كثيرون هم الذين يريدون أن يروني ثانية . والاجانب بوجه خاصّ يعودون إلي دوماً .

وأمسكت عن الكلام لهنيهة ، ثم تابعت مثرثرة مزهوة :

– وقعت في أحد الأيام على ألماني ما كان لينتهي . كان يقول انني اعجبه اكثر من سائر الفتيات اللواتي التقى بهن في ايطاليا . كان يتمتم بشيء ما بالالمانية . . انتظر حتى أجده ، آه ! اجل : Totentanz ما معنى هذه الكلمة ؟

فترجمت آلياً :

– معناها رقصة الموتى ؟

– لمَ رقصة الموتى ؟

– انه رسم كان يرسم في الماضي على جدران الكنائس . ويمثل الموت وهو يرقص مع هذا ، ثم مع ذاك ، مع الملك ، مع المتسول ، مع الشاب الفتي ، مع الشيخ ، مع الفقير ، مع الغني ، وهكذا دواليك .

– ثم ماذا ؟

– هذا يعني ان الموت لا يحترم احداً ، وانه سيحملنا جميعاً ، مهما كنا . ان كلمته تلك لم تكن تقريظاً لك ..

– لماذا ؟

– لأن ذلك الالماني كان يصفك بأنك هيكل عظمي ، ويشبهك بالموت.

فصفقت من جديد بزهو وبدون حياء باطن فخذيها وقالت وهي تهز كتفيها:
– هذا عندي سواء ، فليسموني كما يشاءون ، شرط ان يدفعوا لي .
لقد اعطاني ذلك الالماني ، بالرغم الـ « totentanz » ، مبلغاً صغيراً لا بأس به . حسناً ، على رسلك ، أنا الموت . . أي اهمية لذلك ؟ هيـا ، تعال ، فلنفعل الحب .

ينبغي ان أعترف بأنه ما كادت مفاجأتي تنقضي حتى اخذتني شهوة، لنقل فكرية . فقد رحت افكر في نفسي : اجل ، هذه المرأة هي الموت، رقصة الموتى المصورة على جدران الكنائس ، لكنها ايضاً العـدم الذي أدور حوله منذ أمد بعيد والذي تجلى لي اخـيراً في مظهره الحقيقي . وتسلقت السرير وألقيت بنفسي على تلك العظام بشيء من الحميا . ورحت افكر بينما كانت تلتصق بي ، وتطوق خصري بفخذيها ، وتدفع بعظام حوضها على بطني، بأنه إحساس جديد وغريب بالنسبة إلي أن أمتلك هيكلاً عظميـاً وأنا ألج في الفرج المتوتر والحي الذي بقي معلقاً فيه مثلما يبقى عش الطير الدافىء معلقاً بين الاغصان اليابسة والباردة لشجرة أماتها الشتاء .

بعد الجماع لبثنا برهة من الزمن معاً ، ممددين احدنا بجانـب الآخر . ثم أغفت ، فنظرت اليها وهي مستسلمة للرقاد . كانت هذه المرأة هيكلاً عظمياً حقيقياً ، وكانت طريحة على الفراش في غير انتظام كهيكل عظمي مؤلف من زوايا قائمة وحادة ويوحي لمن يراه بأن هزة واحدة ستكفي لتنفصل عظامه عن بعضها بعضاً ، الصغيرة منها والكبيرة ، وتتساقط متناثرة على اللحاف . وفي النهاية استيقظت ، وتركت السرير ، وذهبت الى غرفة الحمام ، وجلست على مقعد المرحاض وبالت طويلاً . وراقبتها من خلال الباب الذي لم تهتمّ بإغلاقه ، وبدا لي انه شيء لا يصدق ان تخرج مثل تلك الكمية من السائل من هيكل عظمي هزيل كهذا جف ماؤه . وبعد أن اغتسلت ، عادت الى الغرفة وارتدت ثيابها وهي تتمشى عارية حول السرير ، وكانت عظامهـا تتحرك حركة خفيفة كما لو أنها مخلعة لكن بصورة منطقية مع ذلك ومتناغمة . وحين

انتهت من ارتداء ملابسها اعطيتها مالهـا ثم رافقتها . عند العتبة قالت لي :
« إذن ، هل اعجبتك الـ « Totentanz » ؛ اذا شئت ان تعيد الكرة ،
اتصل هاتفياً بجينا ودبّر المسألة معها » . نظرت اليهـا تبتعد في المشى :
َفلانْ ، َفلانْ ، َفلانْ ، كانت التنورة المثناة تتماوج ، مثيرة محيية تكور
الكشحين . لكنني اعرف الآن انها تتماوج لا فوق إلينين مليئتين وانما فوق
عظام معروقة .

وتوقف المصعد الكهربائي عند الطابق ، وحياني الموت بيده واختفى .

كانت زيارة تلك المومس – الهيكل العظمي نهاية هذه المرحلة من حياتي.
فقبل أيام من هذه الزيارة كانت قد بدأت تدور مفاوضات بيني وبين صحيفة
ميلانية . إذ كانت بعض مقالاتي عن ساردينيا ، والـتي نشرت في الصحيفة
اليومية اليسارية ، قد نالت إعجابهم وكانوا يفكرون بأن تعاوني معهم يمكن
ان يبدأ بإرسالي في مهمـة الى البلدان الاجنبية كمبعوث خاص . وما كادت
الفتاة ترحل حتى جلست بصورة شبه آلية امام مكتبي وكتبت رسالة بقبول
العرض المطروح علي . ووضعت رسالتي في مغلف وخرجت قاصداً البريد .

بهذه الصورة بدأت حياة مغايرة تماماً للحياة التي كنت قد عشتها حتى
ذلك الحين . وصرت أسافر ستة او ثمانية أشهر من أصل اثني عشر شهراً ،
وبمعدل رحلتين او ثلاث سنوياً . وما عادت إقامتي في روما تدوم اكثر من
شهرين أقضي فيها القسم الأعظم من وقتي في كتابة المقالات المتعلقة برحلتي
الاخيرة حتى اكون قادراً على معاودة الرحيل في أقرب وقت . ١٩٥٣ ،
١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ ،
١٩٦٢ : خلال هذه السنوات زرت تقريباً جميع البلدان التي كانت اسماؤها
مسجلة حسب الترتيب الأبجدي على جواز سفري . وربما تساءل البعض كيف
نجحت في مثل هذا الزمن القصير في أن أصبح مبعوثاً خاصاً نشيطاً ومطلوباً
الى هذا الحد . وأعتقد ، عندمـا افكر بالامر ، أن باستطاعتي ان أقدم
سببين : فأولاً لم اكن أسافر لاستفيد او لاحقق طموحاً مهنياً ، وانما ، كما

بينت آنفاً ، لكيلا أبقى في روما بالقرب من كورا . ولقد خدمني هذا التجرد ، فالمرء يحصل بسهولة اكبر على الاشياء كلما بدا أقل حرصاً عليها . وثانياً ، كان لتعلقي بالادب الذي لم يكف ليجعل مني الروائي الذي كنت أحلم بأن اكونه ، دوره على الاقل في امتلاكي القدرة على التعبير التي لا غنى عنها في مهنة الصحفي .

لكن السبب الرئيسي في نجاحي يجب ان يعزى بلا ريب الى طابع مقالاتي . فنجاحي يرجع الى الدوافع التي كانت تحفزني على السفر . أي الى حاجتي الى نسيان ماضيّ . وفي مثل هذه الشروط ما كان ممكناً ان يكون السفر تجربة، لان كل تجربة كانت ستعيدني الى نفسي ، اي الى الماضي ، وانما كان الترحال نوعاً من مخدر بالنسبة إلي . عمَ يبحث عادة اولئك الذين يتعاطون المخدرات ؟ انهم يجهدون للانتقال من الواقع المعتاد الى واقع افضل، في رأيهم ، وعلى كل حال ، مختلف . وهذا بالضبط ما كنت أسعى اليه بترحالي .

تملك اللغة الفرنسية كلمة تعبر أكمل تعبير عن الاحساس الذي تبعثه فيّ أسفاري : « Dépaysement »[1] . فما كان هذا الاحساس ؟ سأحاول تفسيره . انه إحساس المسافر الذي حط ، بعد بضع ساعات من الطيران فوق المحيط او فوق قارة من القارات ، في مطار مدينة مجهولة ، واحتل مقعده في الاوتوبيس الذي يقوده الى الفندق وراح يراقب الشوارع التي يجتازها .

المسافر متعب وعاجز بسبب الدوار عن تركيز انتباهه . انه يجهل كل شيء عن البلد الذي هو فيه ، غير متهيىء له ، ليس عنده أي فضول او نية للمكوث فيه مدة طويلة من الزمن . بل لعله يمر به مجرد مرور . واخيراً فإنه لا يعرف اللغة التي كتبت بها لافتات المخازن والتي يتكلمها المسافرون

(١) تغرّب ، تغيير الجو المعتاد او البلد .

الآخرون الذين يحيطون به . في مثل هذه الشروط لا يعدو المنزل ان يكون اكثر من منزل، والشجرة مجرد شجرة، والمرأة والطفل والساحة والغيمة مجرد امرأه وطفل وساحة وغيمة . كان هذا «التغرّب» يفرغ، ان جاز لي التعبير، البلدان التي كنت ازورها من كل معنى ، ولا يترك لها غير سطحها . كنت اذن مسافراً سطحياً . بيد انه ينبغي ان نعطي هذا الخبر لا معنى اللااهتمام الذي له عادة ، بل معنى ادبياً . فقد كنت سطحياً بمعنى انني ، في ملاحظتي الاشياء ، لم اكن اذهب الى ابعد من سطحها ، وليس لان طبيعتي الصميمية كانت سطحية .

واذا كانت هذه «السطحية» قد ابقتني من جهة في حالة خفيفة من خدر التغرب ، فقد اتاحت لي من الجهة الاخرى ان اتكلم بلغة التجريد عن البلدان المزارة فأرجعها الى مجرد مخططات وصيغ ومفاهيم من غير ان اشعر بأنني ملزم بالتحقق مما اذا كانت المخططات والصيغ والمفاهيم المذكورة تتطابق بشكل من الاشكال مع الواقع . كنت اسافر كثيراً كما ذكرت وكنت اسافر كما ينبغي ، اقصد انني كنت اقطع البلدان التي سأتكلم عنها في مقالاتي من أقصاها الى اقصاها ، مستخدماً جميع وسائل النقل ، ولا أهمل أي طرف او ناحية فيها مهما نأت وكانت عديمة الاهمية . لكنني لم اكن اسافر من اجل مهنتي الصحفية إلا في الظاهر فقط . أما في الواقع فقد كنت اسافر لأخدر نفسي . وبعد ذلك كنت اكتب مقالاتي في روما ، في مكتبي ، مستعيناً بكتب الصحفيين الآخرين والموسوعات والادلة . وكانت مقالاتي بالرغم من دقتها الظاهرية ، غير واقعية وعارية من كل تجربة مباشرة . وقد كان لذلك نتيجتان هامتان : من الجهة الاولى ، سهولة بالغة في قراءتها وفهمها، إذ ان مقالاتي ، بفضل ابتعادها عن كل واقع كان يمكن لفكري ان يكبو فيه ويتيه ، كانت محكمة الصياغة كما لو انها آلات قارئة صغيرة ، موحدة، سهلة، شفافة ، تنساب انسياباً . ومن الجهة الثانية، وبفضل انعدام اي مشاركة عاطفية ، كانت الطريقة الحيادية واللامبالية التي أتبعها في تقديم الموضوع

توحي بوهم التجرد والموضوعية الذي يحرص عليه الكثير من صحفيي الإعلام. ولقد عرفت تحقيقاتي عن البلدان الاجنبية، هي المقروءة والموضوعية ككتب مبادىء القراءة، نجاحاً مرموقاً. حتى ان عدداً من زملائي — لم اتأخر عن ملاحظة ذلك — قد راح يسعى الى تقليدي، لكن بلا نجاح. والحقيقة انهم، هم، كانوا يسافرون فعلاً ليكتبوا تحقيقاتهم، لا ليخدروا انفسهم شأني. ولم يكن لهم ماض يريدون نسيانه. وعندما يؤوبون من رحلتهم لم يكن هذا الماضي ينتظرهم في بيوتهم في شخص زوجة لا يوجهون اليها الكلام ويريدون تجاهل وجودها.

لقد خلفت لي هذه السنوات العشر (من ١٩٥٣ الى ١٩٦٢) ذكرى مبهمة كذكرى الاشياء التي يشاهدها المرء او يفعلها وهو في حالة دائمة من اللاانتباه. إني لارى من جديد القطارات التي أقلتني عبر مناظر ومشاهد دائمة التغير، وطائرات تقلع وتحلق وتحط في مطارات، وسفناً خارجة من المرافىء او داخلة اليها، وسيارات تجري في شوارع المدن وطرقات الارياف. وتبدو لي غرف الفنادق التي كنت أبيت فيها متماثلة جميعها، بسيمائها المغفلة الموحدة. كما تتجلى لي شواطىء البحار والجبال والغابات والارياف والمدن وكل المناظر الاخرى وكأنها منضدة بعضها فوق بعض مثل نسخة لصورة فوتوغرافية طبعت خطأ اكثر من مرة. وتخرج وجوه جموع العالم التي لا يحصى لها عد من ذاكرتي وتتناثر في الفراغ بنفس العنف المفتت الذي تنقذف به حبات القمح خارج فوهة الدراسة. وبكلمة واحدة، لم يكن هذا اللاانتباه يكلفني اي مجهود، بل كنت اشعر بأنني مدفوع اليه بميل فيّ. والواقع ان رأسي كان قابلاً للتشبيه بمخزن للبلور والبورسلين انفجرت فيه قنبلة فمزقت شر تمزيق كل الاشياء التي كانت مكدسة فيه لقد انفجرت قنبلة في رأسي، لا ادري متى، وربما عندما تبينت انني لم اعد أحب كورا. قنبلة جعلتني غير منتبه، غير مبال، شبيهاً بمن يسير في نومه. وبعبارة اخرى، لعلني كنت أنام واقفاً كما يقال، أي ان فكري كان مخدراً.

كنت أنام وأحلم بأنني مستيقظ، بأنني مبعوث خاص لجريدة ، أسافر من بلد الى آخر ، ما دمت ارجع إلى روما لأكتب مقالاتي ثم أسافر من جديد في رحلة اخرى . بيد أن حالة السبات هذه كانت تبدو لي مفضلة على حالة الهجود ، ولهذا لم اكن افعل شيئاً لأستيقظ .

ينبغي ان أقول الآن إنه كان لهذه السنوات العشر من الترحال ، علاوة على نتيجة اللاإنتباه التي تكلمت عنها ، نتيجة اخرى غير متوقعة هي العفة انني لم أقرر بملء أرادتي الامتناع عن الصلات الجنسية ، وانما تمّ ذلك بصورة طبيعية ، وعلى كل الأحوال تدريجية . فبعد عدة لقاءات ببغايا او بنساء عابرات في البلدان التي كنت أسافر اليها ، انقطعت رويداً رويداً ، من غير ان أنتبه تقريباً ، هذه العلاقات العارضة التي لم أكن بعد انتظر منها شيئاً ، ولا حتى التحقق (الذي سبق ان أجريته في روما بعد انهيار حبي لكورا) من انها تمثل العدم ، اقول انقطعت تلك العلاقات شيئاً فشيئاً ، نهائياً . وذات يوم ، لا أدري كيف ، وجدت نفسي أفكر في ذلك ، فاكتشفت آنذاك ، بذهول ، انني لم اضجع مع اي امرأة منذ حوالي عام . وتساءلت عمّا اذا كانت بي رغبة في ذلك ، ولقد وجدت نفسي مضطراً الى الاعتراف بأنني لا أملكها . هذا البرود الذي أحسست به دفعني الى التفكير ، وإليكم نتيجة تفكيري .

لقد أحببت كورا ، او على الأقل كنت مقتنعاً بأنني أحبها . ثم تداعى هذا الحب ، تداعى من جذوره ، فجرّ في سقطته كل الاشياء التي كانت تشكل في الماضي مبررات وجودي. وقد تلت هذا الانهيار حقبة غير طويلة، عام او أقلّ ، من الغراميات المرتزقة . لكن الحب المرتزق تكشف لي عن انه شيء لا يمكن للمرء ان يعيش به إلا بشرط ان يموت به ، أي عن انه العدم المتمثل على وجه التحديد في الموت . وأنا الآن لا اريد العودة الى العدم ، وليس لي امرأة عليّ ان أحبها . وخلاصة القول ان عفتي كانت تنطوي على فكرة أن الحب وحده ، ذلك الحب الذي خيل إليّ لحظة من الزمن انني

اشعر بـــه تجاه كورا ، هو الذي يستطيع ان يخرجني من عفقي تلك .
لكن اذا لم يكن لهذا الحب وجود،فمن المفضل في هذه الحال ان ألتزم العفة.
وقد يستغرب البعض ان يمكن لرجـــل في عنفوان الرجولة أن يستنكف
بمثل هذه السهولة عن إشباع يعتقد الكثير من الناس انه ليس بالامكان الاستغناء
عنه . لكن هذا غير صحيح . فالفعل الجنسي هو من تلك الاشياء التي اذا
أكثر الانسان من فعلها ، فعلها اكثر فأكثر ، لكن اذا أقلّ من فعلها ، فعلها
أقل فأقل إلى ان يمتنع عنها نهائياً . وقد كنت على وشك ان أفعل هذا الفعل
أكثر فأكثر ، بعد ان انفصلت عن كورا . أما الآن ، وبعد أن بتّ أفعله
أقل فأقل ، فإنني أرى انه في وسعي الاستغناء عنه كلياً .

بديهي انني لم استنكف عن الحب . لكن يبدو لي من الصعوبة بمكان ان
أتصور انه قد يأتي زمن أحب فيه من جديد . فوهم الاصالة الذي ملأ ذلك
الماضي الذي بتّ أشعر بالخجل منه الآن ، اقول : جعلني هذا الوهم أحب
كورا . لكن بعد ذلك ؟ لقد بت مقتنعاً، بعد انهيار حبي لكورا ، بأنني
لن أعرف من وهم أبداً بعد اليوم . والحال ، يبدو لي انه من المستحيل ان
يحب المرء بـــلا وهم . صحيح ان التجربة قد علمتني ان أشك في ان تكون
قناعتي بألا أقع بعد الآن في الأوهام هي نفسها وهم ، وان كان وهماً مغـايراً
وجديداً . لكنني ما كنت أتوصل الى تخيل أي نوع من النساء يمكن ان
يحب الرجل عندما يكون قد أمسى بلا أوهام وبات لا يؤمن بشيء ويشعر
بأنه منجذب ، مثلي أنا ، نحو العدم. انها لن تكون اكثر من امرأة أحبها على
وجه التحديد لأنني ما عدت قادراً على الحب .

بيد انني كنت ما أزال دائباً على السفر من اجل صحيفتي ، وكنت أفعل
ذلك بهمة وانتظام ، مضيفاً ، كلما حال الحول ، حجرة جـــديدة الى بناء
لاإنتباهي . لقد سبق وبينت الطريقة التي كنت أسافر بها . ويبقى عليّ أن
أصف العلاقات التي قامت اثناء وجودي في روما بيني وبين ما كنت لا ازال
أعتبره عائلتي . واذا أردتم الايجاز فسأقول انني كنت كالنزيل . وهل النزيل

غير شخص لا يخص الناس الذين يقيم عندهم بأي انتباه ؟ إن النزيل يدخل ، يخرج ، ينام ، يأكل ، يعمل ، يحيا تحت سقف واحد مع أشخاص آخرين يتوصل على نحوٍ ما الى تجاهلهم . أو يبقى بالاحرى ، مع تجاهله اياهم ، واعياً لوجودهم على نحو مبهم بعيد وغير محسوس . واذا شئتم تشبيهاً آخر ، فسأقول ان لاانتباهي تجاه أسرتي كان يشبه بعض الشيء اللاحساسية التي تنتج عن التخدير . فعند التخدير لا يعود المرء يحس بشيء لكنه يحسّ في الوقت نفسه بأنه لا يحس بشيء ، وهذا بدوره نوع من الإحساس في الواقع . وهذا ما كان يحدث في منزلي . فأنا لم اكن أتجاهل كورا كما نتجاهل شخصاً لا وجود له بالنسبة الينا ، وانما كنت أتجاهلها كما قد نتجاهل شخصاً نعي وجوده باستمرار ونكون واعين بالتالي لتجاهلنا له . اذن فلم يكن لاانتباهي مجرد نقص في الانتباه ، وانما كان شعوراً بأن انتباهي معلق . كنت أشعر بأنني غير منتبه ، وكلما زاد شعوري بذلك ، ازددت لاإنتباهاً .

من المؤكد انه لو قيل لي في الماضي انني سأعيش في النهاية في بيتي كغريب مستأجر غرفة في شقة لدى أسرة معوزة ، لاحتججت بأن هذا مستحيل . وما اعظم مفاجأتي الآن إذ أتبين ان هذا ليس ممكناً فحسب ، بل ايضاً أسهل وأنسب ، بالنسبة إليّ على الأقل .

وعلى كلٍ كانت كورا تساعدني في هذا اللاإنتباه الذي كان يناسبها ، والحق يقال ، اكثر مما كان يزعجها . فمع مر السنين ، نما فيها حس عملي ، أصبح ، بالاضافة الى تكتم وتحفظ فائق العادة ، ان لم أقل بالاضافة الى موقف غامض ، أصبح إحدى صفاتها الرئيسية . وتحولت فتاة الماضي العامية الصموت والشهوانية الى ما يشبه امرأة أعمال تجد الوسيلة ، في أوقات الفراغ التي يتركها لها محل الخياطة ، لتكون ربة بيت ممتازة . وبغريزتها الواثقة من نفسها عرفت كيف ترسم حداً فاصلاً واضحاً دقيقاً بين العناية التي تدين لي بها بوصفها مؤجرتي ، وبين العناية التي كان ينبغي ان تبذلها كزوجة ، او بالأحرى زوجة سابقة قررت ألا تكون زوجة . ولما كنت انظر بالمنظار نفسه الى

علاقاتنا ، فقد سارت الأمور بيننا على أروع وجـه ، وبكمال ، ربما كان مبالغ فيه ، قد يبدو باعثـاً على القلق بالنسبة الى من ليس لديه أسباب سلوكي ذاتها .

كنت أسافر ثم ارجع الى روما لمدة شهر او شهرين ، لأعاود الرحيـل بعد ذلك. وقد بتّ أقيم في الحجرة الملاصقة لمدخل البيت، فأنام وأعمل فيها ، تاركاً باقي الشقة لكورا وابنتها. كنت أعلم انها تنامان في غرفتين منفصلتين، وأن بابا ، المسجلة في كلية الآداب بالجامعـة ، تشتغل في غرفتها الخاصة ، وانهما تتناولان طعام الغداء في غرفة الاستقبال حيث تخدمهما عاملة منزلية ، وتأكلان مساء في المطبخ حيث تعدّان طعامهما بنفسهما ، وأن مكتبي، حيث توجد كتبي وأوراقي ، مقفل ، وأنه ما من احد يدخل اليه ما خلا كورا التي كانت تذهب اليه من حين الى آخر لتنفض الغبار ولتتحقق من أن كل شيء مرتب كما ينبغي . كنت اعلم هذا كله، لكنني كنت اكتفي بأن أعلمه لا اكثر ، لأنني لم ادخل ، طوال عشر سنوات ، الى بقية غرف الشقة اكثر من بضع مرات تعدّ على أصابع اليد . صحيح انه كان يخامرني احياناً شعور غريب يصعب تحديده ، شعور بأنني استطيع ، اذا شئت ، أن أصبح الزوج والأب المثالي الذي أعلم انني ما كنته قط . فقد كان يكفيني ان أفتح احـد الابواب وأن أجلس على المائدة مع كورا وبابا لأجد نفسي من جديد وسط عائلتي. وكان هذا الشعور هو حلم الانتباه في أوج اللاإنتباه المطلق . وكنت أدرك ان هذا لن يتعدى ان يكون اكثر من حـلم . فأنا ، وان اكن قد أمسيت أعرف ما معنى اللاانتباه ، لم اتوصل بعد الى ان افهم ما يمكن ان يكونه الانتباه .

شيء واحد فقط بقي فيّ على حاله لم يتبدل بين كل هذه التغيرات التي طرأت : تعلقي بالادب ، وبوجـه خاص طموحي الى ان اكتب ذات يوم رواية . فمع مر السنين اصبحت الرواية بالنسبة إليّ شيئاً أهم بكثير من مجرد نوع أدبي . أصبحت طريقة في فهم الحيـاة . وبالفعل ، كنت أعرف انه

يستحيل عليّ ان أقيم على صعيد الواقع علاقة اصيلة مع نفسي ومع الآخرين ، وكنت مقتنعاً بأن الرواية تقدم الإطار الوحيد الذي ليست فيه الاصالة ممكنة فحسب ، بل محتمة ايضاً ، اذا جاز القول ، ان كانت هذه الرواية رواية حقاً . وغالباً ما كنت اتساءل : كيف امكن والحالة هذه ، ان تتكشف لي روايتي عن مثل تلك اللاأصالة بمجرد أن انتهيت من كتابتها ؟ وعلى وجه التحديد تلك اللاأصالة المميزة للعمل ، اي التي لا تكمن في الكلمات وانما في طبيعة الأحداث بالذات التي ترمز اليها هذه الكلمات ؟

ولقد كنت ادرك ان الجواب على هذا السؤال يكمن في الرواية نفسها ، او بالأحرى في الأشياء التي حاولت ان أسردها . ولكم مرة عدت بفكري الى كتابي ، وحللت مظاهره كافة الواحد تلو الآخر ، منقباً بعناد محموم عن الصدع الخفي الذي كان السبب في انهيار البناء كله . ولقد كان في وسعي ، بالطبع ، أن أحل المشكلة بأسرع وأبسط طريقة بإقراري بأن الدافع الوحيد لفاجعتي ، بعد أن قلت كل شيء ، قد يُفسر بأنني لم اكن روائياً . لكن على وجه التحديد لأنني كنت ما أزال أتعلل بأمل تمكّني ذات يوم من كتابة رواية ، اي بأمل الوصول الى الأصالة الوحيدة التي أشعر بأنني قادر عليها ، كان ذلك الجواب هو الجواب الوحيد الذي لا أجرؤ على الإقرار به . وذلك انني ما كنت أطمح الى كتابة رواية هي آية الآيات ، وانما كنت اطمح فقط الى التعبير عن نفسي بأصالة بالوسائل والموهبة التي أملكها. وكان تواضع هذا الطموح وشرعيته يدخلان في قناعتي أن عليّ أن افتش عن سبب انهيار محاولتي الروائية في الأشياء التي جهدت لسردها وليس في خبايا نفسي .

وفي النهاية خيل إليّ انني ألمح هذا السبب . فلقد حاولت أن اروي قصة علاقاتي مع كورا منذ لقائنا الاول حتى زواجنا. ولقد كانت هذه القصة تاريخاً أي سلسلة من أحداث لا تنتمي الى ميدان الحياة اليومية ولا تدخل في عداد الأشياء التي يمكن ان تحدث لأي كان ، في اي زمن كان . كانت عبارة

عن دراما ، اي تركيب لأعمال شتى صادرة عن شخصيات شتى . والحال انه ههنا تكمن عقدة المسألة : فلأصالة الرواية تتأتى من أن فيها أعمالاً ، أفعالاً . ولقد تبينت ، بالفعل ، انه يستحيل في واقع الحياة — بالنسبة إليّ على الأقل — ان يعمل المرء بأصالة . وكانت نتيجة ذلك ان اللاأصالة قد انتقلت ، كما ينتقل السم الفتاك الممتزج بالتراب الى ألياف الشجرة الباطنة من خلال الجذور ، أقول كانت النتيجة ان انتقلت اللاأصالة من الاشياء التي حاولت تصويرها الى الكلمات التي استخدمتها لتصويرها .

ان مختلف هذه الافكار لم تتكون وتنبجس في فكري بنفس الصحو والوضوح اللذين أعرضها بهما الآن . وانما كانت على العكس ثمرة تأمل طويل ، دامس ، غريزي ان جاز التعبير ، نضج ببطء خلال سنوات عديدة من رحلاتي المهنية . فقد كنت أسافر ، وأرجع الى روما ، ثم أعاود الرحيل ، ومن حين الى آخر كنت أفكر بروايتي ، متابعاً التأمل من نفس النقطة التي تركته فيها قبل شهر او ربما شهرين . وفي النهاية أخذ هذا التأمل الأدبي شكل مشروع في منتهى البساطة يمكن تلخيصه على النحو التالي : « لقد أخفقتَ في كتابة روايتك من حيث انها قصة ، مغامرة لها بداية وتطور ونهاية ، وبكلمة واحدة من حيث انها دراما . حاول اذن أن ترى ما اذا كنت ستنجح في رواية بلا قصة ، بلا مغامرة ، بلا دراما . رواية لا يحدث فيها شيء . ما هو نقيض العمل الدراماتيكي ؟ ان نقيض العمل الدراماتيكي هو الشيء اليومي ، سياق الحياة كل يوم بيومه . لقد أردت ، في روايتك الاولى ، ان تروي دراما وتركت اليومي جانباً . وعليك الآن ان تحاول كتابة اليومي متحاشياً بعناية الدراما . والأصالة التي لا يستطيع العمل إلا ان يضنّ بها عليك ، ستفوز بها في تصوير ينفي كل أنواع العمل » .

وكنت أفكر احياناً ، وقد وصلت الى هذه النقطة في تأملاتي ، بأنها نادرة بعد كل شيء الأحداثُ الدراماتيكية التي تحدث في حياة الانسان ، وبأن الهيمنة في هذه الحياة انما هي لليومي ، لروتين الأيام . وكم هناك مقابل

كل قصة ، كل مغامرة ، كل دراما لها بداية وخاتمـــة وليس لها بالطبع غير ديمومة محدودة للغاية ، أقول كم هناك من سنوات طويلة مليئة بمـا هو يومي ورتيب ، لا يعمل فيها المرء عملاً يذكر ، سنوات طويلة يتحرك فيها الانسان من غير ان يتحرك فعلاً اذا صح التعبير ، وتنساب فيها الحياة عديمـة الشكل والطعم ، بلا رأس او ذنب ، ولا يحدث فيها شيء لا يمكن ان يحدث لأي انسان آخر ، في اي لحظة كانت . كنت افكر بحياتي واستعرض على وجـه الخصوص مراحل السياق اليومي الرتيب التى عشتها في روما اثناء نزولي بها بين سفرتين . وكما قلت سابقاً ، لم يكن يحدث شيء خلال إقامتي هـــذه يخرج عن إطار الحياة اليومية . وبالفعل كان هدفي الوحيد من فترات إقامتي في روما هو كتابة مقالاتي ثم معاودة الرحيل بأسرع ما يمكن .

وهكذا قررت ان أقوم بنوع من تجربة . فاسوف أحرر من الآنفصاعداً يومياتي اثناء فترات إقامتي القصيرة في روما . يوميات شهرين من حيـاتي . ثم سأحاول انأستخلص ، من هذه اليوميات ، رواية ان جاز التعبـير ، اي قصة موضوعية مكتوبة بضمير الغائب وفي الزمن الماضي .

فبعد رواية اللاأصالة المميزة للعمل ، ستكون رواية الأصالة المميزة لمـــا هو يومي .

ثم تساءلت عمّا اذا كنت سأروي الوقائع في يومياتي بامانة مطلقـة ، أم أنني ساضيف اليها ، على العكس ، وكلما تقدمت في سردها ، ما قـد يبدو لي مفيداً للرواية التي أزمع استخلاصها منها . ولقـــد حزمت أمري ووقع اختياري على الطريقة الثانية . والواقع انه يستحيل ، حتى في اليوميات التي تكتب كل يوم بيومه ، التقيد بالأمانة المطلقة . فصحيح ان اليومياتالذاتية لا تستطيع ان تروي إلا الاشياء التي انتبه لها مؤلفهـا . لكن من الصحيح ايضاً ان الكاتب يقوم بنخل الاشياء التى انتبه لها ، فيغضّ النظر عن بعضها، وينوه ببعضها الآخر ، وهذا تبعاً لمعياره الخاص الذي يمليه عليه الهدف الذي

ينشده . والحال ان هدفي ، كما ذكرت ، هو استخلاص رواية من يومياتي . فكان من الطبيعي اذن لا أن أختـــار بين المواد التي ستطرح على ملاحظتي كل يوم بيومه فحسب ، بل ايضاً ان اكمل هذه المواد وأطورها في كل مرة أجد فيها ضرورة لذلك ، بنفس الطريقة التي يعيد بها علماء المستحاثات بناء الهيكل العظمي الكامل لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ انطلاقــاً من عظمة واحدة . وعلى كل ، وعلى فرض انني تخلفت عن إعادة بناء الواقــع هذه ، فسيتوجب عليّ أن أقوم بها عندما سأقدم على تاليف الروايــة . وعلى هذا فإنني لن اكون قد فعلت من شيء سوى انني استبقتها جزئياً في وقت تكون فيه انطباعاتي ما تزال حارة حيـــة . وعلى كل ، وحتى لا أخلق لبساً بين الاشياء التي حدثت فعلاً والأشياء التي أعدت بناءها ، فقد أخذت على عاتقي ان أشير بشكل من الاشكال في يومياتي الى الاماكن التي تكون فيها مخيلتي قد حلت محل الملاحظة المباشرة .

كنت في ايران عندما قررت كتابة يومياتي . وقد كانت رحلتي قصيرة لم تتجاوز الزمن اللازم لإجراء تحقيق عن مسألة النفط الايراني . وكنت قــد حسبت انه لن يكون عليّ أن اكتب اكثر من خمس صفحات ، ثم يمسي وقتي كله شاغراً ليومياتي . وعلى طريق العودة من عبــدان توقفت لزيارة آثار مدينة فارس . ثم ركبت من طهران طـائرة أعادتني في بضع ساعات الى ايطاليا . واليوميات الذاتية ستبدأ على وجه التحديدمع عودتي الى روما .

يوميات

الثلاثاء ١٣ تشرين الاول

تتم عوداتي الى روما بالصورة ذاتها دوماً : فأنا لا أخطر احداً بوصولي ، وأنسلّ الى بيتي خلسة كاللص ، وأشرع على الفور ، من غير ان أهتم بمعرفة ما اذا كانت كورا وابنتها في الشقة ، بفعل نفس الاشياء التي افعلها اثناء أسفاري عندما أصل الى الفندق في مدينة أجنبية : أفض حقائبي ، أخلع ثيابي ، آخذ حمّاماً ، أرتدي ملابسي من جديد ، ثم أجري بعض المكالمات الهاتفية . والفارق الوحيد هو انني ، في روما ، في بيتي . اي انني اكون واعياً باستمرار ، ولو على نحو مبهم وغير محسوس ، لتلك الحالة النفسية الخاصة التي سميتها باللاانتباه والتي تسمح لي بأن أعيش بين عائلتي كما لو في الفندق .

بعد ان أرتدي ثيابي ، أجلس عادة امام مكتبي وأفحص البريد الذي وصل اثناء غيابي . وتكون كورا ، بوصفها مدبرة بيت مجدّة ومنظمة ، قد وضعت البريد على مكتبي مرتّبة اياه في عدة مجموعات: مجموعة للرسائل المسجلة والمستعجلة والبرقيات ، ومجموعة للرسائل المرسلة بالبريد العادي ، ومجموعة للمغلفات المفتوحة المشتملة على دعوات وبطاقات إعلانية وبطاقات نعي او زواج ، الخ ..

وهذا ما فعلته اليوم . فقد فتحت حقائبي ، وخلعت ثيابي ، وأخذت حمّاماً، وتجففت، ثم جلست الى مكتبي ، بعد ان عدت الى غرفتي وارتديت ملابسي من جديد ، وشرعت بفضّ البريد .

كانت الرسالة مُرسلة بالبريد المستعجل. وكانت ثالث رسالة فضضتها. كان المغلف من غط عادي تماماً ، من النمط المسمى بالتجاري والذي يباع في أكشاك التبغ . وكان يحتوي على صفحة واحدة من ورق الآلة الكاتبة مطوية رباعياً. وكانت الرسالة مضروبة على الوجهين وغير موقعة . قرأتها ومكثت ملياً بلا حراك ، وصفحة الورق بين أصابعي ، ونظري شاخص في الفراغ. ثم أعدت قراءة الرسالة . كانت مكتوبة بلغة سليمة ، بل بشيء من الأناقة اللفظية المتكلفة . وكان يمكن الافتراض انها قد كتبت من قبل بيروقراطي او مدرس ، بله صحفي مثلي . لكن هذه الرسالة كانت سوقية الى حد كريه ، مبتذلة ابتذالاً خشناً ومرائياً . كما لو انها من تأليف شخص أطلق العنان ، تحت ستار الاخلاقية ، لنزعة دنيئة موحلة مكبوتة منذ عهد طويل .

وقد لاحظت ايضاً أسلوب الرسالة الخاص : ففي البداية اكثر المجهول ، الذي قدّم نفسه إلي على انه أحد قرائي ، من بذل الاطراء لي ، إطراء مبالغ فيه وكثير الإلحاح الى درجة الاستهزاء . لكن على ظهر الصفحة ، في أربعة او خمسة أسطر سافلة وعديمة الشفقة ، كان ينفجر الاتهام بعنف انتهاك الحرمات . وكان الوقع الذي يريد المجهول ان يحدثه واضحاً : ان ينال اولاً الثقة والاستسلام لغرور العجب بالتدريج، ثم يصل ، على حين غرة، بكشفه المفاجيء عن الحقيقة الوحشية الساخرة المرّة ، الى تبديد فظ لشعور الارتياح الاولي .

أعدت قراءة الرسالة للمرة الثالثة، وشعرت بغتة بالدم يتدفق من وجهي. كان الوقار الكاذب الذي صيغ به الاطراء في مطلع الرسالة ، ثم الابتذال المتحرر من كل قيد او حرمة في كشف الفضيحة ، كان بالنسبة إلي ، من غير ان ادري السبب بالأصل ، الدليل على ان هذه الرسالة تقول الحقيقة . واذا كان يمكنني ان أعيد ، انطلاقاً من بضعة سطور ، بناء الشخصية التي كتبتها ، فسأقول إن المجهول كان شخصاً ذا طابع جاد، مدقق، بل مفرط في التدقيق. ان شخصاً كهذا لا يخترع شيئاً من بنات خياله . ولا يتقدم خطوة الى الامام

إلا اذا شعر بالارض متينة تحت قدميه . ولن أحجم عن القول بأنه خيل إلي انني اراه ، ذلك الشخص المغفل الاسم ، جالساً امام طاولته في مكتب يعجّ بالكتب ، يضرب الرسالة على الآلة الكاتبة ، ثم يعيد قراءتها ، ويضعها في مغلف ، ويلصق الطوابع عليها . وإني لأتساءل لمَ تصورته مديد القامة ، نحيفاً ، متوسط العمر ، ذا وجه متطاول حزين صفراوي ، وأنف رقيق ، وشفتين مزموتين ، وعلى عينيه نظارات . رجل مثقف ، رجل دارس ، رجل يطالع خيرة الكتب .

واخيراً نفضت عني هذه الخيالات . ووضعت الرسالة في جيبي وخرجت من الغرفة . والغريب في الأمر انه لم يخطر لي ان أصفي كل هذه القصة بهزة من كتفي وبالتفكير : « انه شأنها ، بعد كل شيء ، وليس شأني » ، ولا بمشروع مصوغ باللهجة نفسها : « سأغادر فوراً البيت ، وسأقيم في الفندق لمدة شهر او شهرين لأكتب فيه مقالاتي ، ثم أرحل من جديد .. وستبقى الأمور عند هذا الحد » . كلا ، فقد ولدت ، من الالتزام الذي أخذته على عاتقي بكتابة يومياتي لاستخلاص رواية ، ولدت على نحو مثير للفضول وغير متوقع فكرةُ انني لن استطيع بعد الآن ان أتصرف ، كما في الماضي ، كنزيل ، وقد صممت على الانتقال من اللاانتباه الى الانتباه . وما عاد في وسعي ان أعود الى اللاانتباه ، لمجرد انني تلقيت رسالة مغفلة .

لقد تعرفت في الممر الذي بين الغرف ، كما لو انني أراه للمرة الاولى ، أسلوب عام ١٨٠٠ المتناظر الممل الذي خيل إلي أن من واجبي تبنّيه عندما أثثت شقتي : الستائر بخطوطها العمودية الواسعة التي تحجب النافذتين المطلتين على الباحة ، الطاولات الثلاث التي من طراز الامبراطورية والتي تعلوها مرايا ، النقوش الاربعة المؤطرة بخشب داكن اللون والمعلقة على الجدران بين النافذتين. ولقد انتبهت الى انني انظر الى هذه الاشياء المعروفة مني تمام المعرفة بعينين جديدتين . لمَ فرشت هذه الشقة بمثل هذه الطريقة التقليدية ؟ أظن انني ادرك ذلك الآن : فقد دفعتني بلا ريب صبوة لاشعورية الى نظام ما ، ولو

كان النظام البورجوازي ، نظام حقير دال زمانه ، بشرط ان يحجب عني فوضى حياتي التي كنت ما أزال أجهلها . وكان المشى ، الذي يدور حول الباحة ، منعطفاً على شكل زاوية قائمة . وبعد هذه الزاوية كان الباب الأخير ، في صدر البيت ، باب غرفتنا ، غرفتي وغرفة كور عندما كنا نرقد معاً . واتجهت نحو هذه الغرفة .

انني لأتذكر بصدد هذه الغرفة انها كانت أنأى غرف الشقة واكثرها سكوناً وأقلها ضياء ، لأنها لم تكن تطل على الشارع وانما على الباحة من خلال نافذة صغيرة واحدة محفورة تحت إفريز الراجع الواسع البارز . وتجلى لي على حين غرة الطابع الخاص لهذه الغرفة ، ذلك الطابع الذي غاب عن انظاري حتى الآن : اكثر سرية وأشد عتمة مما كان يجب ان تكون غرفة النوم ، فلكأنها بلا ريب نوع من ملجأ ، من وكر لكورا . وقرعت الباب ، ولم يجبني أحد ، فأدرت القبضة ودلفت .

كانت الغرفة فارغة ، وتصاعدت ، من الظلمة ، رائحة واخزة باردة خدشت خياشيمي ، رائحة دهان ، مكان مغلق ، غسيل وسخ ، ادراج مملوءة بحلي اصطناعية قديمة ، دخان سجائر ، نوم . وبحثت عن مفتاح الضوء بجانب الباب فما وجدته . فخطوت عندئذ بضع خطوات وأنا أتحسس طريقي تحسساً فوق السجادة السميكة . ودرت حول السرير الكبير الذي يتسع لشخصين حتى وصلت الى النافذة ، وسحبت حبل الستارة . وبتؤدة ، وكما لو بالإكراه ، انتشر ضوء خافت هادىء في الحجرة من خلال الستائر .

لمَ دخلت الى الغرفة ما دامت كورا ليست فيها ؟ لقد فهمت ، فأنا جالس على السرير أجيل الطرف فيما حولي ، بسبب هذا الفضول شبه الآلي .

بالفعل ، وبعكس سائر غرف الشقة التي حافظت فيها كورا طوال سنوات على الترتيب الأصلي ، بورع جدير بمحافظ متحف من المتاحف ، من غير ان تمس او تغير فيها شيئاً ، ولو حتى أصغر الصمديات ، أقول بعكس

سائر الغرف تركت كورا في هذه الغرفة – ربما لأنها تعيش فيهـا – طابعها وميسمها . صحيح انني تعرفت قطع الأثاث الباردة والبسيطة التي من الطراز الامبراطوري والتي اشتريتها بنفسي : سرير الجوز بأعمدته ذات التيجان البرونزية المذهبة ، والخزانة المدرجة بسطحها الرخامي الابيض ، والمقاعـد بمساندها التي على شكل قيثارة . لكن كما ان بعض الكنائس المبنية في عصر زاهر تتشوه تشوهاً كاملاً بفعل وخرافات ورسوم دين يؤمن بباطل الخرافات ، كذلك بدت لي برودة هذا الأثاث وصلابته النيوكلاسيكية وكأنهما تنوءان ، ترزحان تحت وطأة حشد رابل من صمديات وآنيـة معدنية هجينة تبعث في الانسان بلبلة صميمية .

فحول رأس السرير ، الذي كنت جالساً عليه ، عُلقت كمية من حيوانات مصنوعة من القماش ومنسوخة عن حيوانات الرسوم المتحركة . هرر ، جرذان ، ذئاب ، أرانب ، أسود ، ثعالب ، زرافات ، أفيال ، الخ .. وكانت معلقة بكلاليب او بأشرطة ملونة ، وتمس خشب السرير . وهكذا كان في وسع كورا ، عندما ترقد بعد أتعاب يومها ، ان تتصور ان جميع هذه الحيوانات بوجوهها التي تشبه على نحو ماكر مراوغ وجوه بني آدم تدب وتخب طوال الليل في رقصة عنيفة غريبة ساكنة حول رأسها . ولم يكن غطاء السرير هو نفس الغطاء القديم الكابي والداكن اللون ، وانما كان من حرير منجّد ، لمـاع ومتقلب اللون ذو وميض أزرق وأخضر وبنفسجي. وكانت ثمة دمية متنكرة في إهاب سيدة من القرن الثامن عشر ، لها شعر مستعار من الشاش الابيض ، ووجهها مدهون بالمساحيق ومنقط بالخيلان ، وتنورتهـا على شكل سلة ، وصدرها عار . كانت جالسة في رأس السرير مفتوحة الذراعين ، منفرجـة الساقين . وكانت دمية اخرى ، اسبانية الزي ، تستند في الوضع نفسه ، الى مؤخرة السرير . ونهضت واقتربت من الخزانة المدرجة . كان سطحها الرخامي الابيض مغطى بكل ما في الكلمة من معنى بلعب أطفـال وترهات وجدتني أنحني فوقها بفضول : علب سكاكر مشبكة او بلورية ، من نوع علب ملبس

الأعراس ، علب موسيقية من سورينت ، آنيـة صغيرة من الحجر اللبني او من الزجاج الملون ، تماثيل صغيرة من البورسلين تمثل مشاهد غزلية ، أباريق وكؤوس صغيرة وفناجين وأدوات مائدة صغيرة مخصصة للدمى ، كرات بلورية في داخلها زهرة ، ثالوث او كاتدرائية القديس بطرس ، نفاضات من مختلف الاشكال ، لفائف ذات دبابيس من المخمل الاحمر او الأزرق ، قوارير عطر او سوائل صغيرة ، اطفال من السيلولوئيد ، الخ . ووسط هذا الحشد الغريب ، وكما تُعلق على المذبح صور القديسين الشفعاء بين الشموع وأصص الزهور ، شاهدت بعض صور مؤطرة ، مرتّبة على شكل دائري ، لبابا ولي ولكورا ولفتاة او فتاتين لهما وجه محبب لم يسبق لي ان عرفتهما .

استدرت ، وأسندت ظهري الى الخزانة المدرجة ، وتفرست في الغرفـة من جديد . كان هناك ، بجانب السرير ، على الطاولة الصغيرة ، مصباح صغير له عاكس نور من الحرير الارجواني ، ونفاضة من الزجاج الاحمر مليئة بأعقاب السجاير الملطخة بأحمر الشفاه . وعلى طـــاولة السرير الاخرى ، في الجانب من السرير ، كمية من علب وقناني الأدوية مرتبة بعناية . واقتربت : كان هناك مخدرات ، وفيتامينات ، ومقويات ، ومسكنات ، وكان بين هـــذه الأدوية المتنوعة صحن غير متوقع مليء ببطاقات سجلت عليها أرقام هواتف. ورفعت أنظاري : لقد علـّقت كورا ، فوق حشد الحيوانات القماشية المحوم فوق رأس السرير ، وفي المكان الذي تحتله عادة صورة تقية ، علقت رسماً من تلك الرسوم الزيتية التي تباع في الصالات التجارية ، يمثل ، على طريقة المدرسة الطبيعية ، ثلاث نساء عاريات يستحممن في النهر على خلفيـــة من الأشجار والشجيرات المزهرة .

ومكثت مدة طويلة من الزمن ساكناً بلا حراك ، من غـــير ان أفكر بشيء ، كأنني لا أحرص على ان افهم ما تعنيه هذه الغرفة بقدر ما أحرص على الاندماج بها عن طريق التأمل المسحور المفتون بكل الاشياء الغريبة التي تعج بها . ثم أخذ الهاتف يرن على طاولة السرير الصغـيرة بجرْس مسارر ،

ملتبس ، صمم ، ملحّ ومتحفظ ، كصوت لا يريد ان يُسمع إلا من قبل الشخص الذي يتوجه اليه . وانتظرت ان ينقطع الرنين ، ثم خرجت مطبقاً الباب ورائي .

كنت قد أزمعت العودة الى غرفتي ، لكنني عندما أصبحت في المشى سمعت موسيقى صادرة عن جهاز راديو خلف احد الأبواب ، فذكرتني بأن في الشقة ، علاوة على كورا ، ابنتها بابا . وبعد لحظة من التردد طرقت الباب .

لست ادري اي موجة من السخط والغيظ أثارها فيّ الاطمئنان المدروس والمعجب بنفسه للصوت الذي هتف بي ان أدخل ، كما لو انني وجدت فيه تكلفاً لا طائل تحته ، مشكوكاً في ذوقه . وأدرت القبضة ودلفت . كانت الغرفة ، بعكس غرفة كورا ، عالية السقف ، بيضاء ، مضيئة ، لها أرضية خشبية مشمعة بإتقان وغير مغطاة بسجادة وكان جدار كامل تحتله خزانة كبيرة ذات مصاريع موشحة بزخرفات من الزهور وأوراق الاشجار المدهونة بألوان فاتحة . وكان الأثاث كله عبارة عن ديوان – سرير في احدى الزوايا ومكتب في زاوية أخرى . وكان الضوء الفج والبارد الذي يدخل من النوافذ العارية من الستائر يضفي سيماء من الترتيب والنظافة على هذه الغرفة شبه العارية ، فلكأن الخادم غادرتها لتوها بعد ان فتحت النوافذ ونفضت الغبار بعناية عن كل شيء . وكانت بابا ، الجالسة جانبياً امام مكتبها ، تنظر إليّ من فوق كتفها بفضول مصطنع شبه علمي من خلال نظارتيها الصدفيتين الغليظتين . وكان على المكتب كتب ودفاتر وجهاز الراديو المتنقل الذي سمعت موسيقاه وأنا أعبر المشى .

توقفت عند العتبة وقلت بحرج :

– اعذريني إذ دخلت على هذا النحو ، يا بابا . أنا فرانشيسكو ، زوج والدتك .

فلم تحر جواباً ، ولبثت بلا حراك ملتفتة نحوي . فألححت :

– لعلك لم تتعرفيني ؟

فلم تخرج عن صمتها. فعبرت عندئذ الغرفة بخطى قصيرة مترددة ، وكأنني أسير على سطح زلج ، وذهبت حتى مكتب بابا . كانت ما تزال تحــدق إلي في صمت . فاستفدت من ذلك لأنظر اليها بدوري . كان جبينهــا يختفي وراء خصلة من شعرها ، وكان لهــا أنف قصير ، مشدود ومستقيم واسع المنخرين بعض الشيء ، وفم مرسوم بشيء من الجفـــاء لكن بجموح وكأنه قـُدّ من خشب صلب الى حد غير مألوف ، يعلوه ، عند نقاط اتصال الشفتين، غضنان رفيعان وعميقان . ثم رفعت نظارتيها ورأيت عينيها : عينين واسعتين جداً، خضراوين شفافتين بلون البحر ، لها نظرة خاصة ، ثابتة مبلبلة ، تتميز بهــا عادة العيون الحاسرة . وأخــيراً قالت ببرود مقصود شعرت بأنه مدروس اكثر منه ساخراً :

– أجل ، انت فرانشيسكو ، لا تخف ، لقــد عرفتك . اجلس ، يا فرانشيسكو ، وقل لي ...

في هذه اللحظة جاءتني فكرة كان ينبغي ان تخطر لي من اللحظة الأولى: ربما لم يكن لي الحق في محادثة بابا عن الرسالة المغفــلة . وجلست بنوع من الحرج وبدأت اقول بحذر :

– الحق أني كنت أبحث عن كورا لأن لدي شيئاً أريد سؤالها عنه لكن كورا ليست هنا . وعنــدما كنت أعبر الممشى ، سمعت موسيقى الراديو فدخلت .

– لقد أحسنت فعلا .

– لعلني أزعجتك ؟

– إطلاقاً .

– أكنت تعملين ؟

- لا تأبه لي . الخلاصة انك دخلت لتقول لي ما كنت تريد قوله لكورا .

كانت لهجتها ، من فرط برودها الذي يقارب الوقاحة ، تثير الغيظ فعلاً. وأجبت بعنف او ما يشبه العنف ، ناسياً فجأة حرصي على الحذر :

- أجل .

- وما الأمر ؟

- الاستعلام عن موضوع ، اذا صح التعبير ؟

- اي موضوع ؟

- وصلت لتوّي من ايران . فألفيت في بريدي هذه الرسالة .

- أتريد ان أقرأها ؟

- أجل .

فتناولت الرسالة ، ووضعت نظارتيها على عينيها من جديد ، وسحبت الورقة من المغلف ، وبسطتها ، وقرأت الوجه الاول ثم الثاني ، ثم أعادت الرسالة إلي . وهذا كله من غير ان تبدي أي تفاجؤ أو إحساس ، وانما بسحنة متناومة ، مرائية ، لكن ذكية . ثم رفعت نظارتيها ، وحدقت فيّ ملياً ، وقالت اخيراً :

- أتريد ان تعرف ما اذا كان هذا صحيحاً ؟

- بالضبط .

- على رسلك ! أجل ، انه صحيح .

ومكثت صامتاً لحظة من الزمن ، لا أدري ما يجب ان اقول ، ثم سألت ببلاهة :

- هذا صحيح ؟ وانت تقولين ذلك بهذه الطريقة ؟

- أي طريقة ؟

- هادئة ، مطمئنة .

- كيف كان ينبغي ان أقوله ؟.. معولة ، باكية ؟

- كلا .. ولكن ، بعد كل شيء ..

– بعد كل شيء ، ماذا ؟
– كورا هي أمك ، على كل حال .
– اجل ، انها أمي .
– إذن ..
– إذن ؟
– لكن بصراحة ، أهذا صحيح ؟
– قلت لك أن نعم .
– كيف أمكنك أن تعرفيه ؟ منذ متى وانت تعرفينه ؟
– منذ عهد بعيد .
– ماذا تقصدين بـ : منذ عهد بعيد ؟
– ست سنوات ، على الأقل .
– ست سنوات ؟
– اجل ، ست سنوات .
– لكن كيف امكنك ان تعلمي بالأمر ؟
– بصورة مباشرة تماماً .
– ماذا تعنين بمباشرة ؟
– مباشرة تعني مباشرة .
– ألمكنك ان تري شيئاً ما ؟
– أشياء كثيرة ..
– مثل ماذا ، على سبيل المثال ؟
– لكن ، لمَ انت مهتم الى هذا الحد بمعرفة ذلك ؟
– اعذريني ، لكن هذا كله يعنيني بعد كل شيء .
– بمَ يعنيك ؟
– كورا زوجتي ، وانت ابنة زوجتي ، وهذا البيت بيتي .
– أأنت واثق من ذلك ؟
– ممَ أنا واثق ؟
– من ان كورا زوجتك ، ومن انني ابنة زوجتك ، ومن ان هذا البيت بيتك ؟

– انني واثق من ذلك بقدر ما يمكن للانسان أن يثق من شيء ما .
– حسناً ، في هذه الحالة يخيل إلي انني استطيع ان أخبرك .
– إذن ؟
– هاك : منذ ستة أعوام ، قادتني كورا الى ذلك المنزل
– اي منزل ؟
– المنزل الذي تتحدث عنه الرسالة التي أريتني اياها .
– قادتك اليه ؟
– أجل .
– ولكي تفعلي فيه أي شيء ؟
– لأفعل فيه ما يُفعل عادة في هذا النوع من المنازل .
– عفواً ، لم أفهم جيداً : كورا اخذتك الى هذا المنزل ، كي ..
– كي تضعني تحت تصرف زبائنها .
– وانت تركتها تأخذك ؟
– نعم .
– من غير ان تحتجّي ؟
– ماذا كان في وسعي ان أفعل ؟ كنت في الرابعة عشرة .
– هذا صحيح ، كنت في الرابعة عشرة ، ولكن ..
– لكن ، ماذا ؟
– لا شيء .. لا أهمية لذلك . اسكتي لحظة ، دعيني أفكر .
– على رسلك ! افعل كما تشاء ، فكر ..
– حسناً .. لقد انتهيت . قولي لي ، ماذا حدث فعلاً في ذلك الظرف ؟
فنظرت إلي هنيهة من الزمن بصمت ، ثم قالت :
– قبل كل شيء ، ينبغي ان اقول لك انني لا أعرف شيئاً او لا أعرف شيئاً تقريباً مما حدث .

ـ لا تعرفـين شيئاً ؟ كيف ؟ لقد حدث الأمر لك ومنذ مدة ليست بالطويلة ، أليس كذلك ؟

ـ لم يحدث الأمر لي ..

ـ ماذا تعنين ؟ ألست انت التي أخذتها كورا الى هذا المنزل ؟

ـ كلا ، لم اكن أنا .

ـ لكن من كانت إذن ؟

ـ بابا اخرى .

ـ بابا اخرى ؟

ـ أجل ، واحدة اخرى لا علاقة لي بها .

ـ آه ! بابا اخرى ؟ انني أفهم ..

ـ كلا ، انت لا تفهم شيئاً .

ـ لا افهم ؟

ـ لا تستطيع ان تفهم . والأجدر ان أشرح لك ، وبعدها ستفهم .

ـ حسناً ! اشرحي .

فأخذت الى الصمت لحظة ، ثم قالت بتمالم وسكينة وكأنها معلمة تلقن تلميذها :

ـ ان بابا الرابعة عشرة التي اخذتها كورا بيدها الى بيتها هي بابا اخرى غير التي تقف أمامك ، وبابا التي تقف أمامك لم تعد بابا التي اجتازت ، منذ عامين ، امتحان الإجازة الجامعية . أتفهمني الآن ؟

ـ ربما ..

ـ لنفترض ان حياتي مؤلفة من مقصورات محكمة الإغلاق . ففي كل مقصورة بابا مختلفة ، وجميع هؤلاء الباباوات لا يتصلن فيما بينهن ، ولا يتشابهن ، ولسن مسؤولات عن بعضهن بعضاً . أتفهمني الآن ؟

ـ هذا مريح للغاية !

ـ لمَ هو مريح ؟

– لقد قلت انت ذلك : فبابا هذه غير مسؤولة عن بابا تلك ، وهكذا يمكن ان يحدث كل شيء .

فلبثت متفكرة برهة من الزمن ثم أجابت :

– أجل ، لكن هذا مريح بوجه خاص بالنسبة الى الآخرين .

– أي آخرين ؟

– كورا ، على سبيل المثال . لقد فعلت ما فعلته ، لكني لا استطيع أن ألومها عليه ، لأن ما فعلته لم تفعله بي وانما ببابا اخرى .

– فهمت . والآن قولي لي ما حدث في ذلك اليوم .

– انها بابا الاخرى التي تعرفه !

– وانت ، ألا تستطيعين إخباري به ؟

– بلى استطيع ، اذا كنت تصرّ على ذلك .

– لنفترض انني أصرّ عليه .

– على رسلك ! لم يحدث شيء .

– كيف : لا شيء ؟

– كما اقول لك : لا شيء .

– من المستحيل ألا يكون قد حدث شيء .

– ومع ذلك ، هذا ما حدث : لا شيء .

– لكن لا بد انك رأيته ، ذلك الرجل الاول ، فمن كان ؟

– بابا لا تعرف من كان .

– ولماذا ؟

– لأنها لم تره .

– لم تره ؟

– كلا .

– تعنين ان بابا وذلك الرجل قد التقيا في العتمة ، من غير ان يرى احدهما الآخر ؟

– كلا ، انهما لم يلتقيا البتة .

– ومعنى ذلك ؟

– معناه ان ذلك الرجل لم يأتِ .

– لم يأتِ ؟

– او بالأحرى ..

– بالأحرى ؟

– او بالاحرى أتى ، لكنه لم يظهر نفسه .

– ماذا تعنين ؟

– أعني ما قلته .

– أي ؟

– كورا أخذت بابا الى الشقة وتركتها وحدها في احدى الغرف بعد ان أخطرتها بأن شخصاً ما سيأتي . لكن هذا الشخص لم يأتِ ، او ، اذا كان قد أتى ، رحل من غير ان يظهر نفسه . وهكذا عادت كورا ببابا الى البيت من غير ان يحدث شيء ، في تلك المرة .

– فهمت . وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك ؟

– بعد ذلك ، اتكهن بأن كورا أخذت من جديد بابا الى هذا المنزل ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– كانت كورا إذن شديدة الحرص على ان تتردد بابا على هذا المنزل ؟

– أجل ، على ما يبدو .

– ألا تعتقدين انه كان يمكنها ان تكتفي بتلك المرة الأولى وان تعدل عن مشروعها ؟

– لماذا ؟

– لأن الرجل لم يأت ولم يظهر نفسه ، كان هذا تحذيراً ، كما يقال ، تحذيراً يقترح ، يفرض عدم الإلحاح .

– كان ذلك بالنسبة الى كورا ، شيئاً آخر .
– ماذا كان ؟
– فشلاً .
– كيف ؟
– لقد أرادت ان تفعل شيئاً ما تبعاً لخطة معينة وافكار معينة . لكن لم تنجح العملية .
– ومعنى ذلك ؟
– معناه انه كان يجب معاودة الشيء طالما كان ذلك ضرورياً .
– ضرورياً لأي سبب ؟
– حتى ينجح الشيء في النهاية .
– ولهذا قادت كورا بابا مرة ثانية الى المنزل .
– أجل .
– وماذا حدث في تلك المرة الثانية ؟
– لا شيء تقريباً .
– لمَ : لا شيء تقريباً ؟
– لأن بابا على ما يبدو لم تكن مفصّلة لهذا النوع من المهن .
– مفصّلة ؟
– أجل : قابلة .
– من جاء في تلك المرة ؟
– رجل ما .
– كيف كان ؟
– رجل متوسط العمر كان من الممكن ان يكون والد بابا
– منفّر ؟
– كلا ، غير منفر ألبتة : لطيف .
– لطيف ؟

ـ اجل ، ناعم ولطيف .. أبوي .
ـ من كان ؟
ـ تقصد : ما المهنة التي كان يمارسها ؟ ان بابا لم تعرف ذلك قط .
ـ فهمت . وماذا جرى بين بابا وذلك الرجل البالغ اللطافة ؟
ـ قلت لك ذلك : لا شيء تقريباً .
ـ كيف لا شيء ؟
ـ لم تكن بابا تشعر بأي عاطفة ، لا ترغب في ان تفعل أي شيء ، ككتلة هامدة .
ـ كيف تصرف ذلك الرجل اللطيف مع الكتلة الهامدة ؟
ـ تصرف كما يمكن للمرء ان يتصرف حيال كتلة هامدة يعرف مع ذلك انها كائن انساني .
ـ أي ؟
ـ حاول ان يجعل الكتلة تشعر بشيء ما ، أن يجعلها تتحرك ، ثم ملّ وعدل .
ـ أيسرّك ان تروي لي هذا كله ؟
ـ لمَ ؟
ـ لأني أراك تبسمين .
ـ انها اشياء مضحكة ، أليس كذلك ؟ اذا ما نظرنا اليها من الخارج ..
ـ من الخارج ؟ ما تقصدين بذلك ؟
ـ حسناً ! تصور انك تروي لصديق من الاصدقاء محاولاتك الفاشلة في مضاجعة فتاة من الفتيات ، لم تنجح معها لأنها كانت تفلت منك من كل مكان. تصور انك تروي ذلك هكذا ، كما يُروى هذا النوع من الاشياء ، فسترى أن في ذلك ما يبعث على الضحك بعض الشيء !
ـ بالتأكيد . وماذا حدث بعد المرة الاولى او بالاحرى بعد تلك المرة ؟
ـ أخذت كورا بابا الى المنزل خمس او ست مرات .

– وفي جميع تلك المرات ، ماذا حدث ؟
– نفس ما حدث في المرة الاولى تقريباً .
– أي ؟
– أي لا شيء تقريباً .
– لا شيء تقريباً ؟
– أجل ، لا شيء تقريباً . فقد بقيت بابا كما كانت ، كتلة هامـــدة . وبذل الرجال بعض الجهود ليجعلوها تشعر بشيء ما ، ليجعـلوها تتحرك ، وهم يقلـّبونها ويعيدون تقليبها في مختلف الاتجاهات كما لو انهـا دمية يفتشون عن الآلية التي تجعلها تتكلم وتتحرك . ثم كانت تتثبط هممهم .
– كيف ، كانت تتثبط هممهم ؟
– كانوا ينامون او يخرجون ويحتجـّون لدى كورا .
– وبمَ كانت كورا تجيب ؟
– لست ادري . لم تكن بابا حاضرة عندما كان الرجال يحتجون !
– ألم يحدث شيء آخر ؟
– بلى ، آخر مرة ذهبت فيها بابا الى هـــذا المنزل ، فقدَ أحد اولئك الرجال صبره ، فصفعها وأهانها .
– ماذا قال ؟
– دعاها : قاذورة .
– وماذا فعلت بابا ؟
– لا شيء .
– أأبغضت ذلك الرجل ؟
– ولا حتى ذلك . فهو لم يكن بعد كل شيء على خطأ من وجهة نظره . ان بابا لم تشعر بالنفور إلا من رجل آخر .
– أي رجل ؟
– واحد آخر .

– لماذا ؟

– أصرّ ذلك الرجل على سماع قصة بابا وقصة كورا ، وأبدى تعاطفه ، وحتى سخطه ، لكن هذا لم يمنعه من الرغبة في مضاجعة بابا مثله مثل الآخرين ، وليست غلطة بابا اذا كانت قد تصرفت ، كعادتها ، ككتلة غير حساسة .

– قلت لي ان بابا لم تذهب اكثر من سبع او ثماني مرات الى منزل كورا لكن لمَ امتنعت عن متابعة الذهاب اليه ؟

– غيّرت كورا فكرتها .

– كيف غيرت فكرتها ؟

– غيرت فكرتها ، أدركت انها أخطأت في فهم بابا .

– أخطأت ؟

– اجل . فبعد المرة السابعة او الثامنة ، امكن لكورا أن تقتنع بأن بابا لم تخلق لهذا النوع من الأشياء .

– وماذا فعلت آنذاك ؟

– ماذا يفعل استاذ الموسيقى عندما يتبين ان تلميذه لا يتقدم قطّ ؟

– لا أدري .. يوقف الدروس .

– بالضبط . فقد قالت كورا لبابا إنها لن تأخذها بعد الآن الى المنزل ، وان على بابا ان تنكبّ بعد الآن على الدراسة .

– على الدراسة ؟

– اجل ، عليها ان تدرس . وأضافت ايضاً شيئاً آخر .

– ما هو ؟

– بأنه اذا ما تكلمت بابا عما حدث فسوف تقتلها .

– أقالت هذا !

– اجل ، تناولت سكيناً وهددتها به وهي تكلمها .

– سكين !

– سكين مطبخ ، أجل .

– وبمَ أجابت بابا ؟

– في تلك اللحظة بالضبط اكتشفت بابا للمرة الاولى بأن ما حدث انما حدث على الأرجح لبابا اخرى تختلف عن بابا التي كانت كورا تهددها لحظتها بالسكين . وقالت ذلك لكورا .

– ماذا قالت لها ؟

– قالت : المسألة بالنسبة لي وكأنها حدثت لشخص آخر . لا أدري

– وماذا قالت كورا ؟

– لا شيء . انت تعلم ان كورا لا تقول شيئاً أبداً .

– وبعد ذلك ؟

– بعد ماذا ؟

– بعد قرار كورا ، ماذا حدث لبابا ؟

– أواه ! لا شيء يستحق الذكر . فقد واظبت على المدرسة ونجحت في جميع المواد . تدرجت في صفوف التجهيز واجتازت امتحاناتها بأحسن علامات ، ثم تسجلت في كلية الآداب .

– وفيما عدا ذلك ؟

– فيما عدا ذلك ؟

– لنقل : من الزاوية العاطفية ؟

– آه ! العاطفية .. لا شيء خارق للعادة . ما يمكن ان يحدث لأي فتاة في عمر بابا ووضعها .

– أي ؟

– لمَ تريد ان تعرف ؟

– هكذا ..

– لقد قلت لك . ان بابا من نمط عادي تماماً ، انسان كملايين الناس .

– بيد ان ما حدث لها وهي في الرابعة عشرة ليس عادياً الى هذا الحد ؟

– اجل ، لكنها كانت بابا اخرى

– هذا صحيح ، لقد نسيت . اذن ؟

– اذن ، سنقول إن بابا عرفت بعض المغامرات ، ليس بكثرة ، ثم شيئاً اكثر جدية ، او بالأحرى شيئين اكثر جـــدية . الاول وقد انتهى في مدى بضعة شهور ، ثم الثاني الذي ما يزال حتى الآن . انت ترى اذن أن بابا تنتمي فعلاً الى نمط عادي جداً من النساء

– هذا الشيء الاخير الاكثر جدية ، ما هو ؟ أخطيب ؟

– اجل ..

– من هو هذا الخطيب ؟

– شخص عادي ، هو الآخر . طالب طب .

– ماذا يدعى ؟

– ان هذا لاستنطاق منظم ! لكن ليس لدى بابا ما تخفيه . انه يدعى سانتورو .

– أتحبه بابا ؟

– كلا ، انما تشعر بالود نحوه .

– وهو ، هل يحبها ؟

– هو ، أجل .

– وسيتزوجان ؟

فأخذت تضحك :

– على كل الاحوال ليس قبل ان يوجـــد سانتورو لنفسه ، كما يقــال ، مركزاً .

– لمَ تضحكين ؟

– لأنك فضولي ، تريد ان تعرف كل شيء . وأنا لا استطيع ان اقول لك غير اشياء عادية ، في منتهى البساطة ، الاشياء التي يمكن لأي فتــاة في عمري ان تقولها لك .

ـ أتحرصين اذن الى هذا الحد على ان تكوني عادية ؟

ـ انني لا أحرص على ذلك ، وانما أنا كذلك بطبيعتي .

ـ فاهم . لنغير الموضوع ، أتريدين ؟ حدثيني عن كورا .

ـ ماذا تريد ان تعرف عن كورا ؟

ـ قولي لي ، هل تحبينها ؟

ـ اجل .

ـ كثيراً ؟

ـ أجل ، كثيراً !

ـ أتتكلمين بصدق ؟

ـ أجل ، انني اتكلم بصدق ؟

ـ لكن ، لماذا ؟

ـ أتسأل لماذا ؟

ـ لماذا تحبينها ؟

ـ لأنها أمي ولأنني ابنتها .

ـ ألهذا فقط ؟

ـ يبدو لي هذا اكثر من كافٍ .

ـ بالرغم مما فعلته بك ؟..

ـ لقد قلت لك : لم تفعل ذلك بي ، وانما ببابا اخرى .

ـ آه ! لقد نسيت ، هـــذا صحيح . والآن قولي لي : لِمَ فعلت كورا ما فعلته قبل خمسة او ستة اعوام ، في اعتقادك ؟

ففكرت بابا لحظة ، ثم بهدوء وبدقة شبه علمية :

ـ لا تعتقد كورا بوجود رجال تجار او أطباء او محامين . كما لا تعتقـد بوجود فتيات في الرابعة عشرة او العشرين سواء أكن بناتهـــا أم عاملات ورشتها . انها لا تؤمن إلا بشيء واحد .

ـ ما هو ؟

– بأن هناك أشخاصاً مختلفين في الجنس يتزاوجون .
– انها تؤمن بذلك لأنه يناسبها .
– كلا ، انها لا تؤمن به لأنه يناسبها ، بل لأنها مقتنعة بأنه لا وجود في العالم إلا لذلك الشيء ولا شيء غيره .
– لا شيء غيره ؟ حقاً ؟ والمال ؟
– المال ليس إلا وسيلة . لكن الغاية تختلف تماماً .
– ما الغاية ؟
– قلتها لك .
– الحب ؟
– قطعاً .
– لكني اعتقدت بأنك ، عندما قلت ان كورا تؤمن بشيء واحـــد ، كنت تلمّحين الى الحب ؟
– ذلك الشيء ليس هو الحب !
– ما هو اذن ؟
– انه .. ما هو .
– لمَ تفكر كورا على هذا النحو ؟
– لا أدري .
– لكن المفروض فيك ان تكوني عارفة بذلك .
– سأقول لأن ذلك يبدو لها صحيحاً ، ولأنه يعجبها ويناسبها ان تعتقد ذلك ، ولأنه يبدو لها حقاً .
– اذا كان الأمر كذلك ، فلمَ بدلت فكرها بصدد بابا ، ولمَ فكرت ، كما قلت انت بنفسك ، بأنها أخطأت بصددها ؟
– أتصور ان كورا تعيش في عالم خاص بها ، يبدو لها العالم الوحيـــد الممكن والأفضل من كل عالم آخر . لكن من الممكن احياناً ان تصطدم بعالم مختلف ، وعندها تعترف – لكن بتهرب كبير – بأن هنـــاك عوالم اخرى

خارج عالمها . لكنها لا تعترف بذلك إلا وهي تصرف على أسنانها .

– ماذا تعنين ؟

– انها لا تعترف بذلك إلا على الصعيد العملي، وهذا يعني انها لا تعترف به حقاً . وخلاصة القول انها تقر بوجود .. استثناء . ولقد كنت أنا احد تلك الاستثناءات ، لكن القاعدة هي واحدة دوماً .

وأخلدنا الى الصمت على إثر ذلــك هنيهة من الزمن . واستدارت بابا من جديد نحو مكتبها . وأدارت مفتاح الراديو لترفــع الصوت ، ووضعت نظارتيها على عينيها ، وتابعت قراءتها كما لو انني غير حاضر . نظرت اليها : لم تكن تبدو طويلة ، لكن لا بد انها ممشوقة القامة ، قوية البنية ، مليئة . كان ذلك واضحاً من الطريقة التي كانت تتربع بها على مقعدها امـام المكتب بكشحيها المتوثبين ، وساقيها المفتولتين اللتين لا تكادان تلامسان الارض ، الملفوفتين في بنطال أسود ، وصدرها الثقيل والمتين المسحوق على حافــة المكتب . وشعرت ، وأنا أرنو اليها ، بإحساس غيظ مفـاجىء ، كنفس الإحساس الذي أوحى به إلي قبل قليل برودها الخالــع العذار . وقلت ، بالرغم مني تقريباً :

– اسمعي يا بابا ، إن لكل لعبة ، مهما كانت ، نهاية ...

فاستدارت ، ورفعت نظارتيها ، ونظرت إلي :

– عفواً ، لم أفهم ...

– هذه الطريقة التي تنهجينها في تقسيم شخصيتك وإلغائها في عـــدد من باباوات تختلف كل واحدة منهن عن الاخرى ، هذه الطريقة ليست إلا لعبة ، وانت تعلمين حق العلم انها لعبة ليس إلا. يقيناً ، إن مثل هذه اللعبة تساعدك على الحياة . لكن هذه مسألة اخرى لا تخص احداً غيرك . وأنت تستطيعين ان تشركيني في لعبتك ، لكن لفترة محدودة للغاية .

فابتسمت ثم قالت بتودد :

– أؤكد لك بأن الأمر ليس البتة كما تظن .

ـ كيف ذلك ؟

ـ صعب علي أن أفسره لك . انني أفهم تماماً ما تريـــد قوله ، لكني استطيع ان أقسم لك على شيء ، انها ليست لعبة .

ـ ليست لعبة ؟

ـ كلا ، بالمرة .

ـ لكن ...

ـ انه شيء خطير . إنني لست ... لست البتة ما كنته قبل ستةأعوام. ولعلني لست ما كنته حتى منذ ساعة ، قبل ان تدخل الى غرفتي . لا ادري كيف أفسر لك ذلك ، لكن هذه هي الحقيقة .

ـ الحقيقة تتطلب برهاناً .

ـ على رسلك ! البرهان هو انه كان علي ، لأتذكر أشياء يعود تاريخها الى ست سنوات ، ان أبذل جهداً حقيقياً ، جهداً لأتخيلها اكثر منه لأتذكرها : تماماً كما يحدث عندما يتكلم المرء عن شخص آخر استناداً الى بعض معلومات وينشىء فرضيات عن الطريقة التي جرت بها بعض الاحداث .

ـ وهذا يعني ؟

ـ كما قلت لك : ان بابا التي كانت تشتغل هنا بمفردها ، منذ ساعـة ، لم تعد ، بعد مجيئك ، والمحادثة التي دارت بيننا، هي نفس بابا الحالية .

خامرني على حين غرة شعور مخيب للأمل وباعث على القلق بعض الشيء بأن هذه العبارة ليست إلا واحدة من تلك العبارات المحكمة الصياغـــة ، التقليدية ، التي تفيد ، في محادثة بين رجل وامرأة، وبعد المقدمات التمهيدية، كوسيلة لطرح الموضوع الرئيسي . وحدقت في عينيها ، بنظرة متسائـــلة ، لكن حدقتيها اللتين بلون البحر واللتين يضفي عليهما حسرهما تعبيراً ثابتاً شبه مخدر ، لم تكشفا لي عن شيء . ثم ابتسمت ابتسامة بالغة العذوبة ، حارة الى حد محرق ، وقالت وهي تمد يدها لتتناول يدي :

– لعل بابا جديدة قد ولدت مع زيارتك . هذا ما أحسّ به على كل حال أنا ، وأنت ؟

أطرقت بناظري . كانت اليد الصغيرة التي تشد على يدي بدينة وقصيرة، ذات لون يختلف عن لون الوجه. كانت بابا شاحبة ، لكن يدها كانت مائلة الى الحمرة ، حمرة داكنة مصمتة تحدث فيها المفاصل حفيرات أشد دكنة . وكانت الأصابع القصيرة كثيرة اللحم حتى انها لتبدو غير قادرة على الانثناء إلا بصعوبة ، ولم تكن الراحة توحي بأنها قادرة على الانقباض الى النهاية . كانت تشد على يدي بيدها اليمنى تاركة اليسرى مفتوحة على ركبتيها . وقد فاجأني باطن الإبهام بحجمه. ولم تكن حمرته مصمتة على نسق ظهر اليد، وكان كأنه مطلي بالأبيض . وقد لاحظت الاظافر ، وكانت صغيرة وبيضوية ، غارزة في اللحم عميقاً ، ومدهونة بالوردي . وفيما أنا أنظر الى هذه اليد جاءتني فكرة لم أقدر على طردها : لعل جسم بابا كله شبيه بيدها اللَحِمة ، ولونه في مثل حمرتها الداكنة ، الخشنة بعض الشيء ، المطلية بالأبيض . جسم هيولي ومطواع ، خامد الحياة تقريباً ، لا يذكر بالجسم بقدر ما يذكر بكمية معينة من اللحم . ثم تذكرت أنني ، فيما سبق من الزمن ويوم لم اعد أطيق العيش مع كورا ، سميت بابا بيني وبين نفسي بـ « بنت الحرام » ، وشعرت بوجود صلة بين هذا اللقب والصورة التي أتخيل بها جسمها، وفكرت بأنها نفس الصلة التي توجد عادة بين كل ما لا يحظى بتقدير كبير وبين امكانية التصرف والوصول اليه . وقلت في نفسي ان بابا نفسها تفكر ، في أعماقها ، بأنها شيء زهيد القيمة ، وان ما ثبّتها على فكرتها هذه معاملة كورا لها ، قبل ستة أعوام ، كشيء يمكن بيعه وشراؤه . وهذا ما يفسر ادعاءها ، غير القابل للتفسير أصلاً بغير هذه الصورة، بأنها لم تعد نفس الفتاة التي كانتها قبل ستة أعوام ، أي ادعاءها بأنها تشبه شيئاً قابلاً للتجديد ابداً اكثر مما تشبه شخصاً له بالضرورة ماضٍ ، وبالتالي تاريخ . وهكذا تُفسر ايضاً حركة

يدها الممدودة للشدّ على يدي : انها دعوة لـكي أستخدمها ، لكي أنال ، اذا شئت ، لذّتي منها ، من غير ما تأنيب ضمير مـــا دامت مجرد شيء موضوع تحت تصرف كل من يريد استخدامه . وعلى هذا ، واذا مـا اضطجعنا معاً ، بالرغم من اننا ما نزال أشبه بأب وابنته ، فلن يكون ذلك سفاحاً كما قـد يخيل للمرء للوهلة الاولى ، وانما سيكون شيئاً تافهاً سيبقى هنا حبيس اللحظة التي يكون قد تمّ فيها مثلما تبقى الدعموصة الميتة حبيسة الشرنقة التي جفّت.

من المؤكد ، أستطيع ان اقول ذلك ، انني لم « اكتشف » كل هذه الاشياء إلا فيما بعد ، بصبر ، عندما رحت اكتبها في يومياتي ورأسي بارد مستريح ، أما في لحظتها بالذات فقد عنّت لي على نحو غامض لكن آسر ، في شكل دافع الى العمل . وأدرت يدي في يد بابا ، وأخذت معصمهـا بين إصبعيّ كما لو في حلقة ، وبحركة مفاجئة شمرت كمّ سترتها حتى مرفقها ، كاشفاً عن ساعدها المكور الابيض المتين ، المظلل تظليـــلاً ناعماً بزغب أسمر خفيف . وفجأة تذكرت انني كثيراً ما فكرت ، في السنوات الماضية ، بأنني لن أحب من جديد لأنني ما عدت استطيع ان أولع بغير العدم . وكيف يمكن للمرء ان يولع بالعدم ؟ وفهمت على حين بغتة انني امام العدم ، ان بابا هي العدم ، وان اضطرابي ليس مبعثه عرضها نفسها عليّ وانما تمثيلها العدم . ذلك العدم الذي كان يمكنني أن أحبه على وجه التحديد لأنه العدم. وهكذا كان هذا الحب سيعني بالنسبة إلي الحب للمرة الثانية في حياتي : المرة الاولى كان موضوعها أمها ، أمها التي أحببت فيها كل الأشياء التي كنت أحسبها آنذاك هي الواقع والتي هتكت الستر عن لاأصالتها فنذرت نفسي للعدم، اي للعلاقات مع النساء السهلات اللاتي كنّ يأتين للقائي في بيتي . ثم انتزعت نفسي من ذلك العدم ، وها هوذا الآن يتجلى لي بقوة ووضوح اكبر في جسم بابا ، في وجـه بابا ، في بابا . وشعرت بأن في وسعي ان احبهـا لأنها تمثل العدم الذي كان فيّ وحواليّ ، كما أحببت كورا فيما مضى من الزمن التي بدت لي تجسد كل الاشياء

التي كنت أحسب انها فيّ وحواليّ . لكن كان لعدم يابا هذا اسم ، وانما الى هذا الاسم شعرت بأنني منجذب لا اليها هي نفسها بلحمها ودمها : ذلك الاسم الذي يطلق على العلاقة الغرامية بين رجل وامرأة أواصرُ القربى بينهما هي كأواصر القربى بيني وبين بابا . والحـال انني ادركت انه لو لم تقم بيننا فكرة او بالاحرى اسم الحب السفاح ، لما اشتهيتها في غالب الظن . وهكذا ثبت لي بالبرهان القاطع من جديد انه لا يمكن ان يوجد بالنسبة إلي عمل أصيل حتى عندما يكون الدافع الى العمل صادراً على ما يبدو من أعماق ذاتي . وبالفعل ، لم تتحرك شهوتي إلا على نحو آلي وعلى إثر رنين اسم ، مجرد اسم ، زائف أصلاً لأننا لم نكن بعد كل شيء أباً وابنة فعلاً . ورفعت عيني إليها ، وتعرفت هذه المرة في حدقتيها ، علاوة على التعبير الحزين الناجم عن حسر البصر ، كآبة أعمق يشوبها حرج وقوف . وسحبت يدي وقلت :

– اعذريني !

وتهالكت من جديد على مقعدي .

وبحركة كلها انفراج ، سحبت كمها حتى معصمها كما تصلح المرأة وضع ثيابها بعد ان تكون قد تعرضت لهجوم ما ، ثم قالت باطمئنان ورصانة :

– لا ريب في انه وقع بيننا سوء تفاهم ، ولم يحسن كل منا فهم الآخر ..

فأكدت بصراحة :

– اعتقد ذلك ايضاً .

– لقد شددت على يدك وقلت لك ما قلت لك لا للدوافع التي يبـدو انك تصورتها ، وانما لأني آمل ان نكون من اليوم فصاعداً أباً وابنة حقاً .

– أباً وابنة ؟

– أجل . ما الغرابة في ذلك ؟ فنحن في الواقع أب وابنة حتى وان لم نكن قد تصرفنا كأب وابنة حتى الآن . وبودّي لو نصبح كذلك حقاً من الآن فصاعداً .

فكرت بأن هذا لاشيء يصعب قوله ، لكنها ، قالته على أحسن وجه ، وبقناعة مثيرة للفضول ، وأكدته ان جاز التعبير بصورة تكنيكية كا لو انه شيء يتوجب علينا ان نصنعه معاً حسب خطة مقررة مسبقاً . وقلت بما فيه الكفاية من الصدق :

– هذا كل مطلبي ومناي .

– حسناً ! انني لمسرورة بذلك كل السرور .

كان يبدو عليها السرور حقاً . فقد كانت تبسم ، ومدت من جديد يدها وشدّت على يدي بعناق مقتضب كلّه حنوّ . ثم أضافت :

– لن تتصرف بعد اليوم كما في الماضي .

– ماذا تعنين ؟

– أعني انك لن تكون كرجل يعيش غريباً في بيته ولا يريد ان تكون له علاقة ما بعائلته .

– ما عليّ أن أفعل اذن ؟

– اسكن معنا ، مع كورا ومعي ، كسائر الأزواج والآباء .

– أسكن معكما ؟

– أجل ! تأكل معنا ، وتخرج معنا ، وتعيش معنا .

– لكن .. هذا مستحيل !

– لمـاذا ؟

– لأنني أعرف ما أعرفه ، ولأن الحيـــاة العائلية التي تتحدثين عنها مستحيلة في هذه الحال .

– ومع ذلك فإنني أعيش ، أنا ، حياة عائلية .

– هذا بالضبط ما يدهشني .

– لماذا ؟

– لو كنت محلك لرحلت ، وحق الشيطان ، منذ زمن بعيد .

– سأرحل ذات يوم ، ولكن ليس بسبب كورا .

– متى سترحلين ؟

– لا ادري .. عندما سأتزوج او عندما سأحصل على الدبلوم ، وسأذهب للتدريس في مدينة اخرى .

وفجأة تملكني الغضب ورفعت صوتي :

– على كل ، انت لا تشمئزين من السكن تحت سقف واحد مع كورا ؟

– انها امي .

– وتقبلين مالها ؟

– ليس في ذلك ضرّ .

– ليس في ذلك ضرّ ... وكيف ، من فضلك ؟

– لأن هذه المدينة مليئة بأشياء تباع وتشرى . فأي فرق بين مال كورا ومال الكثيرين من الناس غيرها ؟

وسكن روعي قليلاً وقلت :

– حسناً ، سنكون اباً وابنة ، أعدك بذلك ... لكن لا تسأليني ان اكون من جديد زوجاً لكورا .

– ستتناول طعامك معنا ، قل هذا على الأقل ...

شيء غريب : كانت في كل مرة تتكلم عن نفسها وعن كورا وعني كما لو اننا أسرة ، يتهدّج صوتها ، الهادىء والعديم التعبير عادة ، وتظهر فيه حرقـة . وقلت بجفاء :

– اتفقنا ، سأتناول طعامي معكما .

– ولـن تكون جافاً مع كورا ؟

– ماذا تعنين ؟

– أعني انك ستخاطبها ، اثناء الطعام ، بلهجـة طبيعية وودية ، وانك لن تتحاشاها في غير أوقات الطعام ، وأنك ستكون عطوفاً نحوها .

– من الصعب علي ان اكون عطوفاً ...

– لكنك ستتظاهر بذلك ... اذا لم تفعله من اجل كورا ، فافعله من أجلي أنا .

– لمَ تحرصين الى هذا الحد على ان اكون عطوفاً تجاه كورا ؟

فأجابت بلهجة من يؤكد حقيقة لا مماراة فيها :

– لأنها أمي .

فألححت :

– لم تقولي لي بعد لمَ تحبينها : فهي بعد كل شيء لم تسلك نحوك سلوك أم صالحة

فمالت بابا الى أمام وشدّت على يدي بقوة :

– كن عطوفاً معها ، أتريد ؟ لا أدري لمَ أحبها ، لا ادري السبب حقاً، لكني أشعر بأنني أزداد حباً لها دوماً .

كانت تشد على يدي الى حد آلمني وسعيت عبثاً الى التحرر من عناقهـا وقلت :

– لعلك تحبينها على وجه التحديد بسبب الطريقة التي تصرفت بها تجاهك.

– ربما ، لكن ليس بالمعنى الذي تظن .

– أنا لا أظن شيئاً .

– انني لا أحبها لأنها لا تحبني . انني أحبها لأن ... أرأيت ، لا مفر من أن أكرر الشيء نفسه ... لأنها أمي .

فقلت بلهجة جافة :

– اتفقنا ، سأحاول ان اكون « عطوفاً » كما تقولين .

وعلى إثر قولي هذا تركت يدي وتراجعت فأضفت :

– أعدك بذلك . من حسن الحظ بالأصل أن إقامتي في روما لن تكون طويلة .

– كم من الزمن ستبقى ؟

– لا ادري : شهراً او اثنين ، الزمن الضروري لأكتب مقالاتي عن رحلتي الى ايران .

رأيتها تعاود الجلوس جانبياً، متكومة على مقعدها الصغير اكثر مما ينبغي، وقدماها على عارضة الطاولة الافقية . وأدارت مفتاح الراديو ، لترفع صوته، ووضعت نظارتيها على عينيها وتظاهرت بأنها تستأنف مطالعتها التي قطعتها زيارتي . كان علي أن أنصرف ، لكن كان يخيل إلي انه ما يزال هناك شيء ناقص . وببلاهة قلت :

– هل تريدين ان نذهب لتناول العشاء في مكان ما هذا المساء ؟

فاستدارت بشيء من الحدة وكأنها كانت تنتظر هذه الدعوة وأجابتني :

– كلا ، ليس هذا المساء ، لست حرة .

– مع من ستخرجين ؟

– اعتقد انه من واجبي ان اقول لك ذلك ما دمت أبي . سوف أخرج مع سانتورو وإحدى صديقاتي وحبيب صديقتي .

– ماذا ستفعلون ؟

– نتناول طعام العشاء اولاً ، ثم نذهب الى السينما . لكن غداً ، اجل غداً ، سأكون حرة .

– حسناً ، غداً . بالمناسبة ..

– ماذا ؟

– بالمناسبة ، لا تكلمي كورا عن محادثتنا .

– انت لم تتكلم معي ، وانما مع بابا اخرى .

– آه ! هذا صحيح ، لقد نسيت ! اذن الى مساء الغد .

– شياو !

وخرجت ، وفي أذني ترن الموسيقى المريرة والمألوفة الى حد غريب لكلمة «شياو» تلك .

الاربعاء ١٤ تشرين الاول

أنا في غرفة من غرف منزل مواعيد كورا . إنني لواثق من انه منزل كورا بالرغم من انني لم اذهب اليه قط . ولقد جاءتني هذه الثقة من رؤيتي الدمية جالسة على رأس السرير الكبير الذي أجلس عليه بانتظار الفتاة التي ستجمعني بهـا كورا في أقرب وقت . انها دمية في زي سيدة من القرن الثامن عشر ، شبيهة بالدمية الموجودة في منزلي ، في غرفة كورا على وجه التحديد . لكني ألمح ، اذ أمعن النظر فيها ، فروقاً بينهما : فهذه الدمية اكبر حجماً ، بل يخيل إلي انها تزداد حجماً كلما تمعنت في ملاحظتها . ثم أكتشف، يا للذهول، أن للدمية وجـــه بابا : نفس العينين الخضراوين اللتين بلون البحر ، ونفس النظرة المشدوهة وغير المعبرة ، ونفس الأنف الصغير ، المتين والواسع، ونفس الفم الرقيق ، القاسي ، بغضنيه الناعمين المجدبين الشبيهين بشقين عند نقـاط اتصال الشفتين . صحيح انها تضع شعراً مستعاراً أبيض، وأن وجهها مذرور بالمساحيق ومنقط بالخيلان ، وأن صدريتها مشدودة ، وأن ثوبهـا على شكل سلة ، لكنها بابا بلحمها ودمها ، بابا الحية لا الدمية ، بابا المتنكرة في إهاب سيدة من القرن الثامن عشر، جالسة على رأس السرير في منزل كورا. وبالفعل، هـــي ذي بابا تبسم لي ، وترشقني بغمزة غامضة مثيرة . وشعرت على الفور باشمئزاز ورغبة ، اشمئزاز ولد من الرغبة ، ورغبـــة ولدت من الاشمئزاز . وهتفت بصوت عالٍ : « لكنك ابنتي » عند هـــذه الكلمات ، وكما تبدد الرقية سحر الساحر ، أخذت بابا تنأى ، تصغر وتصغر حتى باتت ، ومـا كان اعظم انفراجي ، مجرد دمية رأسها من البورسلين وجسمها من القماش ، لا مبرر لوجودها إلا ان تكون زخرفة لغرفة كورا . لكن ما يزال علي أن

أنتظر . عما قريب سيفتح الباب وستقدم لي كورا فتـاة اليوم ، المختلفة كل الاختلاف عن بابا وبالفعل ، انفتح الباب بتؤدة وظهرت كورا . انها ليست بمفردها ، بل تقود بيدها فتاة صغيرة في حوالي الرابعـة عشرة ترتدي كنزة حمراء وبنطالاً ازرق فاتحاً ، لكني لا أتوصل الى رؤيـة وجه الصغيرة الذي تخفيه ، وكلها اضطراب ، في حضن أمها . ومالت هذه الاخيرة ، وهمست في أذنها بينما كانت تلاعب عينيها باتجاهي وكأنهـا تقول لي : « بالطبع انها صغيرة ، وبالتالي خجول ، يجب ان تتذرع معها بشيء من الصبر ... » ولاحظت وجه كورا الملتهب وعينيها القادحتين شرراً ، فكأنها مشرقة النفس بحيويـة فائقة للعادة وفي النهاية ، سلمت الفتاة أمرها وأذعنت . واستدارت ، ومن جديد تعرفت فيها بابا ، لا بابا اليوم بل بابا كما كانت قبـل ستة أعوام . ومدت لي الفتاة الصغيرة يدها ، وحيتني تحية ناعمة تدل على تربية صالحـة ، لكني نظرت اليها بعين ناقدة ، وبريبة . انني رجل صعب المطالب ، سريـع الاستياء ، صاحب نزوات : انني زبون ، لا اكثر . وأعلنت بفظاظة انه اذا لم يكن للفتاة جسم شبيه بالجزء اللحيم من إبهامها ، ذو لون أحمر فج ملطخ بالأبيض ، فإنني لا أرغب فيها . ودفعت . وكنت اريد ان أحصل ، مقابل مـالي ، على ما أريده بالضبط . وبالطبع لم تترك كورا شيئاً إلا وفعلته لترضيني . ورأيتها تميل بجزع على الصغيرة ، وتهمس من جديد في أذنها . عند هذه اللحظة ، وللمرة الثانية ، هتفت :

– لكنها ابنتي !

واستيقظت .

كنت مبللا عرقاً ، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً . ونهضت وجلست في الظلمة ونظرت الى مينا منبهي الفوسفورية على طاولة السرير . كانت العقارب تشير الى الرابعة والربع . وأضأت المصباح ، وكما افعل عادة عندما أستيقظ من كابوس ، تناولت من بين جميع الكتب المكدسة على طـاولة السرير اول كتاب وقعت يدي عليه .

كان طبعة شعبية لـ « أوديب ملكاً». وفتحته على الصفحة الاولى وقرأت:

اوديب : « اين اين ؟ أين أجد بعد الآن الأثر الخفي لجريمة قديمة ؟

كريون : هنا ، يقول الإله . فما نبحث عنه نجـــده ، لكن ما نهمله يبقى سراً » .

وخيل إلي أن لهذه الأبيات وقعاً مألوفاً . فتابعت قراءة كل المشهد الأول الى ان وصلت إلى :

« أعلم حق العلم
انكم مرضى جميعاً ، وانه ليس بينكم
من هو مريض مثلي .
ان وجع الواحد منكم
لا يتعداه الى غيره . وبالمقابل
تتألم روحي من اجلي وطني
من اجلي ومن أجلك .. »

تبينت انني ابكي بدموع محرقة نادرة تبدو وكأنها تعـــبر لا عن مرارة ما حدث بالامس مساء فحسب ، بل ايضاً عن مرارة حياتي بكاملها . بكيت وأطبقت كتابي وأطفأت الضوء وتابعت البكاء في الظـلام ، مدركاً انني ابكي لأنني أواجه نفس موقف اوديب : فالمدينة التي يعيث الطاعون فيها فساداً هي أسرتي ، الفاسدة هي الاخرى ، ولقد استجويت ، كما فعـــل اوديب ، الشهود لمعرفة علة هذا الفساد، واكتشفت انني أنا المذنب. لكن ، وهنا راحت افكاري تختلط وتغيم في النعاس الذي بدأ يغزوني من جديد ، لكن عند هذا الحد يتوقف التشابه . فأوديب أذِنَ له بأن يفقأ عينيه ، بأن يكفر عن خطيئته في طقس من الطقوس ، بأن يتحرر منها بتحويله الشر الى خير ، أما أنا ؟ كان عليّ أنا ان اكتفي بأن اعرف ، بدون ظل من شك ، انني – ولو من بعيد وعلى نحو غير مباشر – علة الفساد . لكن لم يكن في وسعي ان

افعل شيئاً : لا ان اعاقب نفسي ، ولا ان اكفر ، ولا ان أحول ما كان سلبياً الى شيء ايجابي . اللهم إلا اذا .. عند « اللهم إلا اذا » هذه التي تترك بصيصاً من أمل ، اخذتني سنة النوم .

الاربعاء ١٤ تشرين الاول

كان النهار قد طلع عندما استيقظت ، لكن كان الوقت ما يزال مبكراً، وكان البيت يخيم عليه السكون نهضت واغتسلت وسرحت شعري وخرجت من غرفتي ، ثم من الشقة ، ثم نزلت الى الشارع . وكما هو دأبي صباحاً عندما اكون في روما ، ذهبت ما ان نهضت الى البـــار الذي بالقرب من منزلي ، وتناولت إفطاري : قهوة ، كرواسان ، ثم قهوة اخرى . ومن كشك التبغ المحاور للبار ، اشتريت علبتي دخان ، ثم ذهبت لابتاع جريـــدة من بائع الصحف عند منعطف الشارع . واتجهت نحو منزلي وأنا أجيل الطرف حولي تحت ذراعي الصحيفة، وبين شفتي سيجارة . وألفيت ثانية الديكور المعروف: البنايات التجارية التي بلون البسكويت والملاط ، بنوافذهـا الكستنائية التي ما تزال مغلقـــة ، والتي تصطف على طول الارصفـة التي ما تزال مقفرة ؛ والحدائق البلدية بسروها وغارها وسنديانها الاخضر ، الكثيبة والادارية ، المؤطرة بمجموعات من دور فاتحة اللون ؛ والسماء الخريفية بزرقتهـا الفاهية ، التي تتهادى في أديمهـــا سحب بيضاء كبيرة موشاة بالرمادي . اجتزت باب مدخل المنزل ، وصعدت في المصعد حتى الطابق الاخير ، وفتحت باب شقتي ، ووجدت نفسي وجهـــاً لوجه مع بابا التي كانت على وشك الخروج . كانت ترتدي بنطالاً وسترة بحار وتحمل كتباً تحت ذراعها . وقالت لي :

– أعددت لك إفطارك ، ووضعته في غرفتك . شياو .

ومضيت الى غرفتي ، وبالفعل كانت وجبتي الخفيفة على الطاولة ، بجانب آلتي

الكاتبة، طبق أحسن إعداده ومغطى بساط صغير، ومنشفة صغيرة، وفنجان مع صحنه ، وإبريق شاي ، وخـــبز محمص ، وعسل ، ومربب . ووضعت الطبق على فراشي المشعث ، لكني تركت ابريق الشاي والفنجان على الطاولة. ثم صححت وضع طاولتي امام النافذة بصورة أرى معهـا ثلثي السماء مقابل ثلث الدور . وفي النهاية جلست .

آنذاك فقط عاودتني ذكرى ما حدث مساء الامس وليـــلا : الرسالة المغفلة ، حديثي مع بابا ، حلمي ، يقظتي ، قراءة أشعار اودبب الملك . ثم تذكرت ، إذ وقع نظري على آلتي الكاتبة ، قراري بصدد كتابة يومياتي عن إقامتي في روما ، وتساءلت عما اذا كان ممكناً بعد ان حدث ما حدث .

وبالفعل ، كنت قد قررت كتابة يوميات عن مرحلة من حياتي تصورتها خالية من الاحداث ، كيما استخلص منها فيما بعـد رواية خالية من الاحداث ايضاً . وها هي هذه اليوميات الذاتية تتكشف عن انها مستحيلة ، من اليوم الاول. ففي اللحظة التي حزمت فيها امري على كتابة يوميات حياة بلا أحداث، شاءت سخرية الصدف ان ينفجر في هذه الحياة بالذات ،وبصخب ، شيء ما دراماتيكي ، استثنائي ، لا يصدق . واذا بالرواية التي كنت آمل في كتابتها، والتي كان من المفروض أن تحل فيها أصالة الروتين اليومي محل لأصـــالة الدراما ، أقول اذا بها تفشل من البداية .

أشعلت سيجارة ورحت افكر وأنا أتأمل السماء أمامي ، من خلال زجاج النافذة . وخطرت لي فكرة : اذا كتبت بالرغم من كل شيء يومياتي ، واذا استخلصت منها فيما بعد ، وكما أنوي ، رواية ، فإن هذه الرواية ستكون تماماً من النوع المسمى بالروائي، اي ستكون مستندة الى مغامرة دراماتيكية، بل مضحكة مبكية ، كتلك المغامرات التي يلجأ اليها الروائيون التقليديون لعجزهم الولادي الموروث عن استخلاص ماهية الشعر من الواقع اليومي .

رجل مضت عليه سنوات عشر من غير أن يخاطب زوجته وابنته مع انه

يعيش معها تحت سقف واحد . وبعد تلك السنوات العشر ، جاءته رسالة مغفلة تعلمه بأن زوجته تمارس مهنة القوادة، وبأنها سعت الى تعهير ابنتها ... لقد شدهت من انعدام الذوق في هذه الوقائع ومن لاأصالتها وابتعادها عن الواقع الذي يمكننا تصديقه ، تلك الوقائع المحرجة ، الثقيلة الوطأة ، التي لا تصدق . وفكرت بأن القراء سيكونون على صواب اذا ما نسبوا الى المؤلف مخيلة مريضة ، مقرفة ، معقدة .

لكنني كنت لحسن الحظ او سوئه في وضع مغاير تماماً: فمخيلتي لم تكن مدعوة الى اختراع مثل هذه المكائد، بل على العكس، والأشياء الثقيلة الوطء، المحرجة، التي لا تصدق ، التي أرى نفسي ملزماً بذكرها في يومياتي وبنقلها فيما بعد الى الرواية ، هذه الاشياء ليست ثمرة مخيلة مريضة مقرفة معقدة ، وانما ثمرة أحداث واقعية . انني لم أختلق شيئاً ، وأنا اقول ذلك مهما بدا بعيداً عن التصديق : فلقد تلقيت فعلاً الرسالة المغفلة ، وكورا تمارس فعلاً تلك المهنة ، وبابا قد اقتيدت فعلا وهي في الرابعة عشرة الى منزل مواعيد أمها ، وأنا فعلا جالس الآن الى طاولتي اكتب ، شاعراً فعلاً في ذهني بالتناقض المرهق المقلق القائم بين اهتماماتي الأدبية وبين الإلزام الباهظ الوطأة ، المحتم ، الذي وقع على عاتقي ، والذي يحتم علي أن أجد بأسرع ما يمكن ، على صعيد الواقع وليس على صفحات رواية ، حلا للوضع الذي وجدت نفسي فيه على حين فجأة .

وهكذا ، وبينما كان في وسعي ان اتخلى عن فكرة كتابة رواية حكمت عليها بالإخفاق مسبقاً ، ما كنت أستطيع بالمقابل ان أرفض الاعتراف بأن بعض الاشياء تحدث لي ، وبأن علي ان أبادر الى العمل ، وبأنني سأكون قد بادرت الى العمل على كل الاحوال حتى وان لم أعمل شيئاً قط ، لأن عدم المبادرة الى العمل يعني في مثل هذه الحالة اختيار نمط محدد من العمل في الواقع .

لكن في اللحظة التي رحت أفكر فيها بالعدول نهائياً عن كتابة يومياتي

وعن استخلاص رواية منها في المستقبل ، في تلك اللحظة بالضبط شعرت في اعماق نفسي بحزن مبرح يائس ، كما لو انني سأتخلى في الواقع عـــن مبرري الوحيد للحياة . ولقد فاجأني عنف هذا الشعور وفهمت أن هناك شيئاً مـــا عميقاً لا يمكنني التغلب عليه كما لا يمكنني تجاهله .

سحقت سيجارتي في النفاضة وأشعلت أخرى . ما العمل ؟ من جهة اولى ما كان في مقدور الرواية التي سأستخلصها من يومياتي (اذا كتبت هـــذه اليوميات) إلا ان تكون غير أصيلة كتلك التي كتبتها قبل عشرة أعوام ، ومن الجهة الثانية كان الحزن العميق الذي انتابني بمجرد ان فكرت بالعدول عن مشروعي يذكرني بأنني أخذت على نفسي التزاماً بكتابـــة يومياتي وباستخلاص رواية منها . ما العمل اذن ؟

بعد ان طرحت على نفسي هذا الإحراج سقطت في حالة من الذهول المرير المجرد . ورحت أنظر ، ورأسي خلو من الأفكار ، الى التشويهات المزعجـة التي تحدثها بعض العيوب في زجاج النافذة على شكل قطرات او فقاعات والتي تشوش الرؤية الصافية لغيوم السماء ؛ وشعرت باليأس ، يأس مزدوج إذا صح القول ، ناجم من جهة اولى عن وضعي العائلي ، ومن الجهـــة الثانية عن طموحي الأدبي .

ولم يكن فكري يتوصل ، بوجه خاص ، الى الإمساك عن قرب بحدود المشكلة التي كانت قائمة مع ذلك والتي كنت أتخبط فيها . ما المسألة بعد كل شيء؟ أكتابة رواية؟ ام إعادة النظام الى أسرتي ؟ بالرغم من ان كلا الشيئين كانا مختلفين ومتمايزين ، فقد كنت أشعر على نحو غامض بانهـما مرتبطان ارتباطاً لا فكاك فيه وبأنه يستحيل عليّ حل أحدهما من غير ان أحل الآخر .

يمكنني ان احدد هذا الرباط ، بصيغة سلبية ، على النحو التالي : ان وضعي العائلي الدراماتيكي (هذا اقل ما يمكنني ان أصفه به) يمنعني من كتابة الرواية التي بلا دراما والتي كنت قد صممت عليهـــا ، ومشروعي في

كتابة رواية بلا دراما يمنعني من مواجهـــة دراما وضعي العائلي إذ يجعلني أدرك لاأصالة كل تدخل في سبيل ايجاد حل ما .

عند هذه النقطة من تفكيري، شدهت بالجانب المضحك فيه بعض الشيء، وخالجني شعور مرهق لو اردت التعبير عنه بالكـــلام لقلت : « كيف ؟ أتعذب نفسك الى هذا الحد بسبب مسائل ادبية تافهة ، ويتملكك الذعر من العدول عن كتابة واحد من تلك الكتب المكتظة بها رفوف المكتبات ، في حين ينبغي عليك ان تهتم فقط بالحالة التي تدهورت اليها اسرتك ! إن هذه الحالة أهم بما لا يقاس من مسألة رواية ، أهم بمـا لا يقاس من مسألة يوميات ذاتية ! انها مسألة حياتك ! حُلّ اذن هذه المسألة ، لا كروائي وانما كرجل، كما كان سيحلها اي شخص لو كان مكانك » .

شيء غريب : ان هذا النداء الى الحس السليم كان له ، كما يحدث ذلك غالباً ، مفعول مغاير لذاك الذي توقعته . فقد فهمت فجأة انه ليس المفروض فيّ البتة ان اجد « كرجل » حلاً لوضعي العائلي ، كما سيفعل « اي شخص لو كان مكاني » . فأنا ، في الحقيقة ، لم اكن لا « رجلاً » ولا « اي شخص كان » ، وانما انا الشخص المحدد الذي هو أنا . إذن فعليّ ان اجد حلاً لوضعي العائلي بوصفي بالضبط الروائي الذي كنته والذي لا استطيع منع نفسي من ان اكونه .

ان لفظـــة « الفساد » هي التي هدتني الى سواء السبيل . اجل ، لقد سقطت اسرتي في الفساد، لكن هذا الفساد ليس حدثاً خارقاً للعـــادة ، غير متوقع ، دراماتيكياً ، مثل طاعون طيبـــة في مأساة اوديب ، بل هو على العكس واحدة من تلك الوقائع التي تختلط برتابة الحياة اليومية من غير ان يكون لها اهمية او دلالة اكبر من تلك التي لسائر الاشياء التي تحدث يومياً ، وهذا لأن تلك الوقائع قد دامت حقبة طويلة من الزمن واصبحت عادية ، ولأنه ليس لها اي سبب يمكن التحقق منه على نحو موثوق ، ولأنهـــا تفلت

بالتالي من الحكم الاخلاقي ومن التنقيب التاريخي على حد سواء .

اما أن هذا صحيح ، فلقد تأكدت من ذلك بتذكري دعوة بابا ، ضحية الفساد الاولى ، الى ان اتظاهر بالعطف تجاه كورا . عطوف ... اذن لم يجر شيء في الحقيقة او على الاقل لا شيء له اهميته ودلالته . وانما سيتابع كل شيء مجراه في دفق الحياة اليومية اللاممتايز. ستستمر كورا في ممارسة مهنتها، سأستأنف ترحالي ، ستتزوج بابا من سنتورو او ستذهب للتدريس في مدينة اخرى وستتزوج من شخص آخر شبيه الى ابعد الحدود بلا ريب بسانتورو .

يقيناً كان في وسعي ان ارفض هذا المفهوم عن الفساد المنظور اليه كظاهرة عادية فارغة من المعنى وأن يكون ردي عليه عنفاً أخلاقي النزعة . لكن باسم أي أخلاق ؟ أباسم تلك الاخلاق الكدرة المرائية التي تنضح بها الرسالة المغفلة ؟

ثم إن الفكرة التي أمست لي ، مع مر السنين ، عن الرواية باعتبارها طريقة في فهم الواقع ، كانت تنبهني من طرف خفي – كما لو انها صوت ضميري – إلى أن مفهوم الفساد كظاهرة عادية فارغة من المعنى ، كروتين يومي عادم الدلالة ، هو في صميم الواقع مفهوم صحيح ، على وجه التحديد بنتيجة طابع التحول المتواصل ، « العضوي » ، إذا جاز لي القول، الذي يبدو ان اللفظة بالذات تنطوي عليه . الفساد : شيء طبيعي ، بيولوجي ، وربما ضروري ، وعلى كل الأحوال محتم ولا يمكن ان يكون له بالتالي أي دلالة أو اهمية .

هكذا عدت ، بعد دورة طويلة ، الى نقطة انطلاقي : انني سأكتب على كل الأحوال يومياتي كما كنت مصمماً في البدء ، وسأستخلص منها فيما بعد رواية . واثناء ذلك سأقف ، تجاه وقائع كتلك التيعلمت بها البارحة مساء، الموقف الممكن الوحيد، الموقف الذي يتخذه المرء تجاه الوقائع اليومية في الحياة العادية ، تلك الوقائع التي تحدث بلا شك لكن من غير ان تكون لها

دلالة خاصة او على الاقل لا يكون لها من دلالة خاصة إلا بقدر مـا نضفيها عليها نحن . وبتعبير آخر ، موقف تعليق للحـــكم ، وبكلمة واحدة ، موقف تأمل .

مع هذه الافكار سكن روعي . فقد حللت ، مؤقتاً على الاقل ، مشكلتي المزدوجة : مواجهة وضعي العائلي وكتابة روايتي في آن واحـد . بيد انني قلت بيني وبين نفسي مع ذلك إن هذا كله ليس بالسهولة التي قد تتصور. إن هذا كله يتطلب بالفعل أن أتخذ موقفاً معاكساً للموقف الذي اتخذته في الحيـــاة طوال السنين العشر الماضية . فقد كان هـــذا الموقف ، كما ذكرت ، موقف لاانتباه . اما الآن ، واذا كنت لا اريد المجازفة بفشل جديد ، فعليّ أن اتبنى موقف الانتباه . وقد قلت في نفسي انه من المستحسن ان انوه بالرابطة التي خيل إلي انني نجحت في اكتشاف وجودها بين الحياة والرواية . فهـذه الرابطة ليست بأدبية وجمالية ، كما انها ليست رابطة تقليـــد ميكانيكي . انها ، أنا أعرف ذلك من الآن فصاعداً ، رابطة تعرف ومعرفة . وعلى هــذا فقـــد قررت عنونة الرواية التي سأستخلصها في المستقبل من يوميـــاتي بـ « الانتباه » .

الاربعاء ١٤ تشرين الاول

– متى وصلت ؟
– البارحة ، بعد الظهر .
– أين ذهبت ؟
– الى ايران .
– ايران ؟

– اجل ، ايران ، أي فارس .
– كم من الزمن ستبقى ؟
– كالعادة : شهراً ونصف شهر ، شهرين ..
– أبحاجة أنت الى شيء ؟ هل وضعت جانباً غسيلك ؟
– اجل .
– ألم تشعر بالبرد هذه الليلة ؟ ألديك ما فيه الكفاية من الأغطية ؟
– شكراً ، لديّ ما فيه الكفاية .
– أتعرف ، هناك حسابات كثيرة ينبغي تسويتها . وقد وضعت جميع الفواتير في درج الخزانة التي عند المدخل .
– حسناً . سأهتم بذلك .
– أبحاجة انت الى شيء آخر ؟
– في الوقت الحاضر ، لا . بالمناسبة ..
– ماذا ؟
– لقد فكرت اثناء رحلتي واتخذت قراراً بتغيير كل شيء هنا .
– تغيير كل شيء ؟
– اجل . فمن الآن وصاعداً ، واذا لم يكن في ذلك إزعاج لك، سنتناول طعامنا معاً . لقد سئمت من الأكل في المطعم . ثم اننا سنفعل ، أنا وأنت وبابا ، اشياء كثيرة اخرى: سنخرج ثلاثتنا مساء لنذهب الى السينما، وسنذهب للنزهة أيام الآحاد ، الخ ... الخ ... أيناسبك هذا ؟
– هذا موضوع جديد حقاً ! ما بك ؟
– لا شيء . لكني اكتفيت من الحياة كعازب او نزيل أو أرمل بينما لي أسرة .
– كنت أفضل لو تابعنا حياتنا المعتادة . إن الأمور تسير على هذا المنوال منذ عشر سنوات ، وقد اعتدت على ذلك . ثم ان العودة الى الوراء صعبة .

– ليست المسألة مسألة عودة الى وراء وانما تقدم الى أمام .

– تقدم الى الأمام ؟

– اجل ، تقدم الى الأمام .

– لا ادرك ما تعنيه ، لكن لنفعل كما تريد . فبعد كل شيء ، انت السيد هنا . لكني أحذّرك ...

– مم َ ؟

– أحذرك بأن لي حياتي الخاصة . أنا حريصة على حريتي . لا أريد رقابة ثم انني لا استطيع ان أعدك بالبقاء معك ، إلا اثناء أوقات الطعام . إن لي صديقاتي، فكيف استطيع ان أقدمك لهن على انك زوجي بعد أن قلت وشرحت لهن مراراً اننا انفصلنا .

– على رسلك ، كما تشائين ، لا تهتمي . سوف أتدبّر أمري مع بابا .

– اذن فأنت ستبقى اليوم لتناول طعام الغداء ؟

– اجل ، سأكون هنا لتناول طعام الغداء .

– عندنا اليوم كبد مشوية . أيناسبك ذلك ؟

– تماماً .

على إثر ذلك نظر كل منا الى الآخر في صمت . ولاحظت، كما لو انني أراها لأول مرة منذ عشرة أعوام ، انها تغيرت كثيراً . كانت قد نحفت ، وكان وجهها الذي رق وهزل بل شحب بعض الشيء يُبرز على نحو أوضح ضخامة عينيها الزرقاوين الواسعتين بنظرتها المفترسة ، والمظهر الالماني لأنفها الكبير المستقيم ، وتلوّي شفتيها العنيف ، وثقل فكيها . وكان وميض أحمر غريب ، متوهج وحار ، انعكاس من الجائز (لم أستطع ان أمنع نفسي من التفكير بذلك) للشبق الذي تثيره وتشجعه يومياً لدى الغير يغزو وجهها من الأسفل ، على نحو محموم ووبيل . ورفعت يدها الى فمها وسعلت عدة مرات سعالاً جافاً لا يمكن حبسه . فسألتها :

– ألست مريضة ؟

– كلا ، لماذا ؟

– ارى انك تسعلين . ثم انك نحفت كثيراً .

– لا اهمية لذلك . لقد أصبت ، هذا الصيف ، بنزلة صدرية ، ولم أعالج نفسي ، فكان أن بقي عندي هذا السعال الخفيف . هذا كل شيء .

– ما رأي الطبيب ؟

– في حينه قال انها نزلة صدرية .

– في حينه ... متى ذلك ؟

– قبل ثلاثه شهور .

– وما رأيه الآن ؟

– لا رأي له الآن . فأنا لم أستشره .

– لماذا ؟ اذا لم تكن صحتك على ما يرام ، فينبغي ان تستشيريه . لقد وُجد الأطباء لذلك .

وران الصمت بيننا من جديد . ثم استأنفت :

– سآتي ، ذات يوم ، للقائك في محلك .

– لِمَ ؟

– لأحادثك .

– تحادثني ؟

– لا تهلعي . ليس للأمر علاقة بك ... انما المسألة مسألة رواية انا في سبيلي الى كتابتها .

– وما دخلي في ذلك أنا ؟

– أتذكرين انني كنت اكتب قبل عشرة اعوام رواية ؟

– اجل .

– لقد عدت اليها . لكني بحاجة الى بعض المعلومات .

– معلومات ؟ من أي نوع ؟

– هذه الرواية تروي قصة ... قصة حبنا .

– حب رائـع !

– انها ترويه ، سواء اكان رائعاً ام لا ، او بالاحرى يفترض فيها انهـا ترويه . ولهذا انا بحاجة الى بعض ايضاحات عن علاقاتنا في ذلك العهد .

– اواه ! اذا كنت لا تريد غير ذلك !

– إذن ، أأستطيـع الاعتماد عليك ؟ ذات يوم سنبقى معاً هنيهـة من الزمن ونتحادث .

– كيف تدعى تلك الرواية ؟

– « الانتباه » .

– انت ، اكثر اهل الارض قلة انتباه ، ستكتب « الانتباه » !

وعلى إثر هذه العبارة الساخرة والودية التي تعبر عن كل انفراجها من عدم اضطرارها الى الكلام عن وقائع حياتها الخاصة ، انصرفت .

الثلثاء ٢٠ تشرين الاول

نبهت القارىء في مقـــدمة كتابي الى انني أحتفظ لنفسي بالحق ، كلما رأيت ذلك ضرورياً ، في تطوير وتكيل بل حتى تحوير الاحداث التي أرويها في يومياتي . لكني قلت ايضاً انني سأشير الى جميع التفاصيل المحوّرة والمختلفة حتى يكون في وسعي ، عندما سأتهيأ لاستخلاص رواية من يومياتي ، أن أميزها عن التفاصيل الواقعية .

والحال انني لاحظت انني استعملت هذا الحق من البــداية ، لا بوعي

وطوعي كما قد يظن القارىء ، وانما بطريقة شبه لاشعورية . تلك الطريقة المميزة للراوية الذي يخلط بالرغم منه ، محمولاً على أجنحة إلهامه ، بين الصحيح والكاذب .

وبالفعل ، ليس صحيحاً انني وجدت ، عندما استيقظت مرتعداً في الليلة التالية لحديثي مع بابا ، على طاولة سريري كتاب « اوديب ملكاً » في طبعة شعبية ، وانني فتحته كيفما اتفق ، وان نظري وقع على بعض الاشعار التي بدت لي تتفق ووضعي . هذا غير صحيح . انما الصحيح انني عندما استيقظت في دجى الليل ، عادت ذكرى اوديب الملك الى ذهني وخيل إلي انني لمحت في دراما سوفوكل بعض التشابه مع وضعي . وآنذاك فكرت ، جرياً على عادة الروائي في الاستفادة من حالته الشخصية حتى في لحظات البلبلة وثبوط الهمة ، بأن الإشارة الى المأساة اليونانية في روايتي سيكون لها وقع حسن . فلمَ لا أفعل ذلك في يومياتي ايضاً استباقاً للرواية ؟

لم أتردد اذن ، في صباح اليوم التالي وأنا أسرد حوادث الليل ، لم أتردد امام لقطة الكتاب الذي وضعته يد خفية اثناء رقادي على طاولة سريري ليكون بمثابة إنذار لي عند يقظتي .

قد يعترض عليّ معترض بقوله : أي أهمية لذلك؟ ما الفرق في حالة كهذه بين الشيء المتخيل والشيء الذي حدث فعلاً ؟ كلا ، هناك على العكس فارق كبير وأعتقد ان من المفيد ان أفسره . وسيكون تفسيري هذا صالحاً في كل مرة أستسلم فيها لإغراء الراوية وأقوم بإجراء تعديلات أو تغييرات .

ان الفرق بين الشيء المتخيل والشيء الذي حدث فعلاً (فيما يتعلق بيومياتي على الاقل) هو الفرق القائم بين واقع الكذب وواقع الحقيقة . فالواقع الأخير ، المباشر والفوري ، هو الواقعة بالذات اثناء حدوثها . أما الاول فهو على العكس غير مباشر وغير فوري ولا يكمن في الواقعة كما تظهر وتحدث وانما في دلالة الواقعة .

وعلى هذا لو خاطبت ذاتي بدلاً من ان أكتب كما افعل الآن ، لوجهت الى نفسي على ما أعتقد لاذع القول : « ايها المرائي ، انت متسامح تجاه الشخص الوحيد الذي لا ينبغي ان تتسامح معه : شخصك بالذات . لقد كتبت مختلقاً انك وجدت كتاب أوديب الملك على طاولة السرير لترفع من شأن قصتك ، ولتضفي طابع النبل على مغامرتك ، ولتحل أخيراً شعورك بالاثم في تشبيه أدبي جذاب . هذا الواقع ليس اذن سوى واقع اختلاقك ، لا واقع التشابه بين قصتك وقصة اوديب ، وانت لا تستطيع ان تشعر بأنك مبرر وان تترك في يومياتك تلك الإحالة إلى مأساة اوديب إلا اذا اعترفت بذلك الواقع وسلطت الضوء عليه » .

وهذا ما فعلته : سلطت الضوء على واقع اختلاقي . وفي المستقبل، عندما سأشرع باستخلاص رواية من يومياتي ، سأتبين ان رياتي يستطيع ان يكون ذا فائدة ما ، إما بفضحي اياه وإما بتركي القارىء يكتشفه بنفسه. وعلى كل، ليس هدفي تصحيح نفسي وانما كتابة كتاب .

الجمعة ٢٣ تشرين الاول

اليوم عيد ميلاد بابا التي بلغت العشرين . وقد أعلمتني بذلك بنفسها عندما دخلت الى مكتبي هذا الصباح ووقفت بين الطاولة التي أجلس اليها وبين النافذة :

– قل لي أمنياتك .
– أمنياتي ؟ لماذا ؟
– لأن اليوم عيدي .
– عيد ميلادك او عيدك الشخصي ؟

– عيد ميلادي . فقد بلغت اليوم العشرين .

كانت تنظر إلي نظرة شجية مؤثرة ووقحة معاً ، وكأنها تنتظر شيئاً ما.

ولفظت بجهر ، وأنا أبتسم :

– لك طول العمر !

– شكراً .

كانت ما تزال تنظر إلي غير قانعة . ففهمت ، فنهضت وقبلتها بشيء من الحرج على وجنتيها ، ثم ، إذ مدّت لي جبينها ، على خصلة الشعر التي تتدلى على عينيها . لكنها سرعان ما تحررت من العناق وكأنها لم تتوقعه وتتقبله عن طواعية . وقالت بسرعة :

– أتعرف ، عليك اليوم ان تبذل مجهوداً صغيراً . فقد دعوت سانتورو الى الغداء ، وهو يعرف انـــه عيدي وعليك ان تظهر انك انت ايضاً تعرف ذلك .

– أي ؟

– ان تظهر مرحك ، سرورك ، عطفك ، وبكلمة واحدة ان تحتفل بي بقدر ما في وسعك ...

– فهمت .

– سانتورو ...

– بالمناسبة ...

– ماذا ؟

– لمَ تدعينه سانتورو وليس باسمه : باولو ؟

– انها عادة . لقد قدم لي سانتورو هديته

– ماذا اعطاك ؟

– اسطوانات .

– الإمَ تلمّحين ؟ إإلى انه من المستحسن ان أقدم لك هدية بدوري ؟

– أجل .

– لكن لا ادري ما الذي يمكن ان يحظى بسرورك ؟

– اواه ! اي شيء كان ، بشرط ...

– بشرط ان يكون هدية .

– هو ذاك ...

– كان في مقدورك ان تقولي لي ذلك قبل الآن . فأنا لم اكن اعرف انه عيدك . ثم ان الأوان قد فات الآن و ...

– لا تشغل بالك بهذا . فقد فكرت بكل شيء .

– ماذا تعنين ؟

– توقعت انك تجهل ان اليوم سيكون عيدي وتوقعت ايضاً انه سيكون لديك عمل ولن تستطيع الخروج بقصد شراء هدية لي . ولهذا اشتريت تلك الهدية بدلاً منك . وستسدد لي ما دفعته ، وسأسلمك الهدية ، ثم تهبني اياها بدورك .

– اي نوع من الهدايا هي ؟

– منديل جميل جداً يُعقد على الرأس ، هو بالضبط ما كنت أتمنى .

– بكم أنا مدين لك ؟

– عشرة آلاف لير ، أهذا كثير ؟

سحبت من محفظتي ورقة بعشرة آلاف ، وناولتها لبابا التي ناولتني بدورها علبة مستطيلة مغلفة بورق أحمر ومربوطة بشريط أخضر . وسألتها ، وأنا أشعر بأنني كالممثل أمام مخرجه :

– ما علي ان أفعل الآن ؟ هل تريدين ان أقدم لك هديتك ونحن على المائدة بحضور الآخرين ، ام تفضلين ان أقدمها لك على الفور ، هنا ؟

– على الفور ، هذا افضل .

وبادرت لأعيد اليها العلبة بكل بساطة لكنها حدجتني بنظرة شاخصة ،

فيها رصانة مطمئنة ومدروسة . ففهمت ، ونهضت قائلاً :

لك يا بابا أصدق تمنياتي وأحرّها . وهذا لك .

انها هي التي ألقت بذراعيها حول عنقي هذه المرة ، تماماً كما تفعل فتاة قدم لها والدها هدية عيد ميـــلادها . لكن بينما كانت تعانقني ، لا أدري لِمَ تجلى من جديد الالتباسُ الكامن في صميم علاقاتنا : فقد مسّت يد بابا أذني ، ثم شعري ، مساً واهياً واهناً ، في مداعبة خفيفة لا يمكن إلا ان تكون مقصودة ، وشدت جسمها الى جسمي ، والتصقت بي مدفوعة بسطوة آسرة ، وانسحق نهداها على صدري ثم انسابا جانبياً وطوّقا ذراعي اليسرى وكأنها تريد ان أعرف على نحوٍ أفضل شكلها ومتانتها ومرونتهـا ، وحامت أنفاس بابا المضطربة النهمة مدة طويلة على خدي قبل ان تتحول الى قبـــلة بنوية طبعت على مسافة متعادلة بين الفم والأذن . واخيراً افترقنا ونظرت الى بابا بشيء من الفضول ، ولاحظت انها حافظت على تعبيرها المعتـــاد الهادىء والمداهن الذي يبدو وكأنه يقول : « انت تحبني ، أعرف ذلك ، ولعلني أحبك انا ايضاً : لكن من المتفق عليه ، مهما حدث ، اننا أب وابنة » .

لكن يبدو ان بابا ادركت ما أفكر به لأنها قالت بلهجة طبيعية وعاقلة بينما هي تحل عقدة الشريط وتنزع الورق الذي يغلف العلبة :

– لعلك تفكر بأنني أفرض عليك نوعاً من الكوميديا . لكن هـــذا غير صحيح . فليست المسألة مسألة كوميديا ، على الأقل بالنسبة إلي ، أقسم لك. لقد تمنيت دوماً ان تكون أباً لي وأنا جد مسرورة الآن لقبولك بذلك !

وفتحت العلبة ، وأخرجت المنديل ، وبسطته لتريني رسومه التي تمثل أدوات تدخين : مشارب ، غلايين ، علب ثقـاب ، سيجارات ، سجائر ، ولاعات ، محفظات سجائر ، اكياس تبغ ونفاضات ، على خلفيـــة قشدية اللون لها حاشية بلون التبغ . ثم تقدمت لتقف أمام المرآة ووضعت المنديل على رأسها :

– أليس جميلاً ؟ ألا يليق لي ؟ قل لي انه يليق لي ؟

بعد بضع ساعات كنا مجتمعين حول المائدة ، كورا وبابا وسانتورو وأنا. سانتورو فتى متين المظهر ، مربوع ، له وجـــه كبير طيب شاحب ومسالم يذكـّر بخبز البيت الذي لم يخـــبز كثيراً ، وشعر أسمر كث ينبت حتى من منتصف جبينه ، وعينان صغيرتان بلون الكستناء . متحركتان لكن بلا تعبير ، وذقن متينة لهـا في وسطها نقرة . وكان لهذا الوجه القروي تعبير جاد ، مهموم بعض الشيء ، لكنه يعكس في الوقت نفسه ثقة معينة بالنفس وبروداً معيناً . كان مستغرقاً في تأملاته كما انه بمفرده ، وهو جالس بين كورا وبابا ، وعندما لا يأكل كان يلزم الصمت وعيناه شاخصتان الى السماط، يكوّر بين أصابعه القوية والقصيرة كتلاً صغيرة من لباب الخــبز . ومن حين الى آخر كان يرفع رأسه ويبسم لبابا ، وعندها كانت نقرتان جديدتان تنحفران في وجهه ، واحدة في كل خد ، وكان لا يتكلم إلا عنـــدما يوجّه الكلام اليه ، ويجيب آنذاك بتؤدة ودقة مختاراً كلماته بعنـاية ورابطاً بينها على نحو مدروس . وكان صوته خافتاً أجش .

وكانت كورا ، كعادتها ، جالسة باستقامة وتخشب ، ملتزمة الصمت المطبق، مثبتة علينا عينيها الزرقاوين الكبيرتين بعدستيها الواسعتين ، وكانت ابتسامة لاشعورية بلا ريب تشد زوايا فمها المريض الأحمر .

كانت بابا هي الوحيدة التي تتكلم ،وكان من السهل معرفة السبب: فهي التي أرادت وجبة عيد الميلاد هذه ، وهي التي وضعت برنامجها، وهي التي تديرها. وكانت هذه الارادة ترتسم على نحو ظاهر مرئي في طقوس حفلة الطعام هذه كما ترتسم معالم وجه من الوجوه منقوش على صفحة شافة من الورق .

عمَّ تكلمنا ؟ تكلمنا ، بالطبع ، عن كل ما يخص سانتورو وبابا وكورا وأنا. وهكذا تكلمنا عن أسفاري ومهنـة الصحفي، عن دروس سانتورو الطبية ومشاريعه ، للمستقبل ، عن كسب بابا لجزء من حياتها عن طريق تحريرهـا

أطروحات الأدب لحساب الطلاب الكسالى او العاجزين ، وعـــن ورشة خياطة كورا .

اثناء ذلك كانت بابا ترقب مجرى الحديث من غير ان تضطرب ومن غير ان تسترعي انتباه أحد ، مطمئنة ، مقتصدة في الحركات والكلام ، طارحة اسئلة سديدة ومناسبة ، مبدلة الموضوع في الوقت الملائم ، متدخلة من طرف خفي لتذكي كلام الآخرين من غير ان تقطعه ، وبكلمة واحدة كان سلوكهـا سلوك ربة بيت محنكة واثقة من نفسها . وهكذا ، وبعد أن كانت حفلةالغداء قد بدأت في جو من الحرج والضيق والبرود الجليدي يرجع سببه الى وعينا الشاق على النفس لكل ما يختفي وراء مثولنا على المائدة المشتركة ، وبعد أن ظهر ديك حبشي محشو أعدّته بابا (التي هي ، على ما يبدو ، طاهيةماهرة) وحملته على طبق باحترام وجل الخادم العجوز التقليدية في وفائها وتعلقهابأهل البيت ، أقول بعد هذا تحركت الحفلة وخفت وطأتها وتحررت في النهايـــة وانطلقت ، كمنطاد أفلت من قلوسه ، في جو عائلي بما فيه الكفايـــة تماماً كما ارادته المخرجة . وفي إحدى اللحظات خيل إلي أنا نفسي انني حقاً كماتريدني بابا ان اكون : أباً عطوفاً ورائقاً ، زوجاً واثقاً وسعيداً ، بـــل حمواً كله لطف وحسن التفات .

لكن في نهاية الطعام أمرت بابا الخادم بجلب زجاجة منالخمر المزبدوأربع كؤوس وألحت على كورا لكي تفتح الزجاجة بنفسها . واخذت كورا بـــين يديها البيضاوين ، الصقيلتين والدنستين ، الزجاجة الداكنة اللون ، الواسعة القاع ، المغلفة بماركة صفراء ، المؤطر عنقها بقصدير أحمر ، وأمسكت بهاعن بعد ، والسيجارة في زاوية شفتيها ، وعيناهـا نصف مغمضتين ، وشدت الى الأعلى السدادة الضخمة المربوطة بسلك حديدي مضفور . وضغط إبهامهـــا الابيض ، ذو الظفر البيضوي ، المحدب والقرمزي على السدادة ، فراحت تخرج بتؤدة من عنق الزجاجة ، ثم كان الانفجار المتاد وأطلقت بابا صيحة متظاهرة بالذعر وأخفت وجهها في فوطتها ، وأمالت كورا وهـــي تبتسم

الزجاجة فوق الكؤوس فتدفق الخمر مزبداً . وآنذاك ، وعلى حين غرة ، انهارت المأدبة العائلية المقامة بمناسبة عيد ميلاد بابا (بالنسبة إلي على الأقل) كما ينهار ديكور من الورق المقوى ، ولم أستطع ان أمنع نفسي ، وأنا أنظر الى يد كورا بأصابعها الطويلة البيضاء تشد على زجاج القنينة الداكن والى الموج المزبد يتدفق ليملأ الكؤوس، اقول لم أستطع أن امنع نفسي من التفكير بأن المني المذكر يتدفق على النحو نفسه في منزل كورا لحظة النشوة الكبرى وبعد طول تهيؤ . وعلى حين غرة تلون المشهد العائلي بلون دنيء وبدا لي مجهود بابا باطلاً بطلان مجهود مخرج يتشبث بإخراج مسرحية هزلية رديئة رداءة لا علاج لها .

وانتفضت إذ راودتني هذه الفكرة ، وانسال الخمر على المائدة ، وغمست بابا ، التي كانت ما تزال تجهد بالطبع لتفعل الأشياء كما ينبغي ان تفعل وكما يفعلها الناس جميعاً ، أقول غمست أصابعها في الخمر وبللت أذني قائلة : « لتكن حياتك فرحة ، فرحة ، ولتعش في أجود صحة ! » . ثم نهضنا جميعاً معاً ، والكؤوس في ايدينا .

ومن حسن الحظ ان الأنخاب لم تدر ، وانما اكتفينا بأن نقرع كؤوسنا بعضها ببعض ونحن نلفظ أسماء بعضنا بعضاً بصوت خافت ، فرانشيسكو ، بابا ، كورا ، باولو ، وشربنا بوقار وكل منا ينظر الى الآخر من فوق سطح الخمر الذي كان ما يزال يفور بالحبب . وكان ذلك اكثر حميمية وصميمية في الواقع من شربنا في صحة بعضنا بعضاً . ولكزتني بابا بمرفقها وارادت أن نشرب معاً وبمفردنا ، وأذرعنا متعانقة ، فتحتسي هي من كأسي وأحتسي أنا من كأسها على الطريقة الألمانية . ومع هذه الحركة ولد من جديد التباس علاقاتنا المعتاد ، لأنها ثبّتت مباشرة في عيني نظرتها الجلي بما لست أدري من تواطؤ . ثم عددت بصوت عالٍ الهدايا التي تلقتها : اسطوانات الموسيقى الكلاسيكية من سانتورو ، الثوب وقارورة العطر الفرنسي من كورا ،

منديلي ، وهدايا اخرى من زملاء وأصدقاء . وأخرجت المنديل من حقيبتها لتريه للحاضرين ، وانتقل المنديل المبسوط من يديها الى يدي سانتورو الذي تفحّصه بإمعان وقال بقناعة : « جميل ، جميل جداً »، ثم من يدي سانتورو الى يدي كورا التي نظرت اليه من غير ان تقول شيئاً ثم أعادته الى ابنتها .

في تلك اللحظة رنوت من خلال النافذة التي بين سانتورو وكورا ورأيت من بعيد طائرة صغيرة ترتقي سلم السماء بسرعة صاعقة . ثم رأيتها من خلال غيمة فاتحة شفافة : بقعة صغيرة داكنة تتحرك بسرعة خاطفة لتختفي في النهاية شاقة طريقها بين سحابتين سوداوين ، عاليتين وكثيفتين كبرجين . وآنذاك لم استطع ان أمنع نفسي من التفكير، بحسرة حسود ، بعدو الطائرة وهي تقل ، في تلك اللحظة بالضبط ، المسافرين الجالسين على صفين، برؤوسهم الملتفتة نحو الكوى الصغيرة ، والمضيفة الواقفة التي تقدم باسمة المعجنات على طبق ، والإطار المضيء فوق الباب المفضي الى حجرة القبطان ، والذي تعرض عليه بأحرف من نور التوصيات بعدم التدخين وبشد الأحزمة . وقلت في نفسي انني استطيع ، اذا شئت ، ان احتل مكاني في وقت قريب جداً في طائرة كهذه تقلني بعيداً عن كورا وبابا وروما . فالمسألة لا تتعلق بأحد سواي ويمكنني ان انفذها غداً . لكني في الوقت نفسه ، في تلك اللحظة بالضبط ، لمحت بابا ترنو إلي وتبتسم لي ابتسامة شجية تحت ظاهر تعبيرها المتناوم المعتاد. وآنذاك خجلت من فكرتي وفهمت في الوقت نفسه مدى قوة العاطفة المبهمة والمعقدة التي تشدني اليها ، او التي تتوصل بابا دوماً بالأحرى الى ان توحي بها إلي في كل لحظة وكل ظرف ، من غير ان تفشل ولا مرة واحدة ، بمجرد كونها موجودة .

الأحد ٢٥ تشرين الأول

اليوم أعدت قراءة كل مسرحية « اوديب ملكاً » التي تخيلت ، في تلك

الليلة لوصولي من ايران ، انني وجدتها على طاولة سريري . واكثر ما شدهني هو عناد اوديب المستميت في التوصل الى معرفة الحقيقة بعد سنوات عديدة من اللامبالاة والسهو والنسيان . صحيح ان هذا العنـــاد المستميت مرتبط مباشرة بجواب ابولون الذي عزا الطاعون الذي يعيث فساداً في طيبة الى ان جريمة اغتيال ملك طيبة ، لايوس ، ظلت بلا عقاب . لكن هذا لا يمنعنا ، اذا ما فكرنا بالسنوات الكثيرة التي قضاها اوديب في طيبـــة بين مواطنيه الذين عرفوا لايوس وأحبوه ، وبجانب امرأة كانت قرينة لايوس ، مع وعيه الذي لم يغادره بأنه لطخ نفسه هو الآخر بجريمة في ظروف غامضـة ، أقول هذا لا يمنعنا من ان نجد انفسنا مضطرين الى التفكير بأن اوديب لم يجهـل ، طوال تلك السنين العديدة ، ان المرأة التي تزوجها هي أمه بقدر ما انه أصر على رفض معرفة هذه الحقيقة . يقيناً ، ان الاساطير غير مطالبة بأن تكون مشاكلة للواقع . لكن يمكننا الافتراض بأن عدم مشاكلة الاساطير للواقـع له في حد ذاته دلالته المشاكلة للواقع . والحـال ما الدلالة ، ما المعنى الذي يمكن ان يكون لتلك المغامرة التى لا تصدق ، مغامرة رجـــل قتل أباه وتزوج ، عن غير علم ، من أرملة ضحيته ، ومع ذلك لم يحدثها قط ، طوال حياتها المشتركة المديده والمحتمة ، عن الجريمة التي حرمتها من شريكهـا ، وما كان يتعرف ، عندما يسمع هذه المرأة تتكلم عن تلك الجريمة ، التفاصيل الخاصة المميزة لجريمته هو ؟ هل لهذا من دلالة سوى ان اوديب وضع غشاوة في عينيه وجعل في أذنيه وقراً بصدد كل ما يتعلق بقتله أباه ؟ وانه يبـذل قصارى جهده ، لاشعورياً ، حتى لا يتبـين التشابه الوثيق بين الجريمة التي يعرف انه اقترفها ، وبين تلك الجريمة التي قضى فيها سلفه ؟

في الحقيقة ، لقد بذل اوديب كل ما في طاقته ، طوال السنوات التي انصرمت منذ وصوله الى طيبة الى اندلاع الطاعون ، لكي يكون لامنتبهاً تجاه ذاته ، تجاه جوكاست ، تجاه طيبة ، وبكلمة واحدة تجاه الواقع . لقد أراد أن يتجاهل ما هو ماثل أمام ناظريه ، وتوصل الى تجاهله ، ولو

بثمن لاواقعية تامة . وبالفعل ، أين الواقع في حياة رجل هو ابن زوجته ، وأخو أبنائه وأبو أخوته وأخواته ، وزوج أمه ؟ ان لاواقعية حياة كهذه لا تطاق إلا بفضل خدر اللاانتباه التـــام لكن ههنا يكمن السؤال الأول والأخير : لمَ كان اوديب غير منتبه ؟ إن المرء ليجد نفسه مكرهاً بالضرورة على الإجابة بأن اوديب غير منتبه لأن اللاانتباه يناسبه . وعلينا ان ننسب هذا العمى القسري من جهة اولى الى حبه جوكاست، ذلك الحب السفاح الذي يستمد قوته وتأججه من شذوذه (كما يحدث دوماً تجاه كل ما هو محرم) ، ومن الجهة الثانية الى رغبته في القوة ، لأنه لا ينبغي ان ننسى ان اوديب انما اصبح ملكاً بفضل قتله أباه وبفضل السفاح . لكن ينبغي أن ننسبه بوجه خاص الى خوف بني الانسان من معرفة الحقيقة .

بيد ان اوديب كان يجهل مع ذلك انه يغلق عينيه بإرادته ، وإلا ما كانت مأساته لتكون غير مأساة الطموح والحب . كان يجهل ذلك ، ولهـذا كانت مأساته على العكس مأساة الجهل الإرادي ، المكتفي بنفسه ، المتخوف والجاحد ، أي مأساة اللاانتباه . لكن اوديب انسان قـادر على الانتبـاه ، وبالفعل انهار لانتباهه عند أول يقظة لوجدانه . وابولون الذي ارغمه ، عن طريق عرافه ، على الانتقال من اللاانتباه الى الانتباه ، ابولون الذي تقمص شخصية أخرى وظهر في ملامح تيريسياس ، أبولون هذا يمثّل، إذا ما أعملنا الفكر ، ضمير اوديب بالذات ، ذلك الضمير الذي لم يستسلم ويخنع قط تمام الاستسلام والخنوع . لقد استسلم اوديب لأفراح زواج سفـــاح ، ولأفراح سلطة مغتصبة ، لكن الإله كان دومـــاً هنا كلي الحضور ، كلي الرؤية . وعندما آن الأوان سدّد بنفسه الى اوديب الضربة التي أيقظته من سباته الطويل . ترى هل عاقب أبولون اوديب على قتله أباه ومضاجعته أمه ؟ أم أنه عاقبه على استسلامه للاانتباه ، أصل الشرور كافة ؟ لقد عاقب أبولون اوديب على استسلامه للاانتباه . وطالما ان عقاب اوديب لم يكن العقاب المعد لقتله آبائهم ولمقترفي الحب السفاح ، وانما كان العقاب الواجب إنزاله بكل

من يرفض ان يرى ، لذا فقد أضحى اوديب أعمى . لكن المفارقة تكمن في أن اوديب عندما أمسى أعمى أصبح بصيراً شأن تيريسياس الذي ليس بصيراً إلا لأنه أعمى .

فماذا رأى أوديب ، والحالة هذه ، عندما فتح عينيه بعد ان فقأهما ،اي عندما انتقل من اللاانتباه الى الانتباه؟ لقد رأى بالتأكيد انه زوج أمه وقاتل أبيه ، لكنه رأى بوجه خاص ذاته ، أي رأى لمَ وكيف حل اللاانتباه في روحه محل الانتباه . وبكلمة واحدة ، رأى ان جريمته لا تكمن في استعباد أهوائه له بقدر ما تكمن في تشبثه بوهم عدم الشعور بها واعتماده على هـذا الوهم ليطلق العنان لهذه الأهواء .

انني أدرك أنني ، بتأويلي مأساة اوديب بهذه الصورة، قد أرجعت المأساة الى مستوى التحليل البسيكولوجي والاحتيال . ولا ريب في أن هـذا التأويل ، البعيد عن التفسير الذي اعتمدته مدرسة التحليل النفسي بعده عن حقيقة اوديب بقدر ما كنت ابحث عن التفسير التقليدي التراثي ، يمكن ان يبدو تعسفياً. لكني لم اكن أبحث عن حقيقتي الخاصة ، لذا كان من العدل ان أستخدم المأساة لكي أفهـم على نحو أفضل الوضع الذي وجدت نفسي فيه.

إن الاستنطاق الذي توصل اوديب عن طريقه، في المأساة ، الى انيعرف شيئاً فشيئاً الحقيقـة ، قد ذكرني في النهاية انني قطعت على نفسي عهداً بإخضاع كورا لاستنطاق مماثل .

كانت الرسالة المغفلة قد هتكت الستر عن فساد أسرتي ، وكانت محادثتي مع بابا قد ولدت في نفسي الشك بأنني ربما كنت المذنب والمسؤول الوحيد عن هذا الفساد ، لكن لم تتعدَّ المسألة حدود الشك . وبالفعل ، وعلى فرض انني المسؤول المباشر عن مهنة كورا لأنني بعدولي عن حبها وانفصالي عنها قد دمرت لديها كل فكرة عن النظام العائلي ودفعت بها دفعـاً على طريق دعوتها السرية ، أقول حتى لو قبلت بهذا الفرض ، يبقى عليَّ مع ذلك أن

اكشف حجب الغيب عن المسألة الأهم التي ما تزال غامضة بالنسبة إليّ : لمَ توقفتْ عن حب كورا او بالأحرى كيف بدأت بحبها ؟ ان استجواب كورا هو الوسيلة الوحيدة لكي أعرف الحقيقة بدقة ، او على الأقل لكي أواجه حقيقتي بحقيقتها .

الثلاثاء ٢٧ تشرين الاول

خرجت هذا المساء قاصداً شارع كلوديا حيث ورشة الخياطة . أنا لم أذهب قط الى هذا الشارع ، لأن كورا كانت تقيم ، طوال السنوات التي اهتممت بها فيها ، في حي آخر . صففت السيارة بمواجهة المنزل ، وبينما كنت انتظر النور الأخضر لأعبر عرض الشارع ، نظرت . كان الوقت ليلاً ، ولم يكن يشاهد من المنزل سوى الطابق الارضي والطابق الذي فوقه وكانا منارين بأضواء المخازن والفوانيس ، اما الطوابق العالية فكانت غارقة في ليل دامس على خلفية من جبل « ماريو » الحالكة السواد . كانت بناية من الطراز الكثير الشيوع ، لها واجهة صفراء وشرفات تلفّ حولها بمستوى الطوابق . وكان الطابق الأرضي مؤلفاً من بار ومخازن ، وكانت أشجار الدلب تمد أغصانها حتى الطابق الرابع . وتقدمت الى مدخل البناية ، كانت فيه لافتة شبيهة بلافتة البوابة لكن أصغر حجماً تشير الى باب كورا . وكان الباب مفتوحاً ويطل على باب آخر من الزجاج الكتيم يضيئه من الخلف نور أبيض ساطع . فدفعته وتعالى رنين جرس . وفي آخر الممشى لمحت على نحو مبهم مجموعة من النساء امام طاولة كبيرة من تلك الطاولات التي تبسط عليها الخياطات الأقمشة لتفصيلها . والتفتت احدى النساء إذ سمعت رنين الجرس وهتفت بي كورا من بعيد :

– اذهب وانتظرني في الصالون الصغير ، الباب الاول الى اليسار .

صالون القياس : ديوان وأريكتان، ومانيكان خشبي بلا رأس ولا ذراعين ولا ساقين منصوب على وتد ، ومرآة خياطة بثلاثة مصابيح . السجـادة رمادية والأريكتان حمراوان . جلست ، وتناولت مجلة ، وتصفحتها . ثم رميت بها على الطاولة، ونظرت حولي ، وأخيراً نهضت وقد تملكني اضطراب مفاجىء واتجهت نحو الممشى .

في الورشة ، من وراء الباب المنفرج ، سمعت نقـاشاً حاداً . فجازفت وفتحت باباً أول : الحمام ، وثانياً : المطبخ وثالثاً : غرفة النوم . وأدرت هذه المرة مفتاح الضوء : كانت هذه الغرفة مغفلة ، ليس لها أي طابع شخصي خاص مثلها مثل صالون القياس : سرير عريض لشخصين لا يترك غير مسافة ضيقة للغاية للمرور من حوله ، وطاولتان ملصقتان بالسرير ، وخزانـة ، والكل من الخشب الفاتح اللون مع ستائر وسجادة فاتحة اللون أيضاً . وقلت في نفسي ان هذه الورشة واضحة الدلالة بالنسبة إلي ، على وجـه التحديد لأنني أعرف مهنة كورا . ولولا ذلك لما انتبهت إلى طابع هذه الغرفـة كما لا أنتبه عادة الى أماكن اخرى مشابهة ، لا شخصية هي أيضاً . لكن ماذا أرى في الواقع ؟ انني أرى شيئاً ما يكشف لي ، من خلال رماديته كشيء سبقت لي رؤيته ، عن طابع مهنة كورا الثانية والفساد الذي وراء ازدهـار هذه المهنة ، طابع رتيب ، يومي ، خلو من المعنى .

وارتعدت إذ سمعت صوت كورا :

— أتتأمل الشقة ؟ انني لم أستأجرها إلا منذ عام واحد . وقد تركتها كما هي ، بما في ذلك غرفة النوم .

— ما حاجتك اليها ؟

— عندما يكون لدي عمل كثير ، أستريح فيها احياناً بعد الغداء

— اذن ، هل انتهيت ؟ أنستطيع الانصراف ؟

— لأي غرض ؟

– ألا تذكرين : المعلومات ...

– آه ! لكننا نستطيع التحادث هنا .

– هنا ؟ لا . هيا بنا !

وتبعتني من غير ان تنبس ببنت شفة . وفي المصعد نظر كل منـــا الى الآخر بالرغم من ضيقه الذي أرغمنا على الالتصاق . ولم تسألني « الى أين نحن ذاهبان ؟ » إلا بعد ان ركبنا السيارة .

خطرت لي فكرة : سنتوقف في شارع كاسيا حيث منزل مواعيد كورا. انني لم أذهب اليه قط لكنني أعرف عنوانه الذي حصلت عليه من بابا سوف أصفّ امام لبوابة ، حتى تفهم كورا انني على علم بمهنتها ، لكن من غير ان اقول لها ذلك بصريح العبارة . وأجبت :

– لا أدري . في خلدي ان نتوقف في مكان ما من شارع كاسيا .

ولم تفه كورا بأي تعليق . ووصلنا الى ساحة بونت ميلفيو ، وشرعت بارتقاء شارع كاسيا . كانت كورا تجلس بلا حراك ، مستقيمـــة الجذع ، ويداها مضمومتان على حقيبتها التي وضعتها على ركبتيها . وجرت بنا السيارة في صمت فترة من الزمن . وتباعدت المسافات بين الدور التي أصبحت أنـــدر فأندر ، ثم بدأ الريف بين منحدرين معشوشبين مسيجين بأشجار البيلسان . كنت أعلم ان المدينة ستعاود الظهور بعد هذا الخلاء الريفي . لكني لمحت فجأة بوابة سوداء صغيرة بين ركيزتين من الآجر الأحمر ، تخترق بمفردهـــا سياج البيلسان ، وشاهدت على إحدى هاتين الركيزتـــين الرقم الذي كنت أبحث عنه . وكانت الطريق رحبة وواسعة امام البوابة بالضبط كما لو بتدبـــير من العناية الالهية . ودرت بالسيارة وصففتها بجانب البوابة باتجاه روما .

أوقفت المحرك ، وسحبت الفرمل اليدوي ، وأنا أتأمل البوابـــة من الأسفل إلى الأعلى . ولم أتبين شيئاً لأن الظلام كان حالكاً ، لكني حزرت ، عبر القضبان ، البياض غير الموثوق لحصباء ممرّ صاعد. لا ريب في ان الدار ،

وهي فيلا صغيرة على الأرجح ، تنتصب على علوة . وما كان من الممكن ، ولا سيا ليلاً ، مشاهدتها من الطريق .

وسعلت كورا عدة مرات ، ثم فتحت حقيبتها ونقبت فيها وأخرجت منها علبة معدنية صغيرة صفراء تناولت منها قرصاً طبياً دسّته في فمهـــا . وفيما كانت تنفذ هذه الحركات ، كانت مصابيح السيارات التي تمر في شارع كاسيا في كلا الاتجاهين تضيء تارة وجهها وطوراً ظهرها بشدة قاسية سريعة الزوال . وأشعلت سيجارة ، وعندما رفعت ولاعة السيارة لمست المفاتيـح التي اصطدمت بلوحة السيارة فأحدثت رنيناً معدنياً ضعيفاً . وقالت كورا:

– حسناً ! تكلم ، ماذا تريد ان تقول لي ؟

فقلت بسرعة :

– آه ! اجل ، كنت أريد ان أسألك بعض الايضاحات من اجل الرواية التي انا في سبيلي الى كتابتها .

– هذا صحيح ، الرواية ...

– هذه الرواية بدأتها منذ عشر سنوات بالضبط ، ثم أهملتهـا . واليوم أريد أن أستأنفها . لكني بحاجة الى أن توضحي لي بعض النقاط ...

– طيب . اسأل وسأجيبك .

– هذه الرواية تروي قصتنا ، اي قصة علاقاتنـا منذ اليوم الذي التقينا فيه الى يوم زواجنا . وبودي لو أعرف ...

وأمسكتُ عن الكلام لحظة من الزمن ، محرجاً . في الواقع ، ما كان بودي ان أعرف ! لقـد كان الأجدر بي ان أستجوب كورا عن الأشياء التي تحدث حالياً . لكن لا مندوحة لي ، بعد ان قررت الامتناع عن هذا الاستجواب، من ان اكتفي باستجوابها عن الاشياء التي حدثت وانصرمت . وعلى كل، ومهما تكن هذه الطريقة ملتوية وغير مباشرة ، فهي وسيلة للوصول الى الحقيقة :

– اريد ان أعرف لمَ أولعت بك وتزوجتك ، في رأيك .

فأدارت رأسها قليلاً ونظرت إلي من طرف عينها،ربما بشيء من السخرية:

– أهذا هو الموضوع ! لأنك أحببتني !

– أحببتك .. لكن لماذا ؟

– لمَ يحب الرجل المرأة ؟ انه يحبّها هكذا ، من غير ان يدري السبب .

– لنقل ذلك بصيغة اخرى : اذا كنت قد أحببتك ، فلمَ ساء مآل الأمور ؟

– وكيف ساء مآل الأمور ؟

– لقد فقدت اهتمامي بك وبيابا . ورحت أسافر . واصبحت غريباً في بيتي .

– انني أجهل السبب . واذا كان هناك سبب ، فأنت المفروض فيه ان يعرفه .

– واذا كنت لا أعرفه ..

– كيف ، أتفعل الاشياء ولا تدري لمَ تفعلها ؟

– هكذا حالنا جميعاً . أليس كذلك ؟

– الله أعلم ! أما أنا فلي فكرتي ...

– وما هي ؟

– ما يهمك ان تعرفها ؟

– قلت لك ، منذ لحظة ، انني بحاجة الى بعض المعلومات لكتابة روايتي ...

– آه ! هذا صحيح ، روايتك ...

– ألا تؤمنين بها ، روايتي ؟

– انني أومن بها من غير ان أؤمن بها .

– لمَ تؤمنين بها من غير أن تؤمني بها ؟

– لأنك تستخدم هذه الرواية كذريعة لتفعل اولا تفعل بعض الاشياء . وهذا ما كان شأنك قبل عشرة أعوام ايضاً : فعندما لم تكن بعد راغباً في مضاجعتي ، تذرعت بأنك بحاجة الى توفير قواك لتتمكن من كتابة روايتك . وهذا لم يكن صحيحاً قط ، لأنك لم تكتب الرواية ، وانما رحت على العكس تضاجع ، وبأي كمية ! لكن ليس معي ، هذا كل شيء !

– ما يدريك ؟

– أدري .

– لا أرى ما دخل ذلك فيما يشغل بالي الآن . قولي لي بالأحرى ما هي فكرتك تلك .

فنظرت إلي ملياً بطيبة ملتبسة ، تماماً كما تنظر القوادات عندما يجدن أنفسهن بمواجهة زبون من الزبائن ، تكهناً منهن بالمرأة التي تناسبه :

– لقد أحببتني،أحببتني حقاً ، لا مجال للشك في ذلك قطعاً .

– ثم ماذا ؟

– انتظر ... لقد أحببتني وبرهنت لي عن حبك . ثمة أشياء لا يمكن التظاهر بها .

– بالفعل : فقد تزوجتك .

– كلا ، ليس هذا ما أردت قوله . فالرجال جميعاً على استعداد دوماً للزواج . انني اتكلم عن طريقتك في فعل الحب إلى أن تزوجنا .

– كيف كنت أفعله ؟

– كما يفعله الرجل الذي يحب ، بالضبط .

– كالرجل الذي يحب ؟

– اجل .

– وكيف يفعل الحب الرجل الذي يحب ؟

– كما كنت تفعل انت . لقد نسيت هذا ايضاً ...

– لا بد انني فعلته كما يفعله كل انسان يحب ، أليس كذلك ؟

– نعم ولا .

– لا أفهمك . لكن كيف انتهى إذن ذلك الحب الكبير الى غير رجعة؟

– لأنك كنت بحاجة الى شيء معين ، ولقد جاءت لحظة لم أعد فيها أقدمه لك .

–اي شيء كنتُ بحاجة اليه ؟

– كنت بحاجة الى امرأة من نوع معين. وعندما التقيت بي، كنت بالضبط المرأة التي تحتاجها . لكني لم أعد كذلك فيما بعد .

– آه ! اجل ، هذا ممكن ، ربما ... كنت ابحث ... كنت أبحث عن شيء أسميه يومذاك بالأصالة، ولقد خيل إلي انني وجدتها فيك .

– الأصالة ؟

– اجل .

– ما معنى الأصالة ؟

– بالمعنى الذي أقصده أنا ، الأصالة تعني النقاء .

– النقاء ؟

– اجل ، أي ما هو حقيقي ، طبيعي ، غير مزيف ، غير مقلد .

– حسناً ! قل لي شيئاً يكون اصيلاً ، أعطني مثالاً .

– الخمر المصنوع من العنب أصيل ، لكن الخمر المصنوع من مساحيق كيماوية ليس بأصيل .

– وأنا، ما دخلي بهذا ؟

– تصوري انه كانت لي آنذاك افكار معينة ، عواطف معينة . ولما كنت متشبعاً بهذه الافكار وهذه العواطف، فقد أقنعت نفسي بأن المستودع الوحيد لكل ما هو أصيل هو الشعب. وكنت انت فتاة من الشعب، وعلى هذا..

– وعلى هذا وقعت في غرامي وتزوجتني .

– هو ذاك .

– لكن ما دمت تعرف ، والحالة هذه ، ما حدث بيننا ، فلمَ تريد ان تسمع قصة ذلك مني ؟

– لأنه من الممكن ان اكون مخطئاً .

– بالفعل ، انت مخطىء .

– مخطىء ؟

– اجل .

– لماذا ؟

– لقد سبق وقلت لك : إن لي أفكاري وهي تختلف عن أفكارك

– قولي لي ما هي افكارك .

– اولاً ليس الشعب ، كما تقول، أكثر أصالة من سائر الطبقات . ان الشعب شبيه بالطبقات الرفيعة ، مع فارق واحد وهو أن هذه الأخيرة تملك مالاً ، أما هو فلا .

– لكن هذا الفارق على وجه التحديد هو الذي يجعل الشعب أصيلاً .

– أتعتقد ذلك ؟ أم أنك تطلق صفة الأصالة على كل ما يعجبك و... كيف قلت ... ما هو نقيض الأصيل ؟

– المزيف .

– وتطلق اسم مزيف على ما لا يعجبك .

– لنفترض أن هذا صحيح . فماذا بعد ؟

– هذا يعني فيما يخصني أنا أن ما تسميه أصيلاً هو انني كنت فقيرة وكذلك عاهرة بعض الشيء .

ونظر كل منا الى الآخر ، او بالاحرى نظرت اليها . وراقبت هي من جهتها ، من غير ان تبدل جلستها الجانبية ، راقبت من طرف عينها أثر كلماتها على تعبير وجهي . وما كان من سبيل لنفي هذا الأثر : فقد راودني شعور

محرج بعدم التطابق البصري : كما عندما ينظر المرء الى شيء مألوف لديه من زاوية بصرية جديدة . وقلت معترضاً :

– يقيناً ، لقد كنت فقيرة لكن.. لا عاهرة .

– انت تنسى اين وكيف تعارفنا .

– لقد التقينا في بار الحي ، إني لأذكر ذلك على الأقل .

– اجل . والى اين ذهبنا من ثم ؟

– عند صديقتك ... كيف كانت تدعى ؟ ارمينيا .

– اواه !... صديقة ...

– كيف ، أما كنتما صديقتين ؟

– كنا ، لكن على كل ، ليس الى هذا الحد .

– ماذا تعنين ؟

– ارمينيا لم تكن تفعل شيئاً مقابل لا شيء ، واذا كانت تعيرني غرفتها وتقدم لي رجالاً ، فلأنها كانت تجد في ذلك فائدتها .

– آه ! فهمت ... لكني كنت أجهل ذلك .

– لم تكن تعلم ذلك ، في المرة الاولى . لكني أفهمتك فيما بعد ... أنسيت ذلك ايضاً ؟

–كلا ، لكنك قلت لي إنك فعلت ذلك قبل ان تعرفيني ببضع سنوات لأنك كنت عاطلة عن العمل ثم ما عدت تفعلينه . ولم أعلق على الأمر إلا قليل الأهمية ، وأخيراً لم أعد أفكر فيه البتة .

– وعلى العكس ، تابعت أنا حتى بعد ان تعرفت اليك والى ان أقمنا معاً . وعلى كل ، ليس صحيحاً انك لم تعلق على الأمر من اهمية .

– لماذا ؟

– لأنك طلبت مني ، لست أدري كم مرة ، ان أروي لك كيف بدأت تلك الحياة ، ولماذا ومتى ومع من . كنت تحاصرني بأسئلتك . كنت تفكر بذلك ،

وكيف ؟ أتعرف ما كنت تقوله لي ونحن نفعل الحب ؟

– ماذا كنت أقول لك ؟

استدارت نحوي بكاملها وحدجتني هنيهة من الزمن بعينيها الزرقاوين الكبيرتين ، اللامشفقتين واللاانسانيتين. ثم قالت ببطء كما لو انها تتلذذ بذلك:

– كنت تقول لي انني قحبتك ، عاهرتك الصغيرة ، فاجرتك،مومستك. وفي الحقيقة ما كنت لأخبرك بذلك ، لأنه لم يكن بالأصل صحيحاً مئة بالمئة. انني لم أفعل ذلك الشيء إلا فيما ندر وإلا عندما كانت تسد عليّ الحاجة كل طريق آخر . لكن لما كان يبدو عليك انك تصر على ذلك ، فقد كنت أطيعك .

وأمسكت عن الكلام لحظة ثم أضافت بلهجة متسامحة :

– افهمني جيداً ، ليس في ذلك شر .. فهذه أشياء تقال في الحب . أما عندما تقال ببرود ، وفي غير وقتها ، فقد تبدو غريبة .. لكن لا تأتِ لتحدثني عن الأصالة .

وفكرت لحظة قبل ان أجيب . نعم ، ربما كان ذلك صحيحاً ، ربما قلت هذه الاشياء ، لكن ليس اكثر من مرة او مرتين . وكما تعترف كورا بذلك هي نفسها ، فقد يحدث ان تقال مثل تلك الأشياء أثناء الحب . وانه لأمر له دلالته على كل حال ألا تكون قد تذكرت غير هذه الكلمات من أصل كلمات اخرى كثيرة لا يحصى لها عدّ . وأخيراً قلت معترفاً :

– كنت قد نسيت انني قلت لك هذه الاشياء .

– لمَ نسيت ذلك ؟

– وانت ، لمَ لمْ تنسيها ؟

– لأن اللهجة التي كنت تقولها بها كانت تلذ لي .

– ما كانت تلك اللهجة ؟

– مهووسة .

– مهووسة ؟

– أجل ، لكن أتعرف ؟

– ماذا ؟

– أتعرف ما كنت تقوله لي عندما كنت أعتذر لك عن ملابسي الداخلية الرخيصة والمرقعة ؟

– كلا ، لا أعرف .

– كنت تقول لي : لا تغيريها ، لا ترتدي غيرها عندما تأتين معي . سروالك المثقوب ، قميصك المرفوء ، نصيفك القطني ، جواربك المفتوقة ، أشد جذباً لي من البياضات الحريرية التي ترتديها النساء اللاتي كانت لي علاقة بهن حتى الآن . كنت تتهجم على نساء طبقتك ، وتكنّ لهن كراهية مميتة . حتى انني سألتك ذات يوم عما اذا لم تكن شيوعياً .

– وبمَ أجبتك ؟

– بأنك مسجل في الحزب .

فهتفت باحتداد :

- هذا مستحيل !

– كلام إنجيل ... واين الاستحالة في ذلك طالما انك كنت مسجلاً فعلاً؟

وتملكني الاضطراب . فأنا لم أنتم قط الى الحزب الشيوعي . واذا كنت مستعداً للقبول بأنه امكنني ، اثناء الحب ، ان أتفوه بحق كورا بالكلمات المهينة التي ذكرتها لي ، إلا انني خجلت من كذبي في موضوع بعيد كل البعد عن الحب كموضوع الانتماء الى حزب سياسي وحاولت ان ادافع عن نفسي:

– كلا ، انما اردت ان اقول انه يبدو لي من المستغرب ان اكون قد تباهيت أمامك بكوني شيوعياً . انني لا ارى السبب ...

– انت لم تتباه : انما قلت فقط انك شيوعي . ثم أتدري ما كنت تفعل ايضاً ؟

– قولي ...

– كنت أحياناً تأخذ سروالي الممزق وحتى غير النظيف وتنهال عليه بالقبلات بهوس .

– بهوس ؟

– اجل ، بهوس حقيقي .

– هأنتذي تريدين ان تجعلي مني صنمياً .

– صنمياً ؟ ما معنى هذه اللفظة ؟

– هو الرجل الذي يتهيج جنسياً بالاشياء .

فقالت كورا ببطء وبعد تفكير :

– لا ، لا ، لم تكن صنمياً ، انما كنت تحبني حقاً . لكن كل ما كان عائداً لي كان يهيجك ، وليس سروالي وحده .

– مثلاً ؟

– أتذكر يوم أردت الذهاب معي الى حي غوردياني ؟

– اجل ، بشكل مبهم .

– بشكل مبهم ! لكننا ذهبنا الى هناك اربع مرات على الأقل . كنت أنا قد ترعرعت في ذلك الحي الواقع في الضاحية ، لكنني كنت آنذاك قد انتقلت منه منذ عدة سنوات . ومع ذلك أردت أن آخذك اليه . وعندما ذهبنا اليه ، أصررت على عدم مغادرته .

– كيف ؟

– كنت تريد ان تعرف كل شيء : اين منزلنا الصغير ، كيف هو من الداخل ، من هم جيراننا ، من هم الناس الذين يترددون على هذا الحي ، وبكلمة واحدة كل ما يمكن أن يقال عنه . وقد أبديت رغبتك في ان أدخل معك الى البار ، وانا اتكلم امامك مع الساقي ، وان اقدمك على انك خطيبي .

– حسناً ! وأين الشر في ذلك ؟

ليس في ذلك من شر . بل على العكس . ثم اردت أن أريك المغسل

حيث كنت أذهب لغسل الغسيل عندما كنت فتاة صغيرة ، والينبوع الذي كنت أغرف المـــاء منه ، وكشك التبغ الذي كنت أشتري منه سيجارات والدي ، بـل حتى المراحيض العامة المبنية لأمثالنا من الناس الذين ليس في دورهم بيوت خلاء . و ... أتذكر ؟

– ماذا ؟

– أردت ان تفعل الحب في واحدة من الدور الصغيرة في الضاحية . ولا أدري كم احتجت من الوقت لأقنـع فتاة تدعى ايلدا ، كانت لا تتوانى عن المتاجرة بجسدهـا ، لتعيرني غرفتها . وقد قلت لها اننا لا ندري أين نقضي حاجتنا . أتدري ما قلته لي في ذلك اليوم بينما كنا نفعل الحب ؟

– يا لذاكرتك !

– ان الانسان يتذكر الاشياء الجميلة ، أليس كذلك ، قلت لي وأنت تنهال علي تقبيلاً : « أحب ان تكوني قد ولدت وعشت في هذه الضاحية ، أحب ان تكون أمك غسالة وأبوك بستانياً،أحب ان تتكلمي الرومانسكو[1]، ان تتفوهي بكلمات كبيرة ، ان تكوني جاهلة ، ان تكون لك ابنة أنجبتها من أب مجهول . ولو كنت أعلم انك سارقة ، لمـا زدت إلا إعجاباً بك » . وللحال ، وحتى أدخل السرور على قلبك ، اختلقت وقلت انني سارقة . ألا تذكر ؟

– كلا ... او بالأحرى بلى . قصة سرقة ، في فيـــلا ، سرقة فراء وملابس ، أليس كذلك ؟

– بالضبط .

– ولم يكن ذلك صحيحاً ؟

– كان صحيحاً ، لكن لم يكن لي من دخل في القضية

– من كان فاعل السرقة ؟

---

(١) لهجة شعبية في روما .

– بينا ، فتاة من الحي .

– أي وقع كان لإفشائك هذا السر علي ؟

– ما عدت تتوقف عن تقبيـــلي وأنت تردد كالمجنون : « يا لصتي ، يا ظريفتي ، يا نشالتي الصغيرة ، يا سارقتي الكبيرة » . فلكأنه كان من المحبب اليك فعلاً ان اكون سارقة . ومنذ ذلك اليوم لم تفتأ تلح على أن أعرّفك الى الشابين الصغيرين اللذين نفذت معهما العملية ، ورحت تستجوبني بلا كلل راغباً في معرفة كل شيء : الأشياء التي سرقناها، المبلغ الذي أعطيناه للذي خبأ الغنيمة ، الفيلا التي تمت فيها السرقة . حتى انني اضطررت في النهاية الى اللجوء الى بينا ، الفاعلة الحقيقية ، لكي تروي لي الأمور كما جرت.

– وما كانت ذريعتك الى ذلك ؟

– قلت لها انك كاتب وتريد ان تكتب رواية عنا ، نحن اهل حي غورودياني . وبدءاً من ذلك اليوم ، صرت تحمل دوماً في محفظتك ، الى جانب صورتي ، قصاصة الصحيفة التي سردت فيها تفاصيل السرقـــة . أتذكر ؟ كانت فكرة ان كلمات الصحيفـــة : « المجهولون المتادون » تخصني أنا تضحكك كثيراً .

– أجل ، من الممكن ان اكون قد تصرفت على هذا النحو .

– وقد اعترفت لي بأنك ذهبت أكثر من مرة الى الفيلا التي وقعت فيها السرقة . كنت تقول انه كان يلذ لك أن تتأملها وأنت تفكر بأنني أتيتهـا ليلاً بهدف السرقة والحال انني ، على العكس ، لم اذهب اليها قط .

كان بودي لو أقاطعها قائلاً بسخرية : « تماماً كما انني لم أنتسب قط الى الحزب .» لكني تمالكت نفسي.

وتابعت كورا :

– لكن اكثر ما كان يهيجك هو انني امتهنت العهر لفترة من الزمن . بل انك لم تتأخر عن سؤالي بأن آخذك الى الدار التي كانت ، قبل بضع سنوات،

علاقاتي العابرة مع عدد من الرجال ، وأردت أن تضاجعني في واحدة من تلك الغرف التي تستأجر بالساعة ، غرفة قبيحة ، باردة ، كئيبة ، انت الذي كان يقطن داراً جميلة جداً . وكنت أخجل من ان أفعل معك ثانية ، كما في التمثيليات الهزلية ، ما فعلته مع رجال آخرين بدافع الضرورة ، لكني في النهاية فكرت بأن لكل رجل طريقته في الحب ، وبأنك كنت بحاجة ، حتى تحب ، لأن تظنني معوزة وعاهرة وسارقة .

– يا للحب الجميل !

فحدجتني كورا . ثم ، كما تفعل الريح في بعض الأيام الهامدة إذ تنهض فجأة من الأرض وتهاجم شجرة من الأشجار وتبعث القشعريرة في كل ورقة من أوراقها حتى قمتها ، اهتزت كورا من كل أعماقها ونفضت عنها سكونها المعتاد المستغرق إذ حركت أوتارها ذكرى متوترة منفعلة . وشاهدت عينيها تتألقان ، وفتحتي أنفها ترتعشان ، وصدرها ينتفخ . وبصوت ملجوم لكنه يضج بنشوة عميقة قالت :

– اجل ، أستطيع ان أقول ذلك عالياً وجهاراً ، لقد كان حباً جميلاً ، آسراً ، عنيفاً ، حباً لم يتوقف عند السطح وانما تغلغل الى الأعماق ، حباً يندر مثيله ، حباً ما عاد له وجود اليوم .

وسكتت لحظة ثم ختمت كلامها وهي تنظر أمامها باستقامة :

– كنت أحبك وكنت تحبني ، وكان حبنا من النوع الذي يدوم طوال الحياة .

– فسّري لي إذن لمَ لم يدم ، على العكس ، سوى بضع سنوات .

– هذا منطقي . كنت أعجبك . كنت تحبني لأنني فقيرة ، لأنني تعهّرت ، ولأنني أدخلت في قناعتك ، علاوة على ذلك ، انني كنت سارقة . ويوم قبلت بأن أتزوج منك ، وأصبحت امرأتك ، شأني شأن سائر النساء ، لم أعد أعجبك وما عدت تحبني .

– منطقي ، كما تقولين ... بل منطقي اكثر مما ينبغي تقريباً ، ألا ترين ذلك ؟

– ألا تصدقني ؟

– أصدق بالأحرى انك تعتقدين انك تقولين الحقيقة .

– لا ، لا ... إن لدي البراهين على ما أقول .

– براهين ؟

– أجل ، براهين على أن ما قلته صحيح .

– وما هذه البراهين ؟

– هناك اولاً جيانا .

– جيانا ؟ من كانت جيانا ؟

– كانت احدى عاملاتي ، فتاة جميلة من ترانستيفير ، سمراء ، فقيرة جاهلة ، ابنة عامل بناء . كان ذلك يوم تلاشت رغبتك في مضاجعتي . فأردت ان أتأكد من صحة ظني . أردت ان أحصل على برهان ، فأرسلت اليك جيانا .

وعلى حين غرة ارتبط اسم جيانا في ذاكرتي من جديد بموضوع محدد ، وفهمت : كانت جيانا أولى الفتيات المرتزقات العديدات اللاتي كن يتصلن بي هاتفياً بهدف المجيء إلي ، في الفترة التي تلت مباشرة انهيار حبي لكورا . وهتفت :

– آه ! انت اذن التي أرسلت إلي جيانا ؟

– أجل أنا .

– لكن لم فعلت ذلك ؟

– قلت لك : لأحصل على برهان .

– لكن أي برهان ؟

– البرهان على أن ما يعجبك هو نمط معين من النساء وعلى أنك ما عدت تحبني لأنني ما عدت أنتمي الى ذلك النمط .

– آه ! ... ولم تقرفي من إجراء تجربة كتلك ؟ فأنت ، بعد كل شيء ، كنت تحبينني ...

– اجل ، كنت أحبك لكني كنت أعلم أنك أنت ما عدت تحبني، وقد خيل إلي ، إذ أرسلت لك جيانا ، انني أفعـــل الحب معك ، الى حد ما ، بواسطتها .

– يا لأرابتك ! وكيف فعلت لتحثّي جيانا لكي تتصل بي ؟

فنظرت إلي كورا لحظة نظرة ماكرة وغير مشفقة ، ثم أجابتني :

– قلت لها انها إذا أطاعتني فسأهديها ثوباً وإلا فسأطردها .

– لكني تلقيت زيارات اخرى من فتيات أخريات . فهـــل كن جميعاً عاملاتك ، وهل كنت انت التي تبعثين بهن إلي ؟

فانتعشت وقالت بلهجة محترفة ومتهتكة في آن واحد :

– اجل ، كنت أحبك ، كنت أريد الأستمرار في مضاجعتك ولو عن طريق شخص ثالث . ولقد كنت أوصي اولئك الفتيات جميعاً بأن يتكلمن الرومانسكو ، وبأن تكون حركاتهن بسيطة ، جلفة ، كبنات ترانستيفير . وكانت بعضهن كذلك حقاً وما كن بحاجة بالتالي الى التكلف .

– ما أطوع البنات اللاتي يعملن عندك !

– اواه ! أتعرف ، في ذلك العمر تكون الفتيات على استعداد لمضاجعة أي شخص كان ، فالطبيعة نفسها تريد ذلك . يكفي ان نضعهن على الطريق ليتابعنه من ثم بمفردهن .

– وكنت انت تضعينهن على الطريق ، أليس كذلك ؟

– كن يفعلن ذلك أيضاً ليدخلن السرور على قلبي . فقـد كن يعرفن انك زوجي .

– وكن يعتقدن انني أختبىء وراءك ، وأنني جعلت منك وسيطة لي .

– أي اهمية لما أمكن لهن ان يعتقدن ؟

– لكن لم تتمرد ، لم ترفض اي واحدة منهن ! فهل من الممكن أن يكنّ جميعاً مصبوبات في قالب واحد ؟

– اين العجب ؟ لقد كن جميعهن فتيات جادات . وبالفعل ، تزوج معظمهن فيما بعد ، ومنهن من أنجبن اولاداً . هذا لا يدل على شيء .

– ما هذا الذي لا يدل على شيء ؟

– ان يكون في وسعهن فعل الشيء وفعل نقيضه ايضاً ...

وفكرت : ان كورا تخاطبني من الآن فصاعداً بلغة مهنتها ، بصورة مطمئنة ، مكشوفة . لقد أعجبت بالطريقة التي توصلت بها بصورة تدرجية، غير محسوسة ، إلى ان تعرض أمامي مهنتها الخاصة ، من غير ان تقرّ بها جهاراً . وقلت :

– هناك شيء لا أفهمه . تقولين انك كنت تشاركين في غرامياتنا . فكيف ؟ هل كنت تطلبين من اولئك الفتيات ان يروين لك كيف جرت الأمور .

– اجل .

– وكن يروين لك ؟

– أجل ، لكن أتعرف ..

– ماذا ؟

– أتعرف انني لم أتورع ، في إحدى المرات ، عن الاختباء في الشقة ، وراقبتكما ، انت واحدى عاملاتي ، بينما كنتما تفعلان الحب .

– أفعلت ذلك ؟

– أجل . ورأيت انك لم تتبدل .

– أي ؟

– بقيت خنزيراً .

– شكراً !

ـ هذا لا يزعجك ، أليس كذلك ؟

ـ كلا ، انني لم أنزعج .

ـ أتعرف ، هكذا يكون موقف الرجل دوماً عندما يضاجع .

ـ طيب . لكن قولي لي ..

ـ ماذا ؟

ـ ذلك الحب عن طريق شخص ثالث ، كما تقولين ، ألم تبذليه لآخرين ؟

ـ ماذا تعني ؟

ـ هل فعلت لرجال آخرين ما فعلته لي ؟

فترددت ثانية من الزمن ، متسائلة في سرها بلا ريب عما اذا كان قد حان الوقت لتتكلم بصراحة عن مهنتها . ثم أجابت باطمئنان :

ـ لك وحدك ، بالطبع . انني لست قوادة ، أنا !

ـ قلت لي انك فعلت ذلك بدافع الحب . ومن الممكن ، في مدى عشر سنوات ، ان تكوني قد أحببت من جديد وبالطريقة نفسها .

ـ لم أحب احداً بعدك .

ـ أأنت واثقة من ذلك ؟

ـ وكيف !

ـ لم تحبي غيري ؟

ـ كلا .

ـ وما زلت تحبينني ؟

ـ أجل .

ـ أحقاً ؟ حقاً ما زلت تحبينني ؟

ـ قلت لك ذلك .

ـ وعلى هـــذا ، واذا ما سألتك الآن ان ترسلي لي من جديد احدى عاملاتك ، فستقبلين ؟

– طبعاً .

– مؤسف .

– مؤسف ! لماذا ؟

– لأنك بقيت على أفكارك بينما بدلتها أنا .

– ما كانت أفكارك آنذاك ؟

– قلت لك ذلك ، كنت أبحث عن شيء ما أسميه أصالة .

– أما عدت تؤمن بها ، تلك الأصالة ؟

– كلا .

– لمَ ما عدت تؤمن بها ؟

– لمَ لا يعود الانسان يؤمن بشيء مـا ؟ عادة لأنه يكتشف ان هذا الشيء لا وجود له .

– أاكتشفت ان الأصالة لا وجود لها ؟

– اذا شئت ...

– أنا ، على العكس ، لم أتبدل .

– لقد لاحظت ذلـك .

– كنت اؤمن يومذاك بالحب ، وما زلت الى اليوم .

– فهمت ذلك .

– كنت أحبك يومذاك ، وما زلت الى اليوم . وإنني لعلى استعداد لأن أفعل من أجلك ، أتسمعني ، أشياء لا يمكن لك حتى ان تتصورها .

– ما هي ؟

– الله أعلم بمدى حبي لبابا . ومع ذلك ، لو تولهتَ بها ، ولو كانت مسألة اضجاعها معك تتعلق بي ، لما ترددت .

لم اكن أنتظر هذا، ولبثت مشدوهاً مضطرباً . ولقد بذلت جهداً كبيراً حتى أخفي اضطرابي ، بينما كانت كورا ترمقني كما لو انها تريد ان تعرف مـا

اذا كنت أقبل بهذا العرض الضمني . وآنذاك ، وفي تلك الثواني القليلة من الصمت التي مرت ، فهمت للمرة الاولى انني أحب بابا ، وأن حبي لها يرجع الى انها ابنتي ، او على الأقل الى انني أعتبرها كابنتي ، والى أن أمها أمرأة ، مثل كورا ارادت ان تبيعها قبل ستة أعوام وتبدي استعدادها لتعيد الكرة اليوم . وفكرت ايضاً بأن كورا ، بما تتمتع به من غريزة بوصفها قوادة ، قد سددت سهمها الى صميم قلبي وتوصلت ، وان بصورة غير مباشرة وتلميحاً، الى ممارسة مهنتها معي بالذات بكشفها لي عما لم تواتني الشجاعة حتى الآن للاقرار به بيني وبين نفسي .

هذه التأملات لم تبدل شيئاً في سحنتي ، وعلى الأقل آمل ذلـك ، لأنني كنت واعياً ان كورا ترقبني . وببطء وحذر سألت :

– اذن ، وحتى في حالة بابا ، لن تحجمي عن تقديمهـا لي حتى تشعري بأنك تحبينني من خلالها .

– أجل .

– انني سعيد لحبك اياي بهذا القدر . لكن أصحيح ايضاً انك تحبين بابا؟

– لماذا ، ألا تصدقني ؟

– بلى ، أصدقك ، لكن هناك تناقضاً على كل حال بين الواقعتين .

– اي واقعتين ؟

– حبك لبابا وشعورك في الوقت نفسه بأنك قادرة على التضحية بها لصالح حبنا ، الوهمي من حسن الحظ .

– لم أقل إنني على استعداد لفعل ذلك في سبيل أي شخص كان . انما قلت انني على استعداد لفعله من أجلك .

– ليس الفرق كبيراً ، على الاقل فيما يتعلق ببابا .

– ثم إن في وسع الأم ان ترغب في ان تحب ابنتها رجلاً معيناً .

– بالطبع . لكنك تنسين ان بابا ابنتي .

– ابنة زوجتك .

– ابنة زوجتي ، اوافقك . وذلك الرجل المعيّن (أنا ، بالصدفة) سيرتكب جرم سفاح اذا ما احبّ بابا .

– لا معرفة لي بموضوع جرم السفاح . انما أعرف فقط انك اذا أحببت بابا ، فلن تكون بالنسبة اليك لا ابنة ولا ابنة زوجتك ، وانما بكل بساطة المرأة التي تحب ، هذا كل شيء .

– صحيح جداً . لكني لم اكن أتكلم عن نفسي .

– عمن كنت تتكلم ؟

– في الواقع ، كنت اتكلم عنك .

– كيف ؟

– يمكن لبابا ألا تكون ابنتي ولا ابنة زوجتي . لكن عليك أنت ألا تنسي لحظة واحدة انك أمها .

– أواه ! أجل .

– كيف يمكن لأم ان تريد شراً بابنتها ؟

– من قال لك انني اريد شراً بابنتي ؟

– أنت التي تكلمت عن ذلك .

– أين سيكون الشر ، في رأيك ؟

– الحب بيني وبين بابا .

– لكن مادمنا قد قلنا إنك لست شيئاً بالنسبة اليها ، أين الشر في ان ترغب في ان تحب ابنتك رجلاً ليس له من صلة قربى بها ؟

– ها قد عدنا الى النقطة التي انطلقنا منها . لنفترض أن أماً تريد أن تحب ابنتها رجلاً ليس له من صلة قربى بها ، لكن تلك البنت لم تتجاوز الرابعة عشرة ، أليس هذا شراً ؟

– لكن بابا ليست في الرابعة عشرة . انها في العشرين .

– لكن لنفترض انها في الرابعة عشرة .

– غريب أمرك ، لو تعرف .

– لماذا ؟

– لأنك تصر كل الإصرار على أن تكون بابا في الرابعة عشرة .

– كانت في الرابعة عشرة .

– يكاد يخيل إلي انك تحب البنات الصغيرات .

– ما أغربه من خيال !

– إن بابا في العشرين من العمر ، تفعل ما تريد ، ومصيرها ليس منوطاً بشيئي . ان ما قلته لم يكن إلا كلاماً في الهواء .

– وما قلته ايضاً .

– إذن لمَ تكلمنا عن ذلك ؟

– انني لأتساءل عن السبب ، أنا أيضاً !

وامتنعا عن الكلام فترة طويلة من الزمن فكرت فيها بأن كورا دافعت عن نفسها دفاعاً يستحق الاعجاب ، وبأحسن طريقـــة ، أي بالانتقال الى الهجوم . فلقد وضعتها على حين فجأة أمام ما حدث قبل ستة أعوام، لكنها أسرعت فشنت هجوماً مضاداً باتهامي بأنني أحب الفتيات الصغيرات . وبلا مقدمات ، شعرت بالسأم والكلل ، كما لو انني خضت صراعاً كان مضاعف التوتر بالنظر الى طابعه المباشر وغير المباشر في آن واحد . وقلت بتؤدة :

– شكراً على كل حال. لقد قدمت لي كمية من المعلومات الثمينة لروايتي.

– آه ! الرواية ، تصور انني نسيتها .

– كيف ؟ مع انني قلت لك انني اريد ان اكلمك للحصول منك على بعض المعلومات التي لا غنى عنها لبنية روايتي .

– صحيح انك قلت لي ذلك. لكنني نسيته. كنت أشعر بأن استجوابك جدّي .

– جدّي ؟
– أجل ، شعرت انك تريد فعلاً ان تعرف بعض الأشياء .
– أليس شيئاً جدياً إذن أن أريد كتابة رواية ؟
– بلى ، بالتأكيد .. انني لا أخالفك في ذلك . لكن الاشياء الجدية هي التي تُفعل ، لا تلك التي تكتب في الروايات .
– وفي رأيك ، لمَ تُفعل هذه الاشياء الجدية ؟
– هكذا .. كما تفعل الاشياء في الحياة .. لأننا نشعر بالحاجة الى فعلها .
– من سوء الحظ ان الاشياء هي هكذا : فالا" نفعل شيئاً فهذا معناه اليوم اننا فعلنا شيئاً ما ، واذا فعلنا شيئاً ما فهذا معناه اننا لم نفعل شيئاً .
– ماذا تقول ؟ أهي أحجية ؟
– سأشرح لك : انني ارى ، أنا شخصياً على الاقل ، اننا عندما نفعل جدياً الاشياء التي تصفينها بأنها جدية لا نكون قد فعلنا شيئاً ، وعندما لا نفعل شيئاً ، أي نكتب رواية ، نكون فعلنا شيئاً جدياً .
– لأن الفعل الجدي للأشياء الجدية معناه عدم فعل شيء ؟
– ليس هناك « لأن » ، انما الامور هكذا .
– أعطني مثالاً ، لأنني لا افهم .
– على رسلك ! لقد فعلت جدياً في الماضي ، على سبيل المثال ، ذلك الشيء الذي لا يرقى الشك الى جديته ، أعني زواجنا . ولقد رأينا النتيجة .
– اجل . لكنك فعلت شيئاً ما على الأقل . تزوجتني . ومن الشيء يولد شيء آخر .
– بالتأكيد ، من الشيء يولد شيء آخر . هكذا ولد العالم وسيستمر على الشاكلة نفسها . كان هتلر وحشاً ، لكن الالمان آمنوا بـه . ومن هنا ولدت الحرب مع موت خمسين مليون كائن بشري . من الشيء يولد شيء آخر .
– ما دخل هتلر في قصتنا ؟

– دخله دخل اي شيء آخر. وبالأصل ، ألم يكن والد بابا جندياً المانياً ؟
– على رسلك ! لكن بالنظر الى هذا وحده ، ألم اكن على حق ؟ أليست بابا جميلة ؟

وتحدّتني بنظرة ساخرة من عينيها البارقتين شرراً . وقلت :

– هيا ينبغي ان نعود . لا نستطيع البقاء هنا امام هـذه البوابة . اننا نسد الممر على الذين يريدون الدخول الى الفيلا .

ولم تقل كورا شيئاً. ومن جديد أدارت لي جانب وجهها ، وهي طريقتها الخاصة في ألا تكون حاضرة . وألححت وانا أدير مفتاح السيارة :

– إني لأتساءل: من يمكن أن يقطن في هذه الفيلا الغامضة التي لا اسم لها.
– اي اسم تريد ان يكون لها ؟
– لا ادري : فيلا كذا ... فيلا كورا على سبيل المثال .
– لمَ كورا ؟
– انه اسم كغيره من الاسماء. وقد خطر ببالي لأنني معك في هذه اللحظة.
– حبذا لو كانت عندي فيلا كهذه !

وفكرت بأن هذا الحوار الحنيني يمكن ان يستمر الى مـا لا نهاية ، فلزمت الصمت . وخرجت السيارة من منعطفها وانضمت الى رتل السيارات الكثيرة الجارية باتجاه روما .

الخميس ٢٩ تشرين الاول

– هل انت واثق من انك سجلت بأمانة في يومياتك محادثتك مع كورا؟
– أجل ، إني لواثق من ذلك .
– واثق تماماً ؟

– واثق تماماً ، أقسم على ذلك .

– هيا،فلنعد القراءة معاً ولنرَ ما اذا كانت ثقتك مبررة .

– على رسلك ، انني أعاود القراءة . الحوار هو نفسه ، وربما مع بعض الكلمات المبدلة او الساقطة ، لكن الجوهر هو هو . لكن ... لكن ...

– لكن ماذا ؟

– انني أتبين الآن انـــك على صواب ، كالعادة . انني لا ادري لمَ لم اكن أميناً .

– لا تدري لمَ ، ايه ! هيا ، لا تدّع البراءة ، لا تدع بأنك دمـــاغ بلا ذاكرة ، راوية يسرد وهو في حالة من الوجد . فأنت لست كذلك لا من قريب ولا من بعيد . انت تعلم حق العلم انك لم تكن أميناً ، ولا تجهـل لا اين أخلفت بالأمانة ولا لمَ أخلفت بها .

– بالفعل ، لم اكن أميناً عند نقلي اقتراح كورا بأن تسهل لي حرفياً ، وان بتجرد وتنزه ، العلاقات الغرامية مع بابا . ان كورا لم تقل لي شيئاً من هذا ولم نتكلم البتة عن بابا . حقاً لا أدري لمَ خطر ببالي ان أضيف ذلك الى محادثتنا ، ربما لأنه خيل إلي ان كورا قادرة على ان تقترح علي مثل ذلـك الاقتراح ، وعلى هذا فإن الاقتراح يظل قابلاً للتصديق حتى وان كان متخيلاً ، وهو بالتالي يفيد في توضيح طباع كورا وفي إضفاء المزيد من الواقعية عليها .

– آه ! طباع كورا ... ولمَ ليس طباعك ؟

– أنا ؟ لا دخل لي في هذا كله ، لست أنا من اقترح الاقتراح وانما كورا . لست أنا من جاء على ذكر بابا ، وانما كورا . والخلاصة انني اكتفيت بالاستماع ، وبالطبع ، بالشعور بكل فظاعة عرض كذاك .

– بالفعل ، لست أنت صاحب الاقـــتراح ، ولم تأتِ على ذكر بابا ، واكتفيت بالاستماع وشعرت بالفظاعـة ، لكنك انت الذي تصور ، أيهـــا المرائي ، ان كورا تقترح عليك هذا الاقتراح ، انت الذي أضاف هذه الكذبة

الى الحقيقة ، وانت لا تستطيع نفي ذلك .

– انني لا أنفيه . لكنني قلت لتوي انني قد فعلت ذلك على الأرجح لأنه بدا لي منطقياً وطبيعياً ان تعرض كورا عليّ بابا بعد ان قدمت لي كثيراً من الفتيات .

– منطقياً وطبيعياً ، أتتصور ! او بالأحرى أجل : منطقي وطبيعي ، لكن الشيء الاكثر منطقية وطبيعية هو أنك تلذذت بتلك التخيلات .

– وما الداعي لأن أتلذذ بها ؟

– لأنك بكل بساطة وقعت في غرام بابا بطريقة هي خاصة بك ومحددة بصلة قرابتك بها وبالوضع الذي تجد فيه نفسك تجاه كورا .

– وماذا بعد ذلك ؟

– أعجبك ان تتخيل ان بابا معروضة عليك من قبل أمها بالذات ، أعجبك ان تتخيل انه سيكون في وسعك امتلاك بابا في منزل كورا ، وأعجبك أخيراً ان تتخيل أن بابا هي شيء تبيعك الأم اياه فتشتريه .

– أأنت واثق أن هذه هي الحقيقة ؟

– انني لست واثقاً من ذلك لأنه لا يمكن للمرء ان يكون واثقاً من شيء. لكنك ستقر بأني استطيع شرعياً ان أشك في ذلك .

– لكن كل شيء في هذه الحال يمكن ان يكون زائفاً، كاذباً ، لاأصيلاً. ومن الممكن ايضاً ان اكون قد اختلقت اختلاقاً فكرة أن كورا تملك ماخوراً ، وانها قادت اليه ابنتها عندما كانت هذه في الرابعة عشرة ، وانني ذهبت الى ذلك المنزل و ... وكل الباقي . من الممكن ان اكون قد اختلقت هذا كله لأنني واقع في غرام ابنة زوجتي ، ولأنني بحاجة ، حتى أحبها ، الى الاعتقاد بأن أمها قوادة وبأنها عرضت ابنتها للبيع قبل ستة أعوام . وبعبارة اخرى ، إن الشيء الصحيح الوحيد ، الصحيح موضوعياً في هذه الحال ، هو انني أحب بابا .

– لا ، لا تسعَ الآن الى خلط الورق لتبرر نفسك . أنت تعلم حق العلم ان كورا تملك منزلاً للمواعيد ، وان بابا قالت الحقيقة عندما روت لك أن أمها قادتها الى ذلك المنزل الذي هو موجود فعلاً ما دمت قد شاهدته بأم عينيك ودخلت اليه . وانت تعلم تماماً أن روايتك ، اذا ما كتبتها ذات يوم ، ستكون مؤلفة من الواقع الموضوعي جزئياً ومن الواقع الذاتي جزئياً. لكنك تعلم ان مثل هذا التقسيم لا وجود له في الحقيقة. ان روايتك هي أنت نفسك. وإنه لمنوط بك بالتالي ...

– ما المنوط بي ؟

– ان تكون انت نفسك تماماً ، بلا أقنعة ، باعترافك بأن بعض الاشياء وقعت لك فعلاً بينما تخيلت الاشياء الاخرى تخيلاً ، وبوعيك ايضاً وإدراكك دافع خيالاتك .

السبت ٣١ تشرين الاول

وسياق الحياة اليومي الذي زعمت أنني سأشيد عليه روايتي، كما لو على قاعدة من الغرانيت ؟ لقد سحقته الدراما من سوء الحظ من جديد . كنت اريد ان اكتب رواية بلا قصة ، مسجلاً كل يوم بيومه في يومياتي الاشياء التي لا معنى لها ولا انسجام او تلاحم ، والتي تقع لي من غير ان اكون قد بحثت عنها او رغبت فيها . وبالعكس من ذلك واجهتني قصة دراماتيكية غنية بالمعنى والدلالة وقوية البناء ، أرى نفسي مضطراً الى سرد تفاصيلها ، وتحثني باستمرار على العمل وعلى القيام باختيارات .

كل ما هنالك (يخيل إلي انه سبق لي ان قلت ذلك) ان هذه القصة الدراماتيكية جداً ظاهرياً ليست كذلك في الواقع، وانه لا وجود في الحقيقة

لتطورات في الموقف . وما يحدث لي لا تختلف صفته اليومية عن الأشياء التي هي بماهيتها يومية . ولقد شعرت بذلك اليوم إبان النزهة القصيرة التي أقوم بها عادة صباحاً قبل ان أجلس للعمل .

انني اقوم بهذه النزهة منذ سنوات ، دوماً بالطريقة نفسها ، كل صباح ، اثناء إقامتي في روما بين سفرتين . اذن فهي من الأشياء الاكثر يومية التي يحدث لي ان أفعلها ، والتي يقتصر فيها عملي ، بفعل العادة والتكرار،على حد أدنى من الاختيار والحرية ، ويكاد يقارب الحركة الآلية واللاشعورية .

خرجت اذن هذا الصباح وسرت باتجاه جادة مازيني حتى كشك الصحف الذي يقع في زاوية شارع عرضاني . البائع رجل في حوالي الاربعين ، في شرخ العمر كما يقال ، له وجه أسود وأفطس ، وعينان صغيرتان جاحظتان، وأنف على شكل منقار الببغاء ، وذقن منعقفة نحو الأنف ، وشاربان كثّان مزبئران بين الأنف والذقن . وجه يذكر من قريب بوجه كلب حراسة أبله ومفترس . وبالفعل ، وكما يقبع كلب الحراسة في مرقده ، كان يقبع هو في كشكه مستعداً ، كما يخيل لمن يراه، ليعض اليد التي قد تجازف بالامتداد الى الداخل لتأخذ جريدة . وقد عرفني بالطبع بائع الصحف وسألني :

— متى الرحلة القادمة ، يا سنيور ميريغي ؟

ثم ناولني بحركة آمرة صحف الصباح ، من غير ان اكون قد طلبتها منه، الصحف التي أقرأها منذ عشرة أعوام على الأقل . وتأبطت الصحف وتابعت نزهتي .

اجتزت شارعين آخرين ووصلت الى البار . دخلت ، واستندت بمرفقي الى المنضدة ، وطلبت قهوة ، ونظرت حولي بالرغم من انني أعرف هذا البار تمام المعرفة وأعلم انه ليس فيه ما يسترعي النظر . هي ذي المنضدة بقسمها العلوي المصنوع من معدن رمادي ولماع ، ربما من الفولاذ ، وقسمها السفلي المصنوع ولا بد من خشب ، خشب قاتم اللون . على المنضدة تصطف

غلاية القهوة الميكانيكية، والخلاطة الكهربائية، ومشواة الخبز المحمص، ورف الزجاج الذي يحتوي على السندويش ، وإناء مقبب من البلور الأحمرالقاني عليه غطاء من البلاستيك الأحمر الفاهي حفرت عليه عبـــارة « آمارينا [١] » ، وسكريتان معدنيتان عليهما غطـاء من الزجاج الشفاف ينوب عن الملاعق في تحديد كمية السكر اللازمة غير الزائدة عن حدها . وكان الساقي ، وهو رجل طويل نحيف أشقر ، جبينه مليء بالبثور ، وعيناه صغيرتان زرقاوان ، يقف بين المنضدة والرفوف المحملة بالقنـــاني ، مئزره مشدود على خصره ، ويداه الكبيرتان المائلتان الى الحمرة تتلاعبان بروافع الغـلاية . وشأنه شأن بائع الصحف ، عرفني ، وهتف بي بصوت غليظ أجش : « كالعـــادة ، فنجان قهوة طافح » ، ثم ناولني فنجاناً بمهارة المشعوذ ، فقد فتله في الهواء ثم جعله ينساب على المنضدة بكل هـــدوء . واحتسيت قهوتي ببطء ، ثم دفعت وخرجت .

من البار ذهبت الى كشك التبغ في شارع مجاور . كانت الدكان ضيقة وعميقة كممشى ، وكانت المنضدة موضوعة طولانياً. وكان يجلس خلف المنضدة رجل جسيم الجثة ، لا يدل مظهره على النظافة ، ترغمه بطنه المتكرشة على إسناد ظهره الى الجدار المليء بالرفوف، بعيداً عن الزبائن الذين يمرون أمامه. وسرعان ماعرفني : فهمت ذلك من النظرة المتواطئة التي رمقني بهـا ، ومن غير ان يستدير مد ذراعـــه القصيرة الى الوراء ، وبحركة ماهرة تلقف بين اصبعيه اللتين على شكل كماشة ثلاث علب من السجاير التي اعتدت على تدخينها، ورمى بها على المنضدة ، حاضناً بعينيه السوداوين المحاطتين بدوائر لحميـــة والشبيهتين بعيون النساء يدي التي كانت تبحث بين العلب الثلاث وهي تجسها عن العلبة الاكثر ليونة ، بينما أفلت من فمـه المنفرج زفير مبهور . وتناولت العلبة ، ورميت بقطعة نقد على المنضدة ، وأعاد لي البائع البقية من غير أن

---

(١) ضرب من الكرز .

يفوه بحرف ، لان الكلام يتعبه ، لكنه شكرني بنظرة سرعان ما تحولت الى نظرة استفهام منتقلة من وجهي الى وجه زبون آخر دخل لتوه . وأخـــذت النقود وخرجت .

ثم اتجهت نحو دكان الورق الواقعـة بجانب كشك التبغ . كانت صاحبة المكتبة امرأة محببة كما يقال ، في حوالي الاربعين ، وجهها أبيض ووردي ، ابيض تماماً ووردي تماماً ، وعيناها سوداوان صافيتان مستديرتان ، يعلوهمـا هرم من شعر أسود ولماع هو على الأرجح مصبوغ . انها لم تتعرفني فحسب ، بل حدثتني ايضاً عن أسفاري ، مبدية سرورها بعودتي ، مستعلمة عن موعد رحيلي ، متشكية بظاهر من حزن وحسرة من انها لا تستطيع قراءة مقالاتي نظراً الى انها تنشر في صحيفة ميلانية . وأجبتها بخير ما وسعني الجواب ، وطلبت طبقاً من الورق ، وورق كربون ، وشريطاً أسود للآلة الكاتبة وقلماً ناشفاً . ونهضت صاحبة المكتبة ، كاشفة عن جسمها الجميل الرشيق ، المغلف او بالأحرى الحبيس في ثوب أسود مشدود ، مصنوع من نسيج مترأرىء ، وتناولت مختلف الاشياء التي طلبتهـا من فوق الرفوف . ثم عادت لتجلس خلف المنضدة ، وأجرت الحساب بسرعة على ورقة كانت تسند اليها يدهـا الشديدة البياض بأظافرها الوردية الشبيهة بأظافر الطفل . وذكرت لي المبلغ الذي يجب علي ان أدفعه ، ونبهتني الى انها حسمت منه الخصم ، وصرّت لي الأشياء في رزمة واحدة ، وتناولت مني المال ، وأعادت لي البقيـة ، كل ذلك بمهارة وخبرة وسرعة . ثم حدقت بي بعينيها اللتين كانتا تبدوان وكأنهما مرسومتان فوق دحلين من البلور ، وكأنهـا تنتظر ان أبادرها بالحديث . وأخذت الرزمة وخرجت .

شاهدت وأنا أهم بالدخول الى بيتي ، سيارتي موقوفة أمام باب المدخـل ، وتذكرت ان آخر مرة استخدمتها ، قبل بضعة أيام ، كانت بهدف أخـذ كورا الى شارع كاسيا حيث صففتها أمام بوابة منزل المواعيـد . وآنذاك

خطرت لي فكرة انني استطيع ان أطيل نزهتي حتى شارع كاسيا ، من غير ان يتبدل مع ذلك أيقاعها او أسلوبها . ان الكثيرين من الرجال يفضلون المضاجعة في الصباح الباكر بعد ان تكون راحة الليـــل قد جددت قوتهم ونضارتهم . مكالمة هاتفية واحدة ، ثم الجري فيالسيارة حتى المنزل . الغرفة ، المرأة التي تتعرى عارضة شيئاً فشيئاً كل ما في وسعها ان تقدمه مقابل المال ، الفعل الجنسي ، النقود الورقية في يد الوسيطة . ان النزهة التي قادت خطاي اليوم من كشك الصحف الى البار ، ومن البار الى كشك التبغ ، ومن كشك التبغ الىالمكتبة ، كان يمكن ان تستمر حتى منزل المواعيد دونما تبدل نوعي ، دونما انقطاع في الاستمرارية . سلسلة مشتريات تشمل صحيفة ، فنجان قهوة ، ماعون ورق ، ورق كربون ، شريط آلة كاتبة ، قلماً ناشفاً ، جسد امرأة . سلسلة أحداث متسلسلة تجعلني على التوالي أقرأ صحيفة ، أحتسي قهوة ، أدخن سجائر ، أكتب مقالاً على الآلة الكاتبة ، وأضاجع فتاة . وبعد منزل شارع كاسيا ، جولات أخرى ، مشتريات أخرى ، أحداث اخرى رتيبة فارغة من المعنى كأمواج البحر على شاطىء مقفر .

لكني فهمت بوجه خاص شيئاً : أن بائع الصحف في كشكه ، والساقي في باره ، وبائع التبغ في دكانه ، وصاحبة المكتبة في مكتبتها ، يفترضون مسبقاً ويبررون الفتاة في منزل مواعيد كورا. كان في وسعي ان أتكلم عن الفساد. لكن ليس هذا الفساد من الدراماتيكية بشيء ، انما هو منقوش في الأشياء ، في المادة التي تتألف منها تلك الاشياء بالذات . ولهذا كان من الأنسب والأصح ان أصف هذا الفساد بأنه شيء عادي يومي .

الثلاثاء ٣ تشرين الثاني

بحجة او أخرى تتمكن بابا دوماً في خاتمة المطاف من بلوغ أربها وتنفيذ

خطتها التي تنص ، على ما يبدو ، على ان تمضي معي يومياً بضع ساعات في جو عطوف ودّي كما هو واجب بين الأب وابنته . والحجة اليوم هي اختيار كلب من الزريبة البلدية . وبينما كنا نتجه هذا الصباح نحو بوابة بورتيز حيث الزريبة ، سألت بابا عن سبب رغبتها في كلب . ففكرت لحظة ثم أجابت:

– كان لي ، قبل سنوات ، كلب . قبـــل ستة أعوام بالضبط . لكن احدى السيارات دهستهعلى وجه التحديد في احد تلك الأيام التي كانتتقودني فيها كورا ... أقصد ، تأخذ بابا الى منزلها . وهل تعرف ما أعتقده ؟

– قولي .

– ان الألم الذي شعرت به بابا نتيجة لموت كلبها هو الذي كان يحول بينها ، نوعاً ما ، وبين ان تدرك ما يحدث لها .

– أخالج بابا حزنٌ كبير بسبب موت كلبها ؟

– أجل . فطوال أيام عدة لم تكفّ عن البكاء . وكانت تفكر في نفسها بأن الدهر قد قلب لها ظهر المجن وبأن مرحلة منحوسة من حياتها قد بدأت.

– ولمَ لم تجد بابا لنفسها كلباً آخر ؟

– لأنها ما كانت ترغب في كلب آخر . لم تكن تريد سوى الذي فقدته .

– لقد فهمت .

ووصلنا الى بوابة بورتيز ودخلنا من باب حديدي الى باحـة الزريبة . كان بيت الإدارة ، المؤلف من طابق واحد ، والطويل والابيض ، بشبابيكه الخارجية الخضراء ، في مواجهتنا . والى يميننا وشمالنا كانت تصطف أقفاص صغيرة تحبس فيها الكلاب ، ولا تكاد تزيـد حجماً عن الصناديق التي يضع فيها مربّو النحل خلاياهم .

انتظرنا هنيهة من الزمن في صمت عميق ، ثقيل ومعلق في آن واحـــد ، كانت رائحة الحيوان الخفيفة العائمة في الفضاء تضيف اليه انطباعـــاً بانتظار قلق . ثم جاء الحارس،وهو شاب أشقر رياضي،محلوق الرأس ، يرتدي ثوباً من

الكتان الأبيض . واتجهنا ثلاثتنا نحو الاقفاص . وفي اللحظة نفسها انفجر على حين غرة دوي حانق من مختلف أنواع النباح ، لكن أصداءه رددت جميعها أنة واحدة من الرجاء تقطع نياط القلب ، وواعية تمام الوعي .

ان حالة بابا النفسية تشبه اليوم ، الى حد ما ، الطقس : برود مراءٍ وبليد بعض الشيء لكن يوحي بأنه معبأ بالملل وكدر المزاج ، كتلك الغيوم الغليظة القاتمة المعلقة فوق المدينة الفاترة لكن الحبلى بالريح السموم . كانت تسير الى جانب الحارس ، يداها في جيوب سترتها المفكوكة الأزرار على صدرها الناهد ، مائسة الكشحين تحت بنطالها الضيق، في بطء كسول كدبّ صغير . وكانت الكلاب ، عند مرورنا، تنقضّ على قضبان أقفاصها،وتنتصب على أطرافها الخلفية ، نابحة بشتى الاشكال وبمختلف الألحان مثل أسرى من بلدان شتى يتضرع كل منهم بلغته الخاصة . وتوقفت بابا ، ورنت اليها لحظة بعينيها الكدرتين اللتين بلون البحر ، ثم استأنفت سيرها سائلة الحارس بفضول طلق :

– كم من الوقت تحتفظ بها هنا بعد جمعها ؟

– القانون ينص على ثلاثة أيام . لكننا نحتفظ بها عادة سبعة أيام .

– ثم ؟

– ثم نرسلها ، بالطبع ، الى غرفة الغاز .

– كم تقتلون منها اسبوعياً ؟

– خمسة ، عشرة ..

– لكن لديكم ايضاً كلاب عريقة النسل . فكيف . ؟

– ان أصحابها يهجرونها . او تهرب منهم هي نفسها .

– لكن لِمَ يهجرها أصحابها ؟

– لأسباب كثيرة . لأنهم سئموا منها او لأنهم اكتشفوا ان الكلب « لا يدرّ » ، اذا أمكن القول .

— ماذا تعني ؟

— على سبيل المثال ، كلب صيد فاقد حاسة الشم .

— لكن هل تعتقد ان الكلاب تعرف ذلك ؟

— تعرف ماذا ؟

— انها هُجرت وانها هنا بانتظار غرفة الغاز ؟

— بالتأكيد ، انها تعرف فالكلب ذكي . انه يفهم كل شيء .

— لكن الكلب ، عندما يحبس في الزريبة هكذا ، ألا يبقى طول حياته عصبياً ، حزيناً ، شريراً ؟

— ليطمئن بالك بصدد ذلك : فكل ما يطلبه الكلب هو ان يكون له صاحب . وما ان يجد صاحباً ، حتى ينسى الماضي .

هذه الثرثرة ، هذه المعلومات المقدمة بلهجة هادئة ، لامبالية ، كسول ، بينمايتعالى الهرير والعواء من كل جانب من حولنـا ، أغاظتني . وعندما وصلنا الى نهاية رتل الأقفاص قلت لبابا :

— حسناً ! الآن وقد شاهدتها جميعاً ، احزمي أمرك .

فأشارت لي بيدها وكأنها تقول لي ألا أستعجل ، ثم قالت للحارس :

— فلنعد جولتنا بالاتجاه المعاكس . لقد لاحظت اربعة او خمسة كلاب يمكن ان تناسبني .

وهكذا رجعنا على أعقابنا . كانت بابا تتوقف في كل مرة يسترعي فيهـا احد الكلاب انتباههـا ، وتمد يدها آلياً الى الحيوان الذي يحاول ، وهو منتصب على قائمتيه الخلفيتين ، ان يلعقها من خلال القضبان مبتهـلاً ، هازاً ذنبه ، مدمدماً، وتروح تسأل الحارس مطولاً عن عمر الحيوان ونسله ومزاجه وعاداته ، وبكلمة واحدة عن طباعه كافة . وكانت تطرح أسئلة بدقة بالغة أثارت شكوكي : هذا الحب للكلاب ، ألا يخفي تحته قسوة ما ؟ ومما زاد في شكوكي هذه ان الكلب ، طوال هذا الاستجواب المطول ، يقف هنا أمامنا

متوتراً ، مشدوداً الى القضبان ، يئن ويتشنج ويتضرع . وقلت :

– هيا ، اختاري واحداً ولننته . ألا ترين انك تسببين الألم لهذه الحيوانات المسكينة ؟

– هناك احتياطات يجب اتخاذها قبل ان يأتي المرء بكلب الى بيته .

– إذن ، يا سنيورينا ، أتأخذين هذا ؟

– كلا ، انه لا يعجبني . انه قبيح اكثر مما ينبغي بخطمه هذا الشبيه بخطم العجل ، وشعره الأسود والأبيض . انني اريد كلباً نغلاً ، لكن ليس الى هذا الحد .

– إن أقبحها هي اكثرها عطفاً .

– لمَ ؟

– لأنها تعرف انها قبيحة . تدرك انها ما تزال على قيد الحياة بمعجزة وتحفظ الجميل على ذلك لصاحبها .

ومضينا من نغل يشبه من بعيد الثعلب ، الى نغل يكاد يحسبه المرء ضروا الى ثالث متدلي الأذنين جعد الشعر . وكانت بابا تتكلم مع الحارس ولا تبالي بي . وأخيراً أشارت الى أحد الاقفاص بتصميم وقالت :

– سآخذ هذا .

انه كلب صغير رمادي ، من نوع الكلاب الانكليزية الجعدة الطويلة الوبر ، له رأس كث أشعث منفوش الشعر يبدو من خلاله بياض أسنانه وبريق عينيه . وما كادت بابا تشير به الى الحارس ، حتى سكن روعه وامتنع عن الأنين : لقد فهم انه وجد الخلاص .

وصادق الحارس على اختيارها :

– أحسنت الاختيار ، يا سنيورينا ، فهو من عرق أصيل عريق صافٍ تقريباً ، وسترين كم سيتعلق بك . أترين ، لقد أنقذته ! فقد كان سيذهب غداً الى غرفة الغاز ، لأنه هنا منذ ستة أيام ولم يأتِ احد لطلبه .

وبينما كان يتكلم فتح القفص ، وأخرج منه الكلب ، وسبقنا الى المكتب. وهناك وقّعنا إضبارة ، ودفعت خمسة آلاف ليرة . وأخذت بابا الكلب بين ذراعيها وخرجنا أخيراً . وهرّت الكلاب جميعاً ، كما لو انها فهمت انه ما عاد يرجى منا أمل ، محتجة بنباح صاخب مُصمّ انقطع ما ان أغلقت البوابة وراءنا .

في السيارة قلت لبابا :

– انه معسكر إبادة حقيقي من النوع النازي . لا ينقصه شيء .

فرمقتني بابا بنظرة جانبية وقالت :

– هذا صحيح .. بالمناسبة ..

– بالمناسبة ؟

– أتذكر ما قلته لك عن التجربة التي جعلتني كورا أمرّ بها وأنا في الرابعة عشرة ؟

– تقصدين التي فعلتها ببابا اخرى ؟

– بالضبط . لكن لا ينبغي ان تأخذ الامور هكذا حرفياً .

– ماذا تعنين بذلك ؟

– أعني انني ما أزال تلك التي أخذتها كورا ، قبل ستة أعوام ، الى منزلها .

– هذا ما يخيل إلي ، لكنني لم أكن أجرؤ على البوح لك بذلك .

– على مهلك .. فمن الصحيح ايضاً انها لم تكن أنا .

– لا أرى ما دخل هذا كله بالزريبة .

فأجابتني بلهجة دوغمائية وكأنها تعرض عليّ ثمرة تأمل طويل :

– تلك الكلاب هجرها أصحابها ، وسجنت في قفص ، وقضي عليها بالموت . فإذا ما وجد أحدها الخلاص ، فماذا يفعل ؟ في رأيي انه سيحاول، حتى يستمر في الحياة ، ان يتصور ان كل ذلك حدث لكلب آخر ، مختلف

عنه ، وأنه هو كلب جديد له صاحب جديد وحياة جديدة . بالطبع ، وكما قلت لك ، إن هذا كله غير صحيح موضوعياً، لأن الكلب يظل هو الكلب نفسه الذي هجره صاحبه والذي حكم عليه بالموت . لكنه في الوقت نفسه صحيح : فهذا الكلب هو كلب آخر ، لأن بينه وبين ذلك الكلب الذي هُجر وحكم عليه بالموت واقعة الهجران وحكم الموت التي شطرت حياته الى قسمين.

– يقال إن الكلاب قوية الذاكرة فيما يتعلق بالإهانات والآلام التي عانت منها .

– لهذا السبب على وجه التحديد ، في رأيي ، تستطيع أن تنسى ، ان تتظاهر بينها وبين نفسها بأنه لم يحدث شيء .

– انها لفكرة ثاقبة دقيقة . إذن فذكرى الماضي هي التي تسمح بإلغاء هذا الماضي .

– بالضبط .

– وهي التي تجعل المرء لا ينظر إلا الى المستقبل ، المستقبل وحده ، على أساس تخطيطه كما يخطط الجسر او المصنع .

هذه المرة لم تقل شيئاً ، وانما حدجتني بنظرة مضطربة ، نهمة متوحشة بعض الشيء ، وهي تداعب بنعومة رأس الكلب الذي أجلسته على ركبتيها. ثم حزمت أمرها ، وتناولت الكلب بيديها ، وقامت عن مقعدها ، ووضعته على المقعد الخلفي آمرة اياه : « ارقد ، كن عاقلاً » . ثم أهوت بنفسها عليّ، بكل ثقلها ، ومدت ذراعيها حول عنقي وقبلتني على خدي متمتمة :

– شكراً على الكلب ... أتعرف ، ليس صحيحاً أن عاطفتي نحوك ، كما تريد ان تلمّح ، محسوبة . انني احبك حقاً ، صدّقني ، كما يمكن للبنت ان تحب اباها .

وبينما كانت تقول ذلك راحت تضغط خدها على خدي ، وأحسست بعذوبه ونعومة جلدها الذي كان ملتهباً بحراره لست أدري ما هي ونضراً

بنضارة الشباب في آن واحد . ولم أستطع منع نفسي من الشعور بوجود بعض الالتباس في عناقها ، وبالرغم مني رفعت يدي وضغطت بها على خدها شاداً وجهها الى وجهي لأطيل في أمد التماس . لكنها أسرعت تبتعد عني وتهاوت على مقعدها من جديد وقالت :

ــ كيف سأسميه ، هذا الكلب ؟ ساعدني في ايجاد اسم .

وأجبت وأنا أدير المحرك :

ــ سميه دخاناً ، فشعره بلون الدخان .

ــ كلا ، سأسميه ثلاثاء ، كما سمى روبنسون خادمه جمعة . فاليوم ثلاثاء، وأنا ايضاً ، مثل روبنسون ، هُجرت على جزيرة مقفرة ، وكان علي ان أعيد حياتي انطلاقاً من الصفر .

الخميس ٥ تشرين الثاني

ــ لكنك أنتِ ، هل اهتممت قط بمهنة كورا ؟

ــ بأي معنى ؟

ــ هل سعيت قط الى معرفة ما تفعله ومتى واين تفعله ؟

ــ لم أحتج الى ذلك .

ــ لماذا ؟

ــ كورا لا تتخفى مني . بل علي أنا ان أحتجب عن الانظار لتجنُّب معرفة بعض الاشياء .

ــ أي أشياء ؟

ــ على سبيل المثال بعض المحادثات الهاتفية . فكورا لا تتردد في إجرائها امامي . واذا كانت تتكلم بلغة .. لنقل رمزية ، فليس ذلك لأنني حاضرة، بل لأنها حذرة .

– بمن تتصل هاتفياً ؟

– بنساء ، برجال .

– وسمعت بعض هذه المحادثات ؟

– أحياناً ، أجل .

– ماذا تقول ؟

– أواه ! لا شيء مثيراً للاهتمام . لو لم اكن أعرف ما المسألة، لاعتقدت ان كورا تبحث في صفقات عطور .

– ماذا تعنين ؟

– على سبيل المثال ، تعلم مخاطبها بإرسال عدد معين من الأمشاط الذهبية او البنيّة اللون لتفهمه بأن الفتاة شقراء او سمراء . ثم تقول ان تلك الأمشاط لها ست عشرة ، او ثماني عشرة ، او عشرون ، او خمس وعشرون سناً ، مشيرة بذلك الى عمر الفتاة . وأحياناً تضيف بأن هذه الامشاط من نوع جديد ، لم يشاهد قط . وهذا يعني على الارجح ان الفتاة عذراء . وفي النهاية تعطيه العنوان وتحدد اليوم والساعة ، ثم تطبق السماعة .

– وكيف تبرر أمامك نشاطها « المطري » هذا ؟

– انها لا تبرره . كورا لا تبرر نفسها أبداً . انها تفعل وتصمت .

– قصة الامشاط تلك تلجأ اليها عندما تتصل بالرجال . لكن ماذا تقول للبنات ؟

– للبنات تقول ان الثوب جاهز وان عليهن أن يأتين للقياس في يوم كذا الساعة كذا .

– هذا بالنسبة الى البنات الموافقات . لكن الأخريات ؟

– كيف ؟

– أقصد انه يحدث ولا بد لكورا ان تقوم ، على الهاتف ، بعملية إقناع وإغراء ، أليس كذلك ؟

– ثم ماذا ؟
– في هذه الحالات ماذا تقول ؟
– أواه ! انها في غاية المهارة !
– بأي معنى ؟
– بمعنى انها تقوم بمهنتها ببراعة ، لكن ايضاً بهوس .
– وفيمَ تكمن مهارتها ؟
– في الطريقة التي تصوّر بها الشيء .
– أي ؟
– على انه شيء قليل الأهميـة اولاً ، ومحبب ثانياً ، ومؤقت لن يتكرر اكثر من مرة ثالثاً .
– لنستعرض ذلك بالترتيب . كيف تفعل لتفسر بأن الشيء قليل الاهمية؟
– تقول انه شيء تفعله النساء جميعاً ، ليس له اي نتيجـة من اي نوع كان ، يعود المرء بعده الى حياته المعتادة وينسى حتى ما حدث . تقول انه شيء لا يختلف بالمرة عما يحدث بين الفتاة وخطيبها ، وما شاكل ذلك .
– ومسألة كونه محبباً ؟
– تصور الرجال دوماً متمتعين بجميع المزايا والصفات : الأناقة، اللطف، حسن التربية ..
– والجانب المؤقت في الشيء ؟
– الفتاة حرة في ألا تعاود العملية أبداً ، فليس عليها إكراه ، ولا تلتزم بشيء . ثم ان الرجل ليس اي رجل كان ، انما هو شخص لحظهـا وبودّه لو يعرفها . والخلاصة : ان الشيء استثنائي ولن يحدث سوى مرة واحدة ، الخ.
– وهل تقتنع الفتيات جميعاً بمثل هذه الحجج ؟
– ليس جميعهن . لكن انتبه : ان كورا لا تتعرض ابداً لفتاة لم توح اليها ، منذ البداية ، ببعض الأمل ، مهما كان ضئيلاً . وانما هنا تكمن مهارتها .
– كيف ذلك ؟

– انها تتوصل دوماً الى ان تجعل من الحالة النفسية التي ما تزال نافرة ، لكن غير سلبية ، حالة نفسية مناسبة . ثم عندما لا تكفي الطريقة الناعمة ، لا تتردد كورا في استعمال الطريقة القوية .

– مثلاً !

– امكنني مرة أن أعيد بناء ما فعلته . فقد قبلت احدى الفتيات في النهاية بعد تردد طويل . فأعطتها كورا العنوان ، وأعلمتها باليوم والساعة . وبعد بضع لحظات اتصلت بها الفتاة هاتفياً: لقد فكرت في الأمر وهي لا تشعر في نفسها بالاستعداد ... فماذا تظن كورا فعلت ؟

– أهددتها ؟

– كلا ، اكرهتها .

– أكرهتها ؟

– أجل ، هرولت الى منزل الفتاة ، فوجدتها جالسة الى المائدة مع والدها ووالدتها وأخوتها واخواتها، وقالت لها انها جاءت تأخذها لما لست ادري اي سبب مستعجل . ولم تجرؤ الفتاة، وقد تملكها الخوف والخجل، على معاكستها، فتبعتها . وهكذا انتصرت كورا . فكر بتلك الجسارة ، بذلك الفجور، في منزل الفتاة ، بمواجهة أهلها ! وأخيراً نصحت الأم نفسها ابنتها المشاكسة بالذهاب مع كورا ، بناء على الدافع الذي اختلقته هذه الأخيرة . لم تكن الفتاة تريد ، لكن كورا استنجدت بمساعدة الأم لتكسر إرادتها .

– ثم ؟

– ثم ماذا ؟

– الإمَ انتهت ، تلك الفتاة ؟

– اعتقد انها عزّت نفسها وبقيت متعلقة بأمي . ومن ذلك اليوم لم تعد تبدي مقاومة .

– لكن كيف تفعل كورا عندما تتكلم بالهاتف ؟

– ماذا تعني ؟

– كيف تتصرف ؟ هل تتكلم كثيراً ؟ أم قليلاً ؟ هل ترفع صوتها ؟

– في غالب الاحيان تصغي ، انها تعرف كيف تصغي وكيف تحصل على الأجوبة التي تصغي اليها . انها تتكلم بصوت خافت ، من دون ان تفترق اسنانها فيما بينهـــا ، كالكاهن في كرسي الاعتراف ، بلهجـــة متعادلة ، مقتضبة ، موزونة دوماً . انها لا تقول من الاشياء إلا ما قـــل ودل ، ولا ترفع صوتها ابداً، كما انها لا تغضب ولا تفقد أعصابها ابداً.ان قوة كورا تكمن في كونها لا تبدي كبير اهتمام .

– لعلها لا تهتم .

– انها تهتم ولا تهتم في آن واحد .

– لكن انت ، عندما تتكلم في حضورك ، تبدين وكأنك معجبة بها .

– كلا ، انني لا أعجب بها .

– ترين انها ماهرة .

– انها الحقيقة .

– لكن ألا يحرجك الكلام عن هذه الاشياء ، ألا تشمئزين ؟

– كلا .

– لماذا ؟

– لأنها ، بعد كل شيء ، أشياء كغيرها ..

– ماذا تعنين ؟

– أعني انه اذا كان هناك شخص يحق له ، في هـــذه الحالة ، ألا يكون مشمئزاً ، فهو أنا ، ما رأيك ؟

– انت على حق .

– ثم ان كورا ، كما قلت لك ، أمي !

– اجل ، انها أمك ، بيد ..

– ويخيل إلي انني أحبها على وجه التحديد لأنها تقوم بتلك المهنـــة ولا

تتخفى مني ، ولأنني أرى ذلك وأعلمه ..

– لكن ، اخيراً ، اولئك الفتيات ..

– مثلي معها عندما تتعرى وتريد ان تأخذ حمامها ويكون من واجبي ان أجففها وأدلكها بمنشفة . انني أدرك آنذاك انهـــا لم تعد في ريعان العمر ، وأنها صائرة الى الذبول والأفول . أدرك انه من الممكن ان تبدو باعثـة على الاشمئزاز . لكن لما كانت أمي ولما كنت أحبها كما تحب البنت أمهـا ، لذا يخيل إلي أن حبي لها يتعاظم على وجه التحديد لأنها أمست هرمة، متداعية، منفرة .

كانت تنظر إلي وهي تكلمني، جفناها نصف مسبلين على عينيها الواسعتين الخضراوين الزرقاوين بتعبيرهما المداهن المتناوم . كنا نتمشى على ضفة التيبر، قرب ساحة مازيني ، نتزه الكلب : ذريعـة جديدة لتطبيق خطة العلاقات العائلية . ونظرت بابا إلي، ثم رفعت أصبعيها الى فمها وأطلقت ، بحذاقة تحير اللب ، صفيراً حاداً مصماً . وسرعان ما عدا الكلب الينا ، بعد أن كان قد ابتعد ، وراح ينبح خلفنا بفرح .

الاحد ٨ تشرين الثاني

طوال بضعة ايام فكرت بالأمر من حين الى آخر من غير أن أحزم أمري . وفي النهـــاية ، أي اليوم ، خرجت من بيتي وركبت سيارتي واتجهت نحو شارع كاسيا .

كانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر ، وكانت تلوح لي في الجو ، كما هي العادة ، نذر ليلة عاصفـة . وقطعت مونت ميلفيو وتغلغلت بين الرتل الطويل من السيارات الخارجة من المدينـة، ثم رحت أسوق ببطء، في نوع من

الحذر . وكان الظلام قد بدأ يخيم تحت قبة اوراق الشجر الحمراء والصفراء التي تشكلها أغصان الدلب بتعانقها فوق الطريق .

بينا كنت أقود كإنسان مسيّر في نومه الى حد ما ، تساءلت بيني وبين نفسي عن سبب ذهابي الى منزل كورا . وكان الجواب الاول هو حتى يصبح ذلك الشيء الذي لم أصدقه بعد ، أعني مهنة كورا السرية ، مألوفاً عندي . كنت أريد ، اذا جاز التعبير ، ان أراها بأم عيني ، ان ألمسها بيدي ، ان أسمعها بأذني ، ان أشمها بمنخاري ، وهذا كيما ألغي من الوجود تلك المسافة من الاشمئزاز التي تجعلها تبدو لاواقعية على وجه التحديد لأنها بغيضة مقيتة. لكن عند إمعاني في التفكير تكشّف لي دافع ثانٍ : انني اريد رؤية منزل كورا لأن كورا قادت الى منزل مشابه ، قبل ستة أعوام ، بابا الأربعة عشر ربيعاً .

وفكرت آنذاك من جديد فيما قالته لي كورا عن طريقتي في الحب ، عن الرغبة التي كانت لي في مضاجعتها في ذلـــك المسكن الحقير في الضاحية . وفهمت ان الحافز نفسه او المخطط نفسه يتكرر اليوم . كل ما هنالك أن ما جذبني في الماضي الى مسكن الضاحية الحقير هو فكرة الفقر المفهوم على على أنه أصالة ، في حين ان ما يحفزني اليوم على زيارة منزل كورا هو فكرة العدم المتمركز فيه ، العدم الذي يمارس فيه يومياً . وأنا لا أحب بابا إلا لأن العدم يجد معهـــا تعبيره الكامل التام في الحب السفاح . وأنا اعرف انني استطيع مع بابا ، اذا شئت ، ان أغوص الى قرارة هذا العدم .

على حين غرة توقفت سيارتي من تلقاء نفسهـــا اذا صح القول ، او لعلني شددت الفرامل عن غير انتباه لاستغراقي في تأملاتي . وآنذاك نظرت . كان ينتصب أمامي شرطي سير سبط القامة، مخلع الأطراف ، يضع راناً وحزاماً وخوذة من الجلد ، يوجه السير بواسطة شارة حمراء وخضراء. وكانت سيارات كثيرة قد توقفت بانتظار السماح لها باستئناف المسير. وكانت في احد جانبي

الطريق سيارة خدمات صغيرة تالفة الغطاء ، ثم الاسفلت الأسود ، المبقع ، كجلد فهد ، بأوراق الشجر الميتة المصفرة المترأرئة ، وبحطام زجاج دقيق . ومن ثم سيارة فاخرة ، بيضاء الهيكل ، طويلة وواطئة ، معطوبة الرفرف وانتظرت حتى استأنفت السيارات سيرها ، مارة الواحدة تلو الأخرى كما لو أنها في استعراض امام شرطي السير ، ثـــم تقدمت بدوري . وتجاوزت المكان الذي وقع فيـــه الصدام وانعطفت . وأشار لي رجل كان يغذ السير بمحاذاة ردم الطريق . فتوقفت :

– هل تستطيع ان تأخذني في سيارتك ؟

نظرت اليه : وجه سوقي لكنه غير منفر ، وجه صاحب دكان روماني ، شاب ، نضر ، ملون ، دموي ، عيناه في أم رأسه ، لامعتان وجسورتان ، ذو شعر أجعد ، ضيق الجبـــين ، وله فم أحمر شره التعبير عنيفه . وكان يضغط بإحدى يديه على كتفه . وكان يبدو عليه الوجع . وقلت :

– انني ذاهب جانبياً .

فأجابني :

– انا ايضاً ، على بعد خمسة كيلو مترات من هنا .

– اصعد اذن .

فصعد . وضغطت بقدمي على المسرّع وجرت السيارة تحت الاشجار . وسألت :

– ألأنت الذي وقع له الحادث ؟

– كيف حزرت ؟

– رأيتك تمسك بكتفك . سيارتك هي البيضاء ، أليس كذلك ؟

كنت أنتظر بعض تعليقات عنيفـــة ، إذ بدا لي أن راكبي هو من نوع الرجال المهووسين بحب السيارات . لذا كانت مفاجأتي كبيرة عندما قال لي بكل هدوء :

– بلى ، انها هي . لكن لم يحدث شيء . مجرد عطب في الرفرف ورضّة خفيفة في الكتف .

– أجل ، بالنسبة اليك .. لكن الآخرين ؟

– اواه ! لقد استقلوا الباص . مجرد إصابة في غطاء سيارتهم .

– لكن على من الخطأ ؟

لم يكن ينظر إلي وانما كانت عيناه شاخصتين أمامه يتلألأ فيهما وميض ساخط من نفاد الصبر . ومن دون ان يلتفت أجاب :

– انها غلطتي أنا .. كنت مستعجلاً . أردت تجاوزهم فاصطدمنا . كانوا على يمينهم .

وتفاجأت من جديد بالطريقة الموضوعية والعقلانية التي أقر بها بأخطائه ، وهذا شيء مستغرب لدى شخص من طرازه . وفكرت : اللهم الا اذا كان هذا الموقف قد أملاه عليه شيء أهم بالنسبة اليه من سيارته ، شيء أوجب عليه السرعة فكان السبب غير المباشر في الحادث .

– هل أنت مؤمّن ؟

– أجل .

– لكن التأمين سيدفع أضرار الغير لا أضرارك .

– بالطبع ! مؤكد .

وأمسكنا عن الكلام طوال كيلومتر . وفجأة وضع يده على ذراعي :

– ها قد وصلت . قف لي هنا من فضلك .

ونظرت عبر زجاج السيارة الذي بدأت تنسحق عليه أولى قطرات المطر العريضة المتفتحة كبراعم الزهر ، وتعرفت ، وقد اجتاحني إحساس بحتمية القدر يبعث على الغثيان ، بوابة فيلا كورا . بيد ان الرجل ، الرشيق والنافد الصبر ، كان قد فتح باب السيارة وقفز منه :

– شكراً على تلطفك .

وتظاهرت بأنني أواجه صعوبة في تبديل علبة السرعـة ، ولبثت أنظر اليه بينما كان يتجه ، بعد ان رفع قبّة مشمعة على رقبته ، نحو البوابة ويدفعها ويختفي . ثم دعست على المسرع وانطلقت . وجرت بي السيارة مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً . وتحول المطر ، بعد ذلك الإزهار الأول الشبيه بإزهار إقاح صغيرة سائلة ، الى وابل غزير لكن شفاف تمكنت ماسحة الزجاج من أن تخلق فيه ، لوهلة ، مثلثاً من المنظورية . ثم اشتد الطوفان وانضاف اليه ضباب شاحب فائر . فتوقفت ورفعت زجاج الباب وأشعلت سيجارة .

فكرت بصاحب الدكان الشاب وبما يفعله في هذه اللحظة ؛ تخيلت الغرفة المعتمة كهفاً محصناً منيعاً ، والمطر خلف الزجاج الغائم ، وجسد المرأة العاري الدافىء لصق جسد الرجل ، والحب الصامت ، وهزيم العاصفة . وفهمت من جديد بالحدس نفسه ان الفتى انما كان يتوتـّر ويصبو الى هذا كله يجزع دمه الفائر بينما كنت أحدثه عن الحادث والأضرار والتأمين .

دخنت سيجارة ، ثم أنزلت الزجاج لأرمي بعقبها ثم أعدت إغلاقـــه وأولعت سيجارة اخرى . كانت السماء ما تزال تهمي بغزارة ، لكن المطر لم يعد كثيفاً الى حد يحول دون الرؤية ، كما منذ لحظات . وأدرت المحرك من جديد ، وأقلعت السيارة ، وجرت بي حوالي عشرين دقيقة حتى وصلت الى مفرق طرق تصطف على حافته أربعـــة او خمسة منازل قروية . وأوقفت السيارة ونزلت منها ، ودلفت الى مقهى صغير تحت المطر الذي كان قد بدأ يخف وأنا أقفز من غدير الى آخر . كان صاحب المقهى القروي يثرثر مـــع زبونين او ثلاثة ، قرويين هم ايضاً ؛ وجلست في أحد الأركان ، الى طاولة أنبوبية الشكل مهتزة متداعية ، وغاصت قدماي في نشارة الخشب الـتي فرشت بها الأرضية ، وطلبت قهوة .

كانت الساعة تشير الى السادسة إلا ربعاً ، وحسبت ان الفتى قد دخل في حوالي الخامسة إلا ربعاً الى منزل كورا ، وان عملية الجماع لم تستغرق اكثر

من نصف ساعة ، او ثلاثة أرباع الساعة على الاكثر . إذن فعلي أن أنتظر عشرين دقيقة ايضاً .

وحمل لي صاحب المقهى فنجان القهوة ، فاحتسيته ، ثم تناولت صحيفةمن طاولة مجاورة . كانت جريدة مصورة مدعوكة وملطخة تحتوي على رواية سينمائية تحت عنوان « عودة الماضي » . وقرأتها او بالأحرى تأملت الصور واحدة واحدة ، دارساً إياها بانتباه ، فاكاً ألغاز العبارات الخارجة من أفواه الأشخاص .

كان البطلان ،وهما شاب صبيح الوجه وفتاة ناعمة الملامح ، أنيقا المظهر ، أساريرهما تعبر بالتوالي عن انشغال البال والحزن والجوى والحلم والحنان والغضب لكن بوقار ووجاهة دوماً ، يعيشان مغامرتها في غرف شقتيهما الصغيرتين المفروشتين بأثاث حديث سويدي الطراز . وقد كان للفتاة ، على ما فهمت ، عشيق كتمت أمره على خطيبها . وذات يوم ظهر العشيق من جديد وراح يهدد الفتاة التي وجدت نفسها مكرهة على الاختيار بين حلين : إما شراء سكوت عشيقها باستسلامها لرغباته ، وإما مصارحة خطيبها بالحقيقة كلها تحت طائلة هجرانه اياها ، هي التي يحسبها طاهرة الذيل . وفي لحظة محددة تتدخل بين البطلين سيدة عجوز وقور ذات شعر أبيض مدروس تماوجه ، تضع نظارتين وترتدي ثوباً أسود : أمها أو أمه... ولم أتمالك نفسي عن التفكير : « ماذا لو كنت احيا مغامرة كهذه ؟ ماذا لو كان اللاأصيل كامناً كالعادة في صميم الأشياء ؟ ماذا لو كان الواقع لاواقعياً في تكوينه بالذات كما في هذه المجلات المصورة ؟ وماذا لو كانت دلالته كامنة لا في الأحداث وانما في لاواقعيتها بالذات ؟ ولم آتِ بجواب لهذه الاسئلة التي لم تكن بحاجة اليه أصلاً ، وتابعت مطالعتي المثيرة للاهتمام . وعندما وصلت الى صورة تمثل الأم وهي تحثّ ابنتها على الاعتراف بكل شيء لخطيبها قائلة لها : « كلّميه ، قولي له الحقيقة . واذا لم يتحمل الحقيقة فهو غير جدير بك » ، ناديت صاحب المقهى ودفعت له وخرجت . كان المطر قد انقطع ، وكانت

الغدران السوداء المتناثرة على الطريق تعكس باطمئنان أنوار المصابيح العامة الصفراء . كان الهواء رطباً ، ناعماً ، شبه دافىء ، تخترقـــه نفحات واهنة متقطعة من ريح اكثر برودة . وصعدت الى سيارتي ، ودرت نصف دورة بها ورجعت أدراجي باتجاه روما . وبعد عشر دقائق كنت امام بوابة كورا .

ونزلت ، ووجدت البوابة منفرجة ، فدفعت المصراع وتقدمت في الممشى بين صفين من شجيرات تتساقط منها قطرات الغيث ويتطاير منهـا الشرر . وواصلت مسيري الى ان رأيت على علوة صغـيرة القسم الأعلى من الفيلا ، ثم مع تقدمي القسم الأسفل ، وأخيراً أطللت عليها كلهـا . وعندما نظرت الى واجهة الفيلا التي تنيرها بوهن من الأسفل الى الأعلى كرتان ضوئيتان ، فهمت لمَ فضلت كورا استئجار هذا المنزل على غـيره . لا ريب في ان تواضع سعر الايجار قد جذبها ، لكن لا ريب ايضاً في ان هذا السعر المنخفض الاستثنائي يرجع الى ان المالك قد تبين ، بعـد أن شاد المنزل ، انه أخطأ كل الخطأ ، فسعى الى الخلاص منه بأي ثمن . وبالفعل كانت تفوح من هذا البناء الكبير والثقيل الذي لا يمكن ان يسكنه من لا ادعاء عنده والذي لا يمكن في الوقت نفسه اعتباره فيلا فاخرة بسبب غلاظته ، أقول كانت تفوح منه رائحة غلطة لا سبيل الى علاجها ، رائحة خطأ مميت . فقد بنيت هذه الفيـــلا بالأسلوب الذي كان رائجـــاً قبل ثلاثين عاماً ، والمسمى بأسلوب ١٩٠٠ او الأسلوب الفاشي المعرى الخشن . وكانت الواجهة ، المجصصة بلون رمادي كئيب ، والصقيلة الخالية من أي إفريز ، والملطخة ببقع كبيرة من الرطوبة ، والمخططة من الأعلى الى الأسفل بأخاديد صفراء خلفتها الأنابيب الصدئة ، كانت مجنحة ببرج او ما يشبه البرج ، يضفي عليها سحنة صارمة ونفعية تجمع بين مظهر صومعة الحبوب والقصر الوسيطي الصغير . ووراء الشرفتين الدائرتين حول الواجهة كانت النوافذ مغلقة وبلا نور . ولاحظت ان الباب ، بين المصباحين الكرويين ، منفرج مثل البوابة ، وللأسباب نفسهـــا بلا ريب . واجتزت بسرعة الباحة الصغيرة التي أمام المبنى ، ودفعت المصراع ودخلت . كان

داخل الفيلا لا يختلف إلا قليلاً عن مظهرها الخارجي : نفس انعدام الأناقة ، نفس العري ونفس الأخطاء في البنـــاء : دهليز طويل عارٍ مصفح بخشب داكن اللون ، باب زجاجي غير مصقول ، وأخـيراً درج وعر وضيق كأنه ضائع في سماكة الاسمنت . وفي أعلى الدرابزون الأول كانت تقبع فتحة غير منتظرة مؤطرة بزجاج ملون بالأحمر والأخضر والأسود ، يمثل الخضر وهو يصرع التنّين . وارتقيت الدرج الاول ثم الثاني ، ووجدت نفسي في رواق يتفرع عنه ممشيان عاريان ضيقان نصطف عند كل واحد منهما أربعـة أبواب تضيئها مصابيح على شكل أقماع من البلور المحجر . وفي تلك اللحظة انفتح باب في ممشى الشمال ، وبمثل لمح البصر قـــذفت بنفسي الى الوراء واختبأت حول قوس يحد الرواق .

قدمت رأسي بحذر وأنا أشد نفسي الى الحائط ، ولمحت على عتبة الباب الفتى الذي اصطحبته معي قبل قليل وامرأة عارية تماماً . كان الرجل يدير لي ظهره ، لكني كنت أرى المرأة مواجهة تقريبـــاً . كانت طويلة منتظمة التقاطيع ، عريضة الكتفين ، قوية الذراعين ، سبطة القامـــة ، مشدودة الساقين . وكان لها رأس شعبي جميل : عينان سوداوان طويل شقهـما ، أنف ممشوق ، فم واسع ، وبكلمة واحـدة ملامح معبرة بسيطة . وكانت سمراء كثة الشعر حول هامتها وتحت أبطيها وعلى عانتهـــا . وكانت عتمة الممشى تبرز بالمقابل بياض بشرتها . كانا واقفين وجهاً لوجه ، ثم وضع الفتى يديه على كتفيها وقبّلها او ربما عض عنقها ، لأن المرأة أطلقت صيحة ، وتلوى جسمها كله بينما هي تشد نفسها اليه . ثم افترقا وقالت :

ــ شياو .. أتعرف ، انني أخاف من البقاء بمفردي في هـذا البيت المعتم اللعـــين .

فأجاب بصوت غليظ رجولي :

ــ لو كانت معي سيارتي لاصطحبتك . لكنها ستبقى لمدة من الزمن لدى الميكانيكي .

– اذن ، انتظر لحظة . سأستدعي تاكسياً وسنذهب معاً .

– شكراً ، لا حاجة الى ذلك ، سأستقل الاوتوبيس . هنـــاك موقف بالقرب من هنا .

– لمَ لا تبقى ؟ سننام معاً . جميل أن ننام معاً .

– كلا ، ينبغي حقاً أن أذهب .

ورأيت يد الغلام تداعب بجسرة وبعطف تقريباً كشح الفتاة ، زاحفة من الفخذ حتى الخصر . وقالت المرأة :

– أنا لا أعرفك . لم أرك قط . لا أدري من أنت ، ومع ذلك يحزنني أن أغادرك . شيء غريب ، أليس كذلك ؟

– ليس غريباً الى هذا الحد بعد كل شيء .

– لمَ ليس غريباً ؟

– بحق الشيطان ! لا شك في انني اعرف كيف أفعل .

– افٍ ! يا للغرور ! لكننا سنلتقي ثانية ، عدني بأننا سنلتقي ثانية .

– بالتأكيد ، سوف أتصل هاتفياً بالمعامل .

– انت تقول ذلك هكذا ...

– كلا ، انني أتكلم جاداً .

– لمَ لا تأتي للقائي في سينما ألاسكا ؟ انني أعمل فيها كمرشدة للمتفرجين يومياً ، ما عدا الأحد والخميس . بعد المناظر ، اكون حرة .

– طيب ، اذا مررت من هناك ...

– فهمت ، اذهب ... انت لن تأتي .

– بلى ، بلى ... بإمكاني أن آتي .

– اذن ، شياو . وشكراً .

– علامَ الشكر ؟

– شكراً على ان ذلك كان جميلاً جداً ... شياو ... شياو ...

والمحنى ، وقبّلها او عضها من جديد في عنقهـا ، فاختلجت وهي تخنق قهقهة ، ثم حزرت من اليد التي مدّتها الى الأسفل الحركة التي قامت بهـا . وبالفعل هتف الرجل شبه غاضب :

– أي ! ماذا أصابك ! لقد أوجعتني .

فأجابت ضاحكة :

– بالضبط ، اردت ان اوجعك .

فقال آنذاك بسرعة :

– طيب ! شياو ، شياو ، الى لقاء قريب .

وابتعد عنها مطرقاً عينيه ، ونزل الدرج واختفى .

شاهدت المرأة تقترب من الدرابزون وتنحني وترسل تحيتها رافعة ذراعها بكل استقامة . ثم دارت على عقبيها وأسندت ظهرها الى الدرابزون ومطت ذراعيها في حركة تثاؤب كبيرة . وشعرت من خلال هـذا التثاؤب المبلبل المخدر بارتواء اللذة التي أخذت وأعطيت للتو ، وفهمت انها لم تكذب عندما قالت : « كان ذلك جميلاً جداً ! » وبخطى وئيدة عادت أدراجها باتجاه الباب ودخلت الغرفة . وانطبق الباب .

انتظرت دقيقة او دقيقتين ، من غير جزع ، مفكراً بأنه لو لمحتني الفتاة لما كان حدث شيء باستثناء المفاجأة الطفيفة التى كانت ستبدر عنها ، تماماً كما يحدث عندما يلتقي في مكان عام شخصان لا يعرف أحدهمـا الآخر ، لا كما يكتشف المرء في الدار التي يسكنها مجهولاً تسلل اليها خلسة . وفي النهايـة خرجت من مخبئي ونزلت الدرج . وبعد لحظات كنت في السيارة .

في طريق عودتي الى روما تابعت تأملي وفهمت أن زيارتي للفيلا قدكشفت لي النقاب عن واقع مغاير للتخيلات التي حفزتني على هذه الزيارة . فما ان وطئت قدماي الفيلا حتى نسيت بابا ولم اعد أفكر إلا بالعشيقين اللذين ودّعا بعضهما بعضاً أمامي . لقد كذّب ما رأيته الفكرة الشائعة القائلة إن هـذه

اللقاءات المرتزقة دنسة الطابع؟ والواقع انني دخلت الى ما يشبه المعبد المفتوح لجميع الناس وأمكنني أن ألمح شيئاً شبيهاً بالعبارة الأخيرة من طقس ليس المال فيه (كما في جميع الطقوس أصلاً ، أدينية كانت ام لم تكن) هاماً ولا حاسماً بالرغم من انه لا غنى عنه . وهكذا تأكد لي ، بنوع ما ، ما قالته بابا عن كورا : ان نشاطها هو في صميمه متجرد ، وانها تعيش في عالم تعتبره خير عالم ممكن لأنه وحده الواقعي ، وانها مقتنعة بالتالي بأنها لا تأتي أمراً إداً ، بل على العكس تؤدي عملاً صالحاً بتسهيلها صلات الغير الجنسية ، حتى ولو شاءت الصدفة ان تكون هذه الصلات بين ابنتها ذات الاربعة عشر ربيعاً وبين زبون عابر .

الخميس ١٢ تشرين الثاني

إن احدى النتائج غير المتوقعة للتعهد الذي أخذته على نفسي بكتابة يومياتي بهدف استخلاص رواية منها في المستقبل هي ان سلوكي قد أخذ يعاني بصورة غير مباشرة من تأثير هذا المشروع . وبعبارة اخرى ، بات يحدث لي اكثر فأكثر أن أتساءل لحظة إقدامي على فعل ما : « ترى هل سيعدل ما سأفعله ، وما سأسجله بالطبع في يومياتي ، هل سيعدل بصورة سلبية ، وعلى كل حال بصورة نهائية لا سبيل الى إصلاحها فيما بعد ، الرواية التي أزمع كتابتها ؟ ترى لو واجهت، على سبيل المثال ، كورا كما كان سيفعل أي رجل آخر مكاني ، بدلاً من سيطرتي على احتقاري وازدرائي وإرجائي الى ما بعد توضيح الوقائع ، ألا اكون قد قمت بعمل سيحرف بصورة لا مناص منها ، عندما سأثبته في يومياتي ، روايتي المستقبلة نحو الرواية الصحفية الخفيفة ، نحو الرواية السينمائية ؟ »

هذه هي على ما أعتقد ، الميزة الحقيقية للمثابرة على كتابة يوميات ذاتية

بهدف استخلاص رواية منها فيا بعد . وبخلاف ما يمكن للبعض ان يظن ، لا يلعب هذا المشروع دور حافز على القيـــام بأعمال محددة مقصودة بهدف تثبيتها في الرواية (فمثل هذا لن يكون سوى شكل من أشكال النزعـــة الجمالية ، بل الأسوأ من ذلك سيكون عملاً صحفياً من الدرجـــة الثالثة) ، انما هو حجر محك لكل ما يجب او لا يجب ان يفعـــل في الحياة . وهكذا يتوكد ما سبق لي أن قلته : مع مر الزمن أصبحت هذه الرواية بالنسبة إلي طريقة في فهم الصلة بالواقع . فأنا العاجز عن العمل بأصالة ، أستعيد الأصالة، كما لو بسحر ساحر ، كلما تموضعت روايتي المستقبلة بيني وبين الواقع .

لقد جاءتني هذه الفكرة اليوم وأنا أفكر بسلوك بابا تجاهي إبان الأيام الاخيرة . فبابا حريصة ، كما قلت ، بوعي وانسجام ، بل سأقول بنوع من الدوغمائية ، على أن نكون أنا وهي أباً وابنة. وهناك في قرارة هذه الارادة (أمكنني أن ألاحظ ذلك) شيء محرق عميق يصحح جزئياً الطابع المنهاجي في هذه الارادة . وهي تضعنا ، في الوقت نفسه، وربما من غير قصد ، أقول تضعنا باستمرار ، هي وأنا ، في مواقف ملتبسة يمكن ان تسمح لنا بلا تمييز بأن نتصرف إما كأب وابنة، وإما كعاشقين، وإما (وهذا أسوأ الاحتمالات) كأب وابنة عشيقين .

وبالمقابل ، فإن هذا كله هو بلا ريب غير شعوري وغير إرادي عندها ، في حين انه واضح جلي حاضر عندي . إنني اعرف أنني أبوها او على الأقل أعرف انه يفترض فيّ ان اكون اباها ، وأعرف ايضاً انني موله بها ، وانني ارغب احياناً من كل قواي في ان اكون عشيقها .

ان الطريقة التي تحاول بها بابا ان تكون بالنسبة لي ابنة وأن تملي علي سلوك الأب تتخذ احياناً مظاهر في غاية الغرابة يخيل معها للمرء انها تنشد هدفاً معاكساً تماماً . فأنا على سبيل المثال لا أخرج ليلاً إلا فيما ندر لأنني اعتدت على كتابة مقالاتي في السهرة وحتى الساعات الاولى من الفجر. وبالعكس

مني غالباً ما تخرج بابا مع سانتورو ومجموعة من الصديقات والطلبة . والحال ان بابا اعتادت منذ نحو أسبوع ، عند عودتها في ساعة متأخرة، في منتصف الليل او في الساعة الواحدة ، وبعد أن تخلع ثيابها وتستعد للنوم ، اعتادت ان تدخل الى غرفتي بقميص النوم من غير ان تقرع الباب وهي تمشي على رؤوس اصابعها ، وتأتي من ورائي وتطوق عنقي بذراعيها . ان قبلة منتصف الليل هذه هي ، في نيتها ، شيء عائلي وبريء كل البراءة . لكنها تظل ، بيننا ، ملتبسة .

ذراعاها العاريتان الخضلتان المستديرتان تطوقان عنقي .شفتاها تحفّان خدي حفاً خفيفاً زلجاً ، وأنفاسها تمر على جلدي الخشن المضطرب . شعرها الحي ، القارص ، يدغدغ عنقي وأذني. لكن هذا كله لا يدوم اكثر من لحظة خاطفة كافية لإثارة ظل من التباس . وما يكاد الصوت اللاهث الطفولي يقول لي « ليلة سعيدة ، نم جيداً » ، حتى تكون بابا قد اختفت كما جاءت . وفي كل مرة أفكر بأنها ارادت فعلاً ان تتمنى لي ليلة سعيدة ، وبأنها ليست خطيئتها اذا كانت طريقتها في فعل ذلك قد أوحت لي بنية مغايرة تماماً .

ان الاغراء قوي ، يكاد لا يقاوم، لكنني في كل مرة أنجح في تمالك نفسي إذ يذهب بي الفكر الى يومياتي،او بالأحرى الى الرواية التي اريد استخلاصها منها وأتساءل عما سيحدث اذا أصبحت عشيق بابا . انني ادرك انه سيبدو من الغرابة ، مما لا يصدق ، بل حتى من السخف ان أفكر برواية اكتبها في الوقت الذي يبدو فيه على المرأة التي أحب انها تعرض نفسها علي وفي الوقت الذي أجد فيه نفسي إزاء إغراء قوي بانتهاز الفرصة السانحة . لكن الغريب واللامعقول والسخيف لن يبقى قائماً ، على ما أعتقد ، اذا ما تذكر القارىء ان هذه الرواية ليست بالنسبة إلي (سبق أن قلت ذلك) مجرد عمل أدبي وأنما حقاً طريقة في فهم الصلة بالواقع . قد يسألني سائل عم أقصد بذلك ؟ والواقع انني أقصد ان فكرة الرواية قد أصبحت بالنسبة إلي نوعاً من الضمير،

متولداً على وجه التحديد من الطابع المميز للضمير ، اي من قدرته على إقامة صلة أصيلة بيني وبين الاشياء . فلولا تسلط فكرة هـذه الرواية علي ، لما استطعت مقاومة إغراء صيرورتي عشيقاً لبابا . وهذا لأنني لو صرت عشيقها لعجزت عجزاً مطلقاً ، أنا واثق من ذلك ، عن تنفيذ مشروع روايتي .

وذلك انني أشعر عن يقين مطلق بأن أي مكيدة بيني وبين بابا ، عندما ستنتقل من صفحات يومياتي الى صفحات الرواية ، ستنحرف هذه الأخيرة بصورة محتمة نحو الأدب الجنسي المكشوف المرذول . وهكذا فإن مشروع روايتي يوقفني باعتباره الضمير الوحيد المتاح لي على الطريق الذي لا يستطيع فيه ضميري كرجل سوي ان يوقفني . وبالفعل ، إن الرجل السوي فيّ لا يملك أي مبرر ذي قيمة لمواجهة ومعارضة هذا الإغراء البالغ العذوبة البالغ الحرقة . وبالعكس ، ان الروائي هو الوحيد الذي يستطيع ان يقول لي : « لا تفعل هذا . فلو استسلمت للإغراء ، فهوذا ما ستفعله ، معكوساً كما لو على سطح مرآة » .

لكن لكي أبرهن على حقيقة ما أقوله على نحو أفضل مما تستطيعه هذه المحاكات العقلية ، فهوذا فصل من روايتي ضربته البارحة مساء على الآلة الكاتبة بينما كنت انتظر دخول بابا الى غرفتي كعادتها لتتمنى لي ليلة سعيدة. لمَ نسخت هذا الفصل ؟ لأنني كتبته وكل نيتي أن أضع تحت عيني ما سأكون مضطراً الى روايته في يومياتي ثم في روايتي اذا ما أصبحت عشيق بابا .

هوذا اذن الفصل الذي كتبته بدلاً من أن أصبح عشيق بابا او بالأحرى كيلا أصبح عشيق بابا .

« ... هذا المساء ، كما في كل مساء ، أشعر ، عند اقتراب منتصف الليل، بأن عملي يذبل ، يزداد غفلة وتفككاً ، كتلك الأحلام التي يحلم بها المرء صباحاً عندما يتغلغل نور الشمس ، إذ يدلف الى الغرفة على حين غرة ، في الحلم بالذات ويضفي طابع الحلم على ما يبدو واقعاً للانسان الذي يحلم . والشمس في هذه الحالة هي بابا ، او بالأحرى رغبتي في بابا التي كلما اقترب

موعد زيارتها تتعاظم(أي الرغبة) وتبعث في فكري بلبلة ماكرة لا تقهر .

وهأنذا أسمعها في النهاية تفتح الباب وتتحرك في عتمة الممشى ثم تصدم كرسياً بخرقها المعتاد الأشبه بخرق الدب الوليد . وآنذاك داهمتني بغتةفكرة مصارحتها بالقول مرة واحدة ونهائية. انه من الأفضل ان تضع حداً لزياراتها الليلية لا لأنها لا توثق علاقاتنا كأب وابنته فحسب ، بل أيضاً لأنها ، على العكس ، تضعفها وتقوضها. وما كدت أفكر بذلك حتى بادرت الىتنفيذه. فقد نهضت وفتحت الباب وهتفت في الظلمة موجهاً كلامي باتجاه بابا التي كنت ألمح خيالها في العتمة :

— بابا !

— آه ! ما هنالك ؟ لقد أخفتني .

— بابا ، تعالي الى هنا لحظة ، أريد ان اقول لك شيئا ما .

فرددت وقد تملكتها الدهشة والسرور معاً :

— تريد أن تقول لي شيئاً ما ؟

ثم خرجت طائعة من الظلمة وسبقتني الى غرفتي . كان السرير قد أعـدّ حسب العادة . فرميت ببيجامتي تحت الوسادة وبسطت الأغطية من جديد ، وأشرت لها بأن تجلس . كل ذلك بصمت ، لأنني أشعر الآن باضطراب عميق يعقد لساني . ورأيتها تخلع بحركات بطيئة سترة البحار التي ترتديها لتبقى في مايو أحمر وبنطال أزرق داكن ، ثم تجلس منحرفة بعض الشيء ومرتفقة الى الوسادة . وصلبت ساقيها ونظرت إلي بعينيها الحاسرتين بكل هدوءوسكينة وقالت :

— حسناً ! انني أصغي اليك .

خفضت ناظري ولمحت شيئاً لم ألحظه قط حتى الآن : كانت تلمع بين ثنية بنطالها وحذائها ، حول كعبها ، سلسلة ذهبية ، عريضة بما فيه الكفاية ، تتدلى من أحد الجوانب حتى عظم الكعب . فسألتها مندهشاً :

– عجباً .. هذه السلسلة .. منذ متى وأنت تضعين هذه السلسلة ؟

فخفضت عينيها ونظرت الى كعبها برضى وأجابت :

– كنت أضعها في العـام الماضي . ثم امتنعت عن ذلك . ولا أدري لمَ وضعتها من جديد هذا الصباح .

ونظرت من جديد الىالسلسلة التي تتدلى على نحو منحرف على هذا الكعب الغليظ بعض الشيء : شيء يدل على قـلة الذوق او بالأحرى على ذوق من نوع خاص ، ويوحي بصورة محتمة ، على ما أعتقد ، بفكرة المرأة المسترقـّة او بفكرة المرأة الفاتنة التي تخلب الألباب والتي ولى زمانهـا بعض الشيء . وفيما كنت أنظر ، شعرت مندهشاً بأن خديّ يلتهبان وفهمت انه لم تعد بي رغبة ، هذا اذا كانت مثل هذه الرغبة قد وجدت عندي قط ، فيمصارحتها بصدد زياراتها الليلية . وأخيراً قلت ، ببلاهة :

– وماذا فعلت هذا المساء ؟

– هذا المساء ذهبت مع سانتورو وعدد من الأصدقاء الى بيت شاب .

– أي شاب ؟

– اواه ! احد زملائنا في الجامعة .

– وماذا فعلتم ؟

– ما نفعله عادة .

– أي ؟

– استمعنا الى اسطوانات ورقصنا وثرثرنا .

– أتسليت ؟

– اجل ، بالتأكيد . لمَ تسأل ذلك ؟

– اواه ! لا لسبب محدد . عم تحدثتم ؟

نظرت إلي بابا نظرة مداهنة مرائية ولزمت الصمت. ورأيت ان جسمها، بسبب عرض السرير وعدم وجود اي نقطة ارتكاز ، قد انزلق الى أمام ، فباتت شبه ممددة ، معروضة البطن ، على ما خيل إلي ، تحت نسيـج بنطالها

المشدود ، وساقاها متباعدتان بعض الشيء . وجلست بجانبها ، ثم بحركة مفاجئة جزعة لا تقاوم نهضت ودرت حول السرير هذه المرة بل على الارض، على السجادة ، مقابل ساقيها . وأخيراً أجابت بابا :

– عم تحدثنا ؟ عن كل شيء قليلاً . تصور اننا تحدثنا عنك بالذات .

– عني ؟

قلت ذلك ساهياً كما لو أن بالي مشغول ، وأمررت في الوقت نفسه إصبعي بين كعب بابا وسلسلتها الذهبية ، وشددت قليلاً كأنني اريد تحطيم السلسلة . ورمقتني بابا بنظرة جانبية وأجابت :

– أجل ، دارت بصددك مناقشة .

– اي نوع من المناقشة ؟

– هاجمك شابان ، اثنان من اصدقائي ، فدافعت عنك .

– دافعت عني ؟

– بالتأكيد : من واجب الابنة ان تدافع عن أبيها .

هأنذا الآن أسند وجهي الى ركبتيها، أطوق بذراعي المرفوعتين خصرها، وراحتا يدي على قفلي بنطالها السحابين . وقلت مطأطئاً جبهتي :

– من واجب الابنة ان تدافع عن أبيها ، هذا صحيح ، بالتأكيد ، ولا صحيح بعده . وماذا قال عني هذان الشابان ؟

– أفضل ألا اقول لك ذلك .

– لِمَ ؟

– لأنهما قالا شيئاً مزعجاً لا يجدر بي ان اكرره .

أمسكت يداي بلساني السحابين واستعدتا ، كما لو أنهما تنتظران كلمة الأمر ، لسحبهما نحو الأسفل . وألححت :

– هذا عندي سيان . اريد ان أعرف ما قالاه .

– حسناً ! انهما يلومانك على انقلابك ، على تحولك من اليسار الى اليمين ،

على انتقالك من صحيفة اشتراكية الى صحيفة محافظة . قالا انك فعلت ذلك بدافع المصلحة .

– وماذا قالا ايضاً ؟

– لكن لمَ إصرارك على معرفة ذلك ؟

– الأمر يهمني .

– على رسلك ! قالا إنك ... أتريد حقاً ان تعرف اللفظة المضبوطة ؟

– أجل .

– قالا إنك نذل . هأنتذا تعرفها الآن . فأي فائدة لك في ذلك ؟

لعل كلمة الأمر المنتظرة هي هذه المسبة بالنذالة . أعتقد ذلك ، لأنه بينما كانت بابا تلفظها ، بشيء من الحرج،وكأن للتعبير في نظرها معنى مغايراً للمعنى الذي له عادة ، شدت يداي الى الأسفل لساني السحابين، وزلقتاهما بلا صعوبة على الصفين المسننين المعدنيين ، وانفتح البنطال من الجانبين كما انفتاح قشرة الثمرة ، كاشفاً عن نسيج السليب الأزرق الشاحب، الشفاف والصقيل. ورفعت ناظري : ان بابا شبه ممددة ، ينتصب قسمها العلوي على مرفقيها ، وذقنها غائرة في صدرها ، وجسمها مقذوف الى أمام ، حاسرة النظر،مرائية من الجائز ، كأنها تحفظ كرامتها بتجاهلها ما يحدث لجسمها تحت الخصر .

وكررت :

– نذل .. ودافعت عني ؟

– أجل .

– بحرارة ؟

– أجل .

– لكنك ، في قرارتك ، كنت توافقين الشابين ، أليس كذلك ؟

– كلا ، لم اكن أوافقها .

– صدقاً ؟

– أجل ، صدقاً .

أمسكت بطرفي البنطال على الخاصرتين وشددتها فجــأة الى الأسفل .

وظهرت تحت نسيج السليب الشفاف السرة الداكنة الشبيهة بدمغـــة مثقب مستطيل ، الغارزة في لحم البطن الفتي المنور . وشددت من جـــديد وتجلى مثلث العانة المنتفخ اللكيك . وقلت حاني الرأس :

– أتعرفين كيف كنت أسميك بيني وبين نفسي قبل ستة أعوام عنـدما بدأت لا أطيق الحياة مع كورا ؟

– كلا .

– كنت أسميك بنت الحرام .

ورفعت عيني ونظرت الى بابا . فابتسمت ابتسامة محرجـــة ثم قالت هازئـــة :

– فكرة لطيفة من أب بصدد ابنته ، أليس كذلك يا فرانشيسكو ؟

فأجبت غريزياً :

– أنت لست ابنتي .

– على كل الاحوال ، ابنة زوجتك .

فقلت بحنق :

– لا ابنتي ولا ابنة زوجتي . انت لست إلا ابنة حرام .

ورفعت من جديد ناظري . انها ممددة الآن بكاملها ، ذقنها مدسوسة في صدرها ، ساقاها متباعدتان ، عارية من الخصر حتى الركبتين ، تبتسم لي ابتسامة متألمة كابتسامة حيوان يحتضر . ثم لفظت ببطء :

– ابٌ يعرّي ابنته .

– ألا يعجبك ذلك ؟

– زوج أم يعري ابنة زوجته .

– ألا يعجبك ذلك ؟

– نذل يعري ابنة حرام .

– ألا يعجبك ذلك ؟

ورأيتها تهز رأسها كأنها عاجزة عن الكلام، ومن جديـــد خالجني شعور

قاسٍ بأنني أمام حيوان جريح حتى الموت ... فنهضت ... »

كما سبق وذكرت ، اختلقت هذا الفصل المقتضب البارحة حتى أعي تمام الوعي معنى صيرورتي عشيقاً لبابا على صعيد الواقع. ثم أعدت قراءته وكتبت صفحات أخرى لأورد في يومياتي الملاحظات التي أتيح لي أن أصوغها تدريجياً. وهذه هي الملاحظات :

« هذا الفصل جنسي مكشوف ، لكن الأدب الجنسي المكشوف لا يكمن في الطريقة التي وصفت بها علاقاتك مع بابا بقدر ما يكمن في هذه العلاقات نفسها التي هي ما هي والتي يمكن بالتالي حذفها لا تبديلها ، وبوجه خاص ، يتأتى الطابع الجنسي المكشوف لهذه الصفحات من الدوافع التي تجعلك تشتهي بابا ، أي :

١ — ما كادت بابا تعود من سهرتها حتى أسرعت تدعوها قائلاً انك تريد مكالمتها . وقد أقنعت نفسك بنفسك بأنك تريد رجاءها بأن تكف عن زيارتك ليلاً لتتمنى لك ليلة سعيدة . لكن لمَ كل تلك العجلة طالما ان بابا ستأتي من تلقاء نفسها على كل الأحوال لتقبلك القبلة البنوية اليومية ؟ ثمة سبب لذلك . فبابا الآن ترتدي قميصاً وبنطالاً ، وعما قليل ستكون في قميص النوم . والحال ان صورة بابا التي تتركز عليها شهوتك هي صورة فتاة في زي الرجال ، لذا فأنت لا تريد ان تذهب بابا لتخلع ثيابها ، وتحرص على احتفاظها بملابسها الرجالية التي كانت ترتديها اثناء النهار .

٢ — سوار الكعب . انه ، للوهلة الأولى ، لغز لا حل له تقريباً. وبالفعل ، ان بابا لا تضع ، لم تضع قط سواراً حول كعبها ... فمن أين جاءها اذن هذا الفرض الغامض ؟ جاء (هذا واضح) من شيء ما رأيته أنت ، لاحظته انت ، خلّف لديك انطباعاً عميقاً بما فيه الكفاية ليبقى في أظلم خلايا ذاكرتك . جاء على وجه التحديد ، من ذكرى أساور مشابهة لاحظتها في كعوب النساء الزنجيات او الهنديات أثناء رحلاتك الى افريقيا والهند . ان

تلك الكعوب الداكنة النحيفة البارزة عظامها لا تشبه من قريب او بعيد كعبي بابا ، وتلك الأساور عبارة عن حلقة ثقيلة من الفضة ، لكن الفكرة المضمرة واحدة : فكرة العبودية ، أي المرأة المنظور اليها على انها شيء ، سلعة تباع وتشرى وتُملك ، المرأة التي يحرم عليها ان تكون حرة وأن تفلت من قيدها فيلحم كعبها بسلسلة .

٣ً — بيد انك تتصور نفسك جالساً على الارض أمام قدمي بابا . إذن فأنت تضيف الى الفكرة السادية عن المرأة المقيدة الفكرة المازوخية عن التبعية، عن الدونية، عن الخجل تجاه هذه المرأة عينها. ان بابا هي شيء، أي أَمة مسترقة، تضع حول كعبها السلسلة التي تشير الى شيئيتها، الى عبوديتها . لكنك أنت نفسك شيء هذا الشيء ، عبد هذه العبدة .

٤ً — مسبة ابنـة الحرام . هنا ايضاً أضمرت فكرة الخفض ، الحط من شأن بابا ، وبالتالي تحويلها الى شيء زهيد القيمة او عديمها ، الى سلعـة . وهذا عبر الازدراء الذي يعامل به الاولاد غير الشرعيين منذ أجيال سحيقة. ان بابا هي بنت حرام، وهذا معناه انها بلا حماية وانها موضوعة تحت رحمتك، تحت رحمة كل من يريد قضاء لبانته منها .

٥ً — مسبة « النذل » . لقد شعرتَ بالحاجة ، في لحظـة معينة ، الى ان تهان بدورك . لكن هنا أيضاً ليس الدافع الحقيقي هو الدافـع الذي يتجلى للوهلة الاولى . فأنت في الواقع لم تشأ ان تعاقب نفسك بقدر ما شئت ان تعاقبك بابا ، أي اردت مرة اخرى ان تضيف الى سادية الإهانة التي ألحقتها ببابا مازوخية الإهانة التي أنزلتها بنفسك .

٦ً — الأب الذي يعري ابنته ، زوج الأم الذي يعري ابنـة زوجته ، النذل الذي يعري بنت الحرام . ان المسألة واضحـة ولا تحتاج الى شرح . فالحب السفاح لا يحاكم ويدان إلا لتحلو ممارسته. الحب المفهوم على انه تدمير للعقبة وقفزة في العدم .

عندما وصلت الى هذه النقطة ، توقفت عن الكتابة ، وفكرت لحظـة و ثم تناولت قلمي من جديد : « لكن أما كان في مقدورك ، مع مثل هـــذه العواطف وهـذه الدوافع ، ان تتجنب الادب الجنسي المكشوف ؟ كلا ، لم يكن ذلك في مقدورك . وهذا لأنه ليس أمامك سوى طريقين يقودان كلاهما الى الأدب الجنسي ، الاول الى أدب جنسي مقنّع ، والثاني الى أدب جنسي مفضوح .

كان في وسعك بكل تأكيد ، كما يفعل الروائيون التقليديون ، ان تحول العلاقات الجسدية الى علاقات نفسية، أي ان تحذف تفاصيل السوار والبنطال والسحابين والسليب والبطن. وتكتفي بأن تحلل بصورة عفة وبارعة العواطف، ولا سيما العواطف غير المباشرة وغير المفضوحة . كان في وسعك ان تفعل ذلك ، بكل تأكيد . لكن بينـــك وبين الروائيين التقليديين الفـــارق التالي : انهم يؤمنون بعـــلم النفس وأنت لا تؤمن به . فلو قلدت الروائيين التقليديين ، اي لو حولت العلاقات الجسدية الى علاقات نفسية ، لا تكون قد فعلت من شيء سوى انك قدمت وصفاً نفسيـــاً تقليدياً ، وبتعبير أدق سقطت في المذهب النفسي الوصفي الصرف ، أي بالاختصـــار ، في الأدب الجنسي المقنع الذي هو أسوأ وأدهى في الواقع من الأدب الجنسي الصريح والمكشوف .

وعلى هذا ، ليس أمامك سوى طريقين ، وفي نهاية كل منهما تجد نفسك دوماً أمام الأدب الجنسي .

لكن لمَ الأدب الجنسي ؟ أليست العـــلاقات الجسدية ، حتى ولو كانت قائمة على الحب السفاح ، واقعاً شبيهاً بكل واقع آخر ؟ » .

وتوقفت لحظة ثم تابعت : « الأدب الجنسي، أجل لأنـــه ليس في أصل عاطفتك بالذات تجاه بابا وفي العلاقات الجسدية التي يمكن ان تكون لك معها، شيء بسيط وطبيعي ، انما هناك شيء لا واقعـي، زائف ، وبكلمة واحدة

غير أصيل : فكرتك عن الأبوة . ان هذه الفكرة وهم ، لكنك بحاجة اليه لكي تحب بابا . وانت تعلم حق العلم انك ، يوم تصبح عشيقها ، ستعي ان وهمك قد تلاشى وأن بابا امرأة كغيرها ، مع كونهـــا في الوقت نفسه غير أصيلة ، أي امرأة كغيرها عليك ان تعتبرها ابنتك . لكن لولا هذا الوهم لما استطعت ان تحب بابا . ومن هنـا كان الادب الجنسي الذي ليس هو سوى تصوير غير أصيل للعلاقة الجنسية . مرة اخرى اقول : ان اللاأصالة هي في الاشياء لا في تصويرها ، وما يسمح لك بتعرفها وتحاشيها هو الفكرة التي لك عن روايتك لا بوصفها نوعاً أدبياً وانما طريقة في فهم الصلة بالواقع ، او اذا شئت ، بوصفها ضميراً . وهكذا ، بمواجهتك ما يمكن ان تفعله مع القصة التي يمكنك ان تستخلصها فيما بعد مما فعلته ، تجد نفسك قادراً على تعديل سلوكك وتوجيهه وتقويمه ، وتجد في روايتك حجر محك لك . ان اللاأصالة تمكث في صميم ذاتك كإغراء ، كحلم ولا تتحول الى فعل ، وهذا الفعل لا يصبح بدوره فناً ، او بالاحرى لا — فناً .

وهذا معناه : ان لديك مقياساً للعمل ، لكن هـــذا المقياس يحملك على وجه التحديد على ألا تعمل ، وتلك هي ، على ما يبدو ، الطريقة الوحيدة لتجنب اللاأصالة المميزة لكل عمل » .

كتبت هذا كله ثم أعدت قراءته وشعرت فجأة بملل عظيم وشبه يأس في الوقت نفسه . وبدأت أخلـع ثيابي مرهفاً سمعي لكل الأصوات . واخيراً خرجت آلياً على نحو ما من غرفتي ومضيت باتجاه باب بابا مباشرة. وفكرت: « الآن سأقرع ثلاث مرات. فإذا أجابتني بابا ، دخلت الى غرفتها واندسست في فراشها بجانبها ونكصت نهائياً عن صيرورتي روائياً » . وهذا ما فعلته . فقد قرعت ثلاث مرات ، بهدوء اولاً ، ثم بقوة، ثم بقوة أشد . وانتظرت ، وأنا واقف بالقرب من الباب ، وقدماي حافيتان على البلاط البارد. لكن بابا لم تجب . فعدت آنذاك الى غرفتي وتمددت على فراشي وبسرعة اخذتني سنة

النوم . ان بابا لم تأتِ هذه الليلة لتتمنى لي ليلة سعيدة ، او هي جاءتلكني لم أنتبه اليها .

الأحد ١٥ تشرين الثاني

ما كدت انتهي من تصحيح مقالي الأخير عن ايران بالريشة حتى دخلت بابا الغرفة ، ممسكة برسن الكلب ثلاثاء . لم تكن ترتدي هذه المرة بنطالاً ، وانما كنزة سوداء وتنورة ضيقة نارية اللون وجزمة قوقازية سوداء مرنة تصل الى ركبتيها . ومضت مباشرة الى النافذة ونظرت الى الخارج وهي تدير لي ظهرها . كنت واثقاً من انها لم تقف هناك ، بـــين طاولتي والنافذة ، إلا لتلفت انتباهي إلى جزمتها . وبالفعل ، وبعد هنيهة من الزمن ، استدارت وقالت لي :

– انظر الى جزمتي ، انها جميلة ، أليس كذلك ؟

– انها تليق لك جداً .

– أتعرف من قدمها لي ؟

– لا أعرف .

– انت ، انت من قدمها إلي .

– أنا ؟ كيف ذلك ؟

– أقصد انك ستقدمها لي ، لأنني طلبت إرسال الفاتورة اليك . ألست ابنتك ؟ ألست أبي ؟ من العدل اذن ان تدفع انت الفواتير .

اقتربت بابا من المكتب ووضعت يديها على الآلة الكاتبة ، وتأملتني بهدوء لمدة بضع ثوانٍ ، ثم تابعت :

– لتدشين جزمتي ، أقترح عليك الدهاب لتناول طعام الغداء في «السير كيو» ، ما رأيك ؟

وتبينت ان هذا الاقتراح أدخل على قلبي من السرور اكثر بكثير مما كنت اتوقع . ولم استطع ان افعل من شيء سوى ان أفكر: سيتاح لي البقاء معها ثماني ساعات على الأقل . وأجبت محاولاً إخفاء سروري :

– حسناً . موافق .

– أيسرك ان تخرج معي ؟

لا أدري لم أوحى لي تعبيرها المرائي بعض الشيء الأشبه بتعبير طفل ينصب لك فخاً ، بريبة مباغتة . وهكذا أجبت بشيء من الجفاء :

– بالطبع .. وإلا ما كنت لآتي .

صمت جديد :

– اذن ، سأذهب لشراء بعض الأشياء من أجل العشاء ، ثم أعود ، ونذهب .

وأمسكت عن الكلام لحظة ثم أضافت بطمأنينة :

– طبيعي ان كورا ستأتي معنا .

وفهمت انني وقعت في الفخ . كنت قد توقعت وتذوقت سلفاً قضاء يوم كامل معها ، وها هي تأتي لتضع بيننا على العكس ، الشخص الذي أكره ما على قلبي لقاؤه . ولم أستطع إلا ان أهتف ساخطاً :

– لكن لمَ كورا ؟ ما دخلها بنا ؟

– انها ليست على ما يرام . أريدها ان تتنشق بعض الهواء النظيف .

– لكني أريد البقاء معاً وحدنا .

– سنبقى معاً . فكورا كتوم . وعندما سنبلغ الشاطىء ، سنتركها ونذهب للتنزه معاً .

لم أشأ أن أقول لها إن تكتم كورا يزعجني اكثر من حضورها ايضاً ، لأنه تكتم الوسيطة الملتبس بصورة لا مناص منها . واكتفيت بأن أسحق بغضب في النفاضة السيجارة التي أولعتها لتوي ، ثم أغلقت المغلف الذي

يحتوي مقالي عن إيران . واستولت بابا على المغلف :

– أعطني إياه . سأضعه في علبة البريد .

وخرجت ساحبة ثلاثاء وراءها . ومكثت في مكتبي بلا حراك وأنا ما أزال حانقاً ، ثم ذهبت الى النافذة ونظرت الى الشارع . وفي مدى ثوان خرجت بابا وتابعتها عيناي ، بينما كانت تشد الكلب من زمامه وتتقدم باتجاه علبة البريد ، على الرصيف . كانت تسير بخطى وئيدة ومترنحة ، متلبكة بثوبها الضيق وجزمتها الثقيلة . وألقت بالرسالة في صندوق البريد ، وتابعت سيرها حتى أول منعطف في الشارع ، وتوارت عن الأنظار . وعدت لأجلس أمام آلتي الكاتبة ، وأشعلت سيجارة ، ومكثت أنتظر وأنا أدخن وأرقب السحب عبر زجاج النافذة . وأخيراً عاد الكلب ثلاثاء هازاً ذنبه وهارباً هريراً خافتاً ، تتبعه عن مسافة بابا . وآنذاك ، ومن غير ان التفت ، قلت لها :

– اسمعي ..

– ما هناك ؟

– كنت أريد أن أقول لك : لا تحسبي انه يزعجني أن أقوم بتلك النزهة مع كورا .

– لمَ تقول لي ذلك ؟

– لأنني ، قبل قليل ، احتججت .

فأجابت ببطء :

– لكن من الطبيعي ان تنزعج لوجود كورا معنا . فقد قلت انك تريد أن نكون معاً بمفردنا . على كل .. سأذهب لأرى ما إذا كانت كورا جاهزة. انتظرني هنا .

وبعد قليل كنا ثلاثتنا في السيارة على طريق سيركيو . بابا الى جانبي ، وكورا على المقعد الخلفي . وعند أحد مفارق الطرق رفعت عيني الى المرآة

العاكسة وتبينت ان ميلها ليس مضبوطاً ، لأنها لم تكن تعكس الطريق وانما وجه كورا . وهممت برفع يدي لتصحيح وضعهـــا ، لكن نظرة الى وجه كورا أوقفتني : كان وجهاً مبقعاً بالأحمر تحت شعرها الأسود كالحبر ، هزيلاً ضامراً ، عيناه الزرقاوان جاحظتان شاخصتان بقسوة ، أنفه الكبير المستقيم تلونه حمرة تختلف عن حمرة الخدين (مما يجعله يبدو كأنه اصطناعي) ، فمه المثلث الشكل تعلوه تكشيرة ازدراء لاشعورية ، وكان يوحي بأنه قناع يخفي الوجه الحقيقي الناحل الجدير بالرثاء . ونظرت اليها بتفرس ثم أصلحت وضع المرآة وسألتها :

– كيف حالك اليوم ، يا كورا ؟

– على ما يرام .

– لا يبدو عليك ذلك .

– لمَ ؟

– وجهك وجه من ليست صحته بخير .

– أنت واهم .. انني على ما يرام تماماً

– أليست بك حرارة ؟

– لم آخذ حرارتي .

– البارحة مساء ، هل كانت عندك حرارة ؟

– عشر درجة بالكاد : سبع وثلاثون وربع .

– وذلك السعال ؟

– اواه ؟ لقد تناقص فعلاً .

– ماذا يقول الطبيب ؟

– لا حاجة الى طبيب من اجل عشر درجة وشيء من السعال

– ارى على العكس انك تفعلين خيراً اذا استدعيته .

فتدخلت بابا :

– أرأيت ، فرانشيسكو يقول مثلي .

– اسكتي . أنا أعرف ما بي : أثر من نزلة صدرية .

– لكن لمَ لا تريدين استدعاء طبيب ؟

– لدي عمل كثير ، والأطباء متشابهون جميعاً . فهم قبل كل شيء ينصحونك بتغيير الهواء ، وأنا ، من جهتي ، لا أستطيع مغادرة روما .

– اي عمل لديك ؟

– لدي المحل . فالموسم قد بدأ .

– أي موسم ؟

– موسم الشتاء .

وفكرت بأن الحديث قد توقف هنا . فباستثناء محل الخياطة ، هناك منزل المواعيد الذي لا استطيع ولا اريد الكلام عنه . بيد انني قلت :

– أيسير المحل على ما يرام ؟

– كلا ، ليس كثيراً . ولهذا السبب ايضاً لا أستطيع مغادرة روما .

– لمَ لا يسير على ما يرام ؟

– الزبائن لا يدفعون .

– سبب آخر لإغلاق المحل والذهاب للتمتع ببعض الاستجمام .

– انت مجنون !

– لمَ مجنون ؟

– ما دخلك في الموضوع ؟ اتركني بسلام .

– الأمر يهمني . فأنت زوجتي بعد كل شيء .

– اجل، زوجتك ! طوال عشرة أعوام لم تنتبه حتى الى انني موجودة، وهأنتذا تكتشف الآن انني زوجتك .

– على رسلك ! لقد أسأت صنعاً . لكن أوان إصلاح الخطأ لم يفت.

– كلا ، انت لا تفعل ذلك لتصلح الخطأ ، وانما فقط إرضاء لبابا .

– ما دخل بابا في هذا ؟

– انها هي التي تريد ان اغلق المحل ، وأن أستدعي الطبيب ، وأن أغادر روما . وانت موافق معها .

وأحسست بيد بابا تشد على ذراعي كأنها تريد ان تقول لي : « دعها بسلام » . لكنني لم أعرها انتباهاً وألححت :

– لمَ ؟ ألا تصدقين اذن اننا نحرص على صحتك ؟

– بابا ، بلى . أما انت فإرضاء لبابا فقط .

– ماذا تريدين ان تقولي ؟

– ما أقوله .

– اي ؟

– أتعرف المثل ؟

– أي مثل ؟

– اللبيب من الإشارة ...

– بعبارة اخرى ، تريدين ان تقولي إن عاطفتي تجاه بابا ليست أبوية تماماً .

– لا اعني ذلك . انما أريد أن أقول فقط إنك اذا كنت قد أبديت قلقك ، فليس ذلك من أجلي كما تريدني ان أعتقد ، وانما إرضاء لبابا .

وفي هذه اللحظة منعتني بابا من متابعة الجدال بتدخلها بسرعة ، بهيبة ودود :

– لا ، لا ، انت واهمة ... ليس في ما تقولينه ذرة من الصحة . انني أؤكدلك يا بابا أن فرانشيسكو لم ينصحك باستشارة طبيب إلا لخيرك . هذه هي الحقيقة ؛ أليس كذلك يا فرانشيسكو ؟

وأحسست بيدها تشد على ذراعي فأجبت :

– بالتأكيد .

– وانت ، يا ماما ، ينبغي ألا تقلقي وتخافي : فلا أحد يقول لك ان

تغلقي المحل وان تغادري روما ولا حتى أن تستشيري طبيباً . استمرّي في حياتك ذاتها وسترين ان الحمى ستذهب من تلقاء نفسها .

وخيم الصمت هنيهة وجيزة ثم دمدمت كورا من بين أسنانها :

– انني لست بحاجة الى أحد . أنا أعرف كيف أتخذ قراراتي بنفسي .

– هذا مؤكد ، عليك انت أن تقرري كل شيء . ونحن الثلاثة ، الأم والأب والابنة ، نحن أسرة واحدة ، وعليك الآن ان تبرهني على انـــك لا تكنين البغيضة لفرانشيسكو بأن تلاطفيه على خـده. وانت يا فرانشيسكو، صافح يد كورا .

كان بودي ان أصيح : « لا ، قفي عند حدك » . لكن لم يتـــح لي الوقت لذلك . فبقفزة واحدة انتصبت بابا على ركبتيها على المقعد ،واستدارت نحو كورا ، وأخذت يدها ووضعتها على خدي . وقالت كورا :

– لكن ما الذي يدور في رأسك ؟

بيد انها لم تسحب يدها . وباشمئزاز كبير أحسست بيد كورا على خدي، وتابعت قيادة السيارة برباطة جأش ، بينما كانت اليد ، المسنودة من قبل بابا ، تنفتح وتنبسط على جلدي وتداعبه . كانت الراحة ندية من العرق كما هي الحال عند الاشخاص الذين ألمت بهم حمى . وقالت بابا :

– هيا يا فرانشيسكو ، صافح يد كورا .

ورفعت يدي واخذت يد كورا وترددت ، ثم رفعتهـــا بجهد الى شفتي . وقهقهت كورا بعصبية وقالت :

– لا ... كفى !

لكنني فهمت انها مسرورة في أعماقهـــا ، ولا أدري ان كانت القبلة هي سبب ذلك أم عدم إصراري على استشارتها طبيباً وعلى إغلاقهـــا المحل . ثم سحبت كورا يدها قائلة لبنتها :

– انك لماكرة !

وكانت هذه جملة ملتبسة يمكن عزوها الى حنان الأم او الى حس القوادة المهني على حد سواء .

وشعرت بالحاجة الى وضع حد بصورة من الصور لهـــذا المشهد الذي لا يطاق ، فمددت يدي وفتحت الراديو . ثم انطلقت بالسيارة بأكبر سرعة ، على الطريق المستقيم المحفوف من الجانبين بأشجار الصنوبر الضخمة المائلة ، للقاء الأعلام الكبيرة الداكنة اللون التي تخفق في السماء العاصفة . واخيراً وصلناالى المبنى الدائري المنتصب عند مدخل لاتينا ، ثم الى الطريق المحفوف بأشجار الاوكالبتوس السامقة والمفضي الى بورغو سابوتينو ، ثم الى دور ليدو ولاتينا بعد عدو اهتزازي فوق الإسفلت غير المتعادل . وأخذت الطريـــق المحاذي للبحر ، على يميني الكثبان وعلى يساري المستنقعات.وارتسم في الأفق البعيد ، في أقصى السماء العاجّة بسحب متراكمة شبيهة بتلافيف الأمعـــاء ، على أديم البحر الهادىء الوضاء ، خيال سيركيو الضبابي . وأوقفت السيارة عنـد ردم الطريق وأطفأت المحرك .

ثم مددت يدي لأغلق الراديو . وران الصمت ، ومن سكون شجيرات الرتم في ذرى الكثبان فهمت انه ليس هناك نفحـة ريح واحدة ، وأن العاصفة ما تزال هامدة معلقة فوق البحر . وقلت :

– ما رأيكما لو نزلنا لنقوم بنزهة ؟ فالوقت ما يزال مبكراً على الغداء.

– هيا بنا .

ونزلنا ، ووثب الكلب الى أمام وعدا نحو البحر وتوارى . وتبعناه سيراً على الرمل ، في درب يتلوى بين الكثبان.وعندما وصلنا إلى أعالي الكثبان ، وقفت أتأمـل معجباً الرونق البارد والدراماتيكي الذي اكتسبته الألوان بسبب غياب الشمس ، تحت سقف الغيوم الواطىء: بياض الرمل الكتيم كأنه حجر الدكان ، خضار البحر الأشبه بلون العشب، السواد اللامع لنفايات البحر التي توشي الشاطىء . ولاحظت بالمقارنة مع حركة الكلب ونباحه وجريه

وورثبه حولنا ، ان السكون والسكوت قد زادا عمقاً . وتوقفت هنيهـــة من الزمن لأتملى البحر : انتفخ فجأة كفل غريب من المـاء البلوري القادح شرراً ، وتدحرج وهو يزداد ضخامـة ، وتحطم بغتة الى رأس صغير من الزبد ليعود فيبتلع من جـديد بسرعة تلك العلوة ، ثم راح ينداح شيئاً فشيئاً واختفى تحت المـــاء من غير ان يدرك الشط .وقلت لبابا :

– لنسرع بالقيام بنزهتنا ، فالمطر لن يتأخر .

فأجابت بابا :

– سوف أركض وأسبقك ، فالحق بي .

وأخذت تهبط الكثبان ركضاً ، يصحبها كلبهـا الذي راح يهر فرحاً ، وتثب وثبات كبيرة على الرمل الأبيض بجزمتهـــا السوداء . وترددت لأنني شعرت بكورا ورائي . لكن كورا قالت لي :

– هيا ، اذهب لتقم بنزهتك . سأتمدد على الرمل وأنتظركما .

– ألن تبردي ؟

– الطقس ليس بارداً . الحق ببابا .

ورأيتها تبتعد وتتمدد على الرمل ، جانبياً ، مستندة الى مرفقهـــا . كانت ترتدي ثوباً أحمر ، لونها المأثور ، وبدت لي حمرة هذا الثوب ، القانيـة والوضيئة معاً ، في الجو الشاحب ، كومة من الجذى المتأججـة التي لم يكد الرماد يعلوها . وبسحنة مستغرقة ورأس منحنٍ تناولت في يدها شيئـاً من الرمل وتركته ينساب على الرمل . واقتربت منها وسألتها :

– ألا تشعرين بأنك على ما يرام ؟

– بلى ، انني على ما يرام ، لكن ليست بي رغبة في المشي .

– سنتنزه قليلاً ، أنا وبابا ، ثم نرجع ..

– هيا ، اذهب .

وسعلت مرتين او ثلاثاً ، ثم أخرجت من حقيبتها علبة سجائر ووضعت

واحدة بين شفتيها. فانحنيت ، وولاعتي بيدي ، وضغطت فانبجست الشعلة. وأشعلت سيجارتها ، وتنشقت الدخان ، ونفثته من منخريها ، من دون ان ترفع رأسها . وترددت ، ثم لحقت بصمت ببابا التي كانت تنتظرني ، عن بعد، بلا حراك .

وبدون كلام سرنا بعض الخطوات . وأخيراً قلت :

– أتعرفين ؟

– ماذا ؟

– منذ بضعة أيام ، ذهبت الى فيلا كورا ، في شارع كاسيا .

– لمَ فعلت ذلك ؟

– لا ادري ربما لأنني تذكرت ان كورا قد أخذتك، قبل ستة أعوام الى منزل مواعيدها .

– لكنه ليس نفس منزل شارع كاسيا . كان شقة في حي آخر .

– أين ؟

– لمَ تريد ان تعرف ذلك ؟

– أريد أن أعرف لأعرف ، هذا كل شيء .

– لم أعد أذكر اسم الشارع ولا الرقم ، لكني قادرة على الذهاب اليه معصوبة العينين .

– لكن أين ؟

– اذا شئت ، سنخرج غداً معاً ، وسأقودك الى هناك وسأريك المنزل.

– قولي لي : في أي تاريخ أخذتك كورا الى منزلها ؟

– لحظة .. كان ذلك في آذار ١٩٥٧ .

– قلت لي إنك لم تذهبي اليه اكثر من سبع او ثماني مرات ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– ومتى عدلت كورا نهائياً عن أخذك اليه ؟

– في شهر أيار ، على ما اذكر .

– اذن فالأمر كله لم يدم اكثر من شهرين او ثلاثة ؟

– بالضبط .

– لكن هذين الشهرين او الثلاثة كانت هامة بالنسبة اليك ، أليس كذلك؟

– تعني بالنسبة الى بابا التي كنتها آنذاك .

– أجل ، بالنسبة الى بابا تلك .

– بالطبع كانت هامة .

– يومذاك تغيرت عيناها ، أليس كذلك ؟

– عيناها ، ماذا تعني بـ : عيناها ؟

– صادفت ذات يوم بابا في المصعد ، كان ذلك بالتأكيد في عام ١٩٥٧ وقبل شهر آذار ، وكانت عيناها مختلفتين .

– كيف يمكنك ان تكون واثقاً من ان ذلك حدث قبل شهر آذار ؟

– لأن السماء أثلجت ، وهذا لا يحدث إلا فيما ندر في روما ، وأنا أتذكر لقائي ببابا على وجه التحديد لأن الثلج تساقط في ذلك اليوم . كنت قد دخلت الى المصعد ثم انضمت إلي بابا في اللحظة التي كنت أهم فيها بإغلاق بابه . كانت في ثياب التزلج ، بنطال مشدود حول كعبها ، وكنزة سوداء . واستندت الى أحد جدران المصعد ، لاهثة الأنفاس بسبب جريها ، وبينما كان المصعد يهبط بنا ، راحت تحدق فيّ بثبات . كانت تحني صدرها الى الأمام وتخفي شيئاً وراء ظهرها . وقد شدهت بعينيها .

– وكيف كانت عيناها ؟

– لامعتين ، حيتين ، ساذجتين ، طفوليتين . ثم توقف المصعد في الطابق

الارضي . ومضت بابا عدواً ورأيت ما كانت تخفي وراء ظهرها : رفشاً صغيراً لجرف الثلج .

– هذا ممكن . أما مسألة عينيها فالأمر بسيط : ففي ذلك العام ظهر حسر النظر لدى بابا ، ومذ ذاك باتت تضع نظارتين .

– بيد ان نظرتها كانت مختلفة .

– أأنت واثق من ذلك ؟

– أظن ذلك . لكن لا أهمية لهذا . لنعد الى الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي كانت بالغة الأهمية ، على ما يبدو، بالنسبة الى بابا . قولي لي على الأقل لمَ كانت لها كل تلك الاهمية ...

– أواه ! لأسباب عديدة .

– لا لأنها زعزعت عاطفتك تجاه كورا ؟

– لا بالتأكيد ...

– ولا لأنها بدلت حياتك ؟

– لا ، والواقع انه لم يتبدل شيء .

– اذن ، لمَ كانت هامة ؟

– يصعب قول ذلك . كانت هامة . هذا كل شيء .

– لا ، ليس هذا كل شيء . استمعي إلي .

– انني أستمع اليك . منذ مدة وأنا لا أفعل شيئاً غير ذلك .

– لا تجيبيني هكذا . حاولي ان تفكري .

– بمَ ؟

– بالأهمية التي كانت لتلك الشهور بالنسبة الى بابا . أي نوع من الأهمية كانت ؟

– حسناً ! لنقل إن بابا قامت بتجربة .

– اذا كانت قد قامت بتجربة ، فمن غير الصحيح اذن انه ليس ثمة من علاقة بينك وبين بابا ، لأن التجربة تعني تطوير الذات وبقاءها هي هي في الوقت نفسه .

– لمَ ؟ لنفرض ان سيارة دهست انساناً ، ثم مات هذا الانسان بعد بضع ساعات في المستشفى . انه يكون قد مر بتجربة ، على وجه التحديد تجربة الدهس ، بسيارة لكنه مات بها . اذن لا يمكن القول إنه تطور وبقي هو هو في الوقت نفسه . انه لم يتطور مطلقاً ولم يعد البتة هو نفسه .

– فهمت . تعنين ان بابا القديمة قد ماتت بعد تلك التجربة . ثم وجدت بابا اخرى جديدة ، مختلفة ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– وما كانت تلك التجربة البالغة الأهمية ؟

– كيف اقول لك ؟ تجربة ... ان يكون المرء شيئاً .

– شيئاً ؟

– اجل ، شيئاً .

– اي نوع من الاشياء ؟

– شيء ما . كرسي فرضاً ، او إناء .

– لكن متى مرت بابا بتجربة كونها ، كما تقولين ، شيئاً ؟ أعندما اخذتها كورا الى منزلها ؟

– ليس تماماً . عندما اخذت كورا بابا الى منزلها ، كانت بابا ما تزال تعتبر نفسها ، في قرارتها ، شخصاً . وهذا بقدر ما كانت مستعدة لتفعل ما أوصتها به كورا .

– لمَ تقولين : « بقدر ما كانت ؟ » .

– لأن بابا كانت ما تزال تعتقد بأن فعل او عدم فعل ما أوصتها كورا به مسألة تتعلق بها وحدها .

– لكن ما كانت توصيات كورا ؟

– لنفترض انها قالت لها عبارة كهذه العبارة : « سنذهب الى مكان معين . وسأقدمك الى شخص يريد ان يتعرف اليك ، فحاولي ان تكوني لطيفة معه ، ودعيه يفعل ما يريد ، كل ما يريد » .

– كانت بابا مستعدة للإطاعة ، أليس كذلك ؟

– أجل ، ما دامت كورا هي التي أوصتها بذلك ، وكورا كانت أمها .

– ولكن ألم يخالج بابا أي شعور ، ولنقل شعور بالمفاجأة ؟

– كلا . ينبغي ان اقول إن بابا كانت في ذلك الزمن فتاة غبية لا تفهم شيئاً وتجهل على الأخص كونها لا تفهم شيئاً .

– بيد انك قلت لي إنـــه لم يأت أحد في المرة الأولى . فمتى مرت بابا بتجربة كونها شيئاً ؟ أفي المرة الثانية ؟

– أجل .

– اثناء الحب ؟

– لم يحدث حب ، وانما حرج فقط . كلا ، انما كان ذلك بعد ان انتهى كل شيء وانصرف الرجل .

– لماذا ؟

– بقي الرجل مع بابا ، ربما مدة ساعة . تكلم معها ، وفعل الحب ، او حاول بالأحرى ان يفعله . ثم ارتدى ثيابه وخرج قائلاً إنه يريد ان يجري مكالمة هاتفية ، لكنه لم يعد . ورأته بابا ، التي كانت قد ذهبت نحو النافذة ونظرت الى الشارع ، رأته يتسلل من مدخل البناية ، ويصعد الى سيارته ، ويذهب . وآنذاك عادت الى الغرفة وخالجها شعور بأنه ليس ثمة من فرق بينها وبين الأثاث . فذلك الرجل لم يرجع ليستأذن منها بالانصراف ، تماماً كما انه لم يرجع ليستأذن بالانصراف من الأريكة أو من مصباح السرير .

– ما معنى هذا ؟ أكانت بابا تنتظر إذن أن يأخذ الرجل الاذن منها بالانصراف ؟

– نعم .

– لماذا ؟

– لأن بابا ، مع أنها لم تشعر بأي عاطفة خاصة ولم تفهم تقريباً ما يراد منها ، قد خيل اليها أن لها بذلك الرجل علاقة ، علاقة شخص بشخص . ولو عاد الرجل ليودعها ، فلربما كان أمكن لبابا ان تفعل الحب معه .

– بابا كانت عاطفية جداً آنذاك !

– لا ، لم تكن عاطفية . لكنها كانت تعتقد بأن لا بد من وجود علاقة بين الأشخاص .

– وهكذا يكفي ألا يأتي شخص من الاشخاص ليودعك حتى يوحي اليك بالإحساس بأنك شيء .

– أجل ، هذا كاف في بعض الظروف . لكن حدث ايضاً شيء آخر .

– أي شيء آخر ؟

– عندما عادت بابا الى الغرفة تحت سطوة الإحساس بأنه ليس بينها وبين الأريكة أي فرق ، رأت على رخام طاولة السرير ورقة نقدية مطوية الى أربعة أقسام وضعها الرجل عند خروجه من غير ان تنتبه الى ذلك . وآنذاك أصبح الاحساس بأنها شيء ، مجرد شيء ، أصبح ، كيف أقول ؟ واقعياً وعينياً اكثر . إن الشيء يباع ويشرى ، أليس كذلك ؟ اذن ..

– فهمت . وكيف يكون الاحساس بالشيئية ؟

– كغيره من الأحاسيس .

– مزعج ؟

– ليس بالضرورة . لكنه كان خيبة حقيقية ، وهماً وتبدّد ، بالنسبة الى بابا التي كانت تجهل انها شيء وتتخيل بغباوة انها غير ذلك . بيد انني اتصور انه من الممكن ان يكون إحساساً مستحباً قد يرغب الانسان في الشعور به ولو من قبيل الفضول . والمسألة ، بإيجاز ، تتعلق بالناس .

– لنعد الى بابا التي اكتشفت النقود على طاولة السرير وخالجها الاحساس

بأنها شيء ، ماذا فعلت آنذاك ؟ هل استدعت كورا ؟

– كلا . لم تكن كورا هناك .

– كيف ! لم تكن كورا في الشقة ؟

– لم تكن .

– وأين كانت ؟

– كانت قد انصرفت بمجرد أن أدخلت الرجل الى الغرفة ، وخرجت مخبرة بابا بأنها سترجع بعد ساعة .

– فهمت . ماذا فعلت اذن بابا عندما بقيت بمفردها ؟

– شغلت نفسها .

– بمَ ؟

– اولاً : أعادت الغرفة الى سابق ترتيبها بكل دقة . فقد وضبت الفراش ، وأعادت السجادة الى مكانها ، ولمت من الارض بقايا مغلف العازل والعازل نفسه الذي لم يستخدم ، ورمت بهما في السلة . ثم رتبت نفسها بنفس الدقة ونفس العناية . فقد ذهبت الى غرفة الحمام وخلعت ثيابها ، ودلكت نفسها بالصابون تحت الدش ، وسرحت شعرها ، وذهبت لتجلس اخيراً على الأريكة . وأدارت مفتاح الراديو لترفع الصوت وانتظرت كورا .

– أكان هناك راديو ؟

– أجل ، كان هناك راديو . برنامج موسيقى خفيفة خافتة . وكانت هناك ايضاً مدفأة موقودة . وباختصار ، كل ما يلزم .

– هل انتظرت طويلاً ؟

– نعم ، حوالي الساعة .

– وبمَ فكرت بابا خلال تلك الساعة ؟

– لم تفكر بشيء . بمَ يفكر ، بمَ يمكن ان يفكر الشيء: بلا شيء .

– أكانت بابا ما تزال اذن تحت سطوة الاحساس بأنها شيء ؟

– كلا ، منذ ذاك لم يعد يخالجها الاحساس بأنها شيء ، انما كانت شيئاً .

– ماذا تعنين ؟

– أعني انه بدءاً من تلك اللحظة وحتى شهرين أو ثلاثة ، الى ان عدلت كورا نهائياً عن بيع بابا ، لم تفكر بابا بشيء . كانت شيئاً وتتصرف كشيء.

– كيف يتصرف الشيء ؟

– لا يتصرف ..

– أي ؟

– انه هنا ... باقٍ هنا ... هذا كل شيء .

– فهمت . وعندما عادت كورا ، ماذا قالت ؟

– سألت : أذهب ؟

– وبمَ أجابت بابا ؟

– أجابت : نعم ، لقد ذهب .

– وماذا قالت عندئذ كورا ؟

– قالت : أليس رجلاً لطيفاً ومهذباً ؟

– وبمَ أجابت بابا ؟

– أجابت : لقد ترك مالاً .

– وماذا فعلت عندئذ كورا ؟

– أخذت المال .

– بأي طريقة ؟

– بأبسط طريقة ، كما يأخذ المرء شيئاً ينتظر تلقّيه ، من غير ان تخفي قصدها ومن غير ان تلح .

– ثم ؟

– عادت كورا وبابا الى البيت .

– وماذا قالتا ؟

– لم تقل بابا شيئاً . كورا هي وحدها التي تكلمت .

– آه ؟

– أجل ، شرحت ابابا فلسفتها في الحياة .

– أي ؟

– لم تكن بابا تصغي اليها بانتباه . وجوهر ما قالته كورا انه ليس في الحياة من أهمية لغير ذلك الشيء .

– أي شيء ؟

– الشيء الذي حدث او بالاحرى لم يحدث بين بابا والرجل .

- كيف قالت ذلك ؟

– بلهجة صادقة ، منتشية ، مهتاجة ، منفعلة . كانت تبدو انها لم تعد تتمالك نفسها . كانت المرة الاولى التي تسمعها فيها بابا تتكلم بهذا القدر ، بمثل هذه الصورة المباشرة ، وبمثل هذه الحماسة .

– اين كانت بابا وكورا اثناء هذا الحديث ؟

– في السيارة . كانت كورا تتكلم وهي تسوق . لم تفعل من شيء سوى الكلام وكأنها تخاطب نفسها .

– وما كان رأي بابا بالأشياء التي قالتها كورا ؟

– لم تكن تفكر بشيء . قلت لك ذلك .

– في رأيك ، لمَ تغيبت كورا بينما كانت بابا مع الرجل ؟

– لا أدري . لم تفعل ذلك إلا في ذاك اليوم . أما في المرات الأخرى ، فأعتقد أنها انتظرت في الصالون . ربما لتوحي لبابا بأنها تتصرف بملء حريتها ، وبأنها هي التي تريد أن تكون شيئاً ، وبأنها ، أي بابا ، هي التي اختارت ان تكون شيئاً .

في تلك اللحظة قطع حوارنا نباح فرح ، مغتبط بنوع ما . وعندما رفعنا أنظارنا رأينا الكلب ثلاثاء مستلقياً على ظهره ، وقوائمه مرفوعة في

الهواء ، يدلك نفسه بشيء كان له ، من بعيد ، بروز معين ، ربما كثيب من الرمل . ونادت بابا : ثلاثاء ! واندفعت نحو الكلب وصاحت بي بينما كانت تعدو : « انه مولع بدلك نفسه بكل قذارة يقع عليها . ثم تفوح منه رائحة كريهة وأضطر الى غسله » . ووصلنا كلانا ركضاً الى الكثيب ، وطردت بابا الكلب بالرسن ، ثم نظرنا لثانية من الزمن الى الشيء الذي دلك نفسه به .

كانت جيفة ، جيفة عنزة بلا ريب ، نصف مطمورة في الرمل الناعم والابيض . وكان الجزء الظاهر من الجيفة متورماً ، بياضه مائل الى الزرقة ، يلمع من الإنتان تحت الجلد الكابي . وكانت ما تزال في بعض المواضع منه نتف من الوبر . وكان الرأس مرمياً الى الوراء ، في وضع شاذ ، بمحجريه المليئين بالرمل وأسنانه الصفراء المشدودة . وبعد أن تمليت هذه الجيفة ، أجلت الطرف على الساحل الذي كان يمتد ، ابيض ، بارداً ، فارغاً ، تحت السحب الواطئة ، الى أبعد نقطه في الأفق . ورأيت آنذاك من جديد البقعة الحمراء التي يؤلفها ، عند سفح الكثبان ، جسم كورا الممدد على جانبه . ولم أستطع إلا أن أفكر بأن ثمة تشابهاً بين جثة العنزة والكتلة الهامدة لجسم كورا . وبشيء من التلذذ وقفت عند هذا التشابه المادي الذي كان يوحي بالطبع بتشابه معنوي ، كلتاهما هامدتان فاسدتان ، العنزة بالمعنى الحرفي ، وكورا بالمعنى المجازي . ثم فكرت ، من غير أن أدري السبب ، بالوقع الذي سيكون لمثل هذه المقارنة في روايتي المتخيلة . وقلت في نفسي: أسوأ الوقع، وقع صورة معادة مكررة تفتقر الى رهافة الذوق، ولا يمكن ان تخطر إلا في بال كاتب تقليدي من الدرجة الثالثة . وفجأة ، وكما لو بسحر ساحر ، لم أعد أرى من تشابه ، مادي او معنوي ، بين جيفة العنزة وشخص كورا . فالأولى بدت لي جيفة لا أكثر ، والثانية بدت لي وجهاً بشرياً لا اكثر . وخجلت من أنني فكرت بالمقارنة بينهما ووجدتني أعترف بالجميل لمشروع روايتي الذي كان بمثابة ضمير لي إذ أيقظ ذلك الخجل في نفسي .

وبعد لحظة رأيت بابا تلاعب ثلاثاء ، فتعدو في كل اتجـــاه على الشاطىء ليتبعها الكلب المهتاج الذي كان يثب وينبح ثم التقطت بابا قطعـة خشب ، ورمت بها الى بعيد ، وانقض ثلاثاء ليأتي بها . لقد قفز ، بكل سواده الذي تجلى من خلال سحابة الرمل الابيض التي أثارها ، وتقلب على نفسه في الاتجاه الذي رمت اليه بابا بقطعة الخشب ، لكنه لم يجدهـــا لأن احدى موجات البحر كانت قد حملتها اثناء ذلك . ولحقت بي بابا ، لاهثة ، حمراء الوجنتين ، لكن عينيها كانتا كعادتها ثابتتين ، غـــير معبرتين ، عيني امرأة مدمنة على المخدرات ، بسبب حسرهما . وقالت لي :

– أرأيت ، ان الكلب يلعب . انها المرة الاولى التي يلعب فيها . لقد كان ، حتى الآن ، حزيناً دوماً .

فأجبت :

– لقد نسي زريبة بوابة بورتيز .

– لم ينسَ . انه كلب آخر .

– تماماً كما انك بابا اخرى .

– بالتأكيد ، لكن خيراً مني . فأنا مـــا زلت أحمل نفس الاسم الذي كان للفتاة الصغيرة البلهاء قبل ستة أعوام والتي تركت كورا تقودها من يدها الى ذلك المنزل . أما هو فقد بات من اليوم يجيب على الاسم الذي سميته به .

واقتربنا من كورا . كانت مـــا تزال مستلقية على الرمل ، كتلة حمراء على الشاطىء الأبيض البارد ، تحت سقف الغيوم الكالحة . وبقيت بلا حراك حتى بعد ان اقتربنا . كانت ممددة على جانبهـــا ، خافضة الطرف ، تتدلى على طول خديها خصلتان من شعرها الأشعث . ومن غير ان ترفع رأسها سألت :

– هل انتهت نزهتكما ؟

– أجل ، وأنت ، ماذا فعلت ؟

- لا شيء . انتظرتكما .

- هيا لنأكل . انهضي فقد حان الوقت .

ومكثت بلا حراك لحظة من الزمن قبل أن تنهض ، وكأنها تفكر فيما قلته . وفجأة جعلتني أفكر بشخص يفلت منه ، لدافع من الدوافع ، حس الواقع . ان تلك الكلمات البسيطة « هيا لنأكل » ربما بدت لها غير مفهومة ، لا صلة لها بما هي عليه وبما كانت تفعله في تلك اللحظة . ولهذا راحت تفكر لتقيم هذه الصلة ، لتلقي جسراً فوق الهوة التي تفصلها عن العالم الذي تنتمي اليه تلك الكلمات . وبغتة أرعدت السماء بصوت مكتوم ، بشبه تناغم ، وانداحت زمجرة الرعد على سطح البحر الصقيل الأخضر كما تتدحرج كرة من الخشب على سطح رنان . وفي النهاية نفضت كورا عن نفسها غبار الخمول ، ونهضت ، واتجهت معنا نحو الكثبان .

الاثنين ١٦ تشرين الثاني

انني لا أبالي البتة بمعرفة ما يحدث في منزل كورا ، وكيف تفعل تلك الأشياء ، وما هي دوافعها ودلالتها واهميتها . إن ما يهمني ليس تفسير هذه الأشياء ، بل معاناتها ، أي الاتحاد بها ، أن اكون على التوالي كورا بائعة بنتها ، وبابا مباعة ، والزبون الذي اشترى بابا ، بل السرير الذي تمدد عليه الزبون وبابا معاً ، والنافذة التي نظرت منها بابا الى الزبون وهو ينصرف ، ولون سقف سيارة الزبون ، منظوراً اليه من أعلى ، وإحساس الرخام تحت يدي بابا ، ثم صمت المنزل بينما كانت بابا تعيد الغرفة الى سابق ترتيبها ، وأخيراً انسيال ماء الدش على جسم بابا العاري وعينيها في المرآة بينما هي تسرح شعرها . انني لا أريد ان اعرف شيئاً عن « لماذا » الأشياء ، انما أريد الاتحاد بالـ « كيف » . ولن تكون روايتي ، هذا إذا ما كتبتها ، سوى

عملية الاتحادات هذه . وربما أمكنني ، بانتقالي من اتحاد الى اتحاد ، ان أوحي للقارىء بأنه أمام سلسلة من أحداث ، أمـــام مغامرة . لكن ذلك سيكون مجرد ايحاء ، مجرد وهم ، لأني لا أؤمن بالعمـــل وبالعلاقات التي تستدعي العمل وتبرره . وكل ما في وسعي أن أفعله هو بالضبط التحادي تدريجياً بما هو كائن ، من غير اعتبار لسبب وجود هذه الكينونة .

ولا أستطيع في الوقت نفسه ، وبصورة مناقضة ، منع نفسي من إخفاء دلالات على الاشياء والاحداث ، ومن تحويل الافراد الى رموز ، ومن تنظيم الدلالات والرموز وإقـــامة الصلة فيما بينها حسب مخططات إيديولوجية . وهكذا ، وباندفاع لا يقاوم ، تكتسب بابا وكورا وأنا نفسي ، وما فعلته وما لم أفعله ، وما فعلته كورا ببابا وما عانت منه بابا ، يكتسب هذا كله في رأسي دلالات ، ويتحول الى مجازات قابلة دوماً لأن تفقد وزنها وصلابتها الواقعية لتصبح أجزاء غير قابلة للتبديل من خطاب واحد أوحد مجرد .

الثلاثاء ١٧ تشرين الثاني

أخذتني بابا اليوم ، كما وعدتني ، الى المنزل الذي قادتهـا اليه كورا قبل ستة أعوام . فمن ساحة مازيني ، حيث نقطن، ذهبنا الى شارع يوليوس‌قيصر الذي ارتقيته بالاتجاه المعاكس . وبعد الأنوار المرشدة للسير تابعت القيادة الى ان قالت لي بابا :

ـ تباطأ ، من المفروض ان هناك شارعاً الى اليسار ... آه ، هذا هو .

كان شارعاً محفوفاً ببيانٍ مقفلة ، من كل طابع خـــاص . ووضعت بابا نظارتيها ، ونظرت ، ثم قالت لي :

ـ أترى تلك الملحمة مع لافتتها الرخامية البيضاء التي على كل طرف منها

رأسا جاموس بقرون ذهبية ؟ ليس الباب الذي بجانبها ، بل الباب الذي يليه.
هو ذاك .. لقد وصلنا .

لم أحر جواباً ، كانت هناك فسحة شاغرة غير بعيدة عن باب المدخل ، فاتجهت اليها لأصفّ سيارتي . وأطفأت المحرك ونظرت الى بابا . فرفعت نظارتيها وحدقت فيّ بدورها وسألتني :

– لمَ توقفت ؛ ماذا تريد أن تفعل ؟

– لنفترض اننا في ذلك اليوم المشهور . لقد وصلت بابا في السيارة مع كورا . فماذا حدث ؟

– توقفت كورا عن بعد معين ، أتفهم ، أمام ذلك المخبز ، هناك ...
- اذن فقد اضطرت بابا وكورا الى عبور الشارع ؟
– اجل ، عبرتاه .
– كيف كانتا ؟
– ماذا تقصد ؟
– هل كانتا معاً ، ام متباعدتين ، ام هل كانت كورا تتقدم بابا ؟
– كانت كورا تمسك ببابا من يدها .
– من يدها ؟

– أجل ، من يدها . ولما كانت كورا لم تعد تمسك ببابا من يدها منذ مدة من الزمان ، فقد تذكرت بابا لحظتها الزمن الذي كانت فيه لكورا تلك العادة .

– متى كان ذلك ؟
– عندما كانت صغيرة .
– وبمَ فكرت بابا لما وجدت كورا تمسك بها من يدها ؟

– كانت كورا قد قالت لها انها ستجد في المنزل الذي ستذهبان اليه سيداً يرغب في معرفتها وعليها ان تكون لطيفة معه ، ولهذا فكرت بابا

بأن كورا تمسك بها من يدها لتمنعها من الهرب .

– معنى هذا ان بابا كانت تعرف ما تعنيه عبارة كورا ؟

– أي عبارة ؟

– أن عليها ان تكون لطيفة .

– كانت تعرف ذلك من غير ان تعرفه . كانت نظرياً تعرف ما المسألة ، أما عملياً فلا .

– تابعي ..

– عبرت بابا وكورا الشارع ، واجتازتا الباب ، ودخلتا ، وظهرت البوابة وقالت « صباح الخير » . وأجابت كورا « صباح الخير » . ثم ارتقتا الطوابق الثلاثة على اقدامها .

– ألم يكن هناك مصعد ؟

– كلا ، كان معطوباً .

– ثم ؟

– ثم وصلتا الى الطابق الثالث وتوقفتا أمام باب ليس عليه لوحة . وفتحت كورا ودخلتا الشقة .

– ألم تقل كورا شيئاً ؟

– قالت إن الشقة آسنة برائحة الدخان ، وتهجمت على البوابة التي لم تقم ، على حدّ قولها ، بتنظيف الشقة في ذلك اليوم . ثم فتحت النوافذ ليجري الهواء .

– ماذا فعلت بابا اثناء ذلك ؟

– جلست في الصالون وراحت تنتظر بمفردها بينما كانت كورا تذهب وتجيء في الشقة .

– ماذا كانت تنتظر ؟

– السيد . كانت كورا قد قالت لها : « انتظري هنا ، لا يمكن ان يتأخر » .

– وهل جاء ؟

– كلا ، لم يجيء . سبق ان قلت لك : في المرة الاولى لم يأتِ أحد

– لكن كيف عرفت انه لم يأت أحد ؟

– على كل الاحوال لم يدخل أحد الى الصالون . وبعد برهة من الوقت ظهرت كورا وقالت : « انني خارجة ، وسأعود في غضون ساعة لا اكثر . اتركي الباب منفرجاً من أجل السيد . كوني مطمئنة وانتظري » . فأجابت بابا « طيب » وذهبت كورا لكن لم يأت أحد .

– من الممكن ان يكون ذلك الشخص قد جاء ، ثم انصرف لسبب من الأسباب ، من غير ان تنتبه اليه كورا . كيف كانت بابا تجلس في الصالون ؟

– ماذا تعني ؟

– أعني : في أي وضع ، في أي مكان بالنسبة الى الباب ؟

– كان هناك ، بالقرب من احد الجدران مقابل الباب بالضبط ، بمجموعة مؤلفة من ديوان وأريكتين . وقد جلست كورا على إحدى هاتين الأريكتين.

– في مواجهة الباب او مديرة ظهرها ؟

– مديرة ظهرها ؟

– لمَ ؟

– لم تكن ترغب في رؤية السيد مواجهة لحظة دخوله .

– لأي سبب ؟

– قد يبدو لك ذلك غريباً : لأنها كانت تشعر بالفضول ولا تريد في الوقت نفسه ان تظهر فضولها . كانت تريد ان توحي بأنها ليست فضولية ، بأنها ليست المرة الاولى ، بأنها ، بوجز الكلام ، طلقة في سلوكها وبلا آراء مسبقة .

– أرأيت ! كان من الممكن لأحدهم أن يفتح الباب بكل هدوء من وراء بابا ، وان يلقي بنظرة الى الصالون ، وأن ينصرف من غير أن تنتبه اليه بابا

– أجل ، ربما ...
– ما الذي يحملك على الاعتقاد بأن ذلك السيد قد انصرف ؟
– من يدري ، لعله رأى بابا ولم تعجبه .
– كيف يمكن ان يكون قد رآها طالما انها كانت تدير له ظهرها ؟
– كانت هناك مرآة كبيرة فوق الديوان ، في مواجهة بابا بالضبط .
– في هذه الحال ، لا بد ان تكون بابا قد رأت بدورها السيد .
– كلا ، لم تره لأنها لم تنظر قط الى المرآة . كانت تريد ان تُرى ، لا ان تَرى .
– ولماذا ؟
– للسبب نفسه لم تكن تريد ان تظهر فضولها . لكن ، إذا فكر بالأمر الآن ، من الممكن انها كانت مدفوعة بدافع آخر .
– ما هو ؟
– كانت بابا تشعر بأنها على وشك ان تصبح شيئاً ، شيئاً معروضاً للنظر والتقييم والتقدير . والحال ان بابا كانت تخفض عينيها ولا تنظر الى النافذة ، لأنها كانت تفكر في قرارة نفسها بأنه ينبغي عليها ألا تحرج ذاك الذي ينظر اليها ، ان تتركه يراها ، ان تعرض نفسها ، ان تضع ذاتها موضع تقييم . تماماً كالشيء .
– لكن ماذا كانت بابا تفعل ؟
– كانت كورا قد أعطتها مجلة لتشغل نفسها بها، مجلة مصورة . فراحت تقلب صفحاتها ببطء ، الواحدة تلو الأخرى ، مراقبة بعناية كل صورة في نفس الوقت الذي كانت ترهف فيه سمعها لتتبين ما إذا جاء أحد . وقد تصفحت تلك المجلة اكثر من عشر مرات ، من الصفحة الاولى الى الاخيرة .
– كيف كانت جالسة ؟
– على النحو الواجب : متصالبة الساقين ، ومرفقاهـــا على مسندي

الأريكة . كانت تظن انه ينبغي عليها ، لتترك انطباعاً حسناً ، أن تجلس جلسة فتاة رفيعة التهذيب .

– وكم من الوقت انتظرت هكذا ، والمجلة بين يديها ؟

– وقتاً طويلاً جداً ، حتى تنملت ساقاها وذراعاها ، وبدأت رقبتها توجعها . وفي النهاية ، وبعد انتظار ساعة ، نهضت وذهبت لتستكشف الشقة . لم يكن فيها أحد . كانت الغرف الأربع خاوية كلها .

– هل كان باب الشقة ما يزال منفرجاً ؟

– أجل .

– وماذا فعلت بابا آنذاك ؟

– عادت لتجلس في الصالون وانتظرت عودة كورا ، لكنها جلست هذه المرة على الديوان ، في مواجهة الباب .

– لماذا ؟

– لأنها كانت تريد أن ترى سحنة كورا عندما ستكتشف عند وصولها انه لم يأتِ أحد .

– ولِمَ ذلك ؟

– من يدري ؟ ربما لتفهم سبب حرص كورا الشديد على اجتماع بابا بذلك السيد .

– أطال انتظارها ؟

– كلا ، لم يطل كثيراً ... أقل من ساعة .

– وعندما وصلت كورا ، ماذا فعلت ، ماذا قالت ؟

– لم تبدِ أي تفاجؤ . وانما اكتفت بأن تسأل : هل جاء ؟

– وبِمَ اجابت بابا ؟

– كلا ، لم يجيء .

– وما كان عندئذ رد فعل كورا ؟

– قالت : كنت أتوقع ذلك .

– هذا كل شيء ؟

– قالت ايضاً : لا بد انه خاف .

– آه ! أقالت ذلك ؟

– اجل .

– لكن كيف كانت سحنتها ؟

– لم يكن بادياً عليها اي انفعـــال . ان كورا تعرف كيف تخفي مشاعرها .

– ثم ماذا فعلت ؟

– قالت : انتظري لحظة . سأتصل هاتفياً بشخص آخر ، سنرى مـــا اذا كان يستطيـع ...

– وماذا بعد ؟

– خرجت من الصالون وذهبت لتتصل هاتفياً .

– أين ؟

– في المدخل .

– وسمعت بابا المحادثة الهاتفية ؟

– بالطبـع . كان الباب قد بقي مفتوحاً .

– ماذا قالت في الهاتف ؟

– ركبت الرقم ، ثم سألت من يتكلم ، وعما اذا كان ريكاردو ، ثم بدأت تحثّه .

– كيف ؟

– قالت له : بسرعة ، بسرعة ، بسرعة ، تعال الى هنا فوراً . أسرع . لدي هنا شيء دبرته خصيصاً لك ، أسرع ، اركب سيارتك وتعال .

– بأي لهجة كانت تتكلم ؟

– بلهجة ملحاح ، فاقدة الصبر ، مصممة ، لهجـــة شخص يريد ، بأي ثمن ، أن يعقد صفقة .

– فهمت . وما حدث ؟

– أجاب ريكاردو على الأرجح بأنه لا يستطيع المجيء فوراً . فأجابت كورا : خسارة ! ان لديّ فعلاً شيئاً جاهزاً لك .

– وبعدها ؟

– بعدها ، اتفقا . وقالت كورا : حسناً ، اليوم في الساعة الخامسة .

– ثم ؟

– رجعت كورا الى الصالون وقالت لبابا : هذا الشخص سيأتي بالتأكيد اليوم ، في الساعة الخامسة .

– لم تقولي لي ان هذه الزيارة الثانية قد تمت في اليوم ذاته .

– لم تسألني عن ذلك .

– وكم كانت الساعة في تلك اللحظة ؟

– الثانية عشرة ظهراً .

– وبمَ كانت تفكر بابا بينما كانت أمها تتكلم بالهاتف ؟

– بلا شيء .

– أواثقة انت من ذلك ؟

– كل الثقة .

– ولمَ ؟

– لأنها فهمت ان كلمات كورا « شيء دبرته خصيصاً لك » تقصدهـا هي . والحال ان هذه الجملة كانت كافية لكي تصبح ، كما لو بسحر ساحر ، شيئاً ، سلعة ، اي جسماً بلا فكر .

– بمقتضب الكلام ، هل كانت راضية ؟

– كلا ، لم تكن راضية .

– أمستاءة اذن ؟

ولا حتى .

– لكن أي شعور خالجها بنتيجة عدم قدوم الزبون الأول ؟
أشعور بالانفراج ؟

– كلا .

– بالخيبة ؟

– كلا .

– اذن ؟

– لنقل شعور ازدراء تجاه نفسها .

– لماذا ؟

– لأنها راحت تتذكر كل التمثيلية الهزلية التي مثلتها أمام المرآة ، ولأنها كانت غاضبة لانها مثلتها مقابل لا شيء .

– فهمت وما حدث بين الثانية عشرة والخامسة بعد الظهر ؟

– لا شيء يستحق الذكر .

– ماذا فعلت كورا وبابا ؟

– غادرتا الشقة وعادتا بالسيارة الى البيت .

– وفي البيت ، ماذا فعلتا ؟

– تناولتا طعام الغداء .

– عمّ تحدثت كورا ؟

– لم تقل شيئاً ذا أهمية . بيد انها قالت في إحدى اللحظات : لا تأخذي هذه السحنة . فمقابل كل واحد يضيع يوجد مئة . ثم ان الذي ستتعرفين اليه اليوم أفضل بكثير من الآخر . سترين ، انه رجل محبب الى النفس فعلاً .

– بمَ أجابت بابا ؟

– بلا شيء .

– لمَ ؟

– كانت مشغولة البال لأن اليوم كان يوم أحد ولأن احدى صديقـــاتها كانت ستأتي للعمل معها بعد الظهر ، ولم تكن تدري ماذا تفعل .

– آه ؟..

– كانت صديقتها تبقى معها ، عادة ، حتى وقت العشاء .

– ماذا فعلت اذن ؟

– أخبرت كورا بذلك .

– وبمَ أجابت هذه .

– قالت إن بابا تستطيع البقاء مع صديقتها حتى الرابعة والنصف ، ثم تصرفها .

– ألم تقل شيئاً آخر ؟

– كلا .

– وما حدث بعد ذلك ؟

– ذهبت بابا الى غرفتها وانتظرت فيها مقـــدم صديقتها . وفي حوالي الساعة الثانية وصلت الصديقة وشرعت الاثنتان في مراجعة درسها .

– درس في ماذا ؟

– في الايطالية .

– شفهية . شعر ليوباردي .

– أدرستا جيداً ؟

– أجل ، جيداً جداً .

– لكن ألم تكن بابا ساهية ؟

– بالمرة ، انما كانت فقط مهمومة لأنها كانت تخشى ألا يتاح لهـا الوقت للانتهاء في الرابعة والنصف .

– أجل ، لمراجعة درسها بكامله .

– وبعدها ؟

– في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة أبلغت بابا صديقتها بأن عليها أن تخرج مع كورا . فودعتها الصديقة ورافقتها بابا حتى الباب . لكن الصديقة تأخرت لتثرثر مدة عشر دقائق ، وكانت بابا على أحر من الجمر لعلمها أن كورا تنتظر . وأخيراً انصرفت الصديقة ، وعلى إثر ذلك ظهرت كورا في الممشى قائلة لبابا شيئاً مزعجاً .

– – ماذا قالت ؟

– شيئاً مثل « أيتها الثرثارة ، لقد قلت لك ان تكوني جاهزة في الرابعة والنصف » . لم تكن هذه الجملة جارحة في حد ذاتها ، وانما اللهجة .

– كيف كانت تلك اللهجة ؟

– لهجة نفاد صبر . كانت بابا تريد الذهاب لغسل يديها بالنظر الى تلطخ أصابعها بالحبر ، لكن كورا قالت لها انه ليس هناك وقت . وأمسكت بها من ذراعها ودفعت بها بعنف الى الدرج حتى كادت أن تسقط . وقد غضبت بابا .

– غضبت كثيراً ؟

– كلا ، قليلاً ، وربما بسبب تفاجئها لا بسبب تألمها . كانت كورا تبدو وكأنها فقدت السيطرة على نفسها ، وهذا غير مألوف منها بالنظر الى انها تتمتع عادة بسيطرة كبيرة على نفسها . وهكذا نزلتا الى الطابق الارضي وذهبتا في السيارة الى الشقة .

– ألم تقل كورا شيئاً اثناء الطريق ؟

– كلا ، لم تقل شيئاً . كانت ما تزال تبدو غاضبة .

– ثم ؟

– جرى كل شيء كما في الصباح . فقد أوقفت كورا السيارة امام المخبز ، وأمسكت ببابا من يدها لتعبر بها الشارع ، وصعدتا الى الطابق الثالث ، وذهبتا الى الصالون . وقالت كورا انها ذاهبة لتعد لنفسها فنجاناً من القهوة في المطبخ ،

وخرجت تاركة باب الصالون مفتوحاً .

– هل طال الانتظار ، هذه المرة ؟

– كلا . انتظرت بابا حوالي عشر دقائق ثم سمعت طرقاً على باب المدخل وذهبت كورا لتفتح .

– من كان ؟

– ريكاردو . في تلك المرة كانت بابا واقفة قرب النافذة . فلم تره لكنها سمعته يتكلم مع كورا .

– ماذا قالا ؟

– قالت كورا « لقد جئت قبل الموعد . ونحن لم نكن ننتظرك قبل ربع ساعة لو سبقت اكثر قليلاً ، لما وجدتنا » .

– وبمَ اجاب ريكاردو ؟

– بأنه أخطأ في حساب المسافة بين بيته ومنزل كورا . وقال : « لكن ما ذلك الشيء الذي كلمتني عنه ؟ » .

– ذلك الشيء ؟

– يقصد بابا . الشيء هو بابا .

– بمَ اجابت كورا ؟

– اجابت : « انه هنا ، اجلس . سآتيك به حالاً » .

– اين ؟

– في غرفة النوم .

– وماذا فعل هو ؟

– تبع كورا .

– ثم ؟

– ذهبت كورا الى الصالون وقالت بصوت خافت لبابا : هيا ، تعالي ، لقد وصل .

– وماذا فعلت بابا ؟

– نهضت وتبعت كورا .

– الى أين ؟

– الى غرفة النوم . كان الباب مفتوحاً. وكان ريكاردو جالساً على السرير. وأدخلت كورا بابا الى الحجرة قائلة : « هي ذي غابرييلا » .

– غابرييلا وليس بابا ؟

– كلا ، ليس بابا .

– لماذا ؟

– لا ادري .

– وما حدث عند ذاك ؟

– قالت كورا لبابا انها ذاهبة لأن لديها عملا ، وإن على بابا ان تبقى اثناء ذلك في صحبة السيد . وعلى إثر هذه الكلمات خرجت كورا مطبقة الباب وراءها . وبقيت بابا مع ريكاردو .

– ايزعجك ، ان تروي لي ما حدث آنذاك ؟

– هذا لا يزعجني البتة . لقد قلت لك عدة مرات : ان ما حدث قد حدث لواحدة اخرى وليس لي .

– اذن ... اين كنا ؟

– بعد ان انصرفت كورا ، وأغلقت الباب وراءها ، بقيت بابا واقفة تجاه ريكاردو الذي كان جالساً على السرير .

– وماذا فعل عندئذ ريكاردو ؟

– أظهر لطفاً كثيراً ، نعومة بالغة مع بابا . وأخذها من يدها وجذبها اليه وطرح عليها كمية من الاسئلة .

– أي أسئلة ؟

– الأسئلة التي تطرح ، على ما أتصور ، في مثل تلك الحالات . وقبل كل شيء ، عن عمري .

– وبابا ، بمَ اجابت ؟

– زادت في عمرها سنة واجابت انها في الخامسة عشرة .

– لماذا ؟

– لا ادري . ربما لأنها كانت تحاول دوماً ان تزيد في عمرها .

– وعمّ سألها بعد ذلك ؟

– عما اذا كانت تذهب الى المدرسة .

– عما اذا كانت تذهب الى المدرسة ؟

– نعم ، تناول يد بابا الملطخة بالحبر واراد ان يعلم ما اذا كانت قد لطخت نفسها على هذا النحو اثناء درسها . وأجابت بابا بالإيجاب . فسألها آنذاك عم اذا كانت تذهب الى المدرسة .

– ما كان جواب بابا ؟

– انها ، بالفعل ، تذهب الى المدرسة .

– هل استمر في طرح الاسئلة ؟

– اجل ، بكثرة ، لكن عن المدرسة بوجه خاص .

– عن المدرسة ؟

– اجل . كان يريد ان يعرف كل شيء : الصفوف ، المواد المدرّسة ، الأستاذ ، الزميلات ، كل شيء . . حتى العلامات التي نالتها بابا في كل مادة

– بأي طريقة كان ريكاردو يخاطب بابا ؟

– كيف : بأي طريقة ؟

– بأي لهجة كان يكلمها ؟

– اواه ! بلهجة عادية ، هادئة ، متجردة ، بل حتى غير مبالية بعض الشيء .

– ثم ؟

– اخيراً طلب ريكاردو من بابا ان تلقي قصيدة .

– أي قصيدة ؟

– قصيدة ما .

– وماذا ألقت بابا ؟

– قصيدة لليوباردي كانت قد حفظتها قبل قليل مع صديقتها : « السبت في القرية » .

– كيف كانت بابا تقف بينما كانت تلقيها ؟

– كانت تقف أمام ريكاردو ، ويدها في يده .

– بمَ كانت تفكر بابا ؟

– كانت تفكر بأن ريكاردو لطيف وظريف .

– ظريف ؟

– أجل .

– لكن ألم تكن تدرك أن تلك المحادثة لم يكن لها من هدف غير إظهاره بمظهر لطيف وظريف ، كما تقولين .

– ربما كانت تدرك ذلك . لكن كان الأمر عندها سيان على كل حال .

– لماذا ؟

– يصعب عليّ التعبير عن ذلك . ربما لأن بابا كانت تحرص بالدرجة الاولى على أن تُحمل محمل الجد ، أي على ان تُعامل بوصفها الشخص الذي كانته او الذي كانت تعتقد انها كائنة عليه ، لا بوصفها الشيء الذي كانت ما تزال تجهل انها أصبحته . ولو كان ريكاردو عاملها حتى النهاية كشخص ، فلربما كان أمكن لبابا ان تفعل ما يريد .

– بأي طريقة معاكسة عاملها اذن ؟

– سبق ان قلت لك ذلك في يوم سابق : كشيء .

– أي ؟

– كانت بابا مستغرقة في تفسير شيء ما له علاقة بالمدرسة ، نسيت ماذا ، آه ! أجل ، كونها متأخرة واضطرارها على الأرجح الى معاودة صفها ، عندما رمى ريكاردو بنفسه عليها فجأة ، فاصطدم رأسها بخشب السرير .

– كيف استقبلت بابا ذلك ؟

– أواه ! على أسوأ شكل .

– لماذا ؟

– لأنها لم تكن تتوقعه البتة . كانت تتصور أن ما تفعله يهم ريكاردو . وقد أثبت هو بمبادرته تلك ، انه لا يهتم بها البتة .

– وماذا حدث عندئذ ؟

– شعرت بابا وكأنها تثلجت ودار في خلدها ان تقـــاوم وتهرب . ثم تذكرت أن كورا أوصتها بأن تتركه يفعل . وهكذا تركته يفعـل . لكن لا اكثر . وهكذا ايضاً بدأ الصراع .

– أي صراع ؟

– الصراع الذي يمكن ان يوجد بين شخص حي وبين دمية مسيَّرة .

– من كان الدمية ؟

– بابا .

– وفيمَ كان الصراع ؟

– كان ريكاردو يحاول ان يجعل بابا تقوم بحركات الحب ، وكانت بابا تتركه يفعل من دون ان يصدر عنها أي رد فعل بأي صورة من الصور، مثل لعبة يمكن ان توضع ذراعاها وساقاها في وضع معين لكنهـــا تبقى في هذا الوضع من غير ان تتحرك البتة . لقد لبثت بابا هامدة، ولم يتوصل ريكاردو الى تحريكها على النحو الذي يريد . وأخيراً حاول ان يعريها، لكنها لـــا لم تساعده وجد انه من الافضل ان يتعرى هو نفسه ، جزئياً على الأقل .

– جزئياً ؟

– اجل ، فقد خلع سترته وحذاءه .

– وما فعل بعد ذلك ؟

– عاود اهتمامه ببابا .

– بأي طريقة ؟

– جعلها تخلع قميصها من رأسهـــا ، والشيء المضحك أن بابا بقيت في احدى اللحظات ساكنة بلا حراك ، جالسة على السرير ، وذراعاها في الهواء، ورأسها عالق في قميصها . ثم حاول ريكاردو من جديد ان ينزع عنها قميصها لكنه في النهاية ، وبعد ان كلّ وتثبطت همته ، أنزله من جديد وظهر رأس بابا من القميص مشعثاً . ورأت ريكاردو جالساً أمامهـا على طاق القميص ينظر اليها .

– وما حدث بعد ذلك ؟

– نظر ريكاردو الى بابا ملياً ، بصمت ، ثم فاه بشيء غريب .

– أي شيء ؟

– الى المدرسة ، كان عليك ان تذهبي الى المدرسة ، الى المدرسة ، الى المدرسة !

– قال ذلك ؟

– نعم .

– بأي لهجة ؟

– بلهجة مزعجة ، على الأقل بالنسبة الى بابا ، كما لو انه يحرضها ويحثها هازئاً ، لكن من غير خبث .

– بمَ أجابت بابا ؟

– لم تجب بشيء . نظرت الى يديها الملطختين بالحبر ولبثت صامتة .

– ثم ؟

– ارتدى ريكاردو ملابسه بسرعة ، وقال انـه سيذهب ليتصل هاتفياً وخرج ، لكنه لم يعد . أما الباقي فتعرفه .

– اجل ، أعرفه ... حسناً ألم يزعجك أن تروي لي هذه الاشياء ؟

– لعل ذلك كان سيزعج بابا الماضي، التي كانت على قدر كبير من البلاهة، لكن ليس أنا ، فأنا لا أفعل من شيء سوى انني أروي .

طيب . انتظريني هنا .

- ماذا ستفعل ؟

- سأرى المنزل عن قرب اكثر .

انه منزل كغيره .

- اواه ! انني اعلم ذلك . انتظريني ...

وخرجت من السيارة ، وتقدمت بضع خطوات بين الناس الذين كانوا يذهبون ويجيئون على الرصيف . كانت الساعة الواحدة بعد الظهر وكان الجو جو العيد المميز للأحياء الفقيرة بعد انتهاء العمل ، وعند عودة الناس الى بيوتهم لتناول طعام الغداء . قبل أن أدلف من باب المدخل نظرت الى الشارع وفكرت بأن بابا قد رأته ، في ذلك اليوم ، كما أراه الآن : صفان من مبانٍ سامقة منخورة من كل أطرافها بالنوافذ والشرفات ، وفي نهايتها سور الفاتيكان الضخم الماثل . ودلفت الى الدهليز المبلط بموزاييك أحمر قانٍ والمرصوفة جدرانه برخام أصفر معرّق بالأسود ، ونظرت الى صناديق البريد ، ثم فتحت باباً زجاجياً ووجدت نفسي امام الدرج . كانت حجرة البوابة خاوية ، ففتحت الباب وناديت بأقوى ما وسعني ، وأنا أتنشق ملء أنفي رائحة الطهي الحارة اللاذعة التي تصعد من الطابق الذي تحت الأرض . وبعد هنيهة من الزمن لمحت القسم العلوي من رأس ذي شعر قليل وشائب معقود على شكل لفافة صغيرة ملتوية يبرز ببطء من الدرج المفضي الى الطابق ما تحت الارضي (درجة درجة ، بتعب) ثم رأيت الوجه الشاحب ذا التقاطيع العريضة البسيطة : عينان كبيرتان على شكل كرات لعبة اللوتو ، أنف غليظ أفطس ، فم عريض كالمحجم . وأخيراً الجسم كله ، الجسم الكبير الغليظ ، في مئزر قطني مخطط . كانت هي البوابة ، ودار الحوار التالي بيني وبينها :

- أهنا تقطن السنيورا كورا ميريغي ؟

- كلا .

– عفواً ، أقصد السنيورا كورا مانشيني .
– هذه ، أجل ، لقد سكنت هنا لكن من مدة طويلة
– منذ كم ؟
– لقد رحلت منذ اربعة اعوام ونيف .
– هل في وسعك ان تقولي لي أين تقطن الآن ؟
– لم تترك من عنوان ..
– وهنا ، في اي طابق كانت تقيم ؟
– في الثالث ، الشقة الحادية عشرة .
– قولي ، أي حياة كانت تعيش ؟
– حياة جميع الناس .
– هل كانت تنام هنا ؟
– لا ادري . ففي الساعة التاسعة أغلق الباب وما يحدث في الشقق لا يعنيني .

نظرت اليها . وصمدت لنظرتي بلا اهتمام متجهم فأخرجت عندئـذ من جيبي ورقة من ذوات الألف ودسستها في جيب مئزرها ، وألقت المرأة الى الورقة النقدية بنظرة جانبية ، لكن من غير ان تنبس بحرف . واستؤنف الحوار :

– هل كانت تقطن بمفردها في الشقة ؟
– اجل . بمفردها .
– لكن كان يأتي اليها أشخاص آخرون ؟
– اواه ! أجل ، بالتأكيد .
– اي نوع من الاشخاص ؟
– رجال . وكذلك بنات .
– بنات من اي عمر ؟
– فتيات ، معظمهن .

– والرجال ؟
– الرجال .. من كل الأعمار .
– حتى ممن تقدم بهم العمر ؟
– أجل ، حتى ممن تقدم بهم العمر
– هل كان في تلك الشقة ذهاب وإياب كثير ؟
– كلا ، ليس كثيراً . فالسينيورا كانت حذرة ، وحريصة على عـــدم لفت الانتباه .
– كيف كانت ، أقصد السنيورا كورا ؟
– سيدة هادئة ، جدية ، أنيقة . انني لم أشكُ منها في شيء قط .
– كانت تمنحك بقشيشاً ، أليس كذلك ؟
– بلى . كانت كريمة . معروف ان كسب البوابات قليل وأنهن بحاجـة الى تدارك امورهن من هنا وهناك .
– صحيح . قولي لي : هل تذكرين ما اذا كانت السنيورا تأتي أحيـاناً مع ابنتها ؟
– لم اكن ادري أن لها بنتاً .
– لكن كانت لها بنت .
– ربما تكون قد جاءت معها ، لكنني لم ألحظها لأنني لم اكن أعرف ان للسنيورا ابنة . ثم ان عددهن كان كبيراً ..
– سأصفها لك وستقولين لي ما اذا تعرفتها : فتاة في الخامسة عشرة او أقل ، وجهها مستدير ، ولها خصلة على عينيها ، وشعر قصير .
– آه ! أجل ، إنني لأذكرها الآن . ألم تكن دوماً في قميص محـــاك وبنطال ؟
– بلى .
– مؤكد انني أتذكرها . لقد ترددت لفترة من الزمن ثم لم نعـد نراها . لقد جاءت مع السنيورا ، وبمفردها ايضاً .

– أجاءت بمفردها احياناً ؟

– نعم ، لحسابها الخاص . كانت ترتقي الدرج وثباً ، كل درجتين معاً ولم تصعد في المصعد قط .

– وكم مرة جاءت ؟

– لم أعدّ . انني أتذكرها لأنها كانت صغيرة ، ولأنها كانت ترتدي دوماً بنطالاً ، ولأنها كانت ترتقي الدرج أربع أربع .

– لِمَ لم تكن تصعد في المصعد ؟

– من يدري ؟ لعله كان يلذ لها ان تصعد على قدميها .

– كم سنة بقيت تتردد ؟

– كم سنة ! ليست المسألة مسألة سنوات ، بل أشهر . ربما شهران ، لا اكثر .

– رأيتها بمفردها ومع السنيورا كورا ، لكن مع رجال ؟

– كلا ، لم أرها مع رجال . فالرجال كانوا يأتون على حدة .

– ألم تريها معي ؟

– معك ؟ لماذا ؟ أكانت تأتي اذن معك ؟

– أجل .

– أتعرف ، لقد لحظت الفتاة ، كما قلت لك ، بسبب هندامها وعمرها لكن لم يكن أحد يعير الرجال انتباهاً .

– أمعني النظر فيّ ، ألا تتذكرينني ؟

– كلا ، بالمرة .

– مع انني مررت أمامك وأنا أمسك بابنة السنيورا كورا من يدها .

– الأرجح انني لم انتبه إليك .

– إنني أبحث عن ابنة السنيورا كورا . ولهذا أطرح عليك كل هذه الأسئلة .

– لكن لمَ لا تذهب لتستفهم من السنيورا كورا ؟ إن العثور عليها ليس بالصعب ...

– السنيورا كورا ماتت .

– أواه ! المسكينة ، لكم آسف عليها ! من كان ليتصور ، سيدة بمثل ذلك اللطف ، من كان ليفكر ، بربك قل لي ! وبمَ ماتت ؟

– لا أدري . أعرف فقط انها ماتت .

– على كل ! إنني آسفة ، لكني لا استطيع أن أقدم إليك اي معلومات عن ابنة السنيورا كورا . على كل ، لا بد انهـا اصبحت الآن امرأة كاملة مكتملة . من يدري ، لعلها تزوجت ...

– أأستطيع ان أصعد الى الشقة الحادية عشرة ؟

– اواه ! بالنسبة إلي ... اصعد اذا شئت ، لكنك سترى انهم لا يعرفون شيئاً .

وارتقيت طابقين ، ثم طابقين آخرين . الشقة الحادية عشرة : باب خشبي فاهي اللون عليه لوحه نحاسية بيضوية تحمل اسم : لورانزوني . وقبل ان أضغط على زر الجرس فكرت لحظة مفتشاً عن ذريعة لزيارتي . ودوى رنين الجرس ، الأجش والقوي ، لمدة من الزمن مثل نقيق البط . وسادت لحظة من الصمت ، ثم انفتح الباب ، وشاهدت على العتبة فتاة صغيرة في حوالي الثانية عشرة ترتدي بلوزة عمل وسخة ، خضراء فستقية ، شعرها طويل متناثر على كتفيها ، وفي قمة رأسها عقدة بيضاء كبيرة . كانت شاحبة الوجه ، سميكة الجلد ، تحيط بعينيها خطوط زرقاء مائلة الى السواد . ونظرت إلي بتشكك ، لكن دونما خجل :

– من تريد ؟ عمن تبحث ؟ ليس في البيت أحد .

فأجبت :

– أرسلوني من الشقة التي في الأعلى . ان مجرى الماء مسدود . أنا المصلح

فأفسحت الطريق من غير اعتراض ودلفت إلى الممشى المعتاد الفائحة راحته والمظلم ، الذي يفضي الى المطبخ في هذا النوع من الشقق . وبسرعة اتجهت نحو الباب الأول الى اليسار ، الذي لا بد ان يكون ، بموجب حساباتي ، باب الغرفة ذات النافذة التي نظرت منها بابا قبل ستة أعوام الى الشارع وشاهدت ريكاردو يصعد الى السيارة ويرحل . لكني كنت مخطئاً ، لأنني لم اكوّن فكرة دقيقة عن موقع الشقة. كانت عبارة عن حجرة متطاولة ضيقة، يحجب عنها النور الغسيل المنشور امام النافذة التي تطل ، كما تبينت ، على الباحة. والتفت نحو الفتاة قائلاً « الترشح ليس من هذا الجانب، أين هي الحجر المطلة على الشارع ؟ » .

فحدجتني في عيني وقالت لي بلهجة صارمة :

– لو سألتني عن ذلك لتوك بدلاً من ان تدخل فجأة ...

وسبقتني الى الغرفة التي كنت أبحث عنها . كانت هذه الحجرة تستخدم، كما في أيام كورا ، كغرفة منامة ، فيها ديوان – سرير بين حاجزين مفروشين بكروتون مزهر . وكان فيها ايضاً مكتب ، ولم يكن للنافذة ستائر . وتظاهرت بأنني أفحص السقف كأنني أبحث عن بقع الرطوبة ، ثم اتجهت نحو النافذة ومن غير ان أفتحها نظرت الى الأسفل . كان الشارع والناس على الرصيف يبدون ، من الأعلى وكأن أقدامهم مغروسة مباشرة تحت رؤوسهم. وكانت سطوح السيارات الصقيلة تتقدم في أرتال بطيئة حذرة ، مثل بنات وردان أعماها النور . وعلى الرصيف المقابل كانت ترى المخازن الأرضية والمتسكعون أمام واجهاتها . وارتعدت لدى سماعي صوت الفتاة المتواقح :

– ايه ، انت ، بقع الرطوبة ، هل تبحث عنها في الشارع ؟
– كنت أنظر ما اذا كان سببها أنبوب خارجي .
– ممكن ، لكنك على كل حال لست المصلح .
– لماذا ؟

– اولاً لأنه ليس فوقنا أحد . فمنذ شهرين والشقة بلا مستأجر . ثم انني اعرف المصلح . انه شاب أشقر يرتدي بزة العمل الزرقاء .

– اذن فمن أنا في رأيك ؟

– هذا ما لا أعلم عنه شيئاً وما لا يهمني ان اعلم عنه شيئاً ، لكنك بالتأكيد لست المصلح .

– وانت ، كيف تدعين ؟

– آنا ماريا .

– شكراً ، يا آنا ماريا ، الى اللقاء . اعذري إزعاجي لك .

وخرجت تحت نظر الفتاة الصغيرة المرتاب ، ونزلت الى الطابق الارضي وغادرته الى الشارع . وشاهدت بابا منهمكة في قراءة مجلة . وأدرت المحرك ، وفيما أنا أسوق قلت :

– على كل الاحوال ، أنت أخفيت عني شيئاً .

– أي شيء ؟

– ان بابا في اليوم الاول كانت تصحبها كورا ، لكنها في المرات التالية جاءت الى هنا بمفردها .

– لم أقل لك ذلك لأنك لم تسألني عنه .

– لكن لِمَ كانت بابا تقدم الى هنا ؟ كان في وسعها ، بعد كل شيء ، ألا تأتي .

– كانت كورا تخبرها بالساعة التي يجب عليها ان تذهب فيها وتسلمها مفاتيح الشقة . وكانت بابا تأخذ المفاتيح ، وتدرس حتى أوان الموعد ، ثم تطبق كتبها ، وتغادر البيت ، وتتجه على قدميها ، من شارع الى شارع ، حتى منزل كورا . وكانت ، عندما تصل ، ترتقي الدرج أربع أربع ، وتفتح الباب ، وتذهب للانتظار في الصالون وفي يدها مجلة . وعندما كانت تسمع جرس المدخل كانت تذهب لتفتح ، فيعبر الرجل العتبة وتغلق بابا الباب

وترتجه . ثم تسبق الرجل الى الغرفة التي تقفل بابها ويرتمي الرجل على بابا وينشب نفس الصراع الذي نشب في المرة الاولى . وبعد ذلك ينصرف الرجل وتعيد بابا النظام الى شخصها وغرفتها . ثم تذهب الى الصالون حيث تكون كورا بانتظارها . وعندما لا تكون كورا فيه ، تنتظر بابا مقدمها. وآنذاك ترجع الاثنتان الى البيت الذي تعود فيه بابا الى كتبها ومكتبها وتستأنف عملها . والآن ، قل لي ..

– ماذا ؟

– في هذا التسلسل من الأفعال ، هل كان ثمة من مجال للتفكير ؟ لقد كانت بابا بحاجة ، حتى تفلت من هذا كله ، الى ان تفكر . لكن متى أتيح لها الوقت ؟

– فهمت . بالطبع ، اذا ما رويت الاشياء بهذا التسلسل الآلي ، فلا مكان للتفكير . لكن بابا ، بعد كل شيء ، لم تكن بآلة مسيّرة .

– بلى ، على العكس ، كانت آلة مسيّرة ، لا اكثر من آلة مسيّرة عهدت اليها كورا بالقيام ببعض الأشياء ، ولا شيء آخر غير ذلك . واذا شئت ، نستطيع القول إن بابا ماتت ، أي بابا القديمة ، باعتبار ان الجديدة لم تكن قد ولدت بعد ، وتلك التي كانت تتسكع في الشوارع لم تكن في الواقع غير جسم بلا إرادة يطيع كورا طاعة عمياء .

الاربعاء ١٨ تشرين الثاني

في أحد أحياء روما القديمة ، بين واجهة كنيسة من الطراز الباروكي ، مبنية من حجر الجص المسودّ والمنخور بالمسام ، وبين واجهة منزل قديم من القرن التاسع عشر مطلية بالأحمر والأصفر ، بهرت عيناي فجأة بلافتة منارة

بالنيون ، وشم أفقي من النور الابيض – البنفسجي المطبوع على ملس الشارع الصغير : سينما ألاسكا . انه (أذكر ذلك) اسم السينما التي كانت تعمل فيها الفتاة التي لحتها في فيلا كورا . ودخلت .

كان المدخل يتألق بالأضواء . وكانت تقف خلف شباك التذاكر فتاة لها وجه كوجه الجثة ، وعينان صمغيتان ، ورأس مكسو بخوذة من شعر قطني أشقر بلون القش . واقتربت وطلبت تذكرة صالة بينما كانت عيناي تنظران باتجاه الممشى . كانت تقف ، الى جانبي باب المدخل ، امرأتان في زي رمادي لؤلؤي موشى بالأحمر ، غير متعادلتين في القامة ، وكان اللباس مشدوداً وملصوقاً بجسميهما الى درجة اللاإحتشام الباعث على الهزء . كانت احداهما قصيرة ، شقراء ، بدينة ، راجحة الردف ، ناهدة الصدر ، كأن لا شيء يصل بين هذين النتوءين . وكانت الاخرى طويلة ، سمراء ، قوية البنية ، منسجمة التقاطيع . وسرعان ما تعرفت في هذه الاخيرة الفتاة التي لحتها في فيلا كورا . واقتربت وأعطيتها تذكرتي . ودارت حول نفسها على نحو مفاجيء وتقدمتني الى الصالة على هدى شعاع بطاريتها . وما كادت ستائر المدخل تنطبق وراءنا حتى أمسكت بقوة بذراع الفتاة مانعاً إياها من التقدم. وخنقت صرخة تفاجؤ وجمدت في مكانها . فهمست آنذاك في أذنها :

– ما اسمك ؟

– دعني فوراً او أصرخ .

– لا تكوني بلهاء : فنحن نعرف بعضنا بعضاً . لقد التقينا معاً في فيلا السنيورا كورا ، شارع كاسيا .

فلبثت صامتة لحظة من الزمن ثم أجابت بصوت خافت :

– اسمي ديليا . ماذا تريد مني ؟ أنا لا أعرفك .

– ألا تذكرينني ؟

فابتعدت قليلاً في العتمة ، وانتظرت ان تضاء الشاشة ، وحدقت فيّ ، وتمتمت بسذاجة :

– كلا ، كلا ، بالمرة . أنا لم أرك قط !

وكما فعلت مع بوابة منزل كورا القديم ، أخرجت من جيبي ورقة من الألف ليرة ودسستها في يدها :

– لا يهم ان كنت لا تعرفينني . فلنتواعد بعد انتهاء الحفلة ، عندما ستعودين الى بيتك .

فحدجتني من جديد بنظرة يتوازعها الفضول والارتياب :

– لكن الحفلة تنتهي في الساعة الواحدة .

– ليكن ! فلنتواعد في الساعة الواحدة .

– لكن ماذا تريد مني ؟

– لا شيء البتة . أريد ان أكلمك فقط . أعطني اسم مقهى نستطيع الالتقاء فيه وسأكون فيه في الساعة الواحدة .

– أواه ! بالنسبة إلي ، أنا لا أخاف ! لكن .. حسناً ! فلنلتق في بار تورينو ، ساحة تريتون .

– حسناً . اذن الى اللقاء .. وبالانتظار ، خذي هذا ايضاً ...

– أواه ! شكراً ، شكراً ، لا حاجة الى ذلك .. أتعرف ، ان الوقت ما يزال مبكراً ، ستضطر الى مشاهدة الفيلم مرتين .

– سأصبر . هل الفيلم جيد ؟

– بين بين .. بوليسي . لكن قل لي : هل أنت واثق تماماً من انك تعرفني ؟ فأنا لا أعرفك ، البتة .

في هذه اللحظة بدأ بعض المتفرجين يهتفون أن « صه » . وخنقت ديليا قهقهة ، وربتت على كتفي علامة على الاتفاق وابتعدت .

وقبعت في مقعدي ونظرت الى الفيلم الذي كان من النوع البوليسي الذي تقع فيه من البداية جريمة مطلوب الكشف عن فاعلها . وبينما كنت أتتبع على الشاشة الصور التي كانت تتوالى بلا توقف ، خطر لي فجأة ان هناك بعض

التشابه بين وضعي ووضع فيلم بوليسي ، لكنه تشابـــه معكوس . وسوف أشرح هنا هذه الفكرة : فالفيلم البوليسي ينطلق من واقعة عاديـة تافهة ، يومية ، لينتهي الى شيء خارق للعادة وبليـغ الدلالة ، أمـــا أنا فأنطلق على العكس من موقف يمكن ان يبدو للوهلة الاولى خارقـاً للعادة وبليغ الدلالة لكنه يفضي على العكس الى الرتابة العبثية لما هو يومي ، اي الى عادية الفساد.

شاهدت كل القسم الثاني من الفيلم ، ثم أضيئت الأضواء ، ونظرت حولي. كانت الصالة الطويلة والضيقة تشبه محطة طائرات. وكان عدد المتفرجين زهيداً، معظمهم من الرجال ، بينهم بعض أزواج يبدو التجهم والتذمر على وجوههم كالأزواج الذين يتسكعون في شوارع رومـــا المركزية بعد العشاء . وكانت ديليا قد عادت الى مكانها بالقرب من الباب ، ولما التقطت نظرتي ، رمقتـني بنظرة هازئة ، وعلى الأقل هكذا بدت لي . ثم خيم الظلام من جديـــد واضطررت الى مشاهدة الافلام الاعلانية ، ثم مشاهدة فيلم وثائقـــي عن ساردينيا ، ثم المناظر ، واخيراً الفيلم البوليسي الذي سبق ان شاهدت قسمه الثاني . وبعدانقضاء منتصف الليل لم أنتظر انتهاء الفيلم وغادرت الصالة قبل إضاءة الأنوار . وعبر أزقة مظلمة ، مبلطة بحجارة متخلعة ، اتجهت نحو المقهى الذي سمته لي ديليا .

وجلست في القاعة الصغيرة ، على مقعد أمام طاولة أنبوبية الشكل ، في جو عابق برائحة دخان بارد ، وقدماي في النشارة ، وضوء النيون في عيني . وطلبت قهوة . وبعد ان احتسيتها ، أصغيت الى المحادثة التي كانت تصلني شذرات منها ، من القاعة الملاصقة للبار ، من خلال نفحات بخار الغلايـة الميكانيكية .

« ... تلقيت .

« ... بالهاتف .

« ... في الشارع . حاول ان يهرب ، لكنني ...

« ... وما به ؟

« ... أزعر . تصور أنه ...

« ... حقاً ؟ وهو ؟...

« ... في حين ان الجميع يعرفون أن ...

« .. سيء ... لكن صحيح أن ...

وفجأة وجدت ديليا أمامي ، إذ دخلت من غير ان أنتبه إليها . كانت ترتدي معطفاً ذا قبة من فرو الأرنب ، وتحمل تحت ذراعها حقيبة عتيقة ، ولاحظت ان يديها طويلتان جميلتان بلا قفاز . وقالت لي وهـــي تنظر إلي مقهقهة :

– لا ، حقاً ، لم أرك ، لم أرك قط . لكن ليس لهذا أهمية . أتقدم لي كسرة طعام ؟

وجلست وناديت النادل وطلبت ديليا صحفة عليها أقراص كبيرة محشوة من خبز الريف وفنجان كبير من الشوكولاته ، والتهمت ديليا الكل من غير ان تنبس ببنت شفة . لكن مـــا كادت تنتهي حتى رمقتني وقهقهت ضاحكة من جديد :

– لكن ، أتعرف ، انني لا أتعرفك بالمرة؟ صحيح انني ذهبت اكثر من مرة الى فيلا السنيورا كورا ، لكن ...

– أتريدين برهاناً على اننا كنا معاً ؟ إن على بطنك ندباً من عمليةزائدة.

– من الممكن ان يكون لجميع الناس ندب كهذا ، وإحدى صديقاتي لها ندب مشابه تماماً . لعلك تحسبني شخصاً آخر ؟

– انتظري ... عندك شيء آخر اكثر خصوصية .

– ما هو ؟

– لك خط من زغب داكن اللون يمتد من البطن حتى الصدر .

– لا بد انك ساحر بعض الشيء . انني أكاد أشعر بالخوف ...

– هل تريدين ان نبقى هنا ام تريدين ان تذهبي ؟

– فلنذهب .

– الى اين تريدين الذهاب ؟

– اصحبني الى بيتي .

– اين تقطنين ؟

– في سان جيوفاني . ألديك سيارة ؟

– أجل .

ودفعت وخرجنا وعدنا ادراجنا الى ضواحي السينما حيث تركت سيارتي. وصعدنا اليها وبينما كنت أسوق دار بيننا الحديث التالي ، وكانت ديليا هي أول من قطع حبل الصمت سائلة إياي :

– ما اسمك ؟

– فرانشيسكو .

– منذ عدة سنوات كان لي خطيب اسمه مثل اسمك . لكن لما كان توسكاني الاصل فقد كان يسمي نفسه شيسكو . والواقع ان اسمه الحقيقي كان فرانشيسكو . قل لي ، هل تعرفها ، السنيورا كورا ؟

– نعم .

– جيد المعرفة ؟

– كلا ، ليس كثيراً .

– اي انطباع خلفته في نفسك ؟

– ماذا تعنين ؟

– ما رأيك فيها ؟

– أرى انها ظريفة ، أجل ... لكن ألا تبدو لك ، كيف أقول ، غريبة الاطوار بعض الشيء ؟

– لمَ : غريبة الاطوار ؟

– لأن ...

– اشرحي فكرتك : لمَ غريبة الاطوار ؟
فأخذت تضحك من جديد ، بصورة لا تقاوم ، بخبث :
– اذا قلت لك ذلك ، فلا تردده ، لان السنيورا كورا كانت دوماً طيبة معي وقد ساعدتني في كل مرة احتجتها فيها .
– كلا ، لن أنقل اليها كلامك .
– أقصد انها غريبة الاطوار ، لانها تبدو لي ، لنقل : بها شيء من المس ؟
– شيء من المس ؟
– اجل ، ممسوسة . أتعرف ما تفعل ؟
– ماذا تفعل ؟
– لا استطيع ان اقول لك ذلك ، هذا يخجلني .
– هيا ، لا تأبهي ...
– انني أخجل ، بشرفي !
– بمَ هي ممسوسة ؟
– بذلك الشيء . انت تفهم ما أعنيه ؟
– كلا .
– كلا ؟ لنقل الجانب المادي من الحب . ربما لأنها مريضة منذ بعض الوقت ، وما عاد في وسعها ان تمارسه ..
– لكن ما مظاهر ذلك المس ؟
– طيب ! استمع . سأضحكك .
– إنني أستمع .. تشجعي ..
– ان أحد المترددين على منزل السنيورا كورا يدعى ماركو ، وهو شاب لديه مخزن للأجهزة المنزلية الكهربائية . وبينه وبين كورا رابطة صداقة ، وقد حصلت منه على الإذن بأن تكون حاضرة في كل مرة نتضاجع أنا

وماركو . لكن افهمني : ان كورا لا تفعل شيئاً ، وانما تجلس على أريكة وتمكث فيهـا بلا حراك تنظر الينا بعينين جاحظتين ، جاحظتين الى حد يخجلني . ثم ، أحيـانـاً ، تصوّر ، تمد يدها ، ببطء ، ببطء . ببطء ، وبإصبع ، إصبع واحدة ، تلمس ماركو هناك بالضبط ، وكأنها لا تصدق عينيها وتريد إقناع نفسها بلمسها إياه بأنه هنا حقـاً . وعندها تلمسه ، تمسه مساً خفيفاً ، ثم سرعان ما تسحب يدها وكأنها اطمأنت، وتلبث بلا حراك تحدق بعينيها. وأنا ، بينما أفعل الحب ، تراودني الرغبـة في الضحك ، وفي الوقت نفسه يعتريني شيء من الخوف ، لأنها تبدو لي وكأنها مجنونة ، والانسان يعلم انه يستطيع ان يتوقع كل شيء من المجـانين . في مثل تلك اللحظات ، أتعرف بمَ كانت السنيورا كورا تجعلني أفكر ؟ ستقول لي انه تشبيه في غير محله ، لكن هذا غير صحيح ، لأنني لا أضع فيه اي نية سيئة : انني مؤمنة ، أنا ، ولا أقبل المزاح بصدد أمور الدين . ان السنيورا كورا تجعلني أفكر ببعض فلاحات منطقتي ، هناك في مقاطعة الفريول ، اللواتي يذهبن الى الكنيسة ، ويركعن ، ويمكثن ساعة او ساعتين ، وعيونهن شاخصة الى التمثال الذي فوق المذبح ، ثم يقبلن أطراف أصابعهن ويذهبن ليلمسن التمثال . وكل ذلك في ورع ووجـد ، كما لو أنهن مسحورات . صحيح انني قلت للسنيورا كورا ذات يوم : « انت تنظرين الى ذلك الشيء وكأنه شيء مقدس ! ولسوف تركعين في احد الايام امام ماركو اثناء فعله الحب ، وتضمين يديك وتبتهلين لذلك الشيء ، وتقبلين أطراف أصابعك قبل ان تلمسيه ، كما تفعل فلاحات منطقتنا في الكنيسة » . أو تعرف بمَ أجابتني ؟ قالت : « انه الشيء الوحيد الذي له أهمية في العالم ، انه أجمل ما في الدنيا . أنت بلهـاء ، لا تستطيعين ان تفهمي ذلك » .

– كيف عرفت السنيورا ؟

– أواه ! بمنتهى البساطة . كنت أريد ان أخيط ثوباً ، ولم يكن لدي فلس واحد . فأخذتني احدى صديقاتي الى كورا وتركتها تختار لي ثوباً أغلى

ثمناً بكثير مما كنت أتوقع . وحين حانت لحظة الدفع ، قلت للسنيورا كورا انني غير قادرة ، في لحظتها على الأقل ، على تسديد الثمن . واذا بها ، هي التي كانت تقول لي دوماً ألا أقلق بصدد هذا الموضوع وانها على استعداد لإقراضي ، إذا بها تهددني على العكس بالاتصال هاتفياً بأهلي حتى يتولى أبي الدفع . ولم اكن أنا اريدها ان تتصل بأهلي ، لأن أبي يعمل كحاجب وكسبه قليل ! وقد فهمت السنيور كورا ، وهي الذكية التي تحزر الاشياء من النظرة الاولى ، فهمت انني لا أريد ان يعرف أبي شيئاً عن ثوبي ، لذا هددتني بالاتصال به هاتفياً . وشعرت بأنها مستعدة فعلاً لتنفيذ وعيدها . ولهذا قلت لها إنني مستعدة لكل شيء بشرط ألا تتصل بوالدي . وهنا وضعتني أمام هذا الخيار : إما ان تأتي للقائي في منزلي في شارع كاسيا لأقدمك لسيد من أصدقائي ، وإما ان اتصل هاتفياً بأبيك . كان تهديدها حقيقياً ، كما قلت لك ، لكنه كان مبطناً بنعومة ورقة بالغتين ، وكأنه صادر عن صديقة حقيقية ، عن سيدة حقيقية ، تقول كل شيء من غير ان تقول شيئاً ، تجملك تفهم وتجعلك لا تفهم ، بحيث خيل إلي انني أنا التي سألت من تلقاء نفسي ان أتعرف الى ذلك السيد وانها هي التي تمنّ عليّ بتقديمه إلي لتساعدني ولتنقذني من خطر كبير . وهكذا اتفقنا في النهاية . ومنذ ذلك اليوم لم يقع بيننا أي نقاش البتة . فقد كانت دوماً طيبة معي ، ولو لم تكن غريبة الاطوار لقلت عنها إنها خير صديقاتي . أما عن غرابة أطوارها فهي كذلك فعلاً ، وعندما تكون جالسة في أريكتها تنظر الينا ، أنا وماركو ، بعينيها الكبيرتين الجاحظتين الزرقاوين ، بينما نفعل الحب ، تأخذني الرغبة في الضحك وأجاهد لأحبس ضحكتي . وتحاشياً للضحك أروح أفكر بأشياء حزينة ، وعلى سبيل المثال بأنها مجنونة وسترسل في يوم من الايام الى مصح عقلي . ولولا ذلك لكنت انفجرت ضحكاً وقهقهة ، وفي هذا حرج ليس بالنسبة اليها فحسب ، بل ايضاً بالنسبة الى ماركو الذي يمكن ان يتأذى بنتيجة ذلك لأنه ليس من المستحسن في مثل تلك الاوقات ان يُوقف الرجل .

وتابعت على هذه الشاكلة حديثها معي عن كورا في ثرثرة لا ينضب لها معين ، بريئة وخبيثة معاً . وفي النهاية وصلنا ، بينما هي تهذر وتبعبع وأنا أسوق في صمت ، وصلنا الى ما وراء باب سان جيوفاني الى شارع عريض كئيب . وقالت لي : « هنا » فتوقفت . وللمرة الأخيرة أوصتني بألا أبوح لكورا بما أطلعتني عليه ، وأخذت مني وعداً بأن أذهب للقائها في فيلا شارع كاسيا ، وصرحت لي بأنها أعجبت بي حتى ولو كنت أخفتها وخلفت لديها الانطباع بأنني ساحر بعض الشيء ، وأضافت :

– هذه المرة سأفتح عيني على سعة حتى أتذكرك . لكن أتعرف ؛ انني لا أعتقد انني التقيت بك قط .

وودعتني ، ونزلت من السيارة ، وعاركت قليلاً لتدير المفتاح في قفل الباب الضخم المتواضع للمنزل الشعبي ، واختفت .

الجمعة ٢٠ تشرين الثاني

« Deus ex machina حيلة مسرحية تستخدم في المسرح الكلاسيكي لإظهار إله من الآلهة على خشبة المسرح بواسطة آلية مسرحية معينة. ومثل هذا الإظهار يفيد في توكيد طقس من الطقوس ، او تثبيت تقليد محلي ، او حل عقدة العمل المسرحي المعقدة . ومن هنا أصبح التعبير مثلاً سائراً للاشارة الى شخص او شيء يتدخل على نحو مباغت بهدف إيجاد حل لموقف معين ».

نسخت هذا التعريف من احدى الموسوعات ، لأنه بدا لي ينطبق تمام الانطباق على ما يمكن أن يكونه مرض كورا اذا كان ، كما أتصور أحياناً ، مرضاً مميتاً .

وبالفعل لقد أقام في أعماق وجداني شك ملحاح وان لم يكن له أساس قوي : فكما ان اوديب مسؤول عن طاعون طيبة ، كذلك أنا مسؤول عن فساد عائلتي . مسؤول عما انتهت اليه كورا وعما تفعله ، مسؤول عما تألمت منه بابا . مسؤول ، بكلمة واحدة ، عن كل شيء .

وهذا في الوقت الذي يخيل إلي فيه أنني اكتشفت انه لا وجود لمجرمين ولا لضحايا ، وأن الشيء الوحيد الموجود هو تيار اليومي اللاممتاز الفارغ من المعنى ، عادية الفساد الطبيعية والعبثية .

ان الشعور بالخطيئة يوحي إليّ منطقياً ، ككل شعور بالإثم ، برغبة في التكفير . يقيناً ، انني لا استطيع ان أفقأ عيني كما فعل اوديب ، لكن مخيلتي تفتح لي احتمال تفاهم مع كورا اقول لها فيه إنني عالم بمهنتها الثانية ، وأصارحها بأنها مصابة بمرض خطير يمكن ان تموت به ، وأشرح لها ضرورة ذهابها الى مصح الأمراض الصدرية . وأخيراً سأقترح عليها اقتراحاً يعادل ، بالنسبة إلي ، عمى اوديب الطوعي : اذا قبلت بمعالجة نفسها ، فسأطوي الكشح نهائياً عن أسفاري ، وسأعود من جديد زوجها ، وسأمضي حياتي كلها بجانبها . وكبداية ، سأكون رفيقها طوال العامين او الثلاثة التي ستستغرقها معالجتها في المصح .

وينبغي علي أن أوضح بأنني أفكر فعلاً بهذا كله . ان العدول عن أسفاري ، والاقامة مع كورا في مصح ، وقضاء الحياة كلها بجانبها ليست بالنسبة إلي اوهاماً وخيالات ، وانما (أدرك ذلك الآن) الاختيارات الاساسية في حياتي . وإني أفكر بهذا بأكبر قدر من الجدية حتى ان قلبي لينقبض قلقاً وهصراً كما لو أنني أتهيأ للموت . لكني أتغلب على قلقي متسلحاً بشعور مبهم بالتحدي ، لا ادري من أين جاءني ، وتتورم عيناي بالدموع ، دموع حقيقية محرقة ، وأبكي وجداً ورجاء .

لكن خلف هذه الرغبة البناءة والبطولية في التكفير يرتسم في الوقت

نفسه الخوف من ألا يتاح لي الوقت ، من ان تموت كورا فجأة بالسل الوبيل. وبذلك ان تكون هناك من كفارة . وسيعود النظام الى الاستتباب من تلقاء نفسه . لكن حذار : فقد يكون هذا الخوف قناعاً يحجب الأمل الأرعن الماجن في ان يوفر علي المرض،تلك الحيلة المسرحية الحقيقية [١]،الكفارة وأن يجد حلاً لكل شيء طبقاً لمنطق العادية اليومية .

لكن ما منطق اليومي هذا إن لم يكن استبدال الأشياء التي تقع لنا بالاشياء التي نكون نحن مسببيها ؟ فالموت مرضاً هو في وضع كوضعي،حيث يطوقني من كل صوب وعي للأصالة المميزة لكل عمل ، اقول ان الموت مرضاً (الذي لا نسببه وانما يحدث لنا) هو الحل الوحيد الممكن . فهو الحيلة المسرحية الخاصة بما هو يومي ، حيلة لا تقل إلهية وبلاهة عن طرائق الخشب والقماش التي تسمح ، في المسرح الكلاسيكي، بإظهار إله من الآلهة وبالتالي بحل « عقدة العمل الدراماتيكي المعقدة »

ثم ان « الحيلة المسرحية » المتمثلة في الموت مرضاً تغني لا عن التكفير فحسب ، بل ايضاً ، وبصورة طبيعية ، عن الحل الممكن الآخر للدراما ، أعني القصاص . فالقصاص والتكفير متعادلان من حيث انهما كليهما غير أصليين . فمن الخطل بقدر ما انه صحيح ان أتخيل كورا معاقبة منقذة . والشيء الوحيد الذي يبدو صحيحاً عادلاً هو موتها على سرير في احد المستشفيات ، موت سببه الداء الوبيل ، بين العديد من المرضى الآثمين او غير الآثمين . وباختصار موتها بشيء مشترك،غير إرادي،عديم الدلالة ، أي، مرة اخرى ، بـ « حيلة مسرحية » تحل « عقدة العمل الدراماتيكي المعقدة ».

ومع ذلك ، وبعد ان قلت كل ما ينبغي قوله ، لم أتوصل الى التحرر من

---

(١) Deus ex machina ومعناها الحرفي «إله منزل بواسطة آلة ». وهي حيلة مسرحية تستخدم لإظهار إله من الآلهة على خشبة المسرح ، وتعني مجازاً حلاً سعيداً عن الواقع لموقف مأساوي . « المترجم »

فكرة ان سلبيتي تجاه كورا ستتحول في النهاية الى جبن . ولهذا أفكر بأن عليّ ، بالرغم من كل شيء ، ان أبذل مجهوداً لأكفر وأنقذ كورا انقاذها من المرض ، إنقاذها من الفساد .

ليكن . لكنني في اللحظة التي أصمم فيها على المبا رة الى العمل ، يخالجني شعور مفاجيء بالضيق ، شعور يحذرني من انني قد أفعل شيئاً سبق لي أن فعلته . واتساءل عندئذ عما اذا كنت لن أسقط من جديد، من قبيل الصدفة ، في لاواقعية اللاأصالة ، تماماً كما حدث لي قبل عشرة أعوام عندما أردت الزواج من كورا .

وأقول في نفسي انني كما أخطأت قبل عشر سنوات عندما اتخذت كورا قرينة لي ، كذلك سوف اخطيء اليوم اذا كرشت لها حياتي .فالعمل سيوقعني اليوم كما في الامس ، في اللاأصالة . بيد ان هناك فارقاً بين ما حدث قبل عشرة أعوام وبين ما يحدث اليوم : فقبل عشر سنوات كنت اكتب روايتي ناظراً بعين الاستصواب الى الاشياء التي فعلتها في ماضيّ الأحدث عهداً ، أما اليوم فإنني سأستخلص ، على العكس ، رواية من اليوميات التي أروي فيها كل وقائع وجودي يوماً فيوماً ، وهذا ما يجعل (كما سبق وذكرت) مشروع روايتي بمثابة ضمير لي إزاء كل عمل قد أصمم على القيام به

لهذه الدوافع كلها قررت مساء امس توضيح علاقاتي مع كورا بنفس الصورة التي وضحت بها علاقاتي مع بابا ، مستخدماً روايتي كحجر محك . اي عن طريق تسجيلي في يومياتي المشهد الخيالي لتفاهمي مع كورا . وهوذا المشهد :

كورا مستلقية على سريرها بسبب الحمى التي ألمت بها طول النهار . أقرع الباب وأدخل وأقول لها إن لي حديثاً معها . ومن غير ان تقول شيئاً تدعوني ، بحركة من ذقنها ، الى الجلوس على الأريكة الموضوعة تجاه السرير ».

قبل ان أبـــدأ أنظر الى كورا الجالسة على السرير ، المسندة ظهرها الى وسادتين ، المتدثرة بكنزة صوفية قرمزية اللون ، موشاة حواشيها بحرير أخضر . وأقول لها :

– انني هنا لأن لي حديثاً معك . علي ان اقول لك شيئاً لم أملك الشجاعة قط حتى اليوم للبوح لك به .

– ما الأمر ؟

– ألا تخمنين ؟

– كلا .

– مع ان موقفي منك كان يجب أن يحملك تفهمين .

– أي موقف ؟

– طوال عشرة أعوام كنت في هذا البيت كالأجنبي . وفجأة قررت ان كل شيء سيتغير ، وانني سأعود أباً لبابا ، وزوجـــاً لك . لكن المرء لا يستطيع ان يفعل هذه الأشياء بين بين . لقد أردت ، طوال عشر سنوات ، ان أتجاهلك . وما دمت قد عزمت على الاهتمام بك ، فعليّ أن أفعل ذلك من كل قلبي . ويخيل إليّ ، وقد وصلنا الى هذه النقطة من الحديث ، أن الشيء الذي أريد ان أكلمك عنه قد تجلى لك بوضوح ولا بد .

– على العكس ، لا شيء واضح .

– لا شيء ؟ ألم تفهمي بعد انني أكلمك عن مهنتك الثانية ؟

– ليس لي مهنة ثانية .

– وانني أكلمك ايضاً عن بابا .

هذه المرة بقيت صامتة ، من غير ان تظهر تفاجؤاً ولا اضطراباً . وتابعت بعد هنيهة :

– أعتقد أنني أوفيت الشرح بما فيه الكفاية ، أليس كذلك ؟

وبقيت متمسكة بحبل الصمت . وتابعت :

– تزعم بابا ان كل ما حدث يبدو لها وكأنه قد حدث لبابا اخرى لا دخل لها بها . لنفترض ايضاً ان كل ما فعلته حتى الآن قد فعلته كورا اخرى لا دخل لها بك . ولنأتِ الى الشيء الهام الوحيد : صحتك .

– ما دخل صحتي في هذا كله ؟

– قالت لي بابا إنك عزمت في النهاية على استشارة طبيب شخّص لديك شكلاً خطيراً من السل الرئوي . أهذا صحيح أم لا ؟

– نعم ، هذا صحيح ، لكن ...

– رويدك ... قال الطبيب علاوة على ذلك انه لن يسمك الشفاء إلا اذا غادرت روما وأقمت في مصح في الجبل لمدة سنتين . من جديد : أهـــذا صحيح أم لا ؟

– صحيح . لكنني لن أذهب الى المصح . لدي عمل كثير في روما .

– عمل كثير ؟ آه ! في فيلا شارع كاسيا ام في مكان آخر ؟

فلم تحر جواباً . ولبثت قابعة في صمت تام ، وفي الواقع مزدر ، صمت (لم أستطع منع نفسي من التفكير بذلك) المؤمن الذي لا يقبل نقاشاً بصدد إيمانه .

– إذن ، أتريدين الموت ؟

– من يتكلم عن الموت ؟ سوف أعالج نفسي في روما ، هذا كل شيء .

– لا يسمك ان تعالجي نفسك في روما .

– من قال ذلك ؟

– الشرط الأول لعلاجك هو تبديل نمط حياتك . يجب أن تغـــادري روما وتبدلي نمط حياتك .

– لست أنوي تبديل نمط حياتي . انني سعيدة بما أنا عليـــه ولا أرى ما الداعي لأن أبدل نمط حياتي .

– اصغي إلي يا كورا ، سأقترح عليك اقتراحاً .

– ما هو ؟

- اذا قبلت بالإقامة في مصح ، وبالطبع بتصفية منزل شارع كاسيا وكل النشاط المرتبط بهذا المنزل ، فإنني أعدك وعداً قاطعاً بأنني سأعدل ، من جهتي ، عن الترحال لأتبعك الى الجبل وأقضي معك كل الوقت الضروري لشفائك . ثم سأعيش الى جانبك ولن أتركك أبداً .

فنظرت إلي ، وعيناها جاحظتان بريبة قاسية ، وأجابت من بين أسنانها:

- أرفض التفكير في هذا .

- لماذا ؟

- قلت لك : انني مرتاحة هنا ولا أريد ان أبدل شيئاً .

وتفرست فيها بصمت . تحت الضوء الاحمر لعاكس النور الارجواني الحريري ، رأيت وجهها الشاحب المهزول الذي ماعادت تظهر منه غير العينين والانف والفم ، فكأنه قناع احمرّ لونه من الانعكاس الاحمر لكنزتها الصوفية الحمراء ، وداهمني بغتة شعور حاد بالفساد الذي تبدت لي في هذه اللحظة وكأنها تشخيص حي له، ترافقه فكرة إمكانية تحويل هذا الفساد الى نقيضه. وقلت في نفسي إن هذا كله ليس قدراً حتماً وانه لا بد ان تكون ثمة وسيلة لنزع هذا القناع الدنس القاسي عن كورا ولإعادة وجهها البشري اليها. وفجأة، ومن غير قصد ، وجدت نفسي مشدوداً اليها ، وذراعاي حول جذعها ، ومنخراي مليئان برائحتها ، رائحة يختلط فيها العطر والعرق ، وقلت لها :

- اذا اردت ، تستطيعين الشفاء من مرضك وتستطيعين ايضاً ان تصبحي امرأة أخرى . لكن ينبغي ان تريدي ذلك وعليك ان تريديه . ولسوف أساعدك .

وتبينت أنني أبكي ، وقد اندس أنفي في صوف كنزة كورا ، وطوقت ذراعاي كتفيها ، أبكي بمرارة خوف أن ترفض لكن ايضاً خشية ان تقبل ، لان كلا الاحتمالين مؤلمان بالنسبة إلي :

لكن بينما كنت اخاطبها وأنا مشدود اليها أبكي شعرت بها على حين

غرة تتخبط وتحاول التحرر من عناقي والتملص مني لتتنفس بحرية اكبر وكأنها تخشى الاختناق . فابتعدت عنها ، فجلست عندها على السرير واخذت تسعل . وكان السعال يزداد في كل مرة عمقاً وصحلا . ورأيتها تخفي فمها بيديها ، بينما جحظت عيناها من الخوف فوق يديها المضمومتين. ومع آخر نوبة من السعال ، وتحت ضوء العاكس الاحمر ، في وجهها الاحمر المدفون في لباسها الاحمر الخاص بالسرير ، انبجس من بين أصابعها وانسال بغزارة الدم .. الاحمر .

هذا هو المقطع الذي سردت فيه تفاصيل تفاهمي المتخيل مع كورا . وبعد ان أعدت قراءة ما كتبت ، فكرت بسرعة وأضفت هذا التعليق : « عاطفي ، مراءٍ ، متهرب ، غير واقعي ، متكلف العسولة وفارغ . إذن غير أصيل . انه ، كالعادة ، كلام زائف يخفي تحته شيئاً صحيحاً . الزيف فيه هو وعد كورا بمرافقتها الى المصح ، وقضاء الحياة كلها معها . والشيء الصحيح فيه هو الرغبة في أن ارى كورا تموت ، رغبة كشف عنها النقاب اختلاقي بصقة الدم الصاعقة المميتة . لكن فلتمت بعد الوعد الذي قطعته لها وقبل ان أرى نفسي ملزماً بالوفاء به ، بحيث يمكنني ان أظهر بمظهر الشهم بأقل التكاليف واخنق في الوقت نفسه احتجاج ضميري الواهن اصلاً » .

السبت ٢١ تشرين الثاني

يوم خريفي غائم مع نذر عاصفة وجو رطب مبشر بالمطر . الرطوبة تسوّد حجارة القصور الجصية وبلاط الارصفة . في السماء تتكون بلا انقطاع فجوات زرقاء تارة واسعة وطوراً ضيقة ، تبعاً لجري السحب الضخمة التي تطردها الريح . من اغصان اشجار الدلب العارية في شارع فينيتو تتساقط بلا انقطاع اوراق نادرة صفراء وصهباء على شكل أيادٍ متباعدة أصابعها .

اسفلت عرض الطريق ، الاسود والمنخور كالجلد ، مزروع بأوراق ملصوقة، وببقع زيت محركات السيارات الملونة بأكثر من لون ، وبحفر مبللة . توقفت بابا امام احد المقاهي ، واقترحت عليّ وهي تشير الى طاولة : « فلنجلس هنا » . وجلسنا . كان ثمة رجل يجلس الى طاولة مجـــاورة ، وعندما سمع صوتها أزاح قليلاً جريدته التي كان يختفي وراءها لتراه بابا لكن من غير ان اراه انا ، وهتف بها :

– أهذه انت ؟ يا للعجب ! أعرفتني ؟

فالتفتت بابا ونظرت اليه :

– اجل .

– كيف حالك ؟

– على ما يرام . وأنت ؟

– على ما يرام ايضاً . ماذا تفعلين ؟

– أدرس .

– عندما أفكر بأنني تعرفتك على الفور ، بعد كذا من السنين !

– ست سنين ..

– ست سنين . لكم يمر الزمن سريعاً ! يخيل إلي ان ذلك كان بالأمس. لكن أتعرفين انك لم تتغيري ؟

– أحقاً ؟

– اجل ، حقاً . انت الآن اكثر أنوثة بالطبع ، لكنك لم تتغيري . بيد انك ازددت جمالاً !

– شكراً !

– اسمعي ، ألا نستطيع ان نلتقي ؟

– كلا .

– كلا ؟ أتعتقدين ؟

– كلا . بالتأكيد كلا .
– سأعطيك رقم هاتفي . لمَ لا تتصلين بي ذات يوم ؟
– لأنني لا أريد .
– اعذريني ، لم اكن أريد إهانتك .
– لم تهني .
– حسناً ! ينبغي ان اذهب . شياو ! الى اللقاء !
– شياو .

نظرت الى الرجل يبتعد وهو يصفر ، وقد بدا عليه الحرج والطلاقة معاً، ويداه في جيبي سترة رياضية عتيقة وأنيقة تبغية اللون ، ذات مربعات خضر. رجل في حوالي الخامسة والاربعين ، ذو وجه أسمر ونحيف ، ناعم التقاطيع، حساس التعبير ، كئيب بعض الشيء . مراهق تقدمت به السن ، محبب الى النفس ، بعيد مظهره كل البعد عن الابتذال ، ناعم تكشفت نعومته عندما حيا بابا بعد أن نهض وقد أضاءت عيناه بوميض لطيف أنيس . نظرت اليه يبتعد الى ان توارى خلف منعطف . ثم سألت بابا من هو . فأجابتني :

– ريكاردو ، أول رجل جمعته كورا ببابا ، قبل ستة أعوام .

الأحد ٢٢ تشرين الثاني

بقيت اليوم كورا في البيت . لمحتها اثناء مروري في الممشى ، عبر الباب المنفرج : كانت جالسة على أريكة ، على مقربة من سريرها ، وقد شلحت على ظهرها كنزتها الصوفية الحمراء الصباحية المعتـــادة الموشاة حواشيها بالحرير الاخضر ودثرت قدميها في خفين من الجوخ الارجواني . ماذا تفعل كورا عندما ترغمها الحمى على البقاء في البيت ؟ انها تجري ، كما أتبين من رنين الهاتف المتكرر ، اتصالات هاتفية . وهي تتصل ، على الارجح ، بزبائنها وبناتها ،

لترتب مواعيد في منزل شارع كاسيا وهي تتصل ايضاً ، بلا ريب ، بمحل الخياطة لتستعلم عن العمل ، لكنني اعتقد انها تمكث ، على وجه الخصوص ، بلا حراك ، من غير ان تفعل شيئاً ، عيناها تحملقان في الفراغ (كما شاهدتها على شاطىء سيركيو) ساعية عبثاً الى اقامة صلة مع الواقع ، فوق مهاوي وجودها الممزقة .

لكن الحمى منعت كورا ايضاً من الذهاب اليوم الى بيت أهلها لتسلمهم المبلغ الشهري الذي رصدته لإعالتهم . وهكذا كلفت بابا بنيابتها . وعلى الفور طلبت مني بابا أن أرافقها منوهة ، كالعادة ، بحقها كابنة في ان تطلب من أبيها مساعدته في كل ظرف ومناسبة .

خرجنا بعد ان انقضى من العصر نصفه ولاحت تباشير ليل تشرين المبكر ولبرهة من الزمن قدت في صمت. كان اهل كورا يقطنون في شارع توسكولانا وكان علينا ان نعبر كل وسط روما . وعندما وصلنا الى شارع الآمبير قالت لي بابا التي كانت قابعة بلا حراك ويداها على ركبتيها ، قالت لي فجأة :

– أنا مسروروة بمجيئك الى بيت جدي .

– لماذا ؟

– لأنني اعرف أن هذا يسرهم . منذ كم لم تذهب اليهم ؟

– منذ حوالي عشرة اعوام .

– كثيراً ما كانوا يحدثونني عنك . ولا سيما جدتي . وكنت أجد نفسي محرجة لأنني لم اكن أعرف ما يجب ان أقوله . لم اكن استطيع ان أشرح لهم انك لا تريد رؤيتهم . كنت أقول لهم إنك مسافر .

– تلك هي الحقيقة او بالأحرى جزء من الحقيقة .

– أيزعجك ان تذهب اليهم ؟ عندما طلبت إليك ذلك ، قلبت سحنتك تماماً كما فعلت يوم ذهبنا الى سيركيو، عندما أخطرتك بأن كورا ستأتي معنا.

- وكيف كانت سحنتي ؟

– لا أدري . شيء بين خيبة الأمل والاشمئزاز .

– كلا ، لا يزعجني ان اذهب اليهم . اي ليس كثيراً ، أقل على كل حال من البقاء مع كورا .

– ولمَ يزعجك ذلك ؟

– انها قصة طويلة . وشرحها يقتضي وقتاً طويلاً .

– قل مع ذلك .

– على رسلك ! لكني سأتكلم باختصار . ان ما كنت أحبه في كورا ، كنت أحبه ايضاً فيهم . ولما لم أعد أحب كورا ، لم أعد أستلطفهم . ورؤيتهم من جديد شيء مزعج بالنسبة إلي لأنها تذكرني بحماستي الكاذبة .

– وماذا كنت تحب فيهم وفي كورا ؟

– هذا ايضاً شيء معقد : لنقل ، فقرهم !

– أين الجمال في ان يكون الناس فقراء ؟

– الأصالة . كنت أعتقد ان الأصالة والفقر مترادفان .

– والآن ، لم تعد تعتقد ذلك ؟

– بلى .

– الحقيقة انني كنت أعرف هذا كله .

– كنت تعرفين ؟

– أجل . سألت ذات يوم كورا عم حدث بينها وبينك ، ولمَ تعيش في البيت كالغريب ، فأجابتني : « ما حدث هو انني لم أعد تلك البائسة التي كنتها يوم التقينا أنا وفرانشيسكو للمرة الاولى . ان فرانشيسكو لهو مثل اولئك البورجوازيين الذين يعيشون في الريف والذين يميلون الى الفلاحات بدلاً من ان يذهبوا الى بنات طبقتهم . أنا لا أقول إنه على خطأ ، فالمسألة مسألة ذوق . انما اقول انني لن أبقى طوال حياتي ميتة من الجوع حتى أرضيه .

– اجل ، انني اعلم ما رأيها بهذا الموضوع .

– وأنت ، ما رأيك ؟

– رأيي في ماذا ؟
– في زواجك من كورا .
– اعتقد انني اقترفت خطأ ، هذا كل شيء .
– في رأيك ، من المحق ، أكورا ام انت ؟
– أدري . إن الحقيقة ، كما هي العادة ، في الوسط .
– قص عليّ كيف التقيت بكورا للمرة الاولى .
– وما همك من ذلك ؟ لمَ تريدين ان تعرفي ؟
– هكذا ، من قبيل الفضول .
– ما أغربه من فضول !
– على رسلك . اذن انت لا تريد ان تقص علي ذلك ؟
– اذا كنت ترغبين حقاً ...
– انني راغبة حقاً .
– حسناً ! ماذا تريدين ان أقص عليك ؟
– اريد ان تروي لي بالضبط كيف حدثت الأمور عندما التقيت بكورا.
التقيت بها في حي غوردياني ، في المنطقة .
– وماذا عن حي غوردياني ؟
– كان موجوداً في الماضي . أما اليوم فلا ، أعتقد ذلك على الأقل. كان عبارة عن مدينة تنك ، اي مجموعة من المنازل او بالأحرى من الاكواخ المبنية والمرتبة بطريقة معينة .
– بأي طريقة ؟
– كما في معسكر اعتقال .
– لكن ما الذي كان يذهب بك الى ذلك المكان ؟
– لقد ذهبت اليه عدة مرات .
– لماذا ؟
– لأن الأماكن المماثلة له كانت تجتذبني وكذلك الناس الذين يقيمون فيها.

– كان ذلك يجتذبك ؟

– أجل ، كنت انظر وأنظر ، ولم اكن أملّ من النظر.

– لكن لمَ كنت تنظر على هذا النحو ؟

– لا أدري . لعلي كنت تحت سيطرة أسطورة .

– اي أسطورة ؟

– أسطورة الفقر .

– ماذا تعني ؟

– ان الفتى تكون له فكرة ثابتة عن النبل . فهو بالنظر الى عدم انتمائه الى المجتمع الارستقراطي يتسكع حول القصور التي ينظر الى نوافذها، ويراقب من يدخل ومن يخرج ، ويعرف كل شيء عن حياة الذين يقطنون فيها وعاداتهم ، ويحلم في يقظته بقصة حب مع أميرة . ويستمر على هذا المنوال إلى ان يتمكن ذات يوم ، هذا ممكن ، من الدخول بطريقة ما إلى هذه الاوساط المحسودة على حياتها، والتي يصعب الدخول اليها الى حد الاستحالة، ويتزوج في النهاية من فتاة، او بالأحرى من سيدة أحلامه النبيلة. وآنذاك يتبين أن هذه المرأة هي امرأة كغيرها . لكن الأوان يكون قد فات. وهذا ما حدث لي. وكل ما هنالك ، استبدلي القصور بالاكواخ ، والمجتمع العالي بالمتشردين والبغايا واللصوص . وبدلاً من الأميرة ضعي كورا ، ابنة غسالة وبستاني .

– طيب . كنت واقفاً تحت سيطرة هذه الأسطورة لكن لماذا ؟

– لمَ يقع الانسان تحت سيطرة أسطورة ؟ ان هذا الشيء يطول تفسيره .

– فاهمة . لكن قل لي كيف التقيت بكورا .

– أتريدين حقاً ان تعرفي كل شيء ؟

– أجل .

– لكن لماذا ؟

– لأنني كنت راغبة دوماً في هذه الاشياء . لكن كورا لم تشأ قط ان تطلعني على شيء .

– حسناً ! سأروي لك القصة . لقد كلفتني الصحيفة التي كنت اكتب لها بالقيام بتحقيق عن بعض الأحياء البائسة في الضواحي . او بالأحرى تدبرت أمري حتى أكلف بهذا التحقيق . وفي احد أيام شهر تموز ، في الساعة الثانية بعد الظهر ، ذهبت الى حي غوردياني. وحتى تفهمي ما حدث في ذلك اليوم، ينبغي ان أصف لك المكان . تخيلي صفين من المنازل الحقيرة المؤلفة من طابق واحد والمدهونة بلون أصفر كريه مع نوافذ مؤطرة بخشب أبيض طلي كيفما اتفق وأسطحة رمادية من الصفيح المتاوج ، تخيلي هذين الصفين من المنازل يفصل بينهما طريق عريض عارٍ أجرد . لا شيء غير هذه الاكواخ والطريق : لا شجرة ، لا بستان ، لا مخزن ، لا عين ماء ، لا شيء . ووسط الطريق العام منزل من طابقين متداعٍ تماماً ، له جدار أحمر بلا نافذة كتبت عليه بأحرف كبيرة عبارة « بيوت ، بيوت ... بيوت ! » . وكان في هذا المبنى المتداعي بار عليـــه لافتة تشير الى وجود هاتف عمومي فيه . ونزلت من السيارة واتجهت الى البار .

– لِمَ ذلك ؟

– لأطلب بالهاتف من صحيفتي ان ترسل لي المصور الذي كنت قد تواعدت معه لكنه لم يأتِ .

– لكن اي نوع من الناس كانوا يقيمون في هذه المدينة – التنك ؟

– كانوا خليطاً من مختلف الأجناس : بغايا ، رعاع ، لكن ايضاً عمال ، ولا سيا عمال بناء ، وغيرهم على سبيل المثال ، جدك الذي كان بستانياً .

– أدخلت اذن الى البار ؟

– أجل . دخلت وطلبت قهوة . ثم لما استدرت رأيت امرأة في قميص أصفر وتنورة خضراء . كان شعرها أسود ، وعينـــاها زرقاوين ، وكتفاها

وصدرها وذراعاها عارية لفحتها الشمس بلون برونزي ، شبه ذهبي . كانت كورا .

– ماذا كانت تفعل ؟

– كانت تتكلم بالهاتف . ثم أعادت السماعة الى مكانها ونهضت لأهتف بدوري . كان الهاتف قرب الباب ، وكانت كورا متجهة نحو منضدة البار ، فتقابلنا في منتصف القاعة . ونظرت إلي لحظة من الزمن بإلحاح ، كما ينظر المرء الى شخص أعجبه . وتقدمت صوب الهاتف ، واستدرت لأنظر الى كورا التي راحت تتكلم مع صاحب البار . ثم اتجهت نحو الباب كأنها تريد الخروج . ولقد قلت لك اننا كنا في تموز وان الطقس كان شديد الحرارة . كانت ذراعا كورا عاريتين وكان قميصها بلا أكمام ولما مرت بالقرب مني ، حكّت ذراعها بذراعي وأحسست بجلدها على جلدي . ورمقتني . ثم خرجت .

– وأنت ، ما فعلت ؟

– تركت الهاتف وتبعتها .

– لمَ ؟ أأعجبتك ؟

– أجل .

– ثم ؟

– كانت تمشي أمامي ، وكانت الشمس لاظية ، والنور يعمي الأبصار . وتقدمتُ باتجاه سيارتي التي لم يكن هناك غيرها على قارعة الطريق ، ففتحت الباب ، فصعدت ، ومضينا . هذا كله من دون ان نتبادل الكلام .

– ثم ؟

– كانت كورا جالسة الى جانبي ترنو الى الطريق. وكانت تكتفي بالقول: « الى اليمين ، الى اليسار ، الى اليمين » ، لتدلني على الاتجاه ، وكنت أطيعها. واجتزنا عدة شوارع تشبه طرقاً ريفية ، ووجدنا أنفسنا تحت قنطرة السكة الحديدية . وعلى مسافة قريبة منها كان هناك منزل من ثلاثة طوابق ، ابيض ،

ذو شبابيك خضر . وقالت لي كورا أن اتوقف . ونزلنا ودلفنــا الى ذلك المنزل . لم يكن هناك مصعد ، وارتقينا دورين من الدرج الى ان وصلنا الى باب عليه لوحة تحمل اسم « توريني » .

– انت تتذكر كل شيء !

– اختصاراً للكلام ، جاءت امرأة لتفتح لنا . امرأة متوسطة العمر ، ذات سحنة متجهمة ومنفرة . وقدمتها لي كورا باسم إرمينيا وقادتنا هــذه الاخيرة الى غرفة .

– كيف كانت هذه الغرفة ؟

– كان فيها سرير حديدي لشخصين ، مدهون بلون أسود ، وعليه اربع وسادات وغطاء احمر . والى جانبه خزانة ذات سطح من الرخام عليه صور عائلية ، وطاولتان صغيرتان سطحها من الرخام ايضاً ، واخيراً خزانة ذات مرايا . وعلى النافذة ستارة مخرمة صفراء اللون ، تمثل تخاريمها سلال أزهار وأطيار. وبينما راحت كورا تتعرى، تقدمت نحو النافذة ورأيت في مواجهتي قنطرة السكة الحديدية وقطاراً يمر من تحتها ، عربة تلو العربة ، ببطء .

– وماذا حدث بعد ذلك ؟

– اضطجعنا معاً . هل تريدين ان تعرفي الاشياء الثلاثة التي جعلتني أغرم بكورا ؟

– ما هي ؟

– الشيء الأول كان عندما مدت كورا ، فور تمددنا على السرير ، الواحد بجانب الآخر ، هي على ظهرها ، مغمضة العينين ، ورأسها مشلوح الى الخلف على الوسادة ، اقول عندمــا مدت يدها نحو بطني ، وأمسكت بي ، وشدت بقوة هامسة بصوت خافت وكأنها أخذتها حالة من الوجد : « ما أجمله ! ». والشيء الثاني عندما حذرتني قبل ان نفعل الحب : « انني خياطـــة ، ولا أذهب مع الرجال بالمرة تقريباً . فاعذرني ان لم اكن أدري كيف أفعل » .

والثالثة عندما مددت يدي الى محفظتي فقالت لي: «أعطني أكثر ما في وسعك، إن لدي فتاة صغيرة علي ان أربيها ».

– لمَ حركت هذه الاشياء الثلاثة الحب في قلبك ؟

– قلت لك : كنت أبحث عن الأصالة ، وقد خيل إلي انني وجدتها في تلك العبارات الثلاث .

– وبعد هذا اللقاء الاول ، ماذا حدث ؟

– اواه ! جرت الأمور كما تجري عادة في كل قصة حب . فقد عاودنا اللقاء في منزل إرمينيا ، بندرة اولاً ، ثم بكثرة متزايدة . وفيما بعد اخذنا نعيش معاً ، وفي النهاية تزوجنا . قصة عادية تماماً .

– ومتى أدركت انك لم تعد تحب كورا ؟

– بعد زواجنا بقليل ، عندما أقمنا في المنزل الذي ما نزال نقيم فيه .

هل تعتقد ان كورا كانت تمارس منذ ذلك الزمن تلك المهنة ؟

– جائز . فقد كانت منذ ذلك الزمن متحفظة ومتكتمة . كانت تزعم انها تعمل في ورشة خياطة لكنني لم اكن أجدها فيها في غالب الاحيان . ثم انه كان لها صديقات وأصدقاء لا أعرفهم ولم تشأ قط ان تقدمهم لي ...

– هل كنت تكثر من زياراتك لبيت جدي ؟

– يوم كنت أحب كورا ، كنت أتذرع دوماً بأي ذريعة لأزورهم. فقد كانوا يجتذبونني كما كانت تجتذبني كورا وكل ما يتعلق بها. خلاصة القول ، كانت الأسطورة تفعل فعلها ، ولقد كانوا جزءاً من الاسطورة . ثم ، عندما انهارت الأسطورة ، لم أكف عن رؤيتهم فحسب ، بل خيل إلي انه لشيء لا يكاد يصدق ان اكون قد عاشرتهم وان أكون قد فعلت الكثير لأتعرف اليهم .

– فعلت الكثير ؟

– اجل ، بالتأكيد . فكورا لم تكن تريد ، لا ادري لماذا ، ان

تأخذني الى بيت أهلهـــا . وقد ألححت كثيراً حتى قبلت في النهاية أن تأخذني اليه .

– واليوم ، ما إحساسك وأنت ذاهب اليهم من جديد ؟

– انني خجل بعض الشيء .

– خجل ؟

– أجل ، خجل ، وكأنني ذاهب الى مكان سكرت فيه . وارتكبت اكثر من حماقة .

– لعلها لم تكن حماقات ؟

– ممكن . لكن ما الفرق ما دمت أشعر اليوم بأنها حماقات ؟

ولم توجه إلي بابا سؤالاً آخر ، وقدت بصمت برهة من الزمن . ثم دخلنا الى شارع توسكولانا المحبوس بين صفين من المساكن الشعبية العالية . واجهات مزينة بالشرفات ، أقبية مضاءة ، دكاكين ، وجوه المـــارة السود تحت ضوء واجهات الدكاكين الابيض ، بارات ، دور سينما ، محلات لبيع الألبان والحلويات ، وأبواب كبيرة للبنايات . وسألتني بابا :

– ألم تأتِ قط الى هنا ؟

– كلا . فيوم كنت أتردد على بيت جدك ، كانوا يسكنون في حي غوردياني ، ثم انتقلوا الى حي كاسيلينا بعد ان زاد كسب كورا (مهما يكن من أمر مهنتها) . ولم آتِ الى هنا قط .

– رويدك ! توقف . لقد وصلنا .

أوقفت السيارة ونزلنا منها واتجهت بابا نحو دكان حلويات قائلة :

– ينبغي ان اشتري شيئاً ما لجدتي. انها عادة اعتدتها وهي تتوقعها مني.

ودلفت الى قاعة كبيرة بيضاء عارية ، ينعكس فيها ضوء النيون الساطع على سطح المنضدة الخزفية وقضبان الطاولات والمقـــاعد المطلية بالكروم والمرايا التي تصطف امامها القناني ، فتقدح شرراً . وكانت علبـــة الموسيقى

الآلية تصدح بأعلى صوتها . وكانت جماعة من الغلمان تستمع الى الموسيقى الصاخبة . واقتربت بابا من الواجهة الزجاجية ، وتأملت ملياً في الصحاف المليئة بالكاتو ، واختارت علبة سكاكر ذات غطاء متعدد الألوان ، ثم سألتني حرصاً منها ، كعادتها ، على ان اتصرف كأب :

— أتدفع ؟

فدفعت ، وخرجنا وتقدمنا بضع خطى على الرصيف ، ثم سبقتني بابا ودخلت من بوابة كبيرة الى باحة بدت لي ، نظراً الى العتمة السائدة فيها ، واسعة جداً وذات جدران شاهقة ، عارية كباحة سجن . واتجهت بابا نحو باب مضاء يعلوه حرف ح . وركبنا المصعد الذي أرغمنا ضيقه على الدخول اليه جانبياً . وأغلقت الباب وضغطت بابا على زر الطابق الثامن .

بينا كان المصعد يصعد ببطء ، لبثنا بلا كلام ، متواجهين ، او بالأحرى مشدودين احدنا الى الآخر . كانت سترة بابا مفتوحة تكشف عن صدرها الناهد . وبين الفينة والفينة كانت تهتز من الخلف الى الامام اهتزازاً خفيفاً متذبذباً يدفع بها نحوي ، بإرادتها او بغير ارادتها ، لا استطيع ان احدد ذلك ، فكنت أشعر على صدري بضغط ثدييها . ولم استطع لحظتها منع نفسي من النظر الى عينيها ودهشت إذ لم اجد فيها اي توكيد للإغراء الملتبس الذي أوحى به إلي هذا الاحتكاك . كانتا نفس العينين الجميلتين الحسيرتين ، ببؤبئها الساكن ، نصف المخفي تحت الجفن المسبل . وسألتها فجأة :

— هل تعلم جدتك بما تفعله كورا ؟

— اواه ! ألا تكف عن التفكير بذلك !

— هل تعلم او لا تعلم ؟

— انها تعلم من غير ان تعلم .

— ماذا تعنين ؟

— لعلها علمت بذلك فيما مضى من الزمن ، ثم ارادت ان تمحوه من ذاكرتها ، ولعلها الآن تتصور انها قد حلمت به في المنام .

- وجدك ؟
- لا يعلم . لكنه يتحسس الأمر تحسساً .
- ماذا تقصدين بذلك ؟
- ثمة أناس يعلمون بالاشياء وأناس يتحسسونها . وجدي هو من النوع الذي يتحسس .

توقف المصعد مرتجاً فدفع ببابا للمرة الاخيرة نحوي وخرجنا منه الى قرص درج ضيق ، تحتل قسمه الأعظم سلتا قمامة . وقرعت بابا الجرس وقالت:
- أسألك ان تكون لطيفاً معها ، وان غصباً عنك .
- لكن لماذا ؟
- افعل ذلك من أجلي ، أرجوك .

انفتح الباب ، وتعالى هتاف حار وترحاب، وعانقت الجدة بابا بين ذراعيها وقبلتها ، ثم عانقتها بابا بدورها وقبلتها . وتبعت ذلك تشكرات على علبة السكاكر . وأخيراً انزاحت بابا وقالت :
- جدتي ، انظري من أتيتك به اليوم !

يوم كنت أتردد على أهل كورا ، كانوا يحرزون إعجابي ، خارج أسطورة الفقر ، لدافع لا أتردد في وصفه بأنه جمالي: فقد كانوا ، بوجوههم ذات الملامح البسيطة والصارمة ، يشبهون تلك الأزواج الفلاحية التي يشاهدها المرء منحوتة ، بأيديها المتشابكة على أغطية النواويس الرومانية .

لكن نظرة خاطفة اليوم جعلتني ألحظ تبدلاً جذرياً. فتقاطيع وجه الجدة، التي ترهلت بالشحم اللامع ، قد فقدت كلياً خشونتها الفلاحية . والعينان الزرقاوان ، اللتان كانتا في الماضي ساذجتين ومكثفتين كأزهار الحقل ، تختفيان الآن ، محجوبتين ، خلف نتوء الوجنتين الوضاء . وابتسامة الفم الملتوية والمعسولة والمتكلفة قد حلت ، مع الأسف ، محل تعبير الازدراء القديم . ولاحظت ان شعرها لم يعد مشدوداً الى الخلف ومعقوداً فوق رقبتها،

وانما بات متاوجاً يفصل بينه فرق ، وانه لم يعد شائباً ، وانما أمسى مصبوغاً بلون اصطناعي كريه يتراوح بين لون النحاس والكستناء . وكانت شفتاها الرقيقتان ملطختين بلا إتقان بأحمر الشفاه . وكانت سحابة من مسحوق الأرز الزهري اللون تنسحب على خديها المنورين. ونظرت إلي وهتفت: «الاستاذ!».

قبل عشر سنوات كانت حماتي تخاطبني بضمير المفرد بلا كلفة . وبعد زواجي دعتني : «ابني» . وهأنذا الآن قد أصبحت ، من غير ان أدري السبب ، « الاستاذ » . ولم أشأ التعمق في أسباب هذا التغير وقلت بدوري بكل الحرارة الممكنة :

– وأنت يا سيدتي ، كيف حالك ؟

وتقدمتنا متمتمة :

– على ما يرام ، ولكن لم أعد كما كنت .

وبالفعل رأيتها تمشي بصعوبة جارة قدميها في خفيها اللباديين الغليظين . وعندما وصلنا الى الصالون، اشارت الى ديوان وأريكتين مجللة بساتان بنفسجي، ودعتنا الى الجلوس :

– اجلس ، يا أستاذ .

فجلست وألقيت نظرة خاطفة الى الأثاث الجديد الذي ما يزال يلمع ويقدح شرراً ، المنجر من خشب بنفسجي اللون مائل الى السواد باستثناء القوائم المنجرة من قيقب ابيض . وقلت :

– ما اجمله من صالون !

– لقد اشتريناه بالتقسيط ، ولم نسدد بعد كل ثمنه .

– كم حجرة لديكم ؟

– خمس ، بالاضافة الى المنافع . لكن لدينا ايضاً غرفة للخادمة مع حجرة تواليت .

– ألديكم خادمة ؟

– اجل ، فتاة صغيرة اتيت بها من منطقتي . لقد ذهبت لتأتي بالحليب.

وأشرت ، في احدى الزوايا ، الى عين التلفاز العمياء الكبيرة الرمادية :
— أتحبون التلفزيون ؟
— اواه ! اجل . عند المساء ننقله الى هنا . لدينا جيران يأتون ليشاهدوا معنا البرامج . اكثر ما احبه الموسيقى الخفيفة .
كانت تكلمني من أريكتها التي جلست عليها باستقامة ، في وضع يفضح اصلها الفلاحي . واضافت :
— لكننا لا نبقى دوماً في البيت مساء . فأحيانا نذهب الى السينما . هناك سينما قريبة منا ، تحتنا بالضبط . تصور اننا شاهدنا البارحة فيلماً غريباً ، من تلك التي تظهر عالم المستقبل .
— فيلم عن العلم المتخيل ؟
— اجل ، عن العلم المتخيل . انني لم احبه كثيراً .. لقد اخافني . ما رأيك يا استاذ ، هل صحيح ان مسوخاً قادمة من كواكب اخرى قد تغزونا ذات يوم وتبيدنا جميعاً ؟
— من يدري ؟ هذا غير محتمل .
وفجأة هتفت :
— قهوة ، هل تأخذ قهوة يا استاذ ؟
فاحتجت بابا :
— لمَ تدعينه استاذاً ؟ ادعيه فرانشيسكو وخاطبيه بلا كلفة .
— مرة اخرى ، من الجائز . اما اليوم فصعب عليّ ، لأنني لم أشاهده منذ زمن طويل . اذن ، قهوة !
— كلا ، شكراً .
— صنعها لا يكلف مشقة ، انت تعرف .
— شكراً ، كلا .
ولزمت الصمت لحظة ، وهي تحدق فيّ بإعجاب . ثم قالت وهي تبتسم لبابا :

ـ أتعرفين ، لا أجده قد تغير البتة ، الاستاذ ! لقي بقي كما كان .

وسألت حتى أغيّر الموضوع :

ـ وزوجك ؟

ـ في المخزن .

ـ اي مخزن ؟

ـ المخزن الذي اشترته لنا بابا مع هذه الشقة .

ـ أي نوع من المخازن هو ؟ أمخزن ثمار وخضار ؟

ـ كلا ، لقد بدلناه . فالمنزل قد هـــدم . ولدينا الآن مخزن للآلات الكهربائية .

ـ وهل تسير الأعمال جيداً ؟

ـ بين بين .. فهناك المزاحمة بالطبع !

ـ كان زوجك يفضل بلا ريب تجارة الثمار والخضار ؟

ـ اجل ، كان يفضل هذه التجارة . هذا طبيعي ، طالما انه كان بستانياً مثل أبيه وجده .

ـ أهو وحده في المخزن ؟

ـ كلا ، لديه مستخدم ، فتى كسول من الطراز الأول . والواقــــع انه لا يبقى ، هو ، في المخزن اكثر من ساعة او ساعتين وسطياً في اليوم . ايه ! انه لم يعد كما كان في الماضي ! ان مكانه المفضل ليس المخزن ، بل الحانة .

ـ أيشرب ؟

ـ أيشرب فقط ! ليته ! مثل بالوعة !

ولم استطع منع نفسي من تصور تاجر الخضار السابق يخرج مصبــــاحاً كهربائياً جديداً من مغلفه ويجربه ، قبل ان يبيعــــه ، على فيشة موصولة بالمنضدة ، ومن مقارنة الثمار اللحمية ، المغذية ، المتنوعة ، التي كان يبيعهـا فيما سلف من الأيام ، مع المصابيح الحالية ، المتشابهة جميعها ، المصنوعة بالجملة ، المكتوب بأحرف بيض على بلورها عدد الكيلوواطات . وسألت :

– أهو مخزن كبير ؟

– لا بأس به ، أجل ، كبير بالأحرى !

– ألا تبيعون سوى مصابيح كهربائية ؟

– اواه ! كلا : من كل شيء قليلاً. كل ما له علاقة بالكهرباء : طباخات، مكاوٍ ، مصابيح ..

واستدارت نحو بابا وأضافت مبتسمة :

– أتعرفين ، انني أتعرف الاستاذ من أسئلته . والله ، انه لم يتغير ! في الماضي ايضاً لم يكن يكف عن طرح الأسئلة . كان يريد ان يعرف كل شيء. أذكر مرة كيف بقي يستجوبني مدة ساعة من الزمن ليعرف كيف يبني كوخاً في مدينةالتنك بلا ترخيص. كان يريد ان يعرف كل شيء . عدد القرميدات، والصفيح المتاوج ، والعضادات ، وكمية الكلس . ذلك اننا كنا نسكن في ذلك الوقت ، أتعرفين ، في حي غوردياني . أنت لا تستطيعين ان تتذكري ذلك ، لأنك كنت صغيرة جداً . كان يصدع رأسي بأسئلته الى حد انني قلت له في النهاية : « بدلاً من ان تستجوبني بهذا القدر ، اجعلني ، أنت الصحفي الذي يعرف الكثير من الناس « اجعلني أملك بيتاً ، بيتاً حقيقياً ، ولو بغرفة واحدة » . كانت كورا حاضرة فغضبت وحظرت عليّ ان اطلب منه شيئاً . كانت تلك آخر مرة رأيناه فيها ، وقد حسبت انه لم يعد يزورنا لأنه انزعج . لكن كورا شرحت لي انه يسافر كثيراً وانه لا يمر بروما إلا مروراً . حسناً ، انت ترى الآن ، يا استاذ ، انه باتت لنا شقة ! جميلة وكبيرة ، بفضل كورا .

فقلت :

– ان كورا بنت طيبة !

فأجابت وهي تحدجني بابتسامة ساذجة وساخرة بعض الشيء :

– اجل ، لا بد من الاعتراف لها بذلك ، انها حقاً بنت طيبة .

وبدرت عن بابا حركة خاصة بها ، عفوية وخارجية تماماً : فقد انقضت على جدتها وقبّلتها بقوة هائلة :

– وحفيدتك ما رأيك بها ؟ أليست هي الاخرى طيبة ؟

– جميلة وطيبة .. لكن إلزمي الهدوء ، فأنت تفسدين تسريحتي .

– تصور ، فرانشيسكو ، ان جدتي تذهب الى الحلاق مرة في الاسبوع، لتسرح شعرها وتكويه وتصلح صباغه . مثل بنت في العشرين !

فسألت :

– هل تأتي بابا لزيارتكم كثيراً ؟

– أجل ، مرتين على الاقل في الاسبوع .

– وماذا تفعل عندما تأتي الى هنا ؟

– هأنتذا قد عدت الى أسئلتك ... انها تفعل ما تفعله كل حفيدة لدى جدتها . انها تظل بصحبتي ، ونشاهد التلفزيون او تخرج معي لشراء بعض الحاجات .

– وكورا ؟

– كورا ... انني أراها قليلاً . انها عطوف ، بنت طيبة محبة ، لكنها كثيرة الأشغال .

كانت بابا تنظر تارة الى جدتها وطوراً إلي ، بعُجب بارد ومغيظ . ثم قالت :

– بالمناسبة يا جدتي ، هوذا الشيك .

ونقبت في جيب سترتها ، وأخرجت منه مغلفاً ناولته للعجوز التي اخذته قائلة :

– كورا دقيقة في مواعيدها فعلاً : انها لا تغفل ابداً عن اليوم الذي ينبغي عليها ان ترسل لي فيه شهريتي .

وأضافت بابا :

– رجتني ماما ان اقول لك انها ستأتي في الاسبوع القادم لتأخذك في

السيارة لمشاهدة منزل سيرمونيتا .

فهتفت العجوز :

– لا مجال للشك ، ان كورا بنت طيبة ! لقـــد أسمعتها انني أحب لو يكون لي منزل صغير في الريف كمصيف ، عندما يكون الطقس شديدالحرارة في روما . وها هي ذي تقدمه لي . انها بنت طيبة ، هذا أمر لا شك فيه !

وكررت عدة مرات إطراءها لكورا كلازمة ، لكن بجـرس هازىء ، ثم التفتت نحو بابا :

– لمَ لا تخلعين هذه السترة الغليظة؟ الجو هنا ليس بارداً. سترتاحين اكثر.

فأجابت بابا وهي تنهض :

– لم أخلعها لأنه ينبغي ان نذهب .

– لم تبقي اليوم طويلاً مع انك تمكثين عدة فترة أطول .

– اجل ، لكن لدينا اليوم عمل .

– انتظري على الأقل عودة جدك ، فسيكون هنا خلال لحظات .

– اين ذهب ؟

– ايه ! اين تريد ان يكون قد ذهب ، يا أستاذ ؟ الى الحافة كعادته .

– اعذريني يا جدتي ، لكن فرانشيسكو لديه عمل. انه سيرى جدي في مرة قادمة .

ولم تلح العجوز ، انها نهضت وتقدمتناالى الدهليز جارة قدميها في خفيها. ومن غير ان تستدير قالت لي :

– وانت يا استاذ ، هل ستبقى في روما ام ستعاود السفر ؟

– اعتقد انني سأسافر .

– والى اين ؟

– لست أدري بعد تماماً .

– انك لمحظوظ إذ تسافر كثيراً ! هل تعرف ما آسف عليه اكثر من اي شيء آخر ؟

– ما هو ؟

– عدم قدرتي على السفر الى روسيا ، لأرى كيف يعيشون هناك ، وما اذا كان صحيحاً انهم يعيشون خيراً منا ؛ لكن القطار فاتني ، والعمر تقدم بي . هل ذهبت الى روسيا ، يا أستاذ ؟

– نعم ، ذهبت اليها .

– وكيف يعيش الروس ؟ أصحيح ان حالتهم افضل من حالتنا ؟

– انهم يعيشون جيداً ، لكن ليس خيراً منك ، يا آنييس .

– نعم ، اننا نعيش جيداً ، حمداً لله ! لكن مقابل كل أسرة مثلنا تعيش جيداً ، كم هو عدد الذين يقاسون الأمرّين ؟ كلا ، لم يسعد جميع الناس ببنت مثل كورا عرفت كيف ترتفع منطلقة من نقطة الصفر .

– هذا صحيح ، ليس جميع الناس محظوظين ببنت مثل كورا .

– لكن يا استاذ ، هل في روسيا مخازن كثيرة ؟

– بالطبع ، لكنها ملك الدولة .

– مثل سككنا الحديدية ، بمختصر الكلام ؟

– اذا شئت .

– لكن هل صحيح انه يمكن للمرء في المخازن ان يأخذ ما يشاء ويذهب من دون ان يدفع ؟

– قولي لي يا آنييس ، هل تسافرين مجاناً في سككنا الحديدية ؟

– اذن فالناس هناك يدفعون ، كما هي الحال عندنا هنا ؟

– بالتأكيد .

– اذن ، هم ايضاً ، لديهم فلوس ؟

– بالطبع .

– أتعرف ما رأيي ، انا ؟ اذا كانت لديهم فلوس ، فهذا معناه ان لديهم بالتأكيد كل الباقي .

– اي باقٍ ؟

– ايه ! كل الإزعاجات ، كا الحال هنا ، عندنا !

– جدتي ، ستكلمين فرانشيسكو في مرة اخرى . أعدك بأن آتي به في الاسبوع القادم .

– على كل حال يا أستاذ ، سعيد هو من يستطيع ان يسافر ويرى الأشياء بعينيه .

– الى اللقاء ، يا جدتي .

وتعانقت المرأتان ، وكررتا العناق على قرص الدرج . وفي تلك اللحظة بالضبط توقف المصعد عند الطابق وانفتحت الابواب وظهر رجل هرم في زي داكن اللون وعلى رأسه قبعة سوداء مالت حافتها على عينيه : جد بابا .

وجدته هو الآخر قد تغير مثل زوجته تماماً فقد كان له في الماضي ، شأن آنييس رأس ناووس روماني، مثل تلك التي تشاهد لدى فلاحي اللاتيوم. لكنه ، شأنه شأن آنييس ، تبدل وعدل الشحم تناسب تقاطيعه التي لم يعد فيهاً شيء روماني ، وعلى الأقل شيء من الرومانيين الأقدمين . فعلى إثر تضخم خديه بات أنفه الذي كان في الاصل أقنى ، بات يبدو وكأنه صغر وأمسى أشبه بكلابة من اللحم اللامع المائل الى اللون البنفسجي . وتحت شاربيه المتهدلين يبدو الفم ملتوياً كما لو انه مكشر استياء . وعيناه ، اللتان كانتا فيما سلف من الأيام زرقاوين وبسيطتين كعينين زوجته ، يبدوان الآن مطفأتين تحت الاجفان المتورمة . لقد تركته جافاً ، أسمر ، موسوماً ببعض غضون بارزة ، فاذا بي أجده متورداً ، ملساً ، وعلى وجنتيه كرتان من الدهن تخددهما أوعية شعرية بنفسجية .

وما كاد يرانا حتى همّ بأن يدير لنا ظهرة ليدخل الى المصعد من جديد . لكن زوجته اوقفته وهي تبتسم ابتسامة مداهنة :

– انطونيو ، ألا ترى اذن من هنا ؟

– من ؟

كان الصوت خافتاً ، متردداً ، وفي الوقت نفسه عدائياً الى حد مثير للفضول . ولاحظت النظرة ، كانت مترنحة مثل لهبة شمعة تنوس من الريح . وتذكرت ما قالته آنبيس عن عادات زوجها وفهمت انه ثمل . وألحّت زوجته :

– انه الاستاذ ، زوج كورا . ألم تتعرفه ؟

– الاستاذ ؟ كلا ، هذا مستحيل .

– ولماذا ؟

– لأنه يسافر ، يسافر ، يسافر ، ولا نراه ابداً .

فقهقهت بابا . وقالت العجوز المتسامحة والباسمة :

– لكنه هو نفسه ، انظر اليه ، انه الاستاذ ، صهرك .

– انا لا اعرفه .. وليس لي صهر .

– آه ! ليس لك صهر ؟ رويدك ! بلى ، لك صهر ، وهذا هو .

– لكنني لم أره قط !

– من حسن الحظ ان لدينا صورة عرس كورا في الصالون . سأريك اياها . انها تمثله هو وكورا ونحن الاثنين .

– اي عرس ؟

– آه ! أأنت الآن لا تتعرف اهلك ؟

– ليس لي اهل . ولست قريباً لأحد .

– وغابرييلا ، حفيدتك ، انت تتعرفها على الأقل ؟

– لم أرها قط .

– وأنا ، ألا تتعرفني ؟ ألا يقول لك وجهي شيئاً ؟

– لا شيء ، لا شيء ، لا شيء !

– بيد انني زوجتك .

– ليس لي زوجة ، ليس لي احد .

في تلك اللحظة ألقت الينا آنبيس بنظرة تواطؤ وقالت :

– ليس لك احد ، أحقاً ؟ حسناً ! لك ابنة اسمها كورا ، وزوجة اسمها آنييس ، وحفيدة اسمها غابرييلا ، وصهر اسمه فرانشيسكو ، وانت ، اسمك انطونيو ؟

– انطونيو ؟ من هذا ؟

– أرأيتما !

واستدارت آنييس نحونا وقد ارتسمت على أساريرها معالم انتصارمتواضع وكأنها حققت نجاحاً تاماً في تجربة ما ، وقالت :

– أرأيتما ، عندما يشرب ، لا ينسى الآخرين فحسب ، بل ينسى ايضاً نفسه ، ثم يا لعناده !

والتفتت من جديد الى زوجها :

– اذا لم تكن انطونيو ، فمن انت ؟

– أنا من أنا ، هذا لا يعنيك .

وعلى إثر هـــذه الكلمات أدار لنا ظهره ودلف الى المصعد : شيخ هرم محني الظهر ، مقوس الساقين ، متدلي الذراعين الى أمام ، فلاح حقيقي بالرغم من هندامه الصوفي الداكن بدلاً من الكتان او المخمل المضلع، بالرغم من حذائه الرفيع المدبب الشبيه بأحذية الغلمان الذين رأيتهم لتوي حول علبة الموسيقى بدلاً من الجزمة الغليظة المزبثرة بالمسامير . دخل الى المصعد، واستدار، ولبث هنيهة من الزمن بـلا حراك ، واقفاً بكل استقامة في الحجرة مثل مومياء في ناووسها . ثم أغلق الأبواب ، وشرع المصعـــد يهبط ، وعبر الزجاج شاهدنا اولاً اختفاء ساقيه ثم جذعه ثم وجهه واخيراً قبعته .

وقالت لي العجوز آنذاك وهي تبتسم :

– أرأيت ، يا استـــاذ ؟ انه يشرب ولا يعود يتعرف احـــداً ، ولا حتى ذاته .

– هذه هي مساوىء الخمر .

– اجل انه الخمر . الكنني لست واثقة من انه لا يفعل ذلك عمداً . إن له ايامه . ومن الممكن اليوم ، على سبيل المثال ، الا يكون قد شرب ، وان يكون قد مثّل علينا .

– لماذا ؟

– من يدري ؟ هكذا ، كي يتسلى ! أتعرفين ، يا غابرييلا ، لقد وقف قبل بضعة ايام امام مرآة الصالون وراح يخاطب نفسه : « وانت ، من انت؟ من يعرفك ، ايها الصعلوك ، من رآك قط ، ايها القرد الخبيث .. »

وقهقهت بابا . وكانت الجدة تبتسم من جهتها . ثم تقدمت بابا الى المصعد وضغطت على الزر . ولبثنا ثلاثتنا بلا حراك صامتين ، العجوز على العتبة ، وبابا وأنا على قرص الدرج ، مثل ثلاثة ممثلين انتهوا لتوّهم من التمثيل ووقفوا بانتظار إسدال الستار الذي حال عطب ما دون إسداله . واستغرق المصعد مدة طويلة لمعاودة ارتقاء الطوابق الثانية ، واخيراً توقف امامنا ، فاستأذنا انا وبابا من الجدة ودلفنا الى الحجرة .

شرع المصعد يهبط . كانت بابا ، كما اثناء صعودنا ، تقف في مواجهتي ، ومن جديد راح جسمها يتأرجح تأرجحاً خفيفاً الى الأمام والى الوراء ، وأحسست مرة اخرى بثدييها ينسحقان بحركة تناوبية منتظمة على صدري . واخيراً قالت لي بابا :

– اشكريني ، فقد كنت لطيفة ، أليس كذلك ؟

– بأي معنى ؟

– اختصرت الزيارة لأنني شعرت بأنها لم تكن محببة اليك .

– أتبقين مدة اطول ، عادة ؟

– ابقى عادة طوال فترة بعد الظهر .

الاحد ٢٢ تشرين الثاني

أعدت قراءة صفحات يومياتي التي سردت فيها تفاصيل زيارتي لأهل كورا. وشعرت بالحاجة الى تنبيه القارىء ، كما فعلت آنفاً ، الى انني أجريت تعديلاً ، هنا أيضاً ، في صحة الوقائع . لكن التعديل ، في هذه المرة ، لم يجر غصباً عني كما حدث عندما اختلقت وجود مسرحية سوفوكل «اوديب ملكاً» على طاولة سريري ، وإنما كان واعياً ، إرادياً ، حتى ولو كانت قد أملته أسباب ليست واضحة بما فيه الكفاية . ما معنى هذا ؟ هذا معناه ، على ما أعتقد ، أن الأسباب التي تجعلني أشعر من حين الى آخر بالحاجة الى تغيير الوقائع اثناء سردي إياها في يومياتي هي أسباب متعددة ومتنوعة تبعاً لطبيعة الوقائع بالذات ولنوع العلاقة القائمة بيني وبينها . وعلى هذا فإنني في بعض الحالات أختصر وأموه بل أحذف ، وفي حالات اخرى أفصّل وأزيد وأعيد البناء من مخيلتي .

لنأخذ ، على سبيل المثال ، زيارتي لأهل كورا . فقد نقلت بأمانة او بشبه أمانة (لعلي بدلت بعض الكلمات او أغفلت بعض العبارات) تسعة أعشار الزيارة ، اي حتى اللحظة التي ظهر فيها الجد في حجرة المصعد لكنني اختلقت او بالأحرى زدت بطريقتي الخاصة في تفاصيل الحادث الذي تلا ذلك ، اي عندما اكد الشيخ بأنه لا يعرفنا والتجأ الى المصعد وعاود النزول فيه الى الطابق الارضي .

وفي الواقع ، هكذا جرت الأشياء : خرج الجد من المصعد ، وكان يبدو عليه مظهر رجل ثمل ، إذ كان يترنح ، بل إنه تعثر ، وحيانا على نحو مبهم وكأنه لا يعرفنا ، ثم أسرع يدخل الى بيته . فاعتذرت العجوز آنذاك عن زوجها قائلة انه لا يتعرف احداً عندما يكون ثملاً . وودعناها أنا وبابا وانصرفنا .

بديهي انني عندما أطلت في المشهد وكملته اثناء سردي إياه في يومياتي ، قد حورت الحقيقة . وبالفعل لم يجيء في اليوميات انه لم يتعرفنا فحسب ، بل ورد ايضاً انه صرح بذلك وأكده وأعاد توكيده . وبعبارة اخرى ، إن موقفه ليس غامضاً ملتبساً كما كان في الواقع ، وانما واضح وصادر عن سبق إرادة وتصميم . وفي حين ان عدم تعرف الجد إيانا هو ، على صعيد الواقع ، حدث عديم الدلالة ، وربما كان ابن الصدفة وحدها ، او نتيجة لمفعول الخمر بكل بساطة ، يكتسب رفض الجد تعرّفنا ، في يومياتي ، دلالة خاصة ويوجب إصدار حكم .

وباختصار أقول انه اذا لم يكن الجد قد تعرفنا في يومياتي ، فهذا ليس بسبب سكره بقدر ما هو بسبب الرفاه الذي يدين به لمال كورا ، المال الذي « يتحسس » مصدره (حسب تعبير بابا) والذي جعله في النهاية غريباً عن ذاته وعن الآخرين . اذن ففي يومياتي تأويل للواقع ، تصحيح ، إعادة بناء ، تكميل له ، تبعاً لفكرتي أو بالأحرى لعقيدتي . فمال كورا ، بموجب هذه الفكرة ، لا يمكن ، بالنظر الى الطريقة التي كسب بها ، إلا ان يؤدي الى الغربة عن الذات والى اللاواقعية . وعلى هذا ، وعندما أختلق ان الشيخ لم يتعرفنا ، فإنني لا أختلق شيئاً في الواقع وانما أكتفي بتطويل اتجاه موجود ، وبتطوير بذرة سابقة الوجود. ان الحقيقة التي أتحسسها وأعيد بناءها لم يطرأ عليها في الواقع من تعديل .

لكن الأمور حدثت ، على صعيد الواقع ايضاً ، بصورة مغايرة ، ويبقى حادث رفض التعرف ، الذي سيكون له أثر مؤكد في الرواية ، اختلافاً صرفاً . فصحيح ان المال المكتسب على نحو مشروع مئة بالمئة يفسد المرء عادة ويجعله غريباً عن ذاته وعن الآخرين (غالباً ما لحظت ذلك ولدي عليه براهين لا تحصى). لكن ليس هذا بقاعدة مطلقة ، وحتى لو كان قاعدة ، فإن جد بابا ليس ، على كل الاحوال ، استثناء لهذه القاعدة .

وبعبارة أخرى ، من الممكن تماماً ان يكون جد بابا غير مبالٍ بأن

تكون كورا قد كسبت مالها بفضل مـنزل المواعيد . فهو يشرب لأنه يحب الخمرة ، ويعرف كل شيء عن كورا أو بالأحرى يتحسسه ، لكنه لا يأبه به ، وهذا لا يمنعه من ان يحب كورا كما يحب الأب ابنته . إن ضميره مرتاح، بل لعله يستصوب تجارة ابنته .

أما انا فلا أعلم ، لا أعلم شيئاً البتـة عن والد كورا . فأنا قد رأيته بمجرد رؤية فقط : بقعة لونية ، جرم جسيم ، شيء مرّ خـلال هنيهة من الزمن في حقل رؤيتي ثم اختفى بسرعة .

ويمكن، بالطبـع، ان يندرج مشهد رفض التعرف دونما ضرر في الرواية، بل بشيء من الفائدة. لكني أشك في أنني سأدرجه. وليس ذلك لأنه مختلف، بل لأن ما دفعني الى اختلاقه هو شيء مشوب، مزيف ، وبكلمة واحدة غير أصيل ، شيء أتمنى بالضبط ان أتحرر منه بكتابتي يومياتي .

الثلاثاء ٢٤ تشرين الثاني

لم تأت بابا هذه الليلة لتقول لي « مساء الخير » ولم أسمعها تدخل . ولقد شعرت في حينه ببعض الخيبة ، ثم نسيتها ورقدت : لكني لم أنم جيـــداً ، وعندما استيقظت هذا الصباح في حوالي الساعة السابعة ضممت ، من غير ان أفكر تقريباً ، الروب دي شامبر وخرجت لأطرق باب بابا .

قرعت ولم أتلق من جواب . فانتظرت قليلاً ثم أدرت القبضة ودخلت . كانت الغرفة تعج بالضياء ، مرتبة ، والسرير على حاله لم يمس : ان بابا لم تنم في البيت .

عدت الى حجرة عملي ، ولبست ثيابي ، وتناولت طعـــام إفطاري ، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما جلست امام مكتبي . وفي تلك اللحظة ، خيل إلي انني سمعت باب المدخل يفتح ويغلق ، ثم وقع خطى في

المشى والغرفة الملاصقة . وتابعت العمل حتى حوالي الساعة التاسعة والنصف، وفجأة ، ومن غير ان أفكر ، عدت من جديد نحو باب بابا .

كان الباب منفرجاً ، فدخلت من غير أن أطرقه . في هذه المرة رأيتها من النظرة الاولى . كانت نائمة على الديوان ، بثيابها ، اي بالكنزة والبنطال ، مستلقية على ظهرها وساقاها متباعدتان ، الواحدة تجاه الحائط والثانية متدلية حتى الارض تقريباً . كانت تثني ذراعها امام عينيها كأنها تحتمي من الضوء . لكنها كانت قد فتحت ، حتى تنام براحة ، سحاب بنطالها عند خاصرتها . وكان في وسعي ان ارى ، من خلال هذه الفتحة ، غشاء «سليبها» الأزرق الشاحب ، المدعوك والشفاف . وذكرني ذلك بمشهد الإغراء المتخيل الذي سردته ، قبل ايام ، في يومياتي . وكان الكلب ، كالمعتاد ، راقداً عند أسفل السرير ، على السجادة . وقد تعرفني ، لكنه اكتفى برفع رأسه لينظر إلي ، وبتحريك ذنبه من غير ان يهر .

اقتربت على رؤوس اصابعي . وجعلني وضع بابا ، الوضع الذي يذكر بالسقوط المفاجىء الصاعق في السبات ، كما لو انها انسحقت على الديوان بمجرد عودتها الى البيت ، فبقيت حيث سقطت مكتفية بفتح سحاب بنطالها ، من غير ان تجد القوة الكافية لخلع ثيابها والتمدد على السرير ، اقول جعلني هذا الوضع أفكر بأن بابا أمضت ليلتها ساهرة مع رجل . وكانت هذه الفكرة أقرب الى فكرة عاشق تعتلج في صدره الشكوك منها الى فكرة أب قلق . وبالفعل ، أحسست على الفور بلسعة غيرة شرسة ولم استطع إلا ان اقول لنفسي : « لقد احترمتها ، ودخلت في لعبتها ، وهي ذي النتيجة » .

وانحنيت متأملاً فمها الكبير المتلوي على هواه : كانت شفتاها منفرجتين ، الشفة العليا مشدودة الى الاعلى قليلا يظللها زغب خفيف داكن اللون،والسفلى أغلظ حجماً ، منثنية بعض الشيء على ذقنها، وكلتاهما لحيمتان ، وكأنهما ممددتان بحرارة النفس ، منتفختان ، منفتحتان على شهوة لاشعورية . وتبينت انني أنحني رويداً رويداً ، مدفوعاً برغبة لا تقاوم ، نحو هذا الفم ، إن لم

يكن لأقبله ، فعلى الاقل لأتنشق الزفير الخارج منه . وفي تلك اللحظة بالضبط ، تحركت بابا ، وخفضت ذراعها التي كانت تخفي وجهها ، وفتحت عينيها . ونظر كل واحد منا الى الآخر عن قرب كبير وأخيراً سألتني :

– ما كنت تفعل ؟

فأجبت وانا انتصب :

– كنت انظر اليك .

فجلست ، واغلقت سحاب بنطالها ، ثم مالت الى امام وذقنها بين يديها، وتملتني من الاسفل الى الاعلى وقالت لي بلهجة من يتكلف دوماً الاستشهاد بالأمثال :

– من الخطر النظر الى امرأة نائمة .

– لِمَ ؟

– قد تستيقظ اغراءات .

– اي اغراءات ؟

فلم تجب فوراً . وانما تثاءبت ، وعيناها شاخصتان الى السجادة ، على قدميها ، ثم قالت ببطء :

– كنت أحس بأن أوان التفاهم على وشك ان يحين . حسناً ! هذا صحيح، انت تعجبني وأنا، على ما يخيل إلي ، أعجبك ايضاً . لكننا أب وابنة وأنا حريصة كل الحرص على ان نبقى كذلك .

ومن جديد ذهلت بلهجتها ، لا المنفرة فحسب، بل ايضاً المغالية المشتطة، وكأن ما حدث لها اثناء الليل قد جعلها غير مبالية وغير حساسة تجاهي مؤقتاً . وقلت :

– سمعتك تعودين في الساعة الثامنة . أين قضيت الليل ؟

– حيث حلا لي .

وادركت انني أنزلق نحو مشهد يفتقر الى سلامة الذوق . لكني لم أستطع إمساك نفسي عن الجواب :

– اننا أب وابنـــة . حسناً . اذن فلي الحق في أن اعرف اين قضيت هذه الليلة .

وخالجني شعور بأن كلماتي ، بـدلاً من ان تصدمهـا ، تسببت لها على العكس بعض اللذة . وبالفعل ، ان توجيه اللوم اليهـا هو شكل معين من أشكال إظهار أبوتي لها . ولقد قبلت بذلك وهي تنظر إلي بمداهنة من بين أجفانها التي ورمها النعاس :

– معك حق . على رسلك ! لقد قضيت الليل مع سانتورو .

– مع سانتورو ؟

– اجل . هل تريد ان تعرف ما فعلنا ؟

فترددت ثم قالت بعناد :

– بالتأكيد .

– ذهبنا الى حفلة في فيلا خارج روما .

– اين ؟

– في ضواحي سانتا مارينيلا

– وما فعلتما في تلك الحفلة ؟

– تناولنا طعام العشاء ورقصنا .

– من كان فيها ؟

– شبان وشابات .

– متى انتهت الحفلة ؟

– حوالي الساعة الرابعة .

– المسافة لا تتطلب اكثر من ساعة من سـانتا مارينيلا الى روما . فماذا فعلتم حتى الساعة الثامنة ؟

– ألح سانتورو كثيراً حتى قبلت في النهاية بالذهاب الى بيتـه . لقد استأجره حديثاً ، وليس في شقته شيء بعد اللهم سوى أريكتين في الصالون. وقد مكثنا في هذا الصالون حتى السابعة والنصف .

بينما كانت تتكلم نهضت ، ومشت ببطء مثل دب صغير متناوم ومترنح ، وانتصبت امام الخزانة التي الى الشمال ، وتناولت فرشاة ، وراحت تسرح بكل عزم شعرها المشعث · وبعد هنيهة من الزمن أضافت بلهجة ساهية :

– ألا تريد ان تعرف ما فعلناه طوال ساعتين ونصف ، بين الخامسة والسابعة والنصف ؟

وفجأة انتابني الغضب او بالأحرى اردت ان ينتابني الغضب ، ولقد كانت مفاجأتي كبيرة إذ توصلت الى الغضب فعلاً على الفور . وقلت ، وأنا أصرف على أسناني :

– تعالي الى هنا :

فاقتربت وهي ما تزال متناومة ، وعيناها نصف مخفيتين وراء خصلة من شعرها . وحدقت فيها ، وسألتني هي من غير ان تفهم شيئاً :

– أتريد ان تقول لي شيئاً ما ؟

– خذي !

كانت الصفعة موجهة الى الخد ، لكني حرفتها في اللحظة الأخيرة ، وربما عن غير تعمد ، نحو الفم .

ولبثت ساكنة بلا حراك أمامي ، تنظر إلي بحيرة لكن من غير ان يبدو عليها انها تأثرت بالاهانة ، وكأنها تبحث عن الموقف الذي عليها ان تأخذه . ثم رفعت يدها الى خدها ولاحظت :

– لقد صفعتني .

– بالضبط .

وبعد ان حدجتني من جديد ، أدارت لي ظهرها ، وتقدمت لتقف امام المرآة ، وراحت تمشط شعرها بقوة شبه عصبية . وأخيراً ، قالت بصوت هادىء :

– ليس صحيحاً انني ذهبت الى بيت سانتورو . والواقع اننا بقينا في فريجين حتى الساعة السابعة ، في فيلا احد اصدقائنا . ثم رجعنا الى روما

ورافقني سانتورو حتى هنا ثم عاد أدراجه .

– لِمَ كذبت عليّ اذن ؟

– لأرى أثر ذلك عليك .. وكيف سيكون رد فعلك .

– اي أثر كان لذلك عليّ ، في رأيك ؟ كيف كان رد فعلي ؟

ولزمت الصمت هنيهة من الزمن ، ثم أجابت بلهجـــة ملتبسة ، ساخرة وتعليمية على نحو غير قابل للتحديد :

– أثر سيء وكان رد فعلك تقليدياً : فقـد تصرفت كأب جلف رشيق اليد . لكنك تسير على الطريق الصحيـح . فتابـع .

الخميس ٢٦ تشرين الثاني

– أكنت تعمل ؟ هل ازعجتك ؟

– كلا ، بالمرة .

– كنت اريد ان اقول لك ...

– ماذا اذن ؟

– كنت اريد ان اسألك شيئاً ما .

– تكلمي ...

– أما يزال اخوك صرافاً ؟

– اعتقد ان بلى .

– لقد ادخرت بعض المال.واريد ان تسأل اخاكعما اذا كانيستطيـع...

– يستطيـع ماذا ؟

– جميـع الناس يقولون ان الليرة ستتدهور ... عما اذا كان يستطيــع ان يضع مالي في سويسرا ...

نظرت الى كورا ملياً ، بصمت . ورحت أفكر في نفسي : هذه هــي نتيجة تلك المصالحة مع أسرتي الي تمنتها بابا من كل قلبها ، سأصبح شريك

بابا في تجارتها . ولأكسب الوقت قلت :

– كم المبلغ ؟

فأجابت من غير ان تخفي ريبتها :

– سأقوله لك فيا بعد ، عندما أعلم ان الأمر ممكن .

– ليس ممكناً .

– شرعياً ، لا . لكن أخاك يستطيع ذلك اذا شاء .

– اخي لن يفعله .

– لماذا ؟

– اكثر ما في وسعه هو إعطاؤك بعض النصائح بصدد تثمير مشروع لمدخراتك .

– انني أسألك فقط ان تستعلم عن امكانياته .

كنت أثناء ذلك قد فكرت . إن حجة لاشرعية العملية لا تقف على قدميها. فكورا تعرف بالتأكيد ان عمليات تحويل الرساميل الى سويسرا تتم بصورة عادية . وقلت في نفسي انني لا استطيع ان ارفض اداء الخدمة التي تطلبها مني إلا اذا بحت لها بالدافع الحقيقي لرفضي ، اي بالقرف الذي يوحي به إلي هذا المال . وفي هذه الحالة سيتوجب عليّ ان اتكلم عن مهنتها ، الأمر الذي سيؤدي إما الى قطيعة بيننا وإما الى تواطؤ ، وكلاهما احتمالان كريهان على قلبي . الأفضل لي ان اتظاهر بأنني كلمت أخي عن الموضوع ، ثم اقول لكورا إنه لا يهتم بمثل هذه القضايا . على كل حال ، ستكون هذه ذريعة لأزوره . فأنا لم أره منذ سبعة او ثمانية اعوام .

وهكذا اجبت كورا بأنني سأستعلم في صباح الغد ، وبالفعل اتصلت هاتفياً بباسيميليانو . إن ما من شيء يستطيع ان يعطي فكرة صحيحة عن علاقاتي مع اخي مثل محادثتنا الهاتفية ، التي أنقلها هنا بأمانة :

– آلو ، من يتكلم ؟

– انا ، فرانشيسكو .

– فرانشيسكو ، من ؟
– فرانشيسكو ، اخوك .
– عجباً ! ألم تمت اذن ؟
– كيف حالك ؟
– حسنة ، وانت ؟
– حسنة ، انا ايضاً .
– وفي البيت ، هل صحة الجميع بخير ؟
– نعم ، شكراً . وأنت ؟
– لقد افترقت عن ماتيلدا .
– آسف .
– أنا ، لا .
– وأولادك ؟
– بخير .
– انني بحاجة الى ان اكلمك .
– تكلمني ؟
– اجل .
– وما لديك لتقوله لي ؟
– سأقول لك عندما ألاقيك .
– تعال متى شئت . اليوم بالذات اذا كان ذلك يناسبك .
– في اي ساعة ؟
– تعال لنتناول القهوة .
– هل استطيع ان آتي معي ببابا ؟
– من هي بابا ؟
– ابنتي .
– كنت اجهل ان لك ابنة ...

– في الواقع انها ابنة زوجتي .
– جيء بها اذا شئت .
وهكذا ذهبنا بعد الظهر ، انا وبابا ، لتناول القهوة لدى اخي . لم يكن يقطن بعيداً عن فيلا بورغيز ، في البيت الذي كان بيت أهلنا والذي عشت فيه حتى زواجي من كورا . وعندما مررنا بالسيارة من قدام متحف بورغيز قلت لبابا :
– في هذا الحي قطنت حتى زواجي . ومن ثم لم آتِ اليه سوى مرتين او ثلاث .
– ما إحساسك وانت ترجع اليه الآن ؟
– ليس ثمة من إحساس . انني اشعر وكأنني لم اذهب اليه قط .
كان الشارع ينحدر انحداراً خفيفاً . صفان من المنازل ، صفان من الحدائق ، صفان من الدفلى، صفان من السيارات المصفوفة على طول الأرصفة، من كلا جانبي الطريق . في آخر الشارع ، بوابة الحديقة والأشجار من خلفها. ونزلنا من السيارة وخامرني عندئذ إحساس بأنني أخطأت الطريق ، لا لأن هذا الشارع لم يكن الشارع الذي قطنت فيه ، بل لأن المكان الذي قطنت فيه لم يبدُ لي انه كان هنا ولا في اي مكان آخر . وبالفعل ، ان المنزل الأبيض الحديث الطراز ، المؤلف من أربعة طوابق ، الذي قطنت فيه مدة طويلة من الزمن ، لم يعد منتصباً هناك في آخر الشارع . ففي مكانه ترتفع بناية حديثة ، لونها بلون دم الجاموس ، تعج بالنوافذ العالية الضيقة المؤطرة بالرخام الأسود . واعترف بأنه قد راودني الأمل ، للحظة من الزمن ، في ألا يكون منزل اخي قد اختفى كما لو بسحر ساحر فحسب ، بل ايضاً في ان يكون هو نفسه وعائلته قد اختفيا معه من على سطح الارض . ولم استطع إمساك نفسي عن التفكير : « لم يعد هناك من شيء او لعله لم يكن هناك من شيء قط . سوف نعدل انا وبابا عن القيام بهذه الزيارة وسنذهب للقيام بجولة في الريف » . بيد أنني عندما اقتربت من باب المدخل رأيت اللوحة

النحاسية التي تحمل اسم أخي الذي هو ايضاً اسمي . وقلت :
– أرأيت ما يحدث عندما يسافر الانسان ولا يعود يهتم بأسرته .
– ما يحدث ؟
– في اليوم الذي يقرر فيه الانسان ان يهتم بها يكتشف ، على سبيل المثال ، ان البيت الأبوي قد هدم وأنه شيد في مكانه منزل مغاير تماماً .
– كيف كان بيتك ؟
– تقريباً من نوع هذا : طراز حديث ، عتيق بعض الشيء ، حزين لكن (كما كان يقال آنذاك) بورجوازي .
– من كان يقطن فيه ؟
– أسرتنا . في الطابقين الأخيرين والداي ، وأخي مع أسرته ، وأنا . وفي الطابق الأرضي مكتب أبي .
عبرنا دهليز المدخل برخامه الأسود والأحمر واتجهنا نحو حجرة المصعد المعدنية . ثم صعدنا الى الطابق الثالث . قرع الجرس ، انتظار ، وقع خطى: انفتح الباب وقادتنا الخادمة الى صالون من طراز متنافر ، مكتظ بالأثاث والصمديات . او لعل المرايا الكبيرة ذات الانعكاسات الوردية الكئيبة ، المؤطرة بمعدن داكن اللون ، هي التي تكرر الى ما لا نهاية الدواوين والارائك المنجدة بالساتين الابيض ، والطاولات الجدارية الباروكية بزخارفها المذهبة ، والكراسي السوداء والبنفسجية التي من طراز لوي فيليب ، ومصابيح الحجر اللبني الزرقاء ، والطنافس الصينية الزرقاء والصفراء ، والأقنعة الزنجية ، والأزهار الاصطناعية تحت النواقيس البلورية ، والقفص الأخضر والأصفر مع ببغائه الحي الأصفر والأخضر . واقتربنا من الشرفة المؤطرة بالزجاج ونظرنا عبر البلور : كان بياض الأثاث الحديدي يتنافر مع بلاط الأرضية القاشاني تحت ضياء السماء الخريفية الغائمة والداكنة . وسألتني بابا :
– كيف هو اخوك ؟
– انه لمسخ !

– مسخ ؟

– اجل ، مسخ .

– وزوجته ؟

– مسخ ايضاً . لكننا لن نراها ، لأنها افترقا

– لا يبدو عليك انك تحب أفراد أسرتك .

– بالفعل ...

– لكن ماذا فعلوا لك ؟

– لا شيء .

انفتح الباب وراء ظهرنا . واستدرنا وجرى المشهد المقلق بعض الشيء كما توقعت . فقد شد أخي على يدي وربت على كتفي قائلاً :

– أنا مسرور بقدومك . دعني انظر اليك .. انت لم تتغير بالمرة .

ومن خلال انفعاله واندفاعه العفوي الذي لم يستطع مقاومته قبلني على خديّ . فتراجعت خطوة الى الوراء وأجبت :

– أنت ايضاً لم تتغير .

وسأل اخي :

– وهذه الدمية الجميلة ، من هي ؟

– انها بابا ، ابنة زوجتي .

وتصافح اخي وبابا ، ثم سألنا اخي ان نجلس ، فجلسنا ثلاثتنا تجاه النافذة المطلة على السطح .

فيما كنت انظر الى اخي تبينت ان نفرتي القديمة منه لم تتغير هي ايضاً . فقد كنت اكره سيماءه ، لأنها سيمائي ايضاً ، لكنها مشوهة علاوة على ذلك بتعبير مادي وبشهوانية اخشى ان اكتشفها على وجهي عندما اتفرس فيه كل صباح في المرآة . كانت تقاطيعنا كلينا في الماضي منتظمة ومنسجمة . لكن الجزء الأعلى من وجه اخي قد بدا لي، بعد مرّ السنين ، وكأنه ضاق وانكمش بينما تثاقل الجزء السفلي واتسع. فقد كان الجبين يبدو أوطأ واضيق، والعينان

اصفر ، والانف اقصر . وبالمقابل زاد بروز الفم الذي اصبح شبيهاً بفم القرد، ونما الفكان من كثرة المضغ . وكان في وجهه المائل الى الحمرة شيء متورم ومتشنج ، شيء لا يوحي بالصحة، بل بانتفاخ دموي غير صحي . ولاحظت بنفور انه يرتدي ثيابه على طريقة حديثي النعمة : سترة من نسيج أزغب بلون التبغ ، وبنطال من الفلانيلا الرمادية ، وصباط من جلد الأيل . وصلب اخي ساقيه وقال لي :

- حسناً ! ما رأيك ؟ لا بد انك لاحظت تغييرات هنا، اليس كذلك ؟

- بلى ، بدءاً من البيت .

- لقد هدمت القديم وشدت غيره في المكان نفسه لكن بصورة اكثر عقلانية . ففي حين كهذا حيث ارتفعت اسعار اراضي البناء الى مستويات اسطورية، كان منزلنا القديم يمثل خسارة مضحكة . وبدلاً من الشقق الثلاثة، توجد الآن اثنتا عشرة شقة .

- كنت اجهل كل شيء عن هذا الهدم .

- انت لم تعط قط اشارة على انك حي . لكن حدثت ايضاً تهديمات أخرى . فقد هدمت بيتي . وافترقت عن ماتيلدا .

- قلت لي ذلك هذا الصباح .

قد يبدو لك غريباً ان اكون قد افترقت بعد عشرين عاماً ولم أتزوج . لكنني ما عدت أطيق الحياة مع ماتيلدا .

- لأنها ساحرة ، سيئة الخلق ، ممسوسة ، هادئة ، معسولة ظاهرياً ، لكنها ، تحت هذه النعومة ، غيورة الى حد الجنون . كانت تتصل بي هاتفياً كل نصف ساعة لتتأكد من وجودي في المكتب . بل كانت ، هذا لا يصدق، تكتب لي هي نفسها رسائل مغفلة عن غرامياتي المزعومة حتى تكون لها ذريعة لصدع رأسي بفصول لا تطاق . وفي النهاية قلت لها ان تشد الرحال. وحصلت مني على شقة ، واحتفظت بالأولاد ، وطلبت كمية من المال، لكنني

على الأقل لم أعد أراها.. يا لها من ساحرة لعينة ، نكداء ، شريرة ، مهذار ، سوقية ، خائنة !

بهذه الشراسة شتم امرأته ، بل أكاد اقول : بهذه المنهجية . وأضاف :

– كانت حياتي معها قد أصبحت جحيماً . ولا سيا بدءاً من اللحظة التي اكتشفت فيها علاقتي مع بوبي .

– من هي بوبي ؟

– المرأة التي أعيش معها الآن . سوف تراها خلال لحظات .

وخيمت لحظة صمت . وفجأة ، وبصوت أجش ، صاح الببغاء من قفصه : «حصيرة» . فقالت بابا :

– غريب ، لعل هذا الببغاء كان يخص منجداً ؟

– لمَ : منجد ؟

– لأنه يصيح «حصيرة» .

– انه لا يصيح «حصيرة» ، وانما «حقيرة» ، لكنه لما كان أبله فهو يسيء اللفظ .

– من علمه هذه الكلمة ؟

– بوبي ، بالطبع .

وأضاف اخي فجأة وهو يلتفت نحوي :

– قل لي الحقيقة ، ألا تجدني قد سمنت قليلاً ؟

– كلا ، بالمرة .

– بلى ، أعرف انني سمنت . انها غلطة بوبي التي تحشوني بالطعام . لكن هل سمنت كثيراً ؟ او قليلاً فقط ؟

– الحق انني لا أعرف ..

– لنستمع الى رأي بابا التي هي امرأة . هل بدوت لك كثير الشحم ، أنعم ام لا ؟

فألقت بابا على أخي نظرة متناومة :

ـ لا أرى ما دخلي في الأمر .

ـ انت ابنة أخي ، وأنا عمك . وهناك أشيـاء يمكن قولها ضمن الأسرة الواحدة . إذن ، في رأيك ، أسمنت أم لا ؟

ـ لا أعرف كيف كنت في السابق . لكن بالنسبة الى فرانشيسكو ، سأقول ان بلى .

ـ أرأيت ! ان فرحتي بالخلاص من ماتيلدا هـي التي جعلتني بوجه خاص أسمن . تلك الساحرة اللعينة ، البلهاء ، المقرفة ، المتزمتة ، المرائية ، الكاذبة الورع !

لقد صب أخي من جديد كل ضغينته المكتومة المتأخره على زوجته . ثم تابع كلامه مخاطباً بابا :

ـ وأنت ، ماذا تفعلين يا دمية ؟

ـ اسمي بابا وانا لست بدمية .

ـ آه ! نعم ، هذا صحيح بابا .. أعذريني. لم تنزعجي ، على الأقل ؟

ـ كلا ، أنزعج . انني أدرس في الجامعة .

ـ ماذا تدرسين ؟

ـ إجازة في الآداب .

ـ مرحى ، مرحى يا بابا !

ومال أخي ، الأحمر والمتشنج ، خارج أريكته وربت بلطف وعطف على خد بابا .. وترددت اليد الغليظة الكثيفة الشعر ، القصيرة الأصابع ، المربعة الأظافر ، المشدود معصمها بسوار ساعـــة ضخمة ذهبي ، ترددت في الهواء قليلاً بعد الضربة الخفيفة ، ثم رسمت حركة مداعبة. وانتظرت بابا، مستقيمة ساكنة ، ان تبتعد اليد عن خدها. وتهالك اخي من جديد بثقل على أريكته، وقال متنهداً إذ سمع الباب يفتح :

ـ هي ذي بوبي ، اي ايزابيلا .

ووقفنا . كانت بوبي طويلة القامة ، بالغة النحافة، لكن صدرها كان مختل التناسب ، ضخماً ، يتقدم أفقياً تحت نسيج البلوزة الرقيق ، وكان رأسها أشبه برأس طير جاثم فوق عنق طويلة رفيعة ، ذا عينين مستديرتين وأنف كبير مدبب .

– هيا ، قبليها ، انها أختي وابنته .

فأطاعت بوبي بوداعـــة متكلفة . ثم عاودنا الجلوس ، وقدمت لنا بوبي القهوة على طاولة متحركة دفعتها امامها لما دخلت .

– كم قطعة من السكر ؟... بدون سكر ، أليس كذلك ؟... أقطعة أم قطعتان ...

وانتقلت فناجين القهوة من يدها النحيفة الضامرة الى ايدينا . كان حذاؤها عالي الكعب كثيراً وكانت تمشي بخطى بطيئة ، متشربكة في تنورتها الضيقة . وأمام هذا الصدر الطافح الجاثم على هذا الجسم الطويل الضامر تراءت في مخيلتي صورة القرعيات الضخمة الراقدة على التراب في البساتين، معلقة بأسوق طويلة رفيعة . وأخيراً جلست على مسند أريكة أخي وسألتني :

– أنتم تعملون في الصحافة ، أليس كذلك ؟

– خاطبيه بضمير المفرد ، يا بوبي ، هيا !

– انت صحفي ؟

– أجل .

– قال لي ماكس إنك زرت عدداً كبيراً من البلدان . السفر ، ما أجمله من حلم !

كان لصوتها جرس ناعم ، مختلج ، متهدج ، دافىء ، هذا بعض الشيء . وأضافت وهي تطوق بذراعها عنق اخي :

– سوف نذهب الى نيويورك ، أتعدني ؟

ثم وجهت خطابها الي :

– أود من كل قلبي ان نقضي شهر العسل في اميركا .

ــ أستتزوجان ؟

ــ في أقرب وقت ممكن فور حصول ماكس على إلغاء زواجه .

وقال أخي :

ــ بانتظـــار ذلك ، اذهبي لتأتيني بغليوني . لا بد انني تركتـــه في غرفة النوم .

وبكل طاعة نهضت النعامة وخرجت بخطى صغيرة على ساقيها الطويلتين الضامرتين ، وصدرها الأفقي يهتز . ومكث اخي بلا كلام ، ثم قال بصوت حيادي وهو يحدق فيّ :

ــ انها في الخامسة والعشرين .

ــ آه ! لا يبدو عليها ذلك ، لقد خيل إليّ أنها أصغر ..

ــ كانت عارضة أزياء . لكن اختصاصها الحقيقي هو الطهي . سأدعوكما ، وستريان ما أروع الأطباق التي تعدها !

ــ لقد حزرت ، من طريقة مشيها ، انها كانت عارضة أزياء !

ــ إنها فتاة طيبة . بالطبع ، أنا لا أفكر البتة بالزواج منهـــا ، لكني أتركها تعتقد ذلك تحاشياً للخناقات . وبذلك لن اكون مقيـــداً بها ، ولن تركب لي قروناً . لكني بالتأكيد لن أتزوجها ! فلكي اتزوجها ، لا بد أن اكون مجنوناً ! ان زواجاً فاشلاً واحداً يكفي أولاً في الحياة . ثم ما حاجتنا الى الزواج ؟ ان علينا ان نبدل المرأة كما نبدل السيارة ، كل سنتين او ثلاث. عندما لا تعود تصلح ، نستبدلها بأخرى من آخر طراز .

وصرخت بابا :

ــ لقد تزوج فرانشيسكو كورا ، أقصد أمي ، وبقي معها ...

ــ معروف ان فرانشيسكو مثـــالي . وصحيح اننا شقيقان ، لكن ما أعظم الفرق بيننا . ان رأس فرانشيسكو كان دوماً ينطح السحاب ، اما أنا فقدماي ثابتتان في الارض . فرانشيسكو شاعر ، اما انا فصرّاف . رأس مختلف ، أفكار مختلفة ..

– لكنك ، انت ايضاً ، بقيت سنوات طويلة مع زوجتك !

– انني ألعن نفسي على انني فعلت ذلك ! تلك الجيفة ، تلك الساحرة، تلك الفظاعة ، تلك المجرمة ! عندما افكر بأنني قضيت معها أجمل سنيّ حياتي ، أعض على البنان !

في تلك اللحظة عادت بوبي حاملة الغليون وكيس التبغ . ومد أخي يده، لكنها من غير ان تعطيه شيئاً ، جاءت من جديد لتجلس على مسند الأريكة :

– دعني أحشو غليونك ، انت تعرف ان هذا يلذ لي .

وبسرعة ومهارة راحت تحشو الغليون متناولة في كل مرة بين أناملها قبضة من التبغ ، بينما راح أخي يتملى بنظرة طويلة بطيئة جسم بابا من أخمص قدميها الى خصرها ، ثم قال لها فجأة :

– أتخرجين دوماً بالبنطال ؟

– أجل ، بصورة دائمة تقريباً .

وهتفت بوبي من غير ان ترفع أنفها عن الغليون الذي كانت تحشوه :

– هذا أنسب وأوفر راحة بما لا يقاس !

– ليس ثمة من مجال للشك ، فالبنطال يناسبك تماماً يا بابا، بخصرك الضيق وساقيك المستقيمتين للغاية . وبالمقابل فإنه لا يناسب بوبي لأن حوضها واسع.

فهتفت بوبي من جديد :

– خبيث ، هذ غير صحيح ، فالبنطال يليق بي . خذ ، هوذا غليونك، ايها الغول !

ووضع اخي الغليون بين أسنانه وأصر :

– نعم ، انت يا بابا ، تكوينك مثل تكوين الغلام ، ولهذا يليق بك البنطال .

فصاحت بوبي :

– إن تكوينها كالنساء . لكن البنطال مفصل بإتقان . هذا كل شيء .

وأضاف اخي :

– هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها بنطالاً له حمالات عند القدمين . أرني قليلا ...

فنظرت اليه بابا بطريقتها المداهنة والمتناومة ثم تمددت على الأريكة ، ومدت ساقها ، ووضعت قدمها على ركبة اخي الذي انحنى والغليون بين اسنانه ، بوجهه الأحمر المحتقن ، ولمس كعبها ، وسحب الحمالة ليتأكد من انها مشدودة . وقالت بابا :

– أترى كيف يلبس ربلة الساق .

فنظر اخي الى بابا في وجهها وأجاب متعمداً بلا حياء :

– لا تقولي ذلك ، وإلا لمستها .

فهتفت بوبي :

– حذار ! انني غيور ، غيور جداً ، جداً !

وردد الببغاء من قفصه بصوته الحاد ثلاث مرات : « حصيرة ، حصيرة ، حصيرة » .

وتهالك أخي بتثاقل على أريكته وقال لبوبي :

– اعطيني ناراً ، ايتها الغيور !

فتناولت بوبي علبة ثقاب ذات أعواد ضخمة يبلغ طول الواحد منهاثلاثين سنتمتراً ، وأشعلت واحداً ووجهت شعلته نحو فوهة الغليون . وأخذ اخي نفسين او ثلاثة ، ونفث الدخان من فيه ، ثم قال لبابا :

– اذن ، فأنت تدرسين في الجامعة ؟

– أجل .

– لكنك لا تقضين حياتك في الدرس ، بل تلهين أحياناً ، أليس كذلك؟

– بلى ، ألهو أحياناً ..

– وماذا تفعلين ؟

– أشياء كثيرة .
– أترقصين ؟
– أجل ، إنني أذهب للرقص .
– أين ؟
– حيثما سنح لي .
– ومع من تذهبين ؟
– مع أصدقاء ، شبان وشابات .
– هل انت مخطوبة ؟
– كلا .
– أتريدين ان تخطبي ؟
– لمَ لا !
– وان تتزوجي ؟
– بالطبع ، اذا ما خطبت
– أتودين ان يكون لك اولاد ؟
– بالتأكيد !
– كم ؟
– سبعة ، ثمانية ، وربما عشرة .
– تهانيّ .. ولمَ تريدين هذا القدر منهم ؟
– عندما ينجب المرء خير له ان ينجب كثيراً ، ألست من رأيي ؟
– أنا ، أنجبت ثلاثة ، وكنت أجد ان عـــددهم كبير . وما هو مثلك الأعلى في الرجل ؟
– اواه ! أياً كان ، شرط ان يعجبني !
– حتى اذا لم يكن شاباً ؟
– حتى اذا لم يكن شاباً .
– رجل مثلي ، او مثل فرانشيسكو على سبيل المثال ؟
– لمَ لا ؟

في هذه اللحظة قطع اخي الحوار ، والتفت إليّ ، بصورة مفاجئة مباغتة ، ليظهر لي ان حديثه مع بابا لم يكن اكثر من تقرب ودي ، كتقرب الكلب الذي يستروح رائحة كلبة ، وقال لي :

– بالمناسبة ، أتعرف ، لدي اشياء كثيرة كانت لأهلنا ، وفي الواقع هي تخصك بقدر ما تخصني ، ولا أدري ما أفعل بها . ولقد سبق ان كتبت لك لأخبرك بأن هذه الأشياء تحت تصرفك وأجبتني ان أمرها لا يعنيك فرميت بها آنذاك في حجرة متصلة بالسطح ولم أعد أفكر فيها . لكنني محتاج الى هذه الحجرة الآن . فأنا اريد ان أجعل فيها باراً ، وان أرمي بالتالي بكل تلك الاشياء القديمة . لكن من الأفضل ان تراها . فقد يحلو لك ان تأخذ بعضها . كذكرى من والدينا .

نظرت اليه : كان يشد على غليونه بين أسنانه القوية البيضاء المنتظمة ، ويحدق فيّ بما يشبه القلق وقد احمرت وجنتاه فقلت :

– حسناً ! هيا بنا اليها .

بيد انه أضاف بسرعة :

– بوبي ، رافقي فرانشيسكو الى غرفة السطح .

ولم تتحرك بوبي وهتفت :

– نعم ، أعلم لمَ تريد ان أرافق فرانشيسكو لأنك تريد البقاء بمفردك مع بابا .. هذا هو السبب

– هيا ، لا تتفوهي بالحماقات ، رافقي فرانشيسكو .

فنهضت بنكد ، ونظرت الى اخي ثم الى بابا . هذا صحيح : واضح انهما ينتظران ان يبقيا بمفردهما . وآنذاك تبعت بوبي نحو الباب – النافذة الذي فتحته صائحة بصوت متكلف المزاح :

– لا تغلقا الستائر ، فنحن نريد ان نراقبكما !

وخرجنا الى السطح . كانت سحب العاصفة ، الواطئة المنتفخة ، الممزقة بفتحات كبيرة ، معلقة فوق منظر لامتناهي الامتداد من أسطحة الأسمنت

الشاحبة كشبكة ضخمة مفعمة بصيد أسود وافر يتسرب وهو يقطر ماء من بين الحلق الواسع اكثر ممـــا ينبغي . وكانت الألوان تنفصل وتتمايز بوضوح حواري وكتيم عبر الضياء بلا شمس : بنفسج مربعات البلاط ، زرقة وخضرة الوسائد ، برتقال الشمسيات ، بياض الأثاث الحديدي الصمغي . ونظرت الى النافذة : كانت الستارة البيضاء تتحرك بصمت ، كما لو من تلقاء نفسها ، من اليسار الى اليمين ، لتحجب في النهاية كل الشرفة الزجاجية . وألقت بوبي في الاتجاه نفسه نظرة خاطفة جانبية وقالت وهي تتقدمني :

– أصحيح أنكما ، انت وماكس ، لم تشاهدا بعضكما منذ عشرة أعوام؟

– أجل ، صحيـح .

– هل وجدته قد تبدل كثيراً ؟

– ربما كما قال هو نفسه ، لقد سمن بعض الشيء .

– ومعنوياً ؟

– لا أعرف شيئاً عن ذلك .

– بودي لو أعلم ما اذا كان ، قبـــل عشرة أعوام ، مهووساً بالنساء مثله اليوم .

– لمَ ، مهووساً ؟

– اجل ، انه لا يستطيـع ان يرى امرأة لا تكون مسخاً من غير ان تأخذه الرغبة في مداعبتها . أرأيت خادمتنا ؟

– اجل .

– انها مغادرتنا غداً . لقد صرفتها لأنني فاجأتهما معاً . وسأستعيض عنها بخادم . أهكذا كان قبل عشرة أعوام ؟

– كلا ، لم يكن هذا . كان رجلاً نادراً نفسه لأسرته . زوج صالـح وأب صالح .

– واضح انه يريد اللحاق بالزمن الذي فاته . لهذا السبب بلا شك يكره زوجته . ماذا تعتقد انه يفعل في هذه اللحظة مع بابا ؟

- لست أدري .
- أؤكد لك انه لا يضيع وقته !

كانت تتكلم عن هوس اخي الجنسي وكأنه رذيلة طفل بريئة ، بلهجة مستسلمة وموضوعية وصارمة في الوقت نفسه . بيد اننا كنا قد وصلنا الى قدام باب جناح صغير يحتل ركناً كاملاً من السطح ففتحت بوبي الباب قائلة :
- انظر ، هذا كله كان يخص أهلك .

دخلت وأجلت الطرف حولي . كانت الحجرة واسعة وواطئة ، وفي وسط سقفها فانوس . وكانت مبلطة بمربعات من القرميد الاصفر مصفوفة على شكل خطوط . وكانت الاشياء مكدسة في احدى الزوايا . ومن النظرة الاولى أدركت أن أخي قد تخلص من كل ما يمكن ان يباع ولم يحتفظ إلا بالاشياء التي لا يمكن ان تباع ، الاشياء التي يمتزج طابعها الخاص بانعدام القيمة كلياً .

وسط الكومة كانت تتربع طاولة الزينة الخشبية البيضاء، ملفحة بنسيج أزرق شاحب مع شرائط من اللون نفسه ، تلك الطاولة التي جلست أمامها أمي طوال سنوات ، كل صباح ، فور استيقاظها ، وكان النسيج والشرائط قد اسودت واهترأت ، ولا ريب في أن هذا ما كان مآلها في الآونة الاخيرة من استعمال أمي لها . ولم تكن طاولة الزينة هذه ، وقد انتزعت الآن من إطارها المعتاد ، سوى نفاية حقيرة . وكان على دفها ، الذي كانت تصف عليه في الماضي قطع صندوق الزينة الفضي الفاخر البديع الذي استملكه أخي بكل بداهة بلا وازع من ضمير ، أقول كان على دفها الآن إناءان طيبان ، أدخل أحدهما في الآخر ، كان أبي الذي مات بعد كساح طويل ، قد استخدمهما في الأشهر الأخيرة من حياته : حوض من البورسلين ومبولة من الزجاج . والى جانبها كومة من الإطارات تضم صور أصدقاء وصديقات وأقارب بعيدين او قريبين . وكانت أمي ، على ما أذكر ، قد زينت بها جداراً كاملاً من غرفة نومها .

كان هناك ايضاً جهاز راديو قديم موضوع في سبت قديم من طراز لويس السادس عشر ، وعليه كيس من المطاط للماء الساخن. وبار من طراز لويس السادس عشر ايضاً ، وعلى سطحه الزجاجي خزانة حمام صغيرة من خشب مدهون باللك ومطعم بالصدف،وكانت أبوابها مفتوحة ورفوفها مليئة بقوارير صغيرة وبآنية خزفيـة صغيرة وأنابيب صيدلانية . وصندوق مكتب أبي الحديدي ، وهو من طراز قديم عال وأسود ، بابه المصفح مفتوح ، وقد اصطفت على رفوفه الفولاذية قوالب من الخشب الفاهي اللون ، على شكل أقدام ، كان أبي يستخدمها لحفظ أحذيته . وطباخة متآكلة فيها أربعة ثقوب ، تساقطت ميناها في عدة مواضع ، ووضعت فوقها علبة قبعات بيضاوية جلدية يُرى تحت غطائها المفتوح قبعات عديدة كدس بعضها فوق بعض ، كانت تخص والدتي . وقاعدة من الرخام الرمادي ، على شكل عمود ، وضعت فوقها آلة كاتبة عتيقة . وكدسة من صحف الموضة الفرنسية المهترئة والمتورمة من الرطوبة ، وضعت على براد خشبي صغير . وأريكة ملفحة بنسيج مزهر مهترىء ومسود أذكر انني كنت أراها قدام سرير أمي .

كانت هناك ايضاً أشياء اخرى كثيرة. وقد لاحظت انها لم تتملغم ويختلط بعضها ببعض تحت الغبار وشباك العناكب ، في إهمال وسبات أزلي ، كما يحدث عادة في السقيفات العتيقة ، بل انها ، على العكس ، تجنبت الغبار إذ كدست فوق البلاط اللامع هذا ، وبدت كأنها تضج بالحياة ، الحياة القبيحة والوسخة لكل ما هو خاص صميمي وغير قابل للاستعمال في آن واحد . وفكرت بأنه يستحيل حقاً إدخال هذه الأشياء في مجرى الحياة اليومية من جديد . وبالفعل كانت تمثل الجانب الأكثر صميمية وشخصية من والدي ووالدتي ، وبالتالي الجانب الذي لا يمكن للآخرين البتة استعماله . وفي الوقت نفسه ، ومن غير أن يكون هناك أي تناقض مع ذلك ، كانت هذه الأشياء الصميمة للغاية ، الشخصية الى أبعد الحدود ، غير القابلة للاستعمال بالمرة ،

كانت في الوقت نفسه اكثر الأشياء التي يمكن تخيلهـــا عمومية ولا شخصية ونفعيـــة .

وعلى هذا ، كان أخي على حق : ان الابن الوفي هو وحــده الذي يمكن ان يأخذ احد هذه الأشياء وان يحمله معه كذكرى. لكن ذكرى أي شيء؟

وكجواب على سؤالي اقتربت بوبي من الجدار وقلبت اللوحتين اللتين كانتا مسنودتين اليه :

– لعلك تريد ان تأخذ هاتين اللوحتين . ان ماكس لا يرغب فيهما ، لأنه يجدهما حيتين ناطقتين تسبب رؤيتهما له الحزن والاكتئاب . ثم انهما لا يتناسبان مع الديكور في بيتنا . ولعلهما يناسبان بيتك .

نظرت الى اللوحتين . لقد رسمتا يوم كان أبي وأمي قد تجاوزا كلاهما الخمسين من العمر . لقد كان للبورجوازية وما يزال لها على الأرجح شعراؤها وروائيوها ونحاتوها وموسيقيوها ورساموها ، المختلفون اختلافاً جذرياً عن الفنانين الممثلين حقـــاً لعصرهم . ولقد عهد والداي ، شأن الكثيرين من البورجوازيين ، الى احــد رسامي البورجوازية بمهمة رسم صورتهما الشخصية. ولقد كان هذا رساماً متهافتاً على الدنيا ، اي متملقاً لطبقته الاجتماعية. وكان قد رسم أبي في هندام رمادي فاتح مع ربطة عنق حمراء ، وسلط على وجهه وميضاً أحمر فبدا وكأنه سكران . وكانت أمي ترتدي ثوباً مسائياً من الحرير الأصفر اللامع الناعم ، وقد جمّلت عنقها باللآلىء ، وأصابعهـــا بالخواتم ، ومعصميها بالأساور ، وقدميها بخفين من الساتين الأسود . وقــد أنجز الرسام لوحته بضربات سريعة عنيفة من فرشاته وكأنه يريد ان يوحي بفكرة إلهـــام صاعق يبهر النفس بهراً . ولم يكن ممكناً وصف النتيجة الإجمالية إلا بنعت واحد : كريهة .

وتساءلت عما اذا كان الرسم هو الكريه ام هما والداي . وتذكرت الإحساس باللاأصالة الذي سببته لي في الماضي الرواية التي كتبتها عن غرامياتي

مع كورا ، وقلت في نفسي إن اللاأصالة لا تكمن في الفن ، مهما يكن شأنه، وانما في الواقع . وعلى هـذا فإن القبح في هاتين اللوحتين (الذي هو مظهر من اللاأصالة) لا يكمن في الفن نفسه بقـدر ما يكمن في الأشخاص ، او بالأحرى في كنه الواقع الذي يؤلف هذان الشخصان جزءاً لا يتجزأ منـه .
وارتعدت إذ سمعت صوت بوبي يقول :
– لكأنها سيتكلمان ، أليس كذلك ؟ انها حيان ! هل ستأخذهما إذن؟
– كلا .
– لماذا ؟ أيسببان لك الحزن مثل أخيك ؟
– نعم ، لنقل إنهما يحزنانني .
– انني أفهمك . لو كانتا على الأقل صورتين صغيرتين من تلك التي توضع على الكتب . لكن هاتين اللوحتـين الكبيرتين ملبكتان بعض الشيء .. بالرغم من انه يمكن ان يكون لهما وقع مستحب في منزل مغاير لمنزلنا . لقد قال لي ماكس إن منزلك من الطراز الكلاسيكي . وفي وسعك ان تضعهما في الصالون .
– كلا ، لا أعتقد ، ليس ثمة من مكان .
– هل منزلك كبير ؟
– أجل .
– هل ستدعونا الآن بعد أن تم التعارف بيننا ؟
– بالتأكيد .
يسرني ان ألتقي بكم . انني دوماً وحيدة لأن ماكس يكون دوماً في مكتبه ، وعندما لا يكون فيه يذهب ، بحجة او اخرى ، ليغازل النساء .
– ألا تعتقدين ان الغيرة تشوه فكرك ؟
– جائز .. مع الأسف أعرف أن ما أتكهن به صحيح ولديّ براهـين على ذلك .

– ألم تثأري لنفسك قط من خياناته ؟

– كيف ؟

– بخيانتك اياه بدورك .

فرفعت يدها الى صدرها قائلة بأبهة :

– فلأمت اذا كنت قد فعلت ذلك قط !

– هيا ، دعيك ...

– فلأمت !..

وكررت : « هيا ، دعيك ! » ، وفي الوقت نفسه طوقت خصرها بذراعي بتؤدة كما يفعل الراقص مع مراقصته في مطلع الرقصة . وفوجئت إذ رأيت وجهها يشحب وشفتيها ترتجفان عند هذه الحركة . وتملصت من ذراعي ، وذهبت لتجلس على الأريكة التي كانت تخص أمي ، وانكفأت على نفسها ، وغطت وجهها بين يديها ، وراحت تبكي . اقتربت ، محرجاً ، حاسباً ان هذه التجربة (هي بالفعل نوع من تجربة) كان لها مفعول غير متوقع ، مناسب لأخي وغير مناسب لي ، وقلت :

– لا تبكي ، اعذريني .. إنني آسف بصدق . كان مزاحاً ، ولا اكثر من مزاح .

فهزت رأسها وكأنها تريد ان ترد اعتذاري . ثم ارتفعت احدى يديها ، وجاءت ، بصورة عشواء ، لتمسك بيدي التي رفعتها بوبي الى فمها وراحت تقبلها بنهم . وسمعتها تتمتم :

– لا تعر انتباهاً ، انني ابكي لأنني هستيرية . قل لي إنني أعجبك ، قل لي ، قل لي ..

ولم تنتظر جوابي . انما انبطحت الى الخلف على الاريكة ، وفكت بسرعة أزرار بلوزتها ، وبحركة المرضع التي تمد ثديها للرضيع حررت نهديها من إسارهما ، نهدين أبيضين حليبيين شفيفين ، لهما حلمتان قرمزيتان ، وتمتمت :

– أليس لي ثـديان جميلان ، قـــل ، أليس لي ثديان جميلان ؟ قل إنهما يعجبانك .

كانت مطبقة العينين ، وجهها المخدد بالدموع مشلوح على ظهر الأريكة ، وكانت تتلوى ، وثدياها في العراء ، ساعية الى حمـــلي على مداعبتها بيدي. وألقيت بنظرة خاطفة حولي، ولمحت بالقرب مني ، على طاولة صغيرة، مرآة مثلثة الوجوه من تلك التي تستخدم للحلاقة . وبقفـــا يدي الطليقة ضربت المرآة فسقطت أرضاً . وتعالت ضجة زجاج محطم . فانتفضت بوبي واستوت جالسة وهي تصيح :

– ما حدث ؟ ما حدث ؟

– لا شيء . مرآة انكسرت .

فأعادت ثدييها الى إسارهما ، وزررت بلوزتها ، ونهضت قائلة :

– لا ادري ما أصابني . لقد فقدت الرشد !

– لا عليك ..

– صدقني ، هذا لم يحدث لي قط .

– أصدقك .

– كنت مجنونة . والآن أشعر بالخجل .

– لا ينبغي ان تخجـلي . اقد اخذتك لحظـة ضعف . هذا يحدث لجميع الناس ...

– ارجوك ، لا تخبر ماكس بشيء .

– كوني مطمئنة .

– انتما في غاية الشبه ، انت وماكس . والأرجح ان هذا التشابه ...

– أجل ، انه التشابه، بالتأكيد .

– أقسم لك على أقدس ما عندي بأنني لم أخدع ماكس قط .

– أصدقك .

– كلا ، انت لا تصدقني . لكنني أقول الحق !

– اعرف انك تقولين الحق .
– اقسم لي بأننا لن نعاود الكرة .
– أعدك بذلك .
– اقسم .
– لا اؤمن بالأيمان .
– اؤمن . اقسم من اجلي .
– على رسلك . انني أقسم لك على ذلك .

انها تبكي الآن بكل مـا أوتيت من قوة ، وهي منتصبة على قدميها ، ترنو إلي من خلال دموع عينيها المستديرتين الأشبه بعيني طائر . ثم انحنت ، والتقطت قطعة من المرآة ، وتملت نفسها ، وسوت شعرها قليـلاً . واخيراً تقدمتني الى السطح قائلة :

– أتعلم ، انني شبه مسرورة ، في صميمي ، بما حدث
– لماذا ؟
– لأن هذا لن يحدث كرة ثانية بعد الآن . اننـا سننتحاب كما يتحاب اخو الزوج وزوجة الأخ .
– اجل ، سنتحاب .
– ما أجمل الصداقة بين افراد الأسرة الواحدة !
وعبرنا السطح ، وقالت بوبي عند مرورنا قدام الشرفة الزجاجية :
– أترى ، لقد سحبت الستائر ، هما ايضاً أحسنا التصرف .
– مع أنك كنت واثقة من ان أخي سيستفيد من الفرصة .

– هو ، أجل ، لكن بابا ، بالتأكيـد لا . ان ابنتك ليست من ذلك النوع ، لقد فهمت ذلك على الفور . ثم انني راضية الى حد مـا إذ تركناهما بمفردهما ، فهي قد أعطته بلا شك درساً !

ورجعنا الى الصالون . كان أخي منحنياً الى الأمام ، يدخن غليونه بسيماء

تأملية . وكانت بابا جالسة بعيدة عنه ورأيت انها قد أعادت ارتداء سترتها . وسرعان ما قالت لي :

– اذا كنت تريد ان تتحدث مع اخيك ، فسنذهب انا وبوبي الى الغرفة المجاورة ونترككما بمفردكما .

– هذا صحيح ، لقد قلت لي إنك تريد ان تحدثني .

– اجل ، كنت اريد أن احدثك عن رأسمال للتثمير .

– رأسمال للتثمير ؟ انني رهن أوامرك دوماً .

– لا ، ليس الآن . لقد تأخر الوقت . سأعود في يوم من الأيام .

فصرح اخي بلهجة محترفة : كما تريد ، لكن لا تتأخر كثيراً . فالوقت مناسب لإجراء بعض عمليات .

– حسناً . اذن الى اللقاء قريباً . هيا بنا ، يا بابا .

– ألم تجد شيئاً أثار اهتمامك في غرفة السطح ؟ أتأذن لي بالتخلص من كل تلك القذارة ؟

– تستطيع ان ترمي بها كلها ، على الأقل من ناحيتي أنا .

وغادرنا اربعتنا الصالون . وتعانقت المرأتان وكررتا العناق. وشد اخي على يدي ، وربت على خد بابا ، ثم دفع بإحدى يديه ابواب المصعد بينما كانت الأخرى تشد على الغليون . ودلفنا ، واغلقت بابا الابواب وضغطت على الزر ، وبدأ المصعد يتحرك نازلاً . وقالت لي بابا :

– أتعرف ، ما كدتما انت وبوبي تخرجان ، حتى سحب اخوك الستارة وهجم علي .

بأي طريقة ؟

– اواه ! بالطريقة المعتادة .

– وماذا فعلت ؟

– أنا ، حتى أفت في عضده ، رحت أصفر صفيراً خفيفاً .

- وهل فت في عضده ؟

- على الفور . بل انه اعتذر مني . لكنه لما رأى انني لم اغضب غضباً شديداً ، ضرب لي موعداً في مكتبه .

- وهل ستذهبين ؟

- كلا .

توقف المصعد ، وغادرناه ، واتجهنا نحو سيارتي . وقلت :

- آسف . لقد قلت لك إنه مسخ .

- لا ، انه ليس مسخاً .

- وما هو اذن ؟

- رجل مثل كثيرين غيره من الرجال .

- ستقولين لي إنه محبب الى النفس ايضاً !

- على رسلك ! أجل ، بما فيه الكفاية .

- يا إلهي ، وما الشيء المحبب الذي تجدينه لدى شخص كهذا ؟

ففكرت بابا لحظة من الزمن بينما كنت أدير المحرك ، ثم قالت لي :

- انه محبب في نظري لأنه هو ما هو .

-ماذا تعنين ؟

- ما قلته .

- أي ؟

- إنه محبب في نظري لأنه هو ما هو .

- لكننا جميعاً نحن ما نحن . نحن ما نفعله . لقد غازلك أخي . .

- لقد فك أزرار بنطاله ، وأخذ يدي وسحقها على أسفل بطنه .

- اذن ، ليس أخي ما هو عليه ، وانما ما فعله

- أي الرجل الذي فك أزراره وأخذ يدي وضغطها على أسفل بطنه .

- ماذا تعنين ؟

ـ بالضبط ما قلته أنت نفسك لتوك لكن بعبارة أخرى . صحيح اننا ما نفعله . لكن صحيح ايضاً ان ما نفعله هو ما نفعله .
وأخذت أضحك محتداً :
ـ حقاً انك لا تشجعين الفضيلة ! اذا كان اخي ما هو عليه ، واذا كان ما فعله هو ما فعله ، وبالتالي لا ينبغي ان نحكم عليه ، فإنني لأتساءل عندئذ لمَ أستمر أنا في التصرف كما أتصرف .
ـ أي ؟
ـ أي ، انت تعلمين ذلك حق العلم ، بطريقة مغايرة لمشاعري الحقيقية .
ـ لكننا ، أنت وأنا ، أب وابنة .
ـ اذن ؟
ـ على الأب والابنة ان يتصرفا بطريقة معينة .
ـ والعم مع ابنة أخيه ؟
ـ ان العم يستطيع حتى ان يتزوج ابنة أخيه .
ـ آه ! هو ذاك ! الأب يلعب دوره كأب ، والابنة دورها كابنة ، والعم دوره كعم ، وابنة الأخ دورها كابنة أخ . وأمك ، افترض انها لعبت ايضاً دورها وما تزال كأم ؟
ـ أجل .
ـ أأنت واثقة من ذلك ؟
ـ انني واثقة من أن كورا أمي ومن انني ابنتها .
ـ بصدد هذه النقطة لا مجال للشك . فكورا أمك وأنت ابنتها . لكن ينبغي ان نرى أي نوع من الأمهات والبنات .
ـ لماذا ؟ ليس هناك من شيء يُرى .
ـ في هذه المرة التزمت الصمت ، ثم استأنفت :
ـ بالمناسبة ، لمَ لم تقولي لأخي انك مخطوبة لسانتورو ؟
ـ هذا صحيح . ربما لأن خطوبتي ليست رسمية بعد .

– ماذا تقصدين بهذا ؟

– لا خطوبة بدون خطوبة رسمية، اي بدون دعوات وهدايا واستقبالات الخ ... وإلا ...

– وإلا ؟

– وإلا ، فلا خطوبة ، وانما حب او صداقة . لقد سألني اخوك عم اذا كان لي خطيب . فأجبت بالحقيقة قائلة إنه ليس لي خطيب .

السبت ٢٨ تشرين الثاني

هذه الليلة حلمت الحلم التالي : خيل إلي أنني مع بابا في حديقة بديعة شبيهة بحدائق النعيم الموجودة في إيران ، في اصفهان او شيراز : أشجار مثمرة بأعداد كبيرة تشكل غابات صغيرة مظللة، جداول من الماء السلسبيل تجري بين الحواشي المزهرة ، اشجار صفصاف مستح ، أشجار سرو، أشجار رمان ، مساكب ورد . حقاً انها لحديقة رائعة شبيهة بتلك الأماكن المعجزة والسحرية التي تمثلها البساتين المزروعة بأكبر جهد ومشقة وسط رمال الصحارى . لكنني اعرف ان هذه الحديقة تمتد في نفس المكان الذي كان فيه في الماضي معسكر اعتقال نازي . وبالفعل بينما كنت اتنزه مع بابا بين تلك الممرات الساحرة الفاتنة ، لمحت فجأة عند تخوم مظلة كثيفة من أشجار البرتقال الفتحة السوداء ، الباب المصفح ، المحمل الحديدي لفرن إحراق الجثث . كانت بقايا من عظام تلمع بكل بياضها حول التراب الأسود الدسم . وفي الأعلى ، بين جذوع أشجار البرتقال ، تتشعب ندوب طويلة شرسة من الاسلاك الحديدية الشائكة . وفي نهاية ممشى تحف به أشجار السفرجل، حيث يتوقع المرء ان يشاهد جناحاً شرقياً رائعاً ، يرتفع برج الحراسة ، المستدير والمربوع ، مع ظل الحارس الأسود الذي يذهب ويجيء على القمة .

وقلت لبابا :

– ماذا ينتظرون حتى يهدموا نصب الهمجية هذا ؟

فأجابت :

– انهم لا يهدمونه لأنه ما زال يعمل .

ونظرت من جديد الى الفرن ، فماذا رأيت على المحمـل الحديدي الذي يستخدم في شي الجثث ؟ بابا راقدة على ظهرهـا ، وذراعاها مصلبتان على صدرها ، وشعرهـا متدلٍ . ومن يراقب العمليـة ؟ كورا أو بالاحرى رأس كورا الذي يبدو معلقاً بين أغصان أشجـار البرتقـال ، وقد غطي بقلنسوة عسكرية تحجب العينين وتحمل شارة الصليب المعقوف ، الشيء الذي يبرز المظهر الجرماني لأنفها الطويـل المستقيم . وألقيت بنفسي آنذاك على المحمل ، وامسكت ببابا من كتفيها ، وشددتها نحوي ، وساعدتها على النزول . ثم هربنا ، ونحن متماسكان بالأيدي ، عبر ممشى مستقيم لامتناهي الطول ، في اتجاه معاكس لاتجاه برج الحراسة . وركضنا حتى لهثت أنفاسنا وانبهرت ، وفجأة وجدنا انفسنا امام بوابة مفتوحة . واخترقنا هذه البوابة ووجدنا انفسنا امام بوابة مفتوحة . واخترقنا هذه البوابة ووجدنا انفسنا في ساحة واسعة ترتفع حولها ، في شكل نصف دائري ، دور متشابهة كلها فيما بينها . انها بيوت صغيرة بيضاء ، خطوط بسيطة ، كتلك التي تشاهد احياناً مرسومة في التصاوير – الأحاجي : مسبعات من طابقين مع سطح مستطيل ، وعلى كل واجهة ، تماماً كما في التصاوير – الأحاجي ، رسم حرف كبير اسود وتوقفت بابا وأشارت الى المنازل ، داعية إياي الى القراءة. وقرأت من اليسار الى اليمين ، منزل بعد منزل : ترميم .

تبدل مفاجىء في المشهد. انا مع بابا في ملعب رياضي . أمامي تمتدخشبية فاتحة اللون ، مشمعة لماعة ، مدوخة ، شبيهة بجسر سفينة . في احـدى الزوايا طاولة كبيرة ، من تلك التي يستخدمها المهندسون المعماريون ليرسموا عليها. بابا واقفة أمام هذه الطاولة ، عارية تماماً ، وفي يدها مسطرة ، وعلى

انفها نظارتان . وبمسطرتها أشارت لي الى الاشياء الـتي على الطاولة ، الواحد تلو الآخر ، كما في درس لأطفال المدرسة الابتدائية : « هذا قلم » .

فرددت : « هذا قلم »

« هذه محبرة » .

« هذه محبرة » .

« هذا فرجار » .

« هذا فرجار » .

« هذا قرطاس » .

« هذا قرطاس » .

« هذه ريشة »

« هذه ريشة » .

انها اشياء مكتبية صرفة، ومع أن هذا الدرس بدا لي غريباً بعض الشيء لأنني لا أشعر بأنني في حاجـــة اليه ، إلا انني لا استطيع ان اقول إنني حضرته من دون لذة . ومن الجهة الاخرى ، صحيح ان بابا عاريـــة ، لكن نظارتيها وحدهمـــا تكفيان على ما بدا لسترها ، جاعلتين منها مدرسة جادة صارمة دوغمائية .

لكنني دهشت اكثر ايضاً عندما لفظت بابا وهي ما تزال تتابع الإشارة لي بعصاها الى سطح الطاولة : «هذه جيفة» . فقد نظرت ورأيت بالفعل ان جزءاً كاملاً من الطاولة مغطى بجيفة مائل لونها الى الحمرة ، جيفة معزة، نفس الجيفة (تذكرت ذلك فجأة) التي لمحتها نصف مطمورة في الرمل على شاطىء سيركيو ، قبل بضعة أيام لا اكثر . وهممت بالاعتراض : « ماذا جاءت هذه الجيفة تفعل على هذه الطاولة ؟ » ، لكن لم يتح الوقت لي للكـلام لأن بابا رددت بصرامة : «هذه جيفة» . وتفاجأت إذ وجدت نفسي أردد وراءها : «هذه جيفة» .

انتهى الدرس . سبقتني بابا على رؤوس أصابعهـا فوق تلك الخشبية التي كانت تهرب تحت أقدامنا ، تحت ضوء المصابيح الكهربائية الباهر . واتجهت نحو باب صغير في آخر قاعة الرياضة ، وفتحته ، وأزاحت ، فانحنيت لأنظر. وتبينت آنذاك ان قاعة الرياضة تقع في أعلى مبنى كبير شاهق متداعٍ ، وانه يمتد تحتنا حتى الأفق البعيد منظر غير محدود ، مزروع بالخرائب والحطـام والنفايات ، وبكل تلك الفسالات التي تثب الى العين في مدينة دمرها زلزال او حريق أو أي كارثة مشابهة . لكن هذه الخرائب هي ، اذا جاز القول ، في حالة ممتازة ، فهي غير مغبرة ، غير مدخنة ، غير متعفنة ، وانما صقيلة لماعة ، واضحة المعالم ، مصطفة على طول شوارع طويلة نظيفـة صقيلة مثل اللآلىء على صينية من معدن لماع . وفيما كنت أتأمل هذا المشهد بدا لي وكأنه تضيئه أشعة حمراء أفقية لشمس غير مرئية ساعة أفولها ، إذا بي أنزلق وأسقط في الهاوية . لكن سقطتي كانت قصيرة ، لأنني ، بعد ثانية من الزمن ، مثل مظلي انفتحت مظلته اثناء هبوطه ، بـدأت أحلق ، في منتصف الطريق ، حول المبنى الذي كانت بابا ما تزال واقفة على قمته ، مترددة في إلقاء نفسها في الفراغ . ونفذت حركات بهلوانية بارعة ، مزهواً بإظهار مهـارتي لبابا ، ورحت أنعطف وأنزل وأصعد وأندفع وأتوقف ، وأعاود الانطلاق بإرادتي. فجأة ، تبينت أن بابا هي هنا أمامي ، وقد راحت تطير بدورها ، فتبعتها. وأخذنا نحلق على علو منخفض اكثر فأكثر ، ونرسم دوائر واسعة في هبوطنا نحو المدينة ، نحو الساحة التي في قلب المدينـة ، نحو سرير عريض في قلب الساحة . وها نحن ممددان على السرير ، جنباً الى جنب . ثمة خرائب قادحة شرراً تحدق بالساحة ، وغني عن البيان اننا هنا ، وأنا وبابا ، لفعل الحب. لكني أقر بأنني شعرت ببعض الحرج في فعل ذلك تحت السماء العارية ، وقد لفتت بابا انتباهي الى ان المكان قفر من بني آدم ، والى ان المدينـة فارغة ميتة مثل محارة متحجرة . اذن فقد رميت بنفسي على بابا . لكنني واجهت مشكلة خطيرة ، إذ لم أتوصل الى امتلاكها . ففي كل مرة كنت آخذها بين

ذراعي ، كنا نتزلق نحن الاثنين خـــارج السرير ونضطر الى النكوص عن عناقنا حتى نعتلي السرير من جديد . كانت حوافي السرير مرنـــة ورخوة اكثر مما ينبغي . او لعلنـا لم نكن نعرف نحن كيف نثبت عليه . على كل حال كان في هذا الفشل شيء سحري، قدري، قصدي ، يمت الى الشيطنة بأكثر من صلة . واجتاحني شعور مبهم بالحنق لأنني كنت أشتهي بابا وكان هذا السرير اللعين يمنعني من قضاء أربي . ثم جاءت فجأة الضربة الاخـــيرة لشهوتي المتلظية : اليقظة .

استيقظت غاضباً ، حانقاً، ساخطاً ، وفي الوقت نفسه مصمماً.وفكرت: « ينبغي ان انتهي من الأسر مرة واحدة ونهائية ، ولا سيا ان بابا لا تطلب خيراً من ذلك . فلمَ الاستمرار في التردد ؟ » ونهضت ، ومشيت علىأطراف أصابعي في الظلام ، وخرجت الى المشى ، وأضأت النور ، ثم اتجهت الى باب بابا وأدرت القبضة . وبعد لحظـــة من التردد ، وبصورة شبه آلية ، عدت أدراجي الى غرفتي ، واندسست تحت اللحاف ونمت على الفور تقريباً . في الصباح تذكرت حلمي ولم أستطع ان افهم ما اذا كنت قد استيقظت حقاً ام ان يقظتي وتسللي الى المشى كانا هما أيضاً جزءاً من حلمي .

الاحد ٢٩ تشرين الثاني

أعدت قراءة تلك الصفحات من يوميـــاتي ، التي تسرد زيارتنا ، لأخي ماسيميليانو . ومن واجبي ان أنوه هذه المرة ايضاً (حتى أتذكر ذلك عندما سأحاول تحرير روايتي) بأنني اجريت بعض إضافات وتطويرات أفلتتمني رغماً عني ، ان جاز التعبير ، عندما دبجت تقرير هذه الزيارة .

هذه الاضافات والتطويرات تتعلق بالمشهد بيني وبين بوبي في غرفةالسطح. والواقع ان الامور جرت بصورة مغايرة . فقد ذهبت لأشاهد تلك الغرفـة مع بوبي لأن ماسيميليانو أعلمني بهدف البقاء بمفرده مع بابا ، بأن بوبي تمارس

الرسم : فلمَ لا أذهب معها لرؤية لوحاتها في مرسمها على السطح ؟ ان بوبي ستسعد باطلاعي عليها . وهكذا خرجنا أنا وهي لنذهب الى المرسم الذي لم يكن يحتوي بالفعل على الاشياء التي كانت تخص والديّ، وانما فقط على رسوم بوبي التي هي عبارة عن لوحات صغيرة غير تشخيصيـــة الى حد يسترعي الانتباه ، أرتني إياها الواحدة تلو الاخرى بوضعها على منصب بينما كنت أنا أجلس بكل راحة على ديوان في احدى زوايا المرسم المفروش بذوق وعناية وكأنه غرفة استقبال . وقد اهدتني بوبي لوحتين ، واحـــدة لي وواحدة لبابا . وقد قبلتها ووعدتني بأن ترسلها إلي في أقرب فرصة لأنها تريـد قبل ذلك ان تؤطرها . ثم تحدثنا بهدوء وتعقل عن هوس اخي الجنسي ، لكن من غير ان اقوم بأي محاولة للاقتراب منها ، ومن غير أن تعرض بوبي نفسهـا وتستسلم لهستيريتها. وفي النهاية خرجنا من المرسم، وجرى كل الباقي كما سردت في يومياتي .

اذن فقد اختلقت اختلاقاً، اولاً تفاصيل الاشياء التي كانت تخص والديّ، ثم حفلة هستيريا بوبي وعرضها نفسها . وقد فكرت بالدوافع التي أملت علي هذه التخيلات ، وهي ذي نتيجة تفكيري .

اولاً ، لمَ وضعت في المرسم الاشياء العائدة لوالديّ بدلاً من لوحات بوبي؟ كنت أعرف ان هذه الاشياء لا يمكن ان تكون موجودة في هذه الحجرة ، وبالأصل ما كان اخي ليحتفظ بها بعد هدم المنزل القديم وبناء الجديد مكانه. وبعد طول تفكير تذكرت انني ، عندما كنت طفلاً ، لاحظت تلك الأشياء التي كانت متناثرة في مختلف غرف منزلنا وقلت في نفسي إنها ستكدس في يوم من الأيام بعضها فوق بعض ، فيختلط الحابل بالنابل بلا رحمة او احترام ، في سقيفة تعج بالغبار ، فتكتسب ذلك المظهر الموحش المنفر وتمثل يومها كل ما تبقى من أبي وأمي. اذن لم يكن المشهد المتخيل سوى امتداد لما فكرت به وأحسست به في الماضي حيال والديّ . وبعبارة اخرى ، كنت قـد تخيلت شيئاً ، نظراً الى ان الاشياء كانت على ما كانت عليه او على الأقل على مـــا

كانت تبدو عليه ، اقول كنت قد تخيلت شيئاً لم يكن ممكناً فحسب بل مرجحاً ايضاً .

أما نقلي هذه الصورة القديمة القاسية التي تخيلتهافي أيام مراهقتي الى صفحات يومياتي ، فإن تفسيره هو التالي : حيال اختفاء المنزل الوالدي الذي هدمه أخي وجدت نفسي ، ان جاز التعبير ، معلقاً في الفراغ . وبالفعل ، لقد تزوجت من كورا التي كنت أحسبها أصيلة حتى أهرب من لاأصالة أسرتي . لكن المنزل الذي كان في وسعه ، بنتيجة فرشه ومظهره ، ان يبرهن على تلك اللاأصالة ، قد زال من الوجود . وبالتالي لم يعد في وسعي أن أثبت انه كانت لي أسبابي الموجبة ، بعد كل شيء ، الزواج من كورا ، ان أثبت بكلمة واحدة لاأصالة العالم الذي رأيت النور فيه . وهكذا استبدلت لوحات بوبي غير الشخصية التي لا تضيف شيئاً في الواقع الى شخصية خليلة أخي ، بكل الاشياء التي كانت تخص والديّ ، نظراً الى أن وصفها يفيدني في شرح قصتي الشخصية وتكملتها .

أما هستيريا بوبي وعرضها نفسها ؟ لقد وقعت هنا حقاً ، رغماً عني ، في الافتراء على حساب تلك الفتاة الطيبة الوفية التي لم تفكر قط بعرضها نفسها عليّ ، ولا البكاء والندامة . لقد كان هذا الاختلاق بغيضاً ، لكن دافع الاختلاق كان أقل شناعة . والحقيقة أن ما أوحى إلي بتلك الفكرةالانتقامية عن خيانة بوبي هي الغيرة والقلق مما يمكن ان يحاوله أخي في الصالون بينما أنا أتفحص تصاوير المرسم .

وقد قررت بالطبع ان أحذف مشهد الإغراء البعيد حقاً عن مشاكلة الواقع بسبب توازيه المؤسف مع محاولة أخي المماثلة . لكني غير نادم ، بعد كل شيء ، على سردي وكتابتي إياه لأنه يشهد ، على كل الأحوال ، على قوة عواطفي تجاه بابا . وبالمقابل لم أحزم أمري بعد بصدد نقل اختلاقي الأشياء الموروثة عن والديّ من يومياتي الى روايتي . فهنا ليس ثمة من افتراء ، وانما

تطويل وتطوير للحقيقة . لقد كان والداي ما كانا عليه ، والأشياء التي تخيلتها مكدسة في غرفة السطح ليست ، في الحقيقة ، مختلقة ، وانما هي انبثاق من شخصها . فلمَ لا أستفيد منها وأستخدمها في مثل هذه الحال ؟ لقد طرحت على نفسي هذ السؤال ، لكني أرجأت الجواب الى يوم انتهائي من روايتي . فيومذاك فقط سأنظر فيما اذا كان المناسب حذف هـــذا الحادث او إبقاؤه مع تعديله قليلاً .

الاثنين ٣٠ تشرين الثاني

انتهيت من الآن فصاعداً من العمل في تحرير مقالاتي عن إيران . وقد بعثت بالمقال الأخير منذ بضعة أيام ، على إثر زيارتي لماسيميليانو . والآن أجلس ليلاً في مكتبي وأتصفح يوميـــاتي محدثاً هنا وهنا بعض التصحيحات ونصب عيني دوماً الرواية التي أزمع استخلاصها منها .

هذه الليلة بينما كنت أعمل ، تسللت بابا كالعادة الى غرفتي بدون نأمة او حس ووضعت راحة يديها على عيني سائلة اياي :

– من ؟ احزر ..

فأجبت بشيء من الغيظ :

– ممثلة رديئة تمثل دور الابنة الطيبة المليئة بالعطف على والدها .

فرفعت يديها عن عيني ، ودارت حول المكتب ، وانتصبت أمامي . ثم قالت لي :

– عندي فكرة : لو نمثل ...

نظرت اليها بانتباه . كانت عيناها الجميلتان للغـــاية جامدتين ناعستين مداهنتين كعادتها :

– ماذا ؟

– لنمثل دور الأب والابنة .

– وهل نفعل من شيء آخر ؟

– رويدك . لنمثل دور زوج الأم الواقع في غرام ابنة زوجته ، وابنة الزوج الواقعة في غرام زوج أمها .

– وكيف تنتهي القصة ؟

– تنتهي بإعلان زوج الأم عن طبيعة عواطفه تجاه ابنة زوجته وبسعيه الى فعل الحب معها .

– وابنة الزوجة ؟

– يكون رد فعل ابنة الزوجة ، بالطبع ، على أقصى ما يمكن من الحزم ، وتأمر زوج أمها بأن يتركها في سلام .

– ماذا تعنين بـ : أقصى ما يمكن من الحزم ؟

– ضربات باليدين ، بالرجلين ، خدش ، لكم .

نظرت اليها : كانت سيماؤها هادئة ومرحة ، كسيماء طفل يصف لعبة . وقلت :

– لكن ما الفائدة من تمثيل دور كهذا شبيه كل الشبه بالواقع ؟

– كلا . هذا لا ينبغي ولا يمكن ان يحدث في الواقع . اقصد : لا ينبغي ولا يمكن ان يحدث ان تهجم علي وان أجد نفسي مكرهة على صدك . ولو حدث هذا ، لكان امراً غير مستحب بالمرة ، ولساءت العلاقات بيننا نهائياً . وبالمقابل ، يمكن ان يحدث هذا في التمثيل بشرط ان تقرر مسبقاً شروط هذه اللعبة .

– وما هذه الشروط ؟

– ان تسعى الى مضاجعتي وأن اصدك .

– بمختصر الكلام ، انت تريدين ان تمتحني طبيعة حبي ، وتريدينني ان أمتحن ما سيكونه رفضك العنيف .

– كلا ، انا اريد ان أمثل فقط .

– لكن لنفترض ان اللعبة فشلت ، اي انك لم تصديني على سبيل المثال.
– هذا مستحيل .
– لماذا ؟
– لأن احد شروط اللعبة هو ، على وجه التحديد ، أن أصدك .
– فهمت . حسناً ! أفضل الا نلعب هذه اللعبة .
– لكن لماذا ؟
– لأنني لا احب التمثيل . واذا شئت تشبيهاً فسأقول ان اقتراحك هذا أشبه باقتراحك على لص ان يمثل دور سطو على صندوق حديـــدي . فهناك احتمالان ، وكلاهما غير مستحبين: إما ان يمثل اللص الدور اي يكتفي بالسطو على الصندوق الحديدي تمثيـلاً ، وبالتالي لا يسرق ، لكنه سيتألم ، نظراً الى انه لص ، من انه لم يسرق، وإما ان يهرب بالمال ، وآنذاك السلام علىاللعبة.
فابتسمت وقالت ببطء ، وفي صوتها حسرة مبهمة :
– لعلك على حق . هذا مؤسف . فقد كنا سنتسلى لو مثلنا هذه اللعبة.

الأربعاء ٢ كانون الاول

عندما صعدنا الى السيارة قالت لي بابا :
– قل لي ، من هو كونسولو هذا الذي نحن ذاهبان اليه ؟
فأجبت :
– انه صديق قديم لي لم أره منذ سنين عديـدة . صحفي مثلي . لكني لست إلا مراسلاً في البلدان الاجنبية ، أما هو فمحترف . ومنذ خمسة عشر يوماً اصبح رئيس تحرير صحيفتي . انه رئيسي المباشر الآن .
– ماذا ستفعل لديه ؟
– سأتناقش معه حول رحلتي القادمة .
– اذن ستسافر ؟

– أعتقد أن نعم .

فلزمت الصمت لحظة من الزمن ، وعيناها شاخصتان الى الأمام ، محتارة، ثم قالت :

– وأنا ، ماذا سأفعل مع كورا ؟

– ماذا تعنين ؟

– البارحة كانت مريضة طوال اليوم . وقد انتابتها حمى : ثماني وثلاثون درجة . وقد قلت لها إن نزلتها الصدرية لم تبرأ وإن عليها ان تستدعي طبيباً ليصف لها علاجاً ثم تغادر روما وتقضي بضعة أشهر في الجبل . ان صحتها بالفعل متدهورة منذ بعض الزمن، وانت لا تنتبه الى ذلك لأنك لا تعيش معها، لكني متأكدة ، أنا التي دوماً الى جانبها ، مما أقوله : انها مريضة وإني لأتساءل احياناً عما اذا لم يكن مرضها شيئاً أخطر من نزلة صدرية .

– أي ؟

– لست أدري ، أنا ، شكل من السل الرئوي . هذا على الأقل ما يقوله سانتورو .

– أفحصها سانتورو ؟

– كلا ، لكني وصفت له الأعراض .

– وبمَ ينصح ؟

– بالطبع انه يقول إن على كورا ، قبل كل شيء ، ان تصور نفسها بالأشعة . ولهذا على وجه التحديد يحرجني سفرك .

– لكن لماذا ؟ لا أرى ما دخل سفري بصحة كورا ؟

– مع ذلك ، كما اقول لك . هذا الصباح كنت ما أزال نائمة عندما رأيت كورا واقفة امام سريري ، ووجهها مريع : أحمر ، شديد النحول ، غائر ، وعيناها تحيط بهما خطوط عميقة . وقد تأملتني طويلاً ثم قالت : « تريدان، انت وفرانشيسكو ، ان أغادر روما ، تريدان الخلاص مني ، إرسالي للموت في مصح . لكنني لن أرحل ، سأبقى هنا . اذا لم يكن من الموت بد ، فإنني

أفضل ان اموت في بيتي » عندئذ أجبتها : « هدئي من روعك . عليك قبل كل شيء ان تري طبيباً، ما من احد يريد الخلاص منك. واذا كان ذهابك الى الجبل واجباً ، فقد قررنا انا وفرانشيسكو الذهاب معك والبقاء بجانبك حتى شفائك التام » .

– قلت ذلك ؟

– نعم ، قلته ، لأنني أعلم مدى الاهمية التي تعلقها كورا على كل مـــا يخصك وعلى كل ما تفعله من أجلها . وبالفعل ، سرعان ما سكن روعها. وقد تابعت النقاش قليلاً ، وكررت على مسامعي بأنها ليست مريضة ولن تذهب لرؤية دكتور . لكن عنادها تزعزع في الحقيقة بعض الشيء . وهأنتذا تقول إنك راحل . هذا يحرجني كثيراً لأنها ستعتقد انني كذبت عليها ، وعلى كل سيكون اعتقادها في محله .

أمسكت عن الكلام هنيهة من الزمن . ومن سلوك بابا . فصحيح أن في كذبتها حباً بنوياً مدروساً ، لكن فيها ايضاً شيئاً آخر . ان الصور الجذابة التي أوحت لي بها كذبتها قد جعلتني أفهمها : مصيف جبلي ، كورا حبيسة غرفة في المصح ، نحن الاثنين بالقرب من كورا بالتأكيد، لكن اكثر قرباً الى بعضنا بعضاً واحتججت بغضب :

– كان في وسعك على الأقل ان تستشيريني قبل أن تتصرفي بي على هواك.

فأجابت بكل اطمئنان وكأنها تريد توكيد ظنوني :

– الحق انني اذا كنت قد وعدتها بما وعدتها فهذا ايضاً لأن فكرة قضاء بعض الوقت في الجبل معك ليست بالفكرة الكريهة على قلبي . أحقاً أسأت التصرف الى هذا الحد ؟

– كلا ، لم تسيئي التصرف . كل ما هنالك أن علي أنا ان أرحل مهما كلف الأمر .

فلم تبد اي امتعاض وكأنها كانت تتوقع العقبة . وبعد هنيهة قالت :

– بالطبع ، ان هذا كله غير مؤكد . أولاً لأن كورا ترفض ، حالياً على الأقل ، ان تفحص نفسها ، وثانياً ليس محتماً ان يأمرها الطبيب بالذهاب الى الجبل لكن على فرض ان الشيء حدث ، فربما كان في وسعك ان تقبل بتسوية .

– أي ؟

– تستطيع مثلاً ان ترافقنا نحن الاثنين لمدة اسبوع ، ثم تسافر . ان المهم في الحقيقة هو ان تذهب كورا الى الجبل. وبعدها يصبح كل شيء سهلاً.

وأمسكت عن الكلام لحظة ثم ختمت كلامها :

– كما ترى ، أنا لا أسألك شيئاً كبيراً . اذا كنت لا تريد ان تفعل ذلك من أجل كورا ، فافعله على الأقل من أجلي .

لم أحر هذه المرة جواباً ، فقد خطرت لي فكرة مداهنة ماكرة ، فكرة أن بابا قد لمحت ، تحت قصة الجبل هذه ، امكانية علاقات غرامية ، مختلسة ، عابرة ، عارضة ، لكن تامة كاملة . وبكلمة مختصرة : علاقات تندرج في مجرى الافعال البلهاء المجانية التي يتألف منها الوجود اليومي : فأنا سأذهب معها الى الجبل متوهماً انني أفعل ذلك من أجل كورا ، ثم ، في اللحظة الأخيرة ، ربما في الليلة السابقة لرحيلي مباشرة ، سأبقى مدة أطول من المعتاد في غرفة بابا وأصبح عشيقها من غير مشيئتي تقريباً ، كما لو بعامل الصدفة ، الشيء الذي لن يمنعني من الرحيل مع ذلك في صباح اليوم التالي الى بلد ناءٍ . وبذلك يكون كل شيء قد تلاشى وتوارى تحت السطح اللاامتايز الوحيد النسق لما هو عادي تافه المعنى ما أزال أعاند في تسميته فساداً . وتكون كورا قد ماتت من مرضها كما أنا متأكد من الآن فصاعداً من حصول ذلك ، وتكون بابا قد تزوجت من الطالب سانتورو كما أنا مقتنع ايضاً من انها ستفعل ذلك ، وأكون قد عدت الى روما لأغادرها من جديد . وفي خاتمة الامر أكون قد عرفت ، مرة اخرى ، ان العمل ليس بضروري لأن الحياة اليومية

تتكفل بذلك من تلقاء نفسها ، وما علينا إلا ان نتركها على مجراها ، وعندما تعجز عن ذلك في النهاية تخرج « Deus ex Machina » الموت فيعود كل شيء الى سابق نظامه .

كنا قد وصلنا الى شارع لومبارديا حيث مقر صحيفتي . وبينما كنت أناور لأصفّ السيارة ، قلت لبابا :

– أتعتقدين حقاً انك ستتزوجين في يوم من الأيام من سانتورو ؟

– لمَ تسألني هذا ؟

– لأن ... أجيبيني : أستتزوجين منه في النهاية ؟

– اجل ، ربما .. من يدري ؟

– هل سانتورو على علم بمهنة كورا السرية ؟

– نعم .

– أأنت التي أطلعته على ذلك ؟

– نعم .

– وماذا قال ؟

– انه يحبني ، اذن فلا أهمية لذلك في نظره .

– ممكن .. هذا لا يمنع في الواقع ألا تكون كورا مخطئة كل الخطأ .

– ماذا تقصد ؟

– انها غير مخطئة إذ تعتقد ان موتها سيسهل الامور بالنسبة الى البعض..

– إلامَ تلمح ؟

– أقصد انه يناسبكما ، أنت وسانتورو ، ان تموت كورا .

تكلمتُ بخفة . ولم تحر جواباً . لكني بعد ان أطفأت المحرك ، وتهيأتُ للنزول من السيارة ، لبثت هي ساكنة وعيناها شاخصتان الى بلور السيارة . فقلت :

– لقد وصلنا . فلننزل .

فاستدارت نحوي ، وللمرة الاولى رأيت على وجهها تعبيراً حزيناً حقيقياً :

– كيف يمكنك ان تتفوه بشيء كهذا ؟
– اي شيء ؟
– انني أرغب في موت كورا .
– لم أقل انك ترغبين في ذلك . انما قلت إنه يناسبك .
وترددت وأضفت :
– سيكون أشبه بما يسمى Deus ex machina .
– لم أفهم .
– حل خارجي ، لكن مناسب تماماً .
ولزمتْ الصمت وقد بدا عليها الاستغراق والتعاسة . فقلت لها :
– هيا بنا ، تعالي ، افترضي انني لم أقل شيئاً .
– كلا ، لن آتي . اذهب بمفردك . سأنتظرك .
– لكن ما بك ؟
– لا شيء ، أريد فقط ان أبقى وحدي قليلاً .
– لكني لم أكن أريد إغضابك !
– لست غاضبة . اذهب ، انني منتظرتك هنا . اعذرني .

فلم ألحّ . ونزلت من السيارة واتجهت نحو مدخل الجريدة . كان المكان عبارة عن مبنى قديم من القرن الماضي ، له واجهة مكتظة بالأعمده والأفاريز والقناطر والمشاكي ، بهت لونها بفعل الامطار وغطاها غبار شبه أزلي . لكن شقة التحرير التي وضعني المصعد أمامها كانت على أحدث ما يمكن . وعبرت من بهو ذي سقف أزرق وجدران صفر الى ممشى ذي جدران زرق وسقف أصفر ، وقرعت باباً أحمر مؤطراً بمعدن مذهب ، وصاح بي صوت مذكر رنان اعرف صاحبه : « ادخل » ؛ ودخلت الى حجرة خضراء الجدران وسوداء السقف . كان رجل طويل ضخم الجثة ، ذو شاربين ووجه يذكر بوجه قرصان ، جالساً الى طاولة صنعت من الخشب الفاخر المتين ومن الحديد المطرق . ولما رآني نهض قائلاً :

– أنت تعرف بلا شك قصة لقاء ستانلي مع ليفينغستون في الغـابة الافريقية ؟

كنت أعرفها ، لكنني أجبت مجاملاً :

– لا أذكرها جيداً ..

– نظم ستانلي حملة للبحث عن ليفينغستون الذي انقطعت اخباره منذ بعض الوقت . وبعد مسيرة رهيبة عبر الغابة الافريقية ، ظهرت فجأة جماعة من الزنوج تحمل على نقـالة رجلاً أبيض . فدار آنذاك الحوار التالي : – الدكتور ليفينغستون ، على ما اعتقد ؟ – انه هو بشخصه – حسناً ! اليوم ، أفعل الشيء نفسه معك ، يا فرانشيسكو . لقد انقطعت أخبارك عني وكنت ابحث عنك ، فإذا بي اصادفك في غابة الحياة واقول لك «الدكتور ميريغي ، على ما اعتقد ؟ » فتجيبني ...

– انه هو بشخصه .

– مرحى ... انني ارى ان عشرة أعوام لم تبدل شيئاً بيننـا واننا مازلنا نتفاهم أحسن التفاهم. اجلس، لِمَ انت واقف؟ يا عزيزي فرانشيسكو ، لكم أنا مسرور برؤيتك !

– انا ايضاً .

– دعني انظر اليك . اجل ، انت لم تتبدل .

واستفدت من الصمت الوجيز الذي تلا عبارته هذه لأتملاه بدوري . وقد بدا لي كونسولو ، على العكس ، مختلفاً كثيراً عن عهدي به . لا من حيث انه شاخ كما هو محتوم ، بل بصورة اكثر جذرية بكثير . لقد بقي وجهه أشبه بوجه القرصان في كتب المغامرات للاطفال ، لكن هـذا الرأس المتطاول بشاربيه المتهدلين ، وأنفه المعقوف كأنف النسر ، وحاجبيه الكثين ، الذي كان قبل عشرة أعوام يضفي عليه سيماء حية وان مبتذلة ، قد أخذ الآن مظهراً خفيفاً فارغاً ومصطنعاً وكأنه قناع . ان العينين بوجه خاص هماااللتان

تبدلتا ففي الماضي كانت نظرة كونسولو نضرة ، مرحة ، ساذجة ، مجنونة بعض الشيء ، أشبه بنظرة كلب أمين اما الآن فإن العينين تبدوان ، تحت الحاجبين الكثين المقطبين ، شاخصتين ، زجاجيتين ، كعيون الطيور المحنطة .
وفيما أنا انظر اليه طفحت صداقتنا القديمة من قلبي فجأة ، فقلت بوداعة :

– روزاريو ، كيف حالك ؟

يبدو ان بعضاً من انفعالي انتقل اليه ، لأنه نظر إلي بدوره ، وهمّ بالكلام ، ثم عدل ، ومرر يده على شاربيه ، ورنا إلي من جديد بصمت . وسعل قليلاً وقال بجهد :

– اعذرني . . لحظة من العاطفية . ان كل الاشياء التي فعلناها معاً ، كل الآمال المشتركة التي داعبتنا ، قد عادت الى ذاكرتي ، وتركت الانفعال يسيطر علي ... حالي بخير . أتعلم ، لقد فكرت بك مراراً عدة ، طوال كل هذه السنين !

– بمَ كنت تفكر ؟

– قبل دخولك الى الجريدة ، أعترف لك بأنني ، في كل مرة كنت افكر بك ، لم اكن أستطيع منع نفسي من الاحساس ببعض الانزعاج . وربي ! هذا لأنك كنت ... كيف اقول ... قدوة بالنسبة إلي . ثم ابتعدت عنك ، وذهبت الى ميلانو لأعمل في المجلة ، ولم اكن واثقاً من انني اتخذت قراراً صحيحاً أتعلم بمَ كنت افكر ؟

– قل !...

– كنت اقول في نفسي : ان فرانشيسكو رجل جاد يؤمن بما يفعله ولا يفعل شيئاً بدافع المصلحة ابداً ، وعلى العكس منك ، لا اؤمن أنا بشيء ، وأتصرف دوماً بدافع المصلحة .. انني رجل متقلب ..

– لكن بعد عام ، عندما صرت أعمل بدوري في المجلة ، فكرت في نفسك بلا شك بأن المتقلب انما هو أنا .

– كلا ، انما فكرت على العكس بأنه يمكن لي الى حد ما ان أعتبر نفسي رجلاً جاداً .

– لماذا ؟

– لأنني (كما قلت لك) كنت أعلم انك لا تفعل شيئاً بدافع المصلحة ، وانك اذا كنت بالتالي قد فعلت شيئاً كهذا ، فهذا معناه ان لديك أسبابك الموجبة . وبالفعل ..

– وبالفعل ؟

– بالفعل ، كانت لك أسبابك الموجبة . ان احداث المجر قد أثبتت انك كنت سديد النظر .

لم أجرؤ على مصارحته بأن احداث المجر لم تلعب اي دور في انتقالي من الصحيفة اليسارية الصغيرة الى الجريدة المحافظة الكبيرة ، ذلك الانتقال الذي لم يكن له من دافع غير رغبتي الآسرة في السفر . وتابع كونسولو :

– كان بودي ، ايام الاضطرابات في المجر ، ان اكتب لك ، ان أراك ، ان اكلمك ، لكنك تعلم كيف تسير الامور : لقد افتقرت الى الشجـــاعة والوقت والمناسبة . وقد أرجأت الامر الى ما بعــد ثم لم أفعل شيئاً بالمرة . وعلى كل ، كان طريقانا قد افترقا : فأنت تسافر لحساب الجريدة ، وأنا مقيم في ميلانو على رأس المجلة . وما كان ليخطر ببالي قط اننا سنلتقي ثانية ضمن هيئة تحرير صحيفة يومية واحدة .

– وعلاوة على ذلك ، انت كرئيس تحرير ، وأنا كمحرر بسيط . اسمح لي بأن أهنئك . لقد كان عليّ ان افعل ذلك قبل الآن .

فرسم حركة تريد ان تقول « دعك .. » ، لكن خيل إلي انني لمحت على أساريره وميض زهو بالنفس لا يقـاوم مشوباً بتبكيت الضمير . ثم قال من غير أن أسأله :

– لعلك علمت انني ، أنا ايضاً ، قد تزوجت . ان زوجتي لن تتأخر في المجيء . انها عظيمة الرغبة في التعرف اليك : لقد حدثتها عنك .

– ألك أولاد ؟

– ابن واحد .

وأمسك عن الكلام ثم تابع بعد لحظة بلهجة متبجحة لكن كئيبة :

– ينبغي ان اقول إنني ، من زاوية الوضع المادي ، لا أشكو من شيء . فلي في المدينة شقة كبيرة ، لا بأس بها ، في بناية فاخرة في حي ارستقراطي في ميلانو ، ولديّ فيلا على شاطىء البحر ، في ليريشي ، وسيارتان ، واحدة لي وواحدة لزوجتي . ولدينا طاهية ، ووصيفة ، ومربية للطفل .. وهـذا كله على نحو نظامي .

– انني سعيد لك .

– سعيد بأنني نظامي ؟

– كلا ، سعيد لأن ما تسميه بوضعك المادي جيد جداً .

– آه ! حسبت انه سرك ان اكون في وضع نظامي .

وفجأة شرع يضحك مهـتزاً وكأنه ينتحب . وحدقت فيه ، ورحت بدوري اضحك وكأنه العدوى انتقلت منه إلي . ثم على حين غرة ، وكما تتوقف نافورة الماء عندما يغلق الصنبور ، كف كونسولو عن الضحك على نفس النحو الميكانيكي المفاجىء ، وعدت أنا الى جدّيتي . وقال كونسولو :

– حسناً .. هذا يكفي . ان الصديق يخلي الآن الساح لرئيس التحرير . قبل كل شيء ، يا فرانشيسكو ، يجب ان اقول لك شيئاً .

– ما هو ؟

– انك في الوقت الراهن من خيرة الصحفيين العاملين هنا .

– شكراً .

– لا تشكرني ليس هذا بمديح ، وانما الحقيقة . أنا أفهم في الصحافـة ، ولهذا اكرر : انت اليوم من خيرة الصحفيين العاملين هنا .

وبعد لحظة صمت تابع كلامه وهو يحدق فيّ بعينيه اللامعتين الزجاجيتين

الشبيهتين بعيني طير محنط :

– بودي فعلاً لو أعرف كيف تفعل لتكتب بهذه الطريقة .

– اي طريقة ؟

– بطريقة حديثة تماماً .

وادركت ان كونسولو يتملقني كما كان يفعل بالأصل قبل ستة أعوام . ولكنه كان يفعل ذلك في الماضي بتجرد ، في حين انه ليس من المستبعد اليوم ان يلجأ الى مثل هذا النوع من التملق المميز لعلاقات العمل التي يتملق فيها المرؤوس رئيسه ليفوز بالتقدم وزيادة الراتب ، ويتملق الرئيس مرؤوسيه ليحثهم على زيادة مردودهم . وعلى هذا فقد قلت بجفاء :

– ماذا تقصد بـ : حديثة ؟

فلم يجب كونسولو حالاً . انما تناول بيده الضخمة الكثة الشعر المزينة أصبعها الوسطى بخاتم ذهبي كبير ثقيل سيجارة من العلبة الموضوعة على الطاولة وأدخلها في مشربه العاجي الطويل وأشعلها بلهبة ولاعة ضخمة لها شكل وحجم جهاز الترانزستور . ولاحظت ان حركاته متكلفة مقلدة ، وفجأة فهمت : لم يكن كونسولو رئيس تحرير جريدتي ، وانما يتظاهر بأنه كذلك ، اي يمثل هذا الدور . لكن ما هو في هذه الحال ؟ ان نظرة الى عينيه الشاخصتين والزجاجيتين أوحت لي بفكرة غريبة ، لكن صحيحة على الارجح : ان كونسولو ليس سوى هذا السراب ، ليس غير توهمه بأنه رئيس تحرير ، وخارج هذا الوهم ، ليس لكونسولو وجود ، ليس له كنه ، اي انه يجد مبرر وجوده في اللاكينونة مع تظاهره بأنه كائن .

بيد ان كونسولو بعد ان استنشق نفساً من الدخان ثم نفثه جزئياً من فمه وجزئياً من منخريه المدببين المتشنجين الشبيهين بمنخري قرصان ، قال لي في النهاية :

– أتعلم يا فرانشيسكو ، ثمة رجال يتحدثون ، بصورة عارضة واحياناً

متهربة ، بعصرهم ويصبحون راهنين ، ان جـــاز التعبير . وأنت واحد من هؤلاء الرجال في عالم الصحافة . قد يتجاوزك احدهم غـــداً ولا يعود الناس يتكلمون عنك ، لكنك تكون ، اثناء ذلك ، قد وجدت الصيغة .

– أي صيغة ؟

– صيغة المقال الحديث .

سمعت من خلفي صوت الباب يفتح . ورفع كونسولو عينيه قائلاً : «آه! هي ذي جيويا » . فاستدرت ووقفت وأجرى كونسولو التعارف بحفـــاوة مليئة بالمغزى وكأنه يريد ان يقول : « هوذا فرانشيسكو ميريغي الذي طالما حدثتك عنه ، والذي كنت بأشد الرغبة في التعرف اليه ، والذي كان يرغب هو ايضاً في التعرف اليك ، هذا هو » .

نظرت الى جيويا وأنا أشد على يدها : ان البون الشاسع بين رحابة وجهها العريض جداً وبين نعومة تقاسيمها الدقيقة ذكرني ببعض الصور البدائية التي تصور العذراء منتفخة الخدين وكأنها مصابة بورم في أسنانها وناعمة التقاطيع في آن واحد . كان كل شيء في هذا الوجه العريض صغيراً ، الانف ، الفم ، الذقن ، بل وحتى العينان كانتا اشبه بشقين ترنو إلي من خلالها الحدقتان الصافيتان ، الخضراوان من الجائز ، بفضول عنيد . كانت جيويا صهباء الشعر بلون شجرة البلاذر . وكانت تصفف شعرها عالياً ومجعداً كما تريـد الموضة ، على شكل تاج ، وهذا ما كان يوسع ويطيل بيضوية وجهها الشاحب الملطخ بالكلف والمختل التناسب اصلاً . وكانت كتفاها ضيقتين ، وصدرها مسطحاً تقريباً ، وردفاها وساقاها ثقيلة مليئة. وكانت تصلب ساقيها، والتنورة مسحوبة الى ما فوق ركبتيها ، في فوضى قـــد تكون مقصودة تكشف عن برقشة قميصها الداخلي الابيض المرغية وحاشية الجراب الكتيمة ، ورباط المخـدم ، وعن جزء من فخذها العارية. وتناول زوجها يدها ورفعها الى شفتيه ثم وضعها على الطاولة محتفظاً بها في يده . وسألها :

– كيف حالك ؟ أحسنة ؟
– حسنة تماماً .

وارتفعت اليدان من جديد الى شفتي كونسولو ، ثم حطتا على الطاولة مرة اخرى وهما متعانقتان.وحدجت جيوبيا زوجها بنظرة جانبية وابتسمت له: فبانت أسنانها الصغيرة المشدودة الى بعضها بعضاً . وحفرت ابتسامتهـا في وجنتيها نقرتين عميقتين خبيثتين زادتا من عرض وجهها . وفيما أنا انظر الى جيوبيا وزوجها بينما هو يقبل يدها وهي تبتسم لي ، خالجني من جديد ، كما منذ قليل عندما أشعل كونسولو سيجارته،إحساس غريب بوهم يشكل بالنسبة الى جيوبيا وكونسولو الواقع الوحيد الذي يملكانه . ان جيوبيا وكونسولو ليسا خليلاً وخليلة ، وانما يتظاهران بأنهما كذلك . وعلى هذا ليس هما ما هما ، او بالاحرى انهما نتيجة تظاهرهما بما ليسا عليه .

وأستأنف كونسولو كلامه وهو ما زال يشد على يد زوجته في يده :

– تسألني ما هي صيغة المقال الحديث . وسأجيبك بصورة : انت تعرف الأدراج الدوارة في المخازن الكبرى ، والناس الذين يصعدون وينزلون وهم واقفون بلا حراك عليها ؟ حسناً لقد خلقت انت ما سأسميه المقال الصحفي العصري .

لم أتفوه بشيء ، إذ في هذه اللحظة بالضبط تلقى افتراضي عـــن وهمية العلاقات بين جيوبيا وكونسولو توكيداً غـــير منتظر . فقد كانت جيوبيا ، كما ذكرت ، جالسة بين كونسولو وبيني على الحافة الأضيق من المكتب . وفيما كان كونسولو يتكلم ، لاحظت ان جيوبيا ، بعد ان حدقت فيّ بإلحاح وكأنها تدرسني دراسة دقيقة مفصلة ، قد أطرقت عينيها ، وتركت جفنيها مسبلين وقد بدا عليها انها تنظر الى شيء ما بمحاذاة قدمي . فنظرت بدوري ورأيت قدم جيوبيا المحتذية تاسومة مدببة تتحرك باتجاه ساقي اليسرى التي كنت قد صلبتها على اليمنى . لكنها كانت تتحرك ببطء شديد حتى انه ما كان يبدو

عليها انها تتحرك ، واضطررت الى تركيز انتباهي حتى أقنع نفسي بأنهـــا تتحرك فعلا . ومع ذلك ، وفي اللحظة التي خيل إلي فيهـــا انني ما عدت أستطيع أن اشك في مناورة قدم جيويا ، رفعت عيني بتردد نحو كونسولو لأفهمه انني مصغٍ اليه . وقلت بلهجة غير ودية بعض الشيء :

– مقال دوار ، لا افهم ماذا تعني بذلك ؟

– دوار ، مماثل للأدراج الدوارة . ما هدف الأدراج الدوارة ، شأن كل آلة أخرى بالأصل ؟ توفير الوقت والتعب . ومقـــالاتك توفر على القراء الوقت والتعب . انهم يقفزون الى السطر الاول ، ثم ، ومن غير ان يبذلوا ادنى جهد ، بل من غير انتباه ، تقريباً ، يجدون أنفسهم كما لو بسحر ساحر عند السطر الاخير . انهم لم يتحركوا ، انما المقال هو الذي سار بدلاً منهم . بل انهم لم يقرأوا المقال ، انمـا المقال هو الذي انقرأ او بالاحرى قرأ نفسه بنفسه ، وبكلمة واحدة ، دار على نفسه .

وقلت بإبهام :

– رأي مثير للاهتمام ، لكن غير دقيق على الأرجح .

ثم خفضت عيني : كانت قدم جيويا تبدو الآن ساكنة مثل بعض الحشرات التي تتنقل ببطء شديد والتي لا يمكن قياس تقدمها إلا بالساعات ، لكنني تأكدت بمقارنة وضعها الحالي مع وضعهـــا السابق من انها تحركت . وتابع كونسولو :

– ان عالمنا يتهيأ لأن يصبح أكثر فأكثر عالم آلات ، آلات للإلباس ، آلات لأداء الخدمات المنزلية ، آلات للجري ، آلات للسرقة ، آلات للملاحة . ومقالاتك ، يا فرانشيسكو ، حديثة لأنها آلات صغـــيرة ، آلات صغيرة مناسبة تماماً للقراءة .

شعرت بالحرج . فإطناب كونسولو لي أكد نقطة فنقطة الفكرة السلبية التي كونتها عن نفسي وعن مقالاتي الصحفية . لكن ما يزعجني وينفرني أنا

ككاتب ، او على الأقل كطامح الى ان اكون كاتباً ، يبدو قيّماً لكونسولو، الصحفي المحترف . وقلت بشيء من المرارة :

— ليس ما تقوله مرضياً للكبرياء . فالمقال لا يجب ان يكون البتة ميكانيكياً .

— خطأ ، يا فرانشيسكو . فكل شيء في مكانه وزمانه . ان ما يحتاج اليه عصرنا هي مقالات كمقالاتك . لقد فهمت على نحو يستحق الاعجاب ان القارىء اليوم لا يحرص على القراءة بقدر ما يحرص على إيهام نفسه بأنه قد قرأ . ومقالاتك تعطيه هذا الوهم .

— لكن القراءة تعني ، او بالأحرى كانت تعني تفكيراً ، فهماً .

— خطأ ثان . القراءة تعني قراءة ، اي إنجاز عمليـــة القراءة المادية . وعملية القراءة ليس لها كبير دخل بالتفكير والتفهم .

لم أجب هذه المرة ، ونظرت الى كونسولو في صمت . كنت أشعر بأن شيئاً ما قد علق بحاشية بنطـــالي وراح يشده الى الأعلى وفهمت انه طرف حذاء جيوبا المدبب . كان كونسولو منهمكاً في الكلام ، وقد استفدت من اللحظة التي مثل فيها دوره المعتاد كمدير باختياره سيجـــارة وبإدخالها في المشرب وبإشعالها ، لأنظر الى قدمي . فرأيت آنذاك ان رأس حذاء جيوبا قد علق ، كما توقعت ، بحذاء بنطالي . وراحت تشده الى الاعلى كاشفة عن كعبي ، ثم ، بضربة عنيفة ، عن الجزء الاسفل من ربلة ساقي . ونظرت الى جيوبا التي كان وجهها يبدو اكثر عرضاً وتسطيحاً بسبب جفنيهـــا الطويلين المسدلين تحت حاجبيها الكثين اللذين على شكل زاوية حادة . وكان في تعبير وجهها شيء ما تأملي ، لكنه تأمل داخلي ذكرني بوجه بوذا المستغرق كما تصوره بعض التماثيل . وقال لي كونسولو بعد ان انتهى من تمثيلية سيجـــارته الايمائية :

— أرى أنك لا توافقني .

– انني أوافقك بشرط قلب حكمك .

– أي ؟

– انني موافقك على أن مقالاتي آلات للقراءة، لكنها كذلك لأنها مقالات رديئة .

– خطأ ، خطأ جديد . ان الأديب هو الذي تكلم الآن . ذلك انني أعرفك ، يا فرانشيسكو ، أعرف انك او بالاحرى تريد ان تكون اديباً قبل كل شيء ، وبعد ذلك صحفياً . لكن الادب، اعذرني ، قد أمسى شيئاً بالياً. انه من نتاج الصناعة اليدوية ، شأن تلك المقالات الادبية التي يكتبها معظم زملائك بالأصل . والحال اننا نعيش في عصر صناعي بكل ما في الكلمة من معنى ، ومقالاتك ، حمداً لله ، نتاج صناعي حقيقي ممتاز .

ومن جديد أطرقت عيني . كانت قدم جيويا قد عادت ساكنة ، لكن متوترة متحفزة لشد حاشية بنطالي بسكون وتوتر الحشرة التي بعد ان تقفز وتمسك بفريستها تمكث هنيهة من الزمن بلا حراك قبل ان تلتهمها . ونظرت الى جيويا، وللحظة من الزمن التقت أنظارنا،أو ، ان جاز التعبير، اندمجت كما تندمج أشعة عاكسي نور عندما يلتقيان ، وانتابني إحساس غريب فج بأن المدى كله قد تلون ، لثانية من الزمن ، بلون حدقتيها الأخضر وبأن عيني تضيعان في نور مرنق كنور حوض السمك . ثم ابتعدت نظرة جيويا عن نظرتي ، وشعرت في الوقت نفسه بانفراج توتر بنطالي حول ربلة ساقي ، ثم بسقوط الحاشية على كعبي . ونهضت جيويا : « روزاريو ، انني ذاهبة ،لدي عمل . سنلتقي في الفندق » .

وتعانق الزوج والزوجة على مرأى مني ولاحظت من جديد تباهيها المصطنع الخارجي بموقفها . لكني شعرت في الوقت نفسه بأن العناق كان سيحدث حتى لو لم اكن حاضراً وعلى نفس النحو المصطنع والخارجي . وما كادت زوجة كونسولو تختفي حتى استدار نحوي :

– لنعد الى عملنا . أتعرف لمَ امتدحت لك مقالاتك ؟ اولاً لأنني أحبها

صدقاً ، وثانياً وعلى الأخص لأنني قررت ، بالاتفاق مع مديرنا ، إرسالك في رحلة طويلة لإجراء تحقيق في الخارج جدير بك .

– اين ؟

– في الولايات المتحدة .

لقد لفظ هذا الاسم بكرم وأبوية رئيس يبشر مرؤوسه بترفيعه . وقد أحسست بأنه من واجبي ان أظهر عرفاني بالجميل فقلت :

– هذه المهمة ترضي غروري . لكنني متخصص ، كما تعلم ، في قضايا البلدان المتخلفة .

– على رسلك ! ستبدل . ستكرس آلاتك القارئة الصغيرة لبلد آلات الحياة .

وضحك ضحكة صغيرة ، مسروراً بما قاله ، ثم تابع :

– هذه المرة سيكون غيابك اطول من المعتاد : سنة .

وحتى قبل ان افكر انتفض فيّ شيء ما :

– سنة ، لا ، هذا مستحيل علي .

– لماذا ؟

فكرت بالأسباب التي جعلتني انتفض على هذا النحو . وفهمت ، بدون ادنى شك ، ان هذه الانتفاضة سببها النفور العميق البالغ العارم الذي ايقظته فيّ فكرة البقاء مثل هذه المدة الطويلة بعيداً عن بابا . وقلت في نفسي انني لن أستطيع ان أتحمل قضاء عام كامل من غير ان أراها وانني سأقترح على كونسولو القيام بسفرة لمدة ستة أشهر ، لكنني سرعان ما عدلت المدة في ذهني : ثلاثة أشهر ستكون كافية . وقلت في النهاية : اسمع ، لدي أسباب جدية تحول دون ابتعادي اكثر من ... لنقل شهراً ونصف شهر .

– ما أسبابك ؟

فترددت : ماذا ينبغي ان اقول له ؟ انني واقع في غرام ابنتي؟ وأجبت:

– لعلك تذكر انني كنت أطمح فيا مضى من الزمن الى كتابة رواية . وهذا الطموح ما يزال يراودني . لقد ... لقد جمعت مستندات غزيرة وأعتقد ان علي ، في أقرب فرصة ممكنة ، ان أقيم مدة طويلة في روما لأكتب هذه الرواية .

– رواية ؟ اي رواية ؟

– قصة رجل يقرر فجأة أن يكون منتبهاً .

– منتبهاً لماذا ؟

– لكل ما يحدث امام ناظريه .

– وماذا يحدث ؟

– اواه ! اشياء كثيرة !

– هي ؟

– زوجته ، مثلاً ، قوادة .

– وهو لا يعرف ذلك ؟

– كلا .

– أيعيش معها ؟

– اجل ، انه يعيش معها .

– يعيش معها ويجهل انها قوادة ؟ مستحيل .

– لمَ مستحيل ؟

– لأن بعض الاشياء المعينة ترى ، بل تشم ..

– لكن ..

– لكن ماذا ؟

– ان أزواجاً كثيرين ، على سبيل المثال ، لا يرون ولا يشمون ان زوجاتهم تخونهم .

– ليس الامر متماثلا . فمهنة القوادة شكل من النشاط أبرز واكثر ظهوراً

من الخيانة الزوجية . وفي هذه الحال، كيف يتوصل هذا الرجل الى اكتشاف مهنة زوجته ؟

– انه يكتشف ذلك لأنـــه يقرر فجأة ، كما قلت لك لتوي ، ان يكون منتبهاً .

– وماذا يفعل عند ذاك ؟

– لا شيء .

– أي ؟

– لا شيء ، يكتفي بأن ينظر .

– وإلامَ ينظر ؟

– الى الاشياء التي يراها .

– لكن النظر لا يكفي .

– لمَ لا يكفي ؟

– لأن بطل الرواية لا بد ان يتصرف ويعمل .

– ان بطل روايتي لا يريد ان يعمل .

– ولمَ لا يريد ان يعمل ؟

– لأنه لا يجد من داعٍ للعمل ، في حين ان دواعيه للنظر كثيرة .

– وما هذه الدواعي ؟

– دواعٍ قيّمة .

– وما سيكون اسم هذه الرواية ؟

– « الانتباه » .

– الانتباه .. لماذا ؟

– لقد لبث البطل حقبة طويلة من الزمن غير منتبه . وفجـــأة يصبح منتبهاً . ومن هنا كان العنوان : الانتباه .

– الانتباه ! ليس هـــذا بالعنوان السيء ! لكن أتعرف ما رأيي أنا ، يا فرانشيسكو ؟

– ما رأيك ؟

– ان هذا كله كان سيكون مثيراً للاهتمام قبل عشرين عاماً . ففي ذلك الوقت كانت تكتب روايات كروايتك .

– ماذا تقصد بهذا ؟

– أقصد روايات تطرح مشكلات اجتماعية ، اخلاقية ، بسيكولوجية . اما الرجل الذي يعيش ورأسه في الغيوم ، والمرأة التي تعمل اثنـــاء ذلك كقوادة ، واكتشافه من ثم الفضيحة ، فهذا كله هذر .

– لمَ هذر ؟

– لأن هناك اليوم مشاكل اخرى ، وعلى الأخص لأنه لم تعـد هناك من ضرورة لكتابة روايات ، حتى من زاوية نقد التقاليد والأعراف . عنـدما تمارس امرأة ما مهنة كتلك التي تتكلم عنها ، ينحل كل شيء بدون رواية : عن طريق مداهمة الشرطة ، واغلاق الماخور ، والبطاقة الصفراء للمومسات، وببضع سنوات من السجن للقوادة . ان هذه الاشياء تحدث يومياً .

– بالفعل ، انها اشياء تحدث يومياً .

– أما من حيث الإعلام فما حاجة الجمهور الى روايات ؟ انه يريد تحقيقاً صحفياً مكتوباً ببراعة ، دونما زخرفة ادبية، دونما زركشة ، مع احصائيات وأماكن واسماء ووقائع الخ ..

– لكنني لا أنوي كتابة رواية عن قوادة .

– عمّ اذن تريد ان تكتب ؟

– اريد ان اكتب رواية عن الانتباه .

كان كونسولو قد تلهى بقصة روايتي كما يتلهى الطفل بلعبـــة جديدة . وفجأة أصبح اكثر جداً :

– الاعتراض الوحيد الذي ما زلت أريد ان أبديه يتعلق بعنوانك .

– وماذا عنه ؟

– ان عنوانك ، اي الموضوع الذي يشير اليه هذا العنوان، « الانتباه »،

لا يبدو لي البتة حجة ذات طابع راهن . لو كنت مكانك ، أتعلم عما كنت سأتكلم ؟ عن اللاانتباه .

– اشرح فكرتك .

– أقصد قصـــة رجل لا يتوصل ، بالرغم من جهوده كافة ، الى ان يكون منتبهاً .

ونظر إلي وتحت شاربيه المتهدلين نصف ابتسامة . وقلت بصورة شبـه لاإرادية :

– أهي قصتك ؟

– انها قصة الناس جميعاً . ماذا تظن ؟ ليس هناك اليوم شخص واحـد يعي ما يفعله .

– عفواً ، هل تريد ان تقول انه يستحيل اليوم على الانسان ان يكون منتبهاً ، ان يشحذ انتباهه ؟

– نعم، هذا ما أردت قوله. وعلى هذا عندما تقول لي إن بطلك يتوصل الى ان يكون منتبهاً ، فإنني أحذرك : صحيح ان المسألة مسألة رواية، عمل خيالي ، لكن مثل هذه الاشياء لا تحدث في الحياة .

– ما الذي يحدث في الحياة ؟

– ليس في حياتي فحسب ، بل أيضاً في حياة الكثيرين من الناس الذين اعرفهم ، يحدث فقط ألا يتوصل المرء الى ان يكون منتبهاً حتى ولو اراد ذلك . ان كل شيء يفلت منه ، بهذه الصورة او تلك .

– تريد ان تقول ان كل شيء يفلت منك .

– كل شيء يفلت من كل الناس، يا فرانشيسكو. أتعرف بمَ أحس احياناً؟

– قل ..

– يصعب علي التعبير عن ذلك . يخيل إلي أنني خارج الزمان ، خـارج المكان ، قبل ألف عام أو بعد ألف عام ، لا في ميلانو ولا في روما ، لكن لست أدري أين . احياناً تسألني جيوبا ، وهي تعرفني ، لتمتحنني : «مـاذا

فعلت عصر اليوم ؟ » . واكون قد أمضيت العصر معها ، لكني لا أتوصل الى تذكر ذلك ، لأنني حين كنت معها لم اكن منتبهاً ، كما تقول ، وانما لامنتبه . اذن ، انني اكرر: سيكون من المفضل بالطبع ، لصالح الجريدة ، ألا تكتب تلك الرواية ، لكن اذا كنت تعتقد نفسك ملزماً بكتابتها ، فليكن عنوانها في هذه الحال «اللاانتباه» وليس «الانتباه» .

كان يمزح ، لكنني فهمت ان هذه طريقة للجم الانفعال الذي يخالج الشخص الذي يتكلم عن الداء الذي يشكو منه . وأضاف بسرعة :

– بالطبع ، ان هذا كله لا يمنعني البتة من العمل ومن أداء واجبي . انني اعمل ، وكيف ! والآن ، وبعد ، هذا الحديث المعترض الأدبي، لنعد الى ضالتنا . اذن ، تقول لي انك لا تستطيع ان تقضي اكثر من شهر ونصف شهر في الولايات المتحدة . فلنقل ثلاثة أشهر ولا نعد الى الحديث في الموضوع . اتفقنا ؟

– متى يجب ان أرحل ؟

– في أقرب وقت .

ونهضت :

– اتفقنا : في أقرب وقت .

ونهض كونسولو بدوره . وبعد ان كان قد تردد اثناء زيارتي بين موقف رئيس التحرير وموقف الصديق ، اختار الموقف الأخير لحظة انصرافي، وفيما كان يرافقني الى الباب مرر ذراعه بود حول كتفي :

– أبلغني بأسرع ما يمكن بموعد سفرك . انني راجع الى ميلانو غداً . اتصل بي هاتفياً الى هناك . يا عزيزي فرانشيسكو ، أتعلم ، لقد سررت حقاً بلقياك !

– أنا ايضاً .

وتعانقنا ، وربت كونسولو على كتفي ، ثم خرجت وأغلق الباب. لكنه سرعان ما أعاد فتحه ، وصاح بي من العتبة :

– دعك من روايتك عن تلك المرأة القيمة على الماخور . وتذكر ما قلت لك : لقد مات الأدب ، وولدت الصناعة . شياو ، يا صاحِ .

غادرت الدار بعجلة ، فقد تقت الى لقيا بابا . لكني عندما وصلت الى حيث سيارتي تبينت ان بابا ليست هناك . ومكثت برهة من الزمن ساكناً بلا حراك ، قرب السيارة، محتاراً . ثم فكرت بأنه من الممكن ان تكون بابا قد ابتعدت وبأنه من الأنسب أن أنظر قليلاً. وجلست في سيارتي وتناولت صحيفة كانت موجودة في داخلها وفتحتها . وفي هذه اللحظة سمعت الباب يفتح ، وجلس أحدهم بجانبي وسألت من غير ان أدير رأسي :

– أين ذهبت ؟

كان الصوت الذي اجابني مختلفاً كل الاختلاف عـــن صوت بابا : صوتاً حاداً ، غير متساوٍ ، جازعاً ، في حين ان ابنة زوجتي تتكلم بلهجة خافتة هادئة وقور :

– كنت مختبئة في المدخل . وقد مررت من غير ان تلحظني . فلنرحل بسرعة ، أتريد ؟

أدرت رأسي ورأيت بالطبع (كيف أمكنني ألا أتوقع ذلـــك مع كل إحساسي بحتمية الأشياء ؟) الى جانبي جيويا وليس بابا . ومن غير ان أبدي تفاجؤاً سألت :

– الى اين تريدين الذهاب ؟

– أقلع أولاً ، ثم نقرر .

كانت تبدو ، هي المستبدة الطباع الساخطة ، فريسة استعجـــال محموم كشخص وضع نصب عينيه هدفاً واضحاً محدداً وثارت اعصابه لأنه يضيع وقته في البحث عن وسائل ادراكه . لم أقل شيئاً ، وانمـا ناورت لأخرج من المكان الذي صففت فيه السيارة وصعدت باتجـــاه شارع فينيتو وجريت بأسرع ما أمكنني على طول كورسو ايطاليا .

– اين تريدين الذهاب ؟

– حيث تشاء . انني أفضل ان يكون عندك . أليس لديك عنوان فندق او غرفة مفروشة ؟ حتى في الريف ، اذا شئت . المهم ان نرجع بعد ساعتين كحد أقصى .

– بعد ساعتين ؟

– أجل .

– وماذا سنفعل خلال هاتين الساعتين ؟

– كيف ، ماذا سنفعل ؟ هيا ، أسرع ، انعطف من هنا نحو شارع سالاريا .

– أتعرفين روما ؟

– بديهي ، انني رومانية .

– رومانية ؟

– أجل .

– أيقطن أهلك في روما ؟

– أجل . ان أبي استاذ في جامعة الحقوق . ولي شقيقان ، واحد طالب ، والآخر مهندس ، ولي جدة ، وعدد من الخالات وابناء العم . ماذا تريد ان تعرف غير ذلك ؟

– لمَ فراغ الصبر هذا ؟

– ما حاجتك الى كل هذه المعلومات حتى تفعل ما سنفعله ؟ هيا بنا بأسرع ما يمكن الى حيث يجب أن نذهب ، وأرجوك ، دعنا من الكلام أثناء الطريق .

– وما الداعي لأن نمتنع عن الكلام ؟

– هل من ضرورة له ؟ لا حاجة للكلام ؟

– لا حاجة له ؟

– أجل ، ان كل شيء يكون أفضل اذا لم نتكلم عنه .

كان الاضطراب البادي عليها ، وهي جالسة جانبياً ، يتعاظم ، وكانت

تتكلم بعصبية وبعبارات مقطوعة . وكانت السيارة تجري بنـــا على طول شارع سالاريا . وفجأة أحسست بيدها وقد حطت على ساقي ، وأطرقت عيني بقدر ما تسمح لي القيادة . وفيما كانت جيوديا تتابع النظر قدامها عبر بلور السيارة ، مدت يدها الطويلة ، العصبية ، الدقيقة ، الخفيفة . ثم مررت أصابعها بحذاقة دقيقة وغير واثقة معاً ، مثل الأعمى الذي يرسم في الظلام حركات مستوثقة من نفسها ويعيشها بكل حرارتها عن طريق اللمس ، على طول عرى بنطالي ، وفكت الأزرار الواحد تلو الآخر ، ببطء ، بنعومة ، وكأنها تتذوق هذا البطء وهذه النعومة . وقلت :

– انتظري . انني لا أعرف اي فندق ولا أي غرفة تستأجر بالساعة .

– إذن ، هيا بنا الى الريف ، تابع في هذا الطريق إلى ان أطلب اليك الانعطاف .

– لكن أنت ، أين تقيمين في روما ؟

– اف ! ما أكثر أسئلتك ! إنني أقيم في الفندق ، أين تريدني أن أقيم ؟ انت لا تريد على كل حال أن تذهب الى فندقي ؟

فلم أحر جواباً . وعادت يد جيوديا الى مكانها بالقرب من يدها الأخرى على ركبتيها . وفي النهاية قالت :

– ألا تريد ؟

– كلا .

– لا تريد لأنك صديق روزاريو ؟

– كلا .

– أتحب امرأة أخرى ؟

– كلا أيضاً .

– إذن ، ألا أعجبك ؟

– ليس هذا السبب .

– ما السبب إذن ؟

– انني لا أشعر بالحاجة الى ذلك .

فلزمت الصمت برهة من الزمن. ثم قالت بلا جفاء وكأنها تلاحظ ملاحظة وهي مندهشة :

– إذن ، كثيراً ما يحدث لك ان تفعلي ما تفعلينه الآن ؟

– أجل .

– متى ؟

– في كل مرة أشتهي فيها ذلك .

فترددت ثم قالت بلهجة حردة وكأنها تخاطب نفسها :

– أفترض الآن انه لم يبق أمامنا غير الكلام . إذن فلنتكلم . حسناً ! أجل ، انني أشتهي ذلك كثيراً .

– في أي مناسبات ؟

– مناسبات كمناسبة اليوم .

– فصلي في كلامك .

– أبدأ بالتفكير بأنني أحب لو أتكلم ، لو أعرف الناس ويعرفوني . ثم، في اللحظة التالية ، وطالما أن الأمر ينتهي دوماً على هذا النحو ، أختصر .

– تختصرين ؟

– اجل ، إن الأمر لأقوى مني . انني أشعر بأنني سأفعل ذلك الشيء ، ولما كنت قليلة الصبر فانني أفضل ألا أنتظر . هذا منطقي ، أليس كذلك ؟

– بلى ، هذا منطقي .

– لمَ لا يبدو لك ذلك منطقياً ؟

– على العكس ، منطقي جداً ، بل اكثر مما ينبغي . ثم ؟

– ثم ماذا ؟

– بعد ان .. تختصري ؟

– تنتهي المسألة . لا أعود أشعر بالحاجة الى ان اتكلم ، الى ان أعرف الناس ويعرفوني . ينتهي كل شيء .

وساد الصمت بيننا لحظة من الزمن . وفجأة تابعت الكلام بقوة :

– مهما يكن ، فانني مسرورة بلقياك . كان روزاريو قد حدثني عنك ، وكنت تائقة الى معرفتك ، والآن تم ذلك .

فهززت برأسي علامة على الموافقة . وفكرت بيني وبين نفسي : ان كل شيء يجري حسب ايقاع محدد مسبقاً وطقسي بنوع ما : أولاً الشهوة ، ثم ما تسميه بالاختصار ، ثم التأكد من الصلة الجنسية الوشيكة ، ثم الرفض ، واخيراً العدول . وفكرت أيضاً : او ربما اتخاذ قرار بإرجاء كل شيء الى وقت افضل . وبالفعل أضافت :

– سيكون لنا عما قريب شقة في روما ، عدني على الأقل بأنك ستأتي للقائي فيها .

– حتى نفعل ماذا ؟

– حتى نفعل ذلك الشيء عندما نشعر بالحاجة اليه ، كما قلت لتوك .

– لا أعتقد بأنني سأشعر بالحاجة اليه أبداً .

– انت لا تستطيع ان تقول ذلك سلفاً .

– لكن أتستحيل معرفتك بطريقة اخرى ؟

– جرب اذا شئت ، لكنني مقتنعة من ناحيتي أنا بأنه لا وجود لشيء آخر يعرف .

– لماذا ؟

– ليس هناك لماذا ، انما الأمر هكذا !

– ماذا تعنين ؟

– انني اعرف حسن المعرفة انني لست سوى ذلك الشيء ، وفيما عداه لست شيئاً .

– لست شيئاً ؟

– لست شيئاً . بالتأكيد ، انني زوجة صالحة ، أم ممتازة ، ربة بيت

محنكة ، صديقة عطوف . وأتكلم لغتين ، ولديّ دبلوم في التمريض ، لكن هذا كله ليس بشيء ، في نظري على الأقل .

– انني أفهم .

– لم تضف شيئاً هذه المرة . وقدت بصمت عائداً نحو ساحـــة فيوم . وعندما وصلنا انتزعت نفسها من سباتها وقالت لي :

– قف سأنزل هنا .

وما كدت أقف حتى نزلت بسرعة ، وحيتني بابتسامة أظهرت ، للحظة من الزمن ، نقرتيها في خديهـــا الواسعين الشاحبين . ونظرت الى ساعتي . لم تكن العملية كلها قد استغرقت اكثر من نصف ساعة .

الجمعة ٤ كانون الاول

الدرج الدوار ، لا أقصد تشبيه كونسولو التمثيلي بصدد مقالاتي ، وانمـا الدرج الحقيقي لمخزن كبير، نقلنا اليوم، أنا وبابا، من أعلى الى أسفل ومن أسفل إلى أعلى ، من طابق الى آخر لشراء حاجيات منزلية عديدة لمنزل سانتورو الذي ما يزال فارغاً . فصاحبنا الطالب لا يملك الوقت للاهتمام بهذه الأشياء . وقد تكلفت بابا بفرش الشقة ، مصطحبة إياي ، الشيء الذي لم يكن سوى ذريعة جديدة من ذرائع مخططها عن علاقاتنا كأب وابنة .

وصعدنا الى السيارة وأذرعنا موسوقة بالعلب والصرر . وسألتني بابا :

– أيزعجك أن ترافقني الى شقة سانتورو ؟ ستستطيع ، بهذا الشكل ، ان تراها .

– انني لا أحرص على ذلك البتة .

– على كل الاحوال ، يجب ان أذهب اليها لأضع فيها كل هذه الاشياء . ألديك وقت لأخذي اليها ؟

– بالنسبة الى هذا ، أجل .

وهكذا انطلقنا من ساحة فيوم لنذهب الى ساحة بولونيا التي على بعد خطوتين من منزل سانتورو . ولم افتح فمي طوال الرحلة . كنت أشعر بالتعب والنرفزة من كثرة ما ذهبنا وأتينا داخل المخزن . وكنا قد وصلنا الى شارع نومنتانا عندما سألتني بابا فجأة :

– ما مآخذك على سانتورو ؟

فأجبت بجفاء :

– لا مآخذ لي .

– ... لكن ...

– لكن ماذا ؟

– لكأنك لا تستلطفه .

– هذا غير صحيح .

– على كل ، ستكون على حق .

– لمَ سأكون على حق ؟

– ان أباً يحب ابنته لا يستطيع ، في صميمه ، ان يرحب بزواجها ومغادرتها البيت .

– آه ! أهكذا تقولين ؟

– أجل ، هكذا .

– إذن على الأحماء ان يبغضوا أصهارهم كما تبغض الحموات كناتهن ؟

– تقريباً ...

ولزمت الصمت من جديد . وقطعنا كل شارع نومنتانا الطويل المستقيم ، المنقط ، على مد البصر ، في الظلمة المدخنة ، بومضات متحركة . وعند احد المفترقات انعطفنا ووصلنا الى ساحة بولونيا، وتقدمنا في شارع جانبي، وتوقفنا امام بناية كريهة المنظر فستقية اللون . وقالت لي بابا فيما نحن ندلف اليها :

– هناك ستة طوابق ، لكن المصعد معطوب .

– اذن ؟

– أيناسبك ان ترتقي ستة طوابق ام تريد ان نترك هـــذه الصرر لدى البواب . سيتدبر سانتورو أمره ليصعدها بنفسه .

– أليس هو الآن في البيت ؟

– كلا .

– حسناً ! فلنترك الصرر للبواب .

ولم تقل شيئاً، ورأيتها تذهب الى آخر الدهليز ، وتدق على زجاج مقصورة البواب ، وترنو الى الداخل ، وتدق من جديد . ثم رجعت أدراجها نحوي :

– البواب غائب . ولن نستطيع ان نترك صررنا . يجب ان نصعد بها . معي المفتاح ، وبهذه الصورة سأريك الشقة .

– هيا بنا .

وشرعنا نرتقي ، الواحـد تلو الآخر ، الدرج الذي يحول ضيقه دون صعودنا معاً . بابا امامي ، وأنا خلفها ، من طابق الى آخر ، من قرص درج الى آخر . كانت بابا تصعد ببطء ، متلبكة بالصرة الكبيرة التي تحملها بـــين ذراعيها . وكنت أحمل انا نفسي صرة مشابهة . وأدركت انني أنظر بانتباه فائق ، او بالأحرى أرى بوضوح غير مألوف جميع تفاصيل الدرج الذي نرتقيه . كان الدرابزون مصنوعاً من مجموعة من القرميد الملون المثبت بالاسمنت، وكانت الجدران صفراء فاتحة بآساسها الصفر القريبة من لون الخردل، وكانت الدرجات من الرخام الابيض الوسخ والمغبر . كان الدرابزون على شكل زاوية قائمـة . وعند كل قرص درج كان هناك بابان وسلتا قمامة . وكانت الأقراص مبلطـة بنفس قرميد الدرابزون الملون . وبالرغـــم من أن الوقت كان غسقاً لم تكن المصابيح قد أضيئت بعد ، وكان الدرج غارقاً في ملس من الظلام . وقلت في نفسي إنني اذا كنت أنظر حولي بمثل هذا الانتباه واذا كنت ارى الاشياء كلها بمثل هذا الوضوح ، فهذا لأن نظري الثاقب الشديد الانتباه كان مركزاً في البدء على بابا التي كانت تصعد أمامي ، ثم حرفته عنها لأركزه على شيء آخر . وبعد هذا التفكير ، صعدت طابقين آخرين ، ثم رفعت نظري الى بابا

ولمحت ، في الظلمة شبه الليلاء، ردفها وذراعها ويدها الموضوعة على الدرابزون ، واخيراً وجهها نصف المستدير نحوي لتنظر إلي خلسة من فوق كتفها ، وقرأت في نظرتها نفس الفكرة التي راودتني ، او بتعبير أدق ، نفس الإحساس المسبق بما سيحدث . وقلت في نفسي عندئذ انني كنت اخاف دوماً وفي الوقت نفسه أتمنى أن ألقي نفسي في العدم . والحال ان هذه السقطة في العدم على وشك ان تحدث الآن ، بأبسط صورة دراماتيكية ممكنة ، كما تحدث الاشياء في الحياة اليومية : في سياق ظرف تافه الأهمية ، يقبل به المرء بسرعة ، ومن غير سابق تصميم ، تحت وخز إغراء مفاجىء ، بلا تهيئة مسبقة ، على محمل الصدفة ، بصورة سلبية صرفة .

ووصلنا الى النصف الاول من درج الطابق السادس ، ثم الى النصف الثاني وقرص الدرج غارق في عتمة شبه تامة . وصلت بابا الى القرص قبلي ثم استدارت . وارتقيت الدرجة الاخيرة ، وكما توقعت وأملت وخشيت ، سقط كل منا بين ذراعي الآخر .

انسحق فم بابا على فمي ، وانفتح وتلوى مثل جرح فاغر الشفتين انسحق على سطح صلب . ثم دار في فمي ، وغاص وهو يدور ، وفيما هو يتابع غوصه ودورانه انفتح على رحب مثل فكي حيوان زاحف ، مشكلاً قمعاً فارغاً ، أسود ، حاراً ، جافاً طفحت حوافه بلعاب بلل ذقنينا وخدودنا . وتابع القمع دورانه وانفتاحه وكأن بابا تريد ابتلاعي ، وفي قراره الذي كان يزداد اتساعاً وحرارة وفراغاً وسواداً أحسست بلسانها المدبب ، القاسي المبرود ، الذي كان يتقدم بين الفينة والفينة وينسحب بسرعة تشنجية .

وانتهت القبلة لأن مصباح الدرج المطمئن الأصفر أضاء فجأة وكأنه يريد حرماننا من حماية الظلام وتواطئه . وعلى الفور انفصلنا . ومالت بابا نحو الباب ، ربما لتخفي وجهها الملطخ بأحمر الشفاه والمبلل باللعاب ، وفتشت في الوقت نفسه عن المفتاح في جيوب سترتها. وبقيت أنا بعيداً عنها بعض الشيء ،

وشاهدتها تنقب في الحقيبة المتدلية من كتفهـــا ؛ ثم تتخاص من الصرة التي كانت ما تزال تمسك بها تحت ذراعها ، وتضعها في زاوية ، وتقلب محفظتهـا لتسقط كل ما فيها أرضاً . ورنت أشياء عدة على البلاط ، لكن لم يكن بينها مفاتيح الشقة . وقرفصت بابا ، وبحثت بين الأشياء المبعثرة ، ثم نهضت على مهل ، ونظرت إلي من جديد ، وفي النهـاية أخذت تضحك بتباهٍ وإلحاح . وكما حدث قبل يومين مع كونسولو ، انتقلت إلي عدوى ضحكها وانفجرت مقهقهاً بدوري . ضحكنا معاً مدة لا بأس بهـا . ثم توقفت بابا وعدت الى جدي ، وقرفصت من جديد ارضاً ، وأعادت كل أشيائها الى حقيبتهـــا ، ونهضت وقالت لي :

— العناية الالهية شاءت ، أليس كذلك ، أن أنسى مفتاح الشقة ؟

— العناية الالهية، بالفعل .

— اعذرني ، لم أكن أضحك منك ، وانما من نفسي .

— لماذا ؟

— اواه ! هأنذا عدت الى «لماذا». لأنني حريصة على ان نكون اباً وابنة. انني لا اريد شيئاً آخر ، أقسم لك . فلأمت ان لم يكن ذلـــك صحيحاً ! لكنني ، على العكس ، سقطت في ذراعيك عند اول مناسبة، وعـــلاوة على ذلك ، عند باب خطيبي . إن في هذا ما يضحك ، أليس كذلك ؟

— بلى ، إن فيه ما يضحك .

— لست بحاجة الى ان أقول لك إن هذه القبـــلة يجب ان تبقى الاولى والاخيرة ؟

— كلا ، لست بحاجة الى ان تقول لي ذلك .

— والآن ، قل لي شيئاً يقوله أب لابنته .

— ماذا تعنين ؟

— قل لي شيئاً أبوياً .

كنا نهبط الآن ، لكني كنت أنا الأول هذه المرة . وفكرت لحظة ، ثم قلت بلطف :

– بابا ، كفي عن التفوه بالحماقات ، اسكتي .

فأخذت تضحك ، ووضعت يديها على كتفي ، وجعلتني أتدحرج تقريباً الى أسفل الدرج بدفعها بي وبقفزها ورائي . وكان البواب موجوداً هـذه المرة ، فتركنا عنده صررنا ، ثم صعـدنا الى السيارة ، وأدرت زر الراديو بأعلى صوته ، وعدنا الى البيت من غير أن ننبس ببنت شفة .

لكني بعد ان دخلت الى غرفتي وجلست امـام آلتي الكاتبة ، ورحت أنظر متردداً الى الورقة البيضاء التي وضعتها على الآلة ، شرعت فجأة ، بصمت ، أشد على شعري بشراسة وأصفع نفسي ، وفي النهاية توقفت ولبثت مخبولاً : لقد قبلت بابا وأنا نادم على ذلك ، هذا شيء يمكن فهمه ، لكني لا أتوصـل الى فهم السبب الذي يجعلني أعلق هذا القدر من الاهمية على تلك القبلة الـتي آسف لها في الوقت نفسه عميق الأسف .

فكرت ملياً ، وفي النهاية نفضت عن نفسي ذهولي ، وأشعلت سيجـارة ، وضربت يومياتي على الآلة بتدقيق ، بأمانة ، من غير أن أضيف شيئاً ومن غير أن أحذف شيئاً من كل ما حدث في عصر اليوم ، بدءاً من اللحظة التي خرجت فيها من المخزن الكبير الى حين عودتي الى البيت بعد الزيارة المخفقة لشقة سانتورو .

ثم أعدت قراءة ما كتبته وفهمت آنذاك دافـع ثبوط همتي . فهو يعود مباشرة الى الطريقة التي وصفت بها قبلة بابا .

لقد حللت هذا الوصف الطويل (١٥ سطـراً) وبدت لي كل كلمة تقريباً معبرة عن إحساس بالقرف والخوف والشناعـة . والحال ان هذه القبلة كانت على العكس ، بالنسبة إلي كما بالنسبة الى بابا في الواقع ، قبلة حب سوي تماماً ، كلها استسلام وعذوبة الى حد التلاشي والنشوة .

لكن ما وصفته في يومياتي لم يكن القبلة بقدر ما كان الشعور الذي سبقها

وثلاها . قبل القبلة ، شعور بانجذاب مأتمي وبعدها ، شعور بتبكيت فظيع. انجذاب وتبكيت : إذن لم تترافق هذه القبلة لا بعذوبة ولا باستسلام ، وانما بقرف وخوف وشناعة .

ان ما يثبت لي تحول القبلة هذا من الشيء البريء الذي كانته الى شيء فظيع هو اختيار الالفاظ والاستعارات . ففم بابا هو « جرح فاغر الشفتين »، وفكاها « فكا حيوان زاحف » مثل « قمع فارغ ، أسود ، حار وجاف » . وصورة الثعبان الذي يبتلع فريسته تعاود ظهورها في وصف اللسان « المدبب، القاسي والمبرود» الذي يتقدم بين الفينة والفينة ثم ينسحب بسرعة تشنجية».

وبتعبير آخر ، إنني بالتأكيد أحب بابا ، لكن ليس في صميم حبي لها دافع طبيعي فائق الوصف ، وانما فكرة السفاح من حيث انها اغتصاب ومن حيث انها عدم . وهذه الفكرة ، أو بالأحرى هذه الايديولوجيا ، لا تقل عدم أصالة عن الأيديولوجية التي حفزتني في الماضي على حب كورا والزواج منها . والحق ان بابا ، عند إمعاني في التفكير ، ليست تلك التي يحلو لي ان أتصورها ، تماماً كما أن كورا لم تكن في الواقع لا ابنة شعب ولا بغياً ولا سارقة . وبالفعل ، فور زواجي من كورا اكتشفت انهـــا بكل بساطة : كورا . تمامـــاً مثل تأكدي من أنه يكفيني أن أصبح عشيق بابا لأكتشف أنها : بابا .

لكن عاطفتي ازاء بابا تغذيها في الوقت الراهن وتلهمها وترعاها فكرة السفاح بوصفه انتهاكاً لمبدأ وقفزة في العدم . وعلى هذا فاللاأصالة تنتقل من هذه الفكرة الى حبي ، ومن حبي الى وصفي القبلة ، اي الحب العملي. لكنني نقلت الى يومياتي ، بخلاف حقيقة القبلة ، زيف عاطفتي ، هذا الزيف الذي لن يكون هناك مناص ، فيما بعد ، من انتقاله الى روايتي .

إذن يبدو ان اللاأصالة كانت كامنة في العمل بالذات ، في لحظة الفعل . وهكذا يتضح مرة أخرى ان اللاأصالة هي في لب الأشياء بالذات ، في

تركيبها ، اي في المادة المنسوج منها الواقع بالذات . ولم يكن يمكنني إلا ان أتصرف بصورة غير أصيلة ، تماماً كما انه لا يمكن للمرء إلا أن يكتب روايات غير أصيلة مادامت الرواية التي لا فعل فيها ليست برواية . لكن بين الفعل في الرواية والفعل في الواقع يوجد فرق محدد وهو ان الفعل في الواقع ، حتى وان كان غير أصيل ، هو فعل « فاعل » ، في حين أن الرواية غير الأصيلة هي رواية رديئة غير « فاعلة » .

وفجأة طرحت على نفسي السؤال التالي : « لكن هذا كله ليس في خاتمة المطاف سوى عاصفة في فنجان . ان عليك ان تضرب مثالاً اكثر اهميـــة وإقناعاً من المثال الذي تستخدمه » . وأشعلت سيجارة ، وفكرت ملياً وأنا أدخن ، وقلت في نفسي: « هوذا رجل جدير بكل ازدراء ، حقير من وجهة النظر الاخلاقية والفكرية ، مخاوق سوقي ، مدعٍ ، كذاب ، حقود ماجن ، منكد ، قاسٍ ، عديم الشفقة ، دموي ، مسخ وضيع ، لكنه يتمتع بقدرة خارقة على الديماغوجية ، أشبه بمحرك طائرة قوي مركب على هيكل سيارة بائس . وقد جنى هذا المسخ طوال سنوات القيامات الايديولوجية في الحانات والمقاهي والمهاجع العامة في فيينا،ومزج هذه النفايات بحقد السلطة وفجورها ليستخلص منها ماهية رسالة سياسية مضللة ، اي غير أصيلة بالمرة ، وبفضل التبشير المحموم بهذه الرسالة استولى على السلطة ، وجر في إثره أمة بكاملها ، وحولها الى جمعية من آكلي اللحوم البشرية ، وأفلتها على العالم بأسره،وجعلها تقترف باطمئنان ضمير افظع الجرائم ، ليلقي بها في خاتمــة المطاف في اكبر فاجعة عرفها تاريخها ، فمات منها الملايين ، ودمرت مدن لا يحصى لها عد ، وكابدت من آلام وأحزان لامتناهية . هي ذي اذن اللاأصالة على مستوى التاريخ ، اللاأصالة وقد اصبحت هي نفسها التاريخ ، وبقيت ، بالرغم من تحولها الى تاريخ،على ماهيتها التي ليس في وسعها ألا تكونها.هذا ما غير وجه العالم بالنسبة الى قرننا على الاقل ، تشنج الفساد هذا ، تقيؤ اللاواقع هذا ، دوار اللاأصالة هذا » .

وتساءلت عن السبب الذي جعل وجه هتلر يحضر الى ذهني لحظة تفكيري ببابا . وتذكرت آنئذ ان بابا نفسها قد شبهت التجربة التي جعلتها كورا تكابد منها وهي في الرابعة عشرة من العمر بتجربة المعسكرات النازية . وكانت قد قالت لي ان بعض الاشياء هي من الضخامة بقدر الى حد لا يمكن معه استخلاص شيء منها وانه لا مفر من اعتبار ان الآخرين هم الذين عاشوها. وآنئذ فهمت معنى ذلك كله : فاللاأصيل هو ما يفعل ، ما ينفعل ، ما حكم عليه بأن يفعل ، لكن من غير ان ينظم نفسه ويطور ذاته في الديمومة ، فتراه ينحل في ما هو يومي ، أي في سلسلة عبثية من أحداث لم يعد لموت هتلر في برلين في سياقها من أهمية تتجاوز أهمية توثب كرة أطلقها طفل يلعب في باحة .

وهنا عاد بي فكري الى بابا التي كانت السبب الاول لهذا التأمل الطويل، وقلت في نفسي : أليس من العبث ، بل من السخف ، ان يتملك اليأس انساناً فعل شيئاً لم يكن يريد فعله (تقبيل ابنة زوجته على سبيل المثال) ، لا لأنه أتى أمراً كان ضميره يحرم عليه ان يأتيه ، بل لأن الرواية التي يفترض فيه ان يروي فيها تفاصيل هذه القبلة ستتأذى بنتيجة ذلك ؟

لكن الجواب جاء بسرعة : « كلا ، ليس في ذلك لا عبث ولا سخف ، لأن ضميري وروايتي شيء واحد أوحد على الأقل في حالتي ، ولأنه يستحيل عليّ ان أفرق بينهما » .

الاثنين ٧ كانون الاول

رغبة في إرضاء بابا التي تلح على ان أخاطب كورا لإقناعها بفحص نفسها من قبل طبيب ، خرجت من بيتي هذا المساء لأذهب سيراً على قدمي الى محل الخياطة . وكنت أنوي ان انتظر ان تنتهي كورا من عملها ، ثم أرافقها لأحدثها عن صحتها اثناء الطريق .

لكنني عندما وصلت الى الشارع حيث محل الخياطة رأيت كورا تخرج منه . لم تكن بمفردها ، وانما كانت ترافقها فتاة صغيرة ، واحدة من اولئك المستخدمات الصغيرات اللواتي ينفذن مختلف المهام ، بدءاً من حمل الملابس الى البيوت الى الذهاب لشراء سجائر للزبونات . كنت قد وصلت الى مقربة من باب المنزل ، فاختبأت خلف جذع شجرة دلب ، ونظرت الى المرأتين اللتين توقفتا على حافة الرصيف بانتظار توقف موجة السيارات على الطريق الرياضي. كانت كورا ترتدي طقماً أحمر داكناً ، لونها المفضل ، وكانت تسند يدها على كتف الفتاة الصغيرة ، يداً بدت لي امتلاكية ومهددة معاً مثل يد جزار يمسك برقبة النعجة التي يتهيأ لنحرها ، ولم تكن الفتاة تتجاوز الرابعة عشرة من العمر . كان شعرها أسود بهياً يتلألأ تحت انعكاس نور لافتة النيون التي تعلو مخزناً قريباً . وقد استدارت هنيهة من الزمن لتراقب السير ، ورأيت وجهها الزيتوني اللون ، الجنوبي ، الأشبه بوجه غلام ، يشع منه بياض عينيها الداكنتين ، المؤنثتين للغاية ، المحاطتين بدائرتين بنفسجيتين ومجوفتين،وكأنهما تشكوان من تعب لا يطاق . نظرت اليها بانتباه ولم يفلت من نظري شيء منها : الطريقة اللاشعورية التي تنهدت بها على حين فجأة وشدت بيديها كنزتها الحاكة على صدرها الصغير، تنورتها الضيقة القصيرة التي تنتفخ بدءاً من الردفين وتكشف عن ركبتيها العاريتين ، جوربيها القصيرين الأسودين كالجوارب التي ترتديها الفتيات اللواتي في عمرها ، وحذاؤها بكعبه العالي كذاك الذي تنتعله المرأة البالغة . وبصورة آلية انتقلت يد كورا من كتف الفتاة الى رقبتها . وانحنت الأخيرة الى الأمام لتنظر الى اضواء السير . وكلمتها كورا ، المنتصبة باستقامة وبلا حراك ، وعيناها شاخصتان الى قارعة الطريق ، وأجابت الفتاة ملتفتة اليها ، فظهر بياض عينيها في وجهها البرونزي . ثم انقطع تدفق السيارات ، فعبرتا الشارع ، الواحدة بجانب الأخرى ، لكن يد كورا كانت قد تحركت مرة اخرى وأمسكت بذراع الفتاة من تحت إبطها كأنها تسندها وتحملها ان جاز التعبير فوق قارعة الطريق .

واتجهنا نحو موقف السيارات المواجه وتعرفت فيه سيارة كورا. وفتحت هذه الباب ودارت الفتاة بسرعة حول السيارة وصعدت . وصعـــدت كورا بدورها ، ولمحت لهنيهة من الزمن جانب وجهها الصارم وقد تدلت عليه خصل مشعثة من شعرها الأسود ، ثم شرعت السيـــارة تتحرك وأخذت مكانها في موج السيارات على الطريق الرياضي وتوارت .

لبثت هنيهة من الزمن واقفاً بلا حراك خلف جذع شجرة الدلب وعدت أدراجي على مهل إلى بيتي . ورحت أقول في نفسي إن مـا رأيته طبيعي عادي : امرأة وفتاة ، وربما أم وبنت او سيدة وخادمـة او ايضاً مربيـة وتلميذة . لكنني كنت أعلم في صميمي أن هذا غير صحيح أو انه لا يمكـن أن يكون هكذا ، وأن ما رايته يمكن أن يكون (بيد انني لست متأكداً من ذلك) مشهد إغراء . ولا ريب في أن اختيار كورا وقـــع ، من بين عاملات المحل ، على بنت الأربعة عشر ربيعاً لتقودها الى منزل شارع كاسيا حيث ينتظرها زبون من زبائن مهنتها الثانية . بالضبط مـــا فعلته قبل ستة أعوام مع بابا .

بيد ان الحقيقة تجلت لي فجأة . فمـــا رأيته كان بالفعل مشهداً عادياً ، حتى في الواقع الذي يختفي خلف الظواهر . حقاً لم يكن هذا المشهد غير تفصيل تافه في المجرى الدائم الوحيد النسق للحياة اليومية ففي تلك اللحظة، على الرصيف نفسه ، وجد مارة لا يحصى لهم عـــد . وكان في وسعي ان أفترض ، بكل منطق ، الاشياء نفسها عن الجميع كما في وسع أي امرىء ان يفترضها في كورا ، وليس هذا لأن حيـــاة هؤلاء المارة تشبه في تفاصيلها حياة كورا ، بل لأنه لم يكن هناك من شيء قادر على التمييز بين هـــذه الحيوات (ولو كانت بريئة) وبين حياة كورا ، لا شيء جوهري ومتمايز . وبالفعل ، ان جميع هذه الحيوات تساهم بصورة أو أخرى في ما لا أستطيع أن أمسك نفسي عن تسميته بالفساد والذي ليس هو ، على العكس ، سوى المسار الطبيعي اللامنقطع اللامحسوس للحياة اليومية العبثية اللاأصيلة .

الاربعاء ٩ كانون الاول

اليوم ، بعد الظهر ، في وقت لم تكن فيه بابا في البيت ، خرجت بلا تفكير تقريباً ، وبدافع لايقـــاوم ، من غرفتي ومضيت مباشرة نحو باب كورا وقرعت .

سمعت صوتها يقول لي ان ادخل، فدفعت الباب ورأيتها جالسة على سريرها، جذعها خارج اللحاف ، مستندة الى الوسائد ، ومتدثرة بروب دي شامبرها الأحمر المعتاد . ولاحظت انها لم تكن تفعـــل شيئاً ، لا تدخن ، لا تتصفح مجلات ، لا تقرأ صحفاً . وكان الهاتف على طاولة سريرها ، بجانب المصباح ، يمكن ان يوحي بأنها تتابع ، وهي على فراش المرض ، تسوية شؤون مهنتها السرية . لكن لم يكن هذا سوى افتراض ليس إلا. والواقع انها كانت جالسة بلا حراك ، وكأنها تفكر او تتأمل في شيء خارج عنها لا يدع وسيلة لفهمه ولا لنسيانه .

ومن العتبة سألت :

– هل استطيع ان ادخل ؟ اريد ان اكلمك .

فأدارت رأسها ونظرت إلي ملياً ثم قالت :

– تريد ان تكلمني ؟

فدخلت واغلقت الباب وتقدمت لأجلس على الاريكة الموضوعـــة قدام السرير . وقلت على سبيل التمهيد :

– البارحة ، ذهبت الى ورشتك . لكنني في اللحظة التي وصلت فيها بالضبط كنت انت تخرجين . لم تكوني بمفردك انما كان معك بنت صغيرة .

– آه ! اجل ، موريليا .

– من هي موريليا ؟

– فتاة تعمل عندي في حمل الملابس الزبائن .

- ما عمرها ؟
– ستة عشر عاماً .
– تبدو أصغر بعامين .
– اجل ، اذا رأيتها في ثيابها ، خيل اليك انها ضعيفة النمو . لكن هذا الظاهر ليس إلا . لو رأيتها عارية ، لذهلت ! ان لها صدراً يتدلى من الآن مثل صدر امرأة في الاربعين .
– أهي فتاة شريفة ؟
– ماذا تعني بشريفة ؟
– ألا تعرفين ماذا تعني هذه الكلمة ؟
– ما يهمك أن تعرف أهي شريفة أم لا ؟
– اواه ! مجرد فضول ...
– الفتيات جميعاً يدعين انهن شريفات . لكن ضعهن على المحك ، وسترى انهن كالكستناء ، جميلات من الخارج وفاسدات من الداخل.
كانت تتكلم من بين أسنانهـــا ، بلهجة ازدراء وتهجم ، ولم أستطع منع نفسي من التفكير بأن هذه اللهجة هي فعلاً لهجة القوادات اللواتي يحططن من قيمة بضاعتهن ، بعكس باقي التجار ، ليارسن مهنتهن بقلب خفيف ، نافيات عنها بشراسة وإصرار كل كرامة انسانية . ولزمت الصمت برهة من الزمن ثم خطرت لي فكرة غريبة : مادامت كورا تخفي مهنتها وراء مهنةالخياطة، فسوف أحدثها عن ورشتها ملمحاً فيالواقع باستمرار الى مهنتها الثانية . كنت اريد ان ارى ما وقع ذلك عليّ ، وبخاصة ما وقعه عليها . وقلت :
– لنتكلم قليلاً عن مهنتك . فالنساء عادة ، على الأقل هنا في ايطاليا ، لا يفعلن من شيء البتة . اما انت على العكس فتعملين . أيزعجك ان اطرح عليك بعض الأسئلة بصدد مهنتك ؟
– لكن ليس ثمة من مجال للحديث عنها . فهي مهنة كغيرها .
– صحيح انها مهنة كغيرها . بيد انها تختلف ايضاً عن غيرها .

– تختلف ، لمَ تختلف ؟
– في شتى مظاهرها الفنية والتجارية والانسانية ...
– جائز ...
– اذن ، أيزعجك ان اكلمك عنها ؟
– كلا ، ولمَ سيزعجني ذلك ؟ لكنني اكرر عليك بأنها مهنة كغيرها .
– معك حق . لكن قولي لي ، هل لديك زبائن كثيرون ؟
– بين بين ..
– لمَ بين بين ؟
– لأن الايام ليست طيبة ، ليس هناك مال ..
– بيد انني كنت اعتقد ان في مهنة كمهنتك ليس هناك من ايام غير طيبة . فسواء أكان هناك مال ام لم يكن ، يظل الناس بحاجة الى البضاعة التي تقدمينها .
– بالتأكيد ، لكن المادة الاولية غالية الكلفة . والمفلسون لا يقدمون على شرائها .
– كيف تنظمين عملك مع زبائنك ؟
– ماذا تقصد ؟
– أنت تسجلين جميع الاسماء مع العناوين وارقام الهاتف ، أليس كذلك؟
– بالطبع .
– اين تسجلين هذا كله ؟
– يا له من سؤال ! في دفتر .
– صفي لي هذا الدفتر .
– انت مجنون !
– لست مجنوناً ، وانما فضولي .
– انه دفتر كغيره .
– ابذلي جهداً ...

– حسناً ! انه دفتر كالآلاف غيره ، من تلك التي تسجل عليها العناوين . اعتقد ان ظهره أسود ، وغلافه معرق .

– واللون ؟

– لا أدري : أحمر وأبيض ، على ما يخيل إلي ...

– هل الأسماء مسجلة فيه حسب الترتيب الأبجدي ؟

– بالتأكيد .

– لكن في هذا الدفتر أسماء أخرى غير أسماء زبائنك ، أليس كذلك ؟

– بديهي .

– أي أسماء ؟

– لا أدري ، أسماء عاملات ، موردين ...

– بمختصر الكلام ، انه دفتر عناوين لامرأة أعمال ، كما أنت بالأصل .

– وعندما يصبح الثوب جاهزاً ، تتصلين بالزبونة هاتفياً لتأتي وتقيسه ؟

– أجل .

– كيف تقولين لها ذلك ؟

– على رسلك ! دوماً الشيء نفسه : ثوبك جاهز للقياس . تعالي في يوم كذا الساعة كذا .

– أهذا ما تقولينه ؟

– أجل .

– وهن يأتين حسب الموعد ؟

– انها مصلحتهن .

– كم من الوقت يستغرق القياس ؟

– القياس يمكن ان يدوم خمس أو عشر دقـــائق ، كما يمكن أن يدوم نصف ساعة .

– أو ساعة ؟

– ساعة ، كلا .

– لِمَ لا ؟
– لأن لدي عملاً ولا استطيع ان أضيع وقتي مع زبونة واحدة .
– كيف هن زبوناتك ؟
– كيف هن ؟ ماذا تقصد ؟
– أسهل إرضاؤهن أم صعب ، أصاحبات مزاج ونزوات أم قانعات ؟
– فيهن من جميـــع الأجناس . البعض منهن يفقـــدك الرشد ، والبعض الآخر لا .
– آه ! يفقدك الرشد ، لكن ماذا يردن ؟
– ماذا يردن .. لكنهن لا يعرفن حتى ماذا يردن .
– انتظري .. انهن يردن ثوباً من نوع معين لأنهن يشعرن ، من غير ان يعين ذلك ، ان هذا النوع يناسبهن ، اي انه سيكون مصـــدر سرور ورضى لهن شأن كل ثوب يعجب ويلبق ، أليس كذلك ؟
– تفسيرك لفظي ، لكنه صحيح .
– وانت ، من جهتك ، تحـــاولين ان تؤمني لهن الثوب الذي سيعجبهن ويقع منهن موقعاً حسناً ، حتى وان كن عـــاجزات عن أن يشرحن بوضوح كيف يردن ذلك الثوب .
– بالطبـع .
– خلاصة القول انهن لا يطلبن إلاّ أن يقتنعن ، أليس كذلك ؟
– في صميمهن ، بلى .
– تختارين نموذجاً لم يلاحظنه او لم ينظرن اليـــه إلا سطحياً فاستبعدنه ، وتقرظينه لهن .
– بالفعل ...
– تمدحين لونه ، رسمه ، تفصيله ، طرافته ، نعومة النسيـــج ، متانته ، أليس كذلك ؟
– بلى .

ـ لكن الاذواق تختلف ولا بد من تلبيتها جميعها .
ـ بديهي !
ـ أتصور ان زبونات كثيرات يرغبن في ملابس تجـدد شبابهن . وبصورة عامة ، تكون هذه الزبونات اكبرهن سناً ، أليس كذلك ؟
ـ بلى .
ـ وبالمقابل ، فإن اللواتي يرغبن في النماذج الجديدة ، المتينة ، السليمة : هن الشابات اللواتي لا يحتجن الى التصنع لإظهار مفاتنهن .
ـ بالتأكيد .
ـ لكن هناك ايضاً الزبونات اللواتي يبحثن عن الغرابة ، عن الشذوذ ، عن الأشياء غير المألوفة . وعليك ايضاً ان ترضي هؤلاء الزبونات ؟
ـ هذا بديهي .
ـ خلاصة القول ان الخياطة مهنة صعبة .
ـ انها ليست بالمهنة السهلة .
ـ ومع ذلك فإنني متأكد من شيء .
ـ ما هو ؟
ـ أنك لا تمتهنين هذه المهنة لأجل المال ، وانما حباً . او بالأحرى ليس لأجل المال وحده ، لكن ايضاً حباً وهوساً . أهذا صحيح ؟
ـ لنقل انه صحيح .
ـ أتربحين كثيراً من الثوب الواحد ؟
ـ أقل مما يُظن .
ـ انني مقتنع (قولي لي ان كنت مخطئاً) بأنك لن تهجري هذه المهنة ، حتى ولو لم تدر عليك ربحاً . وهذا ، كما قلت لـــك ، لأنك تمتهنينها حباً وهوساً قبل كل شيء ، ومن ثم بدافع المصلحة .
ـ يقيناً ، لولا الحب والهوس لما فعل المرء شيئاً .
ـ معك ، بدون حب وهوس لا يفعل المرء شيئاً . لنحلل قليلاً هـــذا

الهوس . ألديك وقت لسماعي ؟

– أجل .

– انت تهوين اللبس ، الموضة ، شراء الثياب ، بيعها ، توفيرها للآخرين، معرفة الملابس التي تقع من الآخرين موقع الاعجاب والتقدير والرغبة . هذا الهوى ، شأن كل الأهواء ، يتأتى جزئياً عن ميل طبيعي، وجزئيات من الفراغ الذي أوجده في النهاية في حياتك، شأن كل مايستأثر بحب الانسان وولهه. انت تعيشين من اجل الملبس، ويخيل إليك انه من المستحيل أن تعيشي من أجل شيء آخر غير الملبس . بل سأقول أكثر من ذلك : ان الملابس والزينة والمهنة التي تقوم على صنع الملابس وبيعها تظهر لك سائر النشاطات الانسانية وكأنها تافهة ، عديمة الطعم والكنه ، كاذبة ، مرائية . ولو فسرنا الأمور قليلاً لأمكننا القول ان الملبس يمثل ، بالنسبة اليك ، مفتاح الواقع . وفي وسعك ، في هذه الحال ، أن تقولي : « قل لي كيف تلبس ، وسأقول لك من أنت » . ان الناس ، في نظرك ، لا يفكرون في غير الملبس: الفقراء والاغنياء ، الشيوخ والشباب، العلماء ، الفنانين ، السياسيين ، اصحاب المهن الحرة ، الخ ... ولا مجال للشك في انه لو امكن رؤية ما في رؤوسهم ، لما وجدنا ، في رأيك ، سوى شاغل واحد : الملبس . وهذا ، بالفعل ، لأن زبائنك يختلفون عن غيرهم ، لا يبدون حماسة إلا عندما يتم التطرق الى مشكلة اللبس . انت تعرفين كل هذه الاشياء وتدركين انك لا تقتصرين على تقديم نوع معين من البضائع ، وانما انت ايضاً كاهنة دين شائع بقدر ما هو منفي ومخفي . انت تعلمين ان هذا الدين موجود ، وان الناس جميعاً يضحون على مذابحه ، وان سلطته اعظم من اي قوة ، تعلمين هذا كله وتفكرين بأنك تؤدين وظيفة ليست ضرورية فحسب ،بل ايضاً ايجابية ، وانك تعيشين منها كما تعيش النباتات من نور الشمس . وبعبارة اخرى، ليست الخياطة مهنة بالنسبة اليك ، وانما دعوة ، وهذه الدعوة مرتبطة بأهم شيء في الحياة البشرية ، فما رأيك ؟

في البداية اجابت كورا ، وقد اعتادت على مبالغاتي اللفظية ، بصراحة وان باختصار كما هي عادتها . وظاهر انها كانت تعتقد انني اتكلم عن مهنتها كخياطة . لكنها ادركت ، في لحظـــة معينة ، انني اتكلم عن مهنتها الثانية ، وبالرغم من انها استمرت في الاجابـة على اسئلتي بإيجاز وتحفظ ، فهمت من جحوظ حدقتيهـــا انها مبلبلة مضطربة ، او على الأقل محتارة . بيد انني عندما انتهيت من خطابي اكتفت بأن تقول بلهجة صادقة :

– لا ادري عمّ تتحدث ، فأنت تقول اشياء بالغة التعقيد ! أنا لا أفهم .

– معك حق ، انها غلطتي . انني لا أستطيع مع الأسف منع نفسي من تعقيد الاشياء .

– انني لا أفهم بالأصل لمَ تقول لي هذا كله .

– سآتي الى لب المسألة . أتعرفين لمَ أتكلم عن هذه الاشياء ؟ هذا لأنني حريص على ان تعرفي الى أي حد ادرك أهمية مهنتك في حياتك . ومع ذلك، جئت لأقول لك إنه ينبغي عليك ان تتركيها .

كنت قد تكلمت بلهجة عادية ، لكن عينيها جحظتا فجأة غضباً :

– ماذا تقول ، بحق الشيطان ؟

– بمختصر الكلام ، هـــذا : انك مريضة يا كورا ، مريضة اكثر مما تعتقدين . ينبغي أن تحزمي أمرك مرة واحدة ونهائية على أن تفحصي نفسك لدى طبيب . ثم عليك ، حسبما ستكون نصيحته بالتأكيد ، ان تذهبي بأسرع ما يمكن الى الجبل ، الى مصح ، لمعالجة نفسك

– أنت مجنون !

– لست بمجنون : انها الحقيقة . انت لا تكفين عن السعـــال ، ودوماً محمومة ، وتضطرين الى لزوم الفراش يوماً كل يومين ، وبكلمة واحدة : أنت مريضة وينبغي ان تعالجي نفسك .

– أتتكلم بالجد ! لن أذهب لرؤية طبيب ولن أتحرك من هنا . كل ما بي

نزلة صدرية خفيفة لا تستلزم لا طبيباً ولا راحـة . سوف أعالج نفسي هنا وعلى النحو الذي يحلو لي .

- وأنا ، أقول لك بأكثر ما يمكن من الرسمية : كورا ، أنت مريضة .

وأمسكت عن الكلام لحظة ، من دون ان ادري السبب ، ثم أكدت لها من جديد :

- كورا ، مرضك خطير .

- من قال لك هذا ؟

- وجهك .

- وكيف هو وجهي ؟

- بالضبط وجه شخص مصاب بمرض خطير .

فلزمت الصمت ، ثم قالت بتحدٍّ وهي تشخص بعينيها إلي :

- اصغ إلي جيداً : حتى لو علمت انني أحتضر ، فلن أفعل ما تقوله لي.

وفجأة ، وحتى قبل ان ادرك ما أنا فاعـله ، نهضت ، وانحنيت فوق سريرها ، وأمسكت بها من ذراعيها ، وهززتها بعنف متظاهر بالاشمئزاز ، وصحت :

- يجب ان تعالجي نفسك وترحلي . ستعالجين نفسك وترحلين .

نظرت إلي من غير مقـاومة ، وقد نفرت عيناها من محجريهـما . ثم شرعت تسعل سعالاً جافاً غاضباً ، لا يقاوم وانتصب جذعها على سريرها ، وغطت فمها بيدها ، وراحت تتنشق الهواء بين كل نوبتين من السعال كشخص يختنق . وتذكرت مشهد روايتي المتخيل، الذي تصورت فيه موتها، واستولى علي الخوف فخليت سبيلها للحال. لكن غضبي لم ينطفىء نهائيـاً . وبصورة لاشعورية تقريباً ، درت مرتين او ثلاثاً حول الغرفة ، ووجدت نفسي امام طاولة الرخام المكتظة بالترهات . وآنئذ فهمت أن الكلمات التي تفوهت بها قبيل لحظة من الزمن لم تكن مجرد تعبير مجازي : فكورا هي حقاً كاهنة ،

وهذه الطاولة هي هيكل دينها. وكنت أبغض في آن واحد الكاهنة والدين. وكما انني هززت كورا مدفوعاً بنوع من حنق مجرم، كذلك كانت كل الترهات التي على هذه الطاولة تحرك فيّ جنون تحطيم الصور والايقونات . وقلت بصوت خافت حتى لا تسمعني زوجتي :

– ماذا فعلت ببابا ؟

ثم انهالت ذراعي على رخام الطاولة ، وبضربة واحدة كنست كل تلك الترهات وكأنها تمثل أصنام معبود كريه لا يطاق . وحدثت ضجة كبيرة عند سقوط الأشياء على الأرض وتحطمها تحطيماً . وعلى حين فجـأة ، سكن روعي ، فأسندت ظهري الى الطاولة وقلت لاهثاً :

– سامحيني .

– بمثل هذه الطرق لن تحصل مني على شيء ، انني أحذرك .

– سامحيني !

– إنني اعرف بالأصل لمَ انت حريص الى هذا الحد على ذهابي للمعالجة في الجبل .

– لمَ ؟

– لأنك تريد ان تبقى وحيداً مع بابا . ألعلك تظن انني عمياء ؟

– لكن ، ما هذا الكلام الذي تتفوهين به ؟

– أتظن انني لم ألمح انك تتحرق الى بابا ؟ الحقيقة ، هي انك تريد البقاء وحيداً معها !

– انت مجنونة !

– كلا ، لست بمجنونة . لكن اذا كان هذا صحيحاً ، فإنني اقول لك على الفور انه ليس عليك ان تشغل بالك بي . ان مـــا تفعله بابا لا يخصني ، فهي راشدة ، وتستطيع ان تفعل ما تشاء .

كانت تتكلم بطمأنينة مهنية وكأن بابا ليست ابنتها ، وانمـــا واحدة من المترددات الكثيرات على منزل شارع كاسيا . واضافت بعد هنيهة من الزمن :

– على كل ، اذا كنتما تريدان ، انت وبابا ، ان تقيا معاً ، فلا حاجة بكما الى البحث عن ذريعة للتخلص مني . ان هناك اشياء أفهمها .

نظرت اليها وفهمت آنذاك من جديد انها كورا نفسها ، كورا الازلية ، كورا التي اخذت بيدها بابا الاربعة عشر ربيعاً وقادتها الى منزل المواعيد ، كورا التي رأيتها البارحة مساء تعبر الشارع ويدها مستندة الى رقبـــة فتاة صغيرة . ان الدليل على انها لم تتغير لهجتها الحكيمة ، هذا الاعتدال المحتقر المميز للقوادات . من الآن فصاعداً لم يعد بيني وبينهـا سوى قناع شبه غير موجود ، وإسقاطه نهائياً مسألة تتعلق بي أنا وحدي . ولو فعلت ذلـــك لوجدت نفسي فجأة غارقاً حتى عنقي في عادية الفساد مع كورا الموافقة على حبي لبابا بل المستعدة لتحبيذه وتشجيعه. وأجبت بسرعة :

– ان مسألة بابا لا وجود لها. وبالأصل ، أنا على وشك السفر من جديد. سوف أحصل على التأشيرة غداً . وفي غضون بضعة ايام سأكون في الولايات المتحدة .

فأشرق وجهها :

– اسمع ...

– تكلمي ...

– عندي فكرة : لمَ لا تأخذ بابا معك ؟ انها بعد كل شيء ابنة زوجتك ستريها العالم قليلاً . ويمكنك ان تستفيد منها كسكرتيرة .

وهكذا لم تنكص عن ان تكون ما كانته، أي عن عرض نفسها كوسيطة بيني وبين بابا . وأجبت بجفوة وأنا انظر الى ساعتي :

– سأفكر في الأمر . والآن إني مغادرك إذ لدي عمل

وسمعتها تصيح بي :

– فكر ! انها فكرة ...

الخميس ١٠ كانون الأول

طرحت اليوم ايضاً : فيما أنا أتنزه في الحي ، هذا السؤال على نفسي : لِمَ لجأت ، عندما كنت أتحادث مع كورا ، الى تورية الخياطة ، بدلاً من أن أسمي مهنتها الثانية باسمها الحقيقي ؟ وبتعبير آخر ومختصر ، لِمَ أنا عاجز عن مواجهة أهم مسالة في حياتي بصورة صريحة ومباشرة ؟

وبالطبع أجبت على تساؤلي بالجواب نفسه : ان التكلم بصراحة مع كورا يعني إما إدانتها نهائياً ، وإما التواطؤ معها ، وأنا اريد تجنب كلا الاحتمالين . لكني فهمت انه يوجد مظهر آخر للمشكلة ، مظهر لم افكر فيه بعد وهو التالي : إن التكلم بصراحة مع كورا يعني السقوط في فساد الذوق ، في الابتذال المرذول ، وبكلمة واحدة ، في اللاأصالة التي ليست كامنة فيّ ،وإنما في الأشياء بكل موضوعية .

وبعبارة أخرى ، ان موقفي يشتمل على جميع عناصر ما يسمى عادة « دراما صارخة الألوان » . تلك العناصر التي تهتف من تلقاء نفسها : «لكن هذه اشياء مفتعلة ، ميلودرامية ، وفي الحياة لا تحدث مثل هذه الأشياء ولم تحدث قط ! » . والحال ان هذه الاشياء تحدث على العكس في الحياة التي تكشف النقاب بالتالي عن لاأصالتها التكوينية ، اي يحدث بالضبط عكس ما كان يحدث ، على ما يبدو ، في الماضي : ففي الماضي كانت الرواية الميلودرامية ، رواية التسلية تستخلص من حياة واقعية فيها كل خصائص الأصالة الفائقة الوصف ، أما اليوم فعلى العكس ، إذ أن الحياة الواقعية تقدم مظاهر مشابهة تماماً لما يجده المرء في رواية تسلية ، والروائي يجد نفسه ملزماً بأن يستخلص منها ، اذا كان قادراً على ذلك ، شيئاً شاعري الأصالة .

وتساءلت عندئذ لِمَ تحدث الاشياء على هذا النحو.وجاءني الجواب بصورة

غير متوقعة ، لأنني ، في تلك اللحظـــة بالضبط ، رفعت عيني بينما كنت أشعل سيجارة .

كنت في شارع جانبي غير بعيد عن بيتي . صفان من الواجهـــات ، وفي الوسط ، مثل فجوة سن ناقصة في فك كامل ، فراغ كبير بين بنايتين ، إما لأنه لم يبنَ فيه بعد ، وإما لأن المنزل الذي كان يشغله قد هدم .

والحال انني رأيت انه قد علقت لافتتان اعلانيتان ضخمتان على الواجهـة العرضانية لأحد المنزلين المطلين على الأرض البور ، واجهـــة عالية عارية بلا نوافذ .

كانت الاولى إعـــلاناً لصنف من خلاصة اللحم يستخدم في صنع المرق . وكانت تمثل طاولة صفت على سماطها فوطات وصحون وملاعق وسكاكين ، وجلست حولها أسرة مؤلفة من أب وأم وابنة . كان الرجل متوسط العمر ، يرتدي بذلة رمادية داكنة ، مصفف الشعر بعناية لامتناهية، حليق الخدين ، لكن هذا النمط الأميركي النموذجي كانت قد أجريت له بعض رتوش حتى لا يبدو أجنبياً اكثر مما ينبغي في نظر المستهلك الايطـــالي . وكانت المرأة أصغر سناً بقليل من زوجهـــا ، وكانت هي ايضاً من النمط الاميركي الذي أجريت عليه بعض تعديلات ليبدو ايطالياً ، وكانت تضع مئزراً ظريفـــاً مزركشاً بالتخاريم . وأخيراً البنت التي كانت ترتدي ثوباً بلا اكمـــام ، من نسيج اسكوتلندي ، وشعرها مرسل على كتفيها ، وفي قمة رأسهـــا عقدة شريط ضخمة ، وكانت الوحيدة من بين الثلاثة التي لا يبين وجهها لأنها كانت تدير لي ظهرها . وكانت الأم واقفة ، منحنية على الطاولة ، وعلى شفتيهـــا ابتسامة سعيدة ، ترفع غطاء قدر حساء . وكان الزوج والابنة ينتظران ، وفي يد كل منهما ملعقة ، بنفاد صبر ، ان تصب لهما الحساء .

كانت اللافتة الاخرى اعلاناً عن فيلم . والشيء الغريب انهـا كانت تبدو وكأنها قد رسمتها نفس اليد التي رسمت إعلان خلاصة اللحم . وتشاء الصدفة

الغريبة ايضاً ان يبدو الاشخاص وكأنهم هم أنفسهم رجـل متوسط العمر ، وامرأة أصغر منه سناً ، وفتاة صغيرة . لكن أسرة خلاصة اللحم السعيدة الوادعة كانت تختلف كل الاختلاف في إعلان الفيـلم : فالمرأة نصف عارية ، قابعة على فراش مشعث ، وقد حجب فخذيها العارمتين قميص داخلي أسود مخرم ، وبان جزء من صدرها المليء الناهد ، وامتدت يدها الى أمـــام ، وجحظت عيناها رعباً؛ وكان الزوج يقف على العتبة، في الهندام الكلاسيكي الرمادي الداكن ، مزيتر الشعر ، مهدداً اياها بمسدس ، ومن خلفه كان يلمح وجه الفتاة المذعور ، ويدها على فمها لتكتم صرخة، مثل شخص يقف عاجزاً امام مأساة دامية .

كان الاعلانان ، بعبارة مقتضبة ، يمثلان أسرة واحدةفي موقفين مختلفين : الأول موقف الدعة السعيدة ، والثاني موقف النزاع الدراماتيكي . وبالطبع كانت اللاواقعية في كلا الإعلانين هي الطابع السائد، وكان إناء الحساءالذي يتعالى منه البخار والمسدس المشهور رمزين للاأصالة واحدة، لكن لب المسألة ليس هنا .

فالمسألة تكمن في ان الاعلانين ليسا رسمين مزورين ومصطنعين لواقع غير أصيل ، وانما تصويران أمينان صحيحان لواقع غير أصيل برمته من الأصل . فليس الرسام هو الذي تخيل الطمأنينة العائلية والمأساة على نحو غير أصيل ، لكنالطمأنينةالعائلية والمأساة هما اللتانمثلتا امامالرسامبكلصفات اللاأصالة .

وقلت في نفسي على سبيل الاستنتاج النهائي : « الواقع أن الإعلان هو فولكلور الحضارة الصناعية . وهل يمكن ، والحالة هذه ، ان يكون هناك شي أكثر أصالة من الفولكلور ؟ » .

الاثنين ١٤ كانون الاول

باتت كورا تكثر ، عند عودتها من الورشة ، من استلقائهـا على السرير

وتناولها فيه العشاء مع بابا . وتجنباً لهذه الوجبات المحرجة المزعجة عند رأس سرير بابا ، في تلك الغرفة التي تتقزز منها نفسي ، اعتدت على تناول طعام العشاء خارج البيت بحجة او اخرى .

أذكر هذا لأشرح سبب عدم عودتي الى المنزل ، هذا المساء ، بعد تناولي طعام العشاء بمفردي في مطعم من مطاعم الحي . وكان أول ما أثار استغرابي هو انني لم اجد باب المنزل مغلقاً لكن منفرجاً . ودخلت ، وكان ثاني ما استغربته ان المصابيح كانت مضاءة كلها في البهو والممشى على حد سواء . وبعد لحظة تردد اتجهت نحو غرفة كورا .

لم اكن ادري ما أنوي فعله ، لكنني كنت أشعر بالقلق وكأن لهذين التفصلين ، باب المنزل المنفرج والمصابيح المضاءة معنى يقضي علي واجبي بأن أفك لغزه . لكنني عندما مررت في الممشى لاحظت من الباب المنفرج ان المطبخ مضاء ، فدلفت اليه .

لا ريب في ان كورا شعرت بأنها أحسن حالاً هذا المساء ، ففضلت ألا تتناول طعام العشاء في الفراش . كان المطبخ خاوياً ، لكنه كان يحمل جميع آثار الوجبة التي استهلكتها المرأتان فيه؛بيد انني لحظت، عند النظرةالثانية، واقعة تسترعي الانتباه : ان العشاء ، لسبب من الاسباب ، قد أوقف في منتصفه .

على رخام المائدة رأيت صحنين صغيرين مع بيض بالزبدة . وفي أحد الصحنين كان مح البيضة قد فقىء واندلح . وفي الصحن الآخر كانت البيضة ما تزال سليمة ، وكانت قطعة الخبز التي يفترض فيها ان تغمس فيها موضوعة بجانبها ، على الطاولة . وكان في الصحنين سلطة خس . وكانت كؤوس الماء والنبيذ مليئة . وكانت زبديتان موضوعتان في احدى زوايا المائدة ما تزالان تحتويان على قليل من الحساء والأرز . وكان الكرسيان قد أبعدا عن المائدة ، على أحدهما فوطة مدعوكة ، وكانت الفوطة الثانية موضوعة بجانب احد

الصحنين . واخيراً ، وهذا دليل قاطع على ان العشاء قـد قطع فجأة ومنذ وقت ليس بطويل ، سيجارة ما تزال تدخن ، وعقبها مصبوغ بأحمر الشفاه احترق او كاد على حافة المنضدة .

من المطبخ ذهبت الى غرفة بابا . كانت مضاءة ، ومرتبة حسب العادة باستثناء الخزانة التي كانت مفتوحة . لا ريب في ان بابا اخذت منها معطفها ونسيت في عجلتها ان تغلق بابها . على المكتب كان الراديو المتنقل يذيع بصوت مخنوق أسعار البورصة . لم اكن أجهل ان بابا تترك عادة الراديو مشغولاً ، حتى عندما تكون غائبة عن الغرفـة . لكن ذلك الصوت الذي كان يهمس في الفراغ اكد لي احساسي بهجران مفاجىء غير متوقع .

ذهبت الى غرفة كورا . هنا ايضاً كانت تجتمع جميع علائم رحيل مباغت: المصابيح المضاءة ، جوارير الخزانة المفتوحة ، الروب دي شامبر المرمى على السرير . وكانت سماعة الهاتف مرفوعة وموضوعة بجانب الجهاز وكان يسمع منها صوت إشارة « مشغول » . ووضعت السماعة على الهاتف وخرجت .

عدت ادراجي ، على مهل ، الى غرفتي ، وتمددت على سريري ، وأشعلت سيجارة . سوف انتظر هنا عودة بابا وكورا من غيابها الذي لا تفسير له . وسوف يتاح لي ، ابان ذلك ، ان اتأمل ، كما أفعـل احياناً في مناسبات مشابهة ، في تحرير روايتي الوشيك . لكن أفكاري اخذت على الفور تقريباً اتجاهاً مغايراً .

لقد عادت الى ذاكرتي ، على نحو غامض ذكرى محددة ففي اثناء رحلتي الى ايران نزلت في احد فنادق اصفهان ، وفي مساء يوم كنت متحرراً فيه من كل شاغل او عمل ، تناولت من على طاولة في بهو الفندق ، عدداً قديماً من مجلة اميركية للأسفار والسياحـة . وجلست على أريكة متداعية من العصر الفكتوري ، وتصفحت المجلة على ضوء مصباح السقف الخافت . ومن بـين المقالات العديدة التي كانت منشورة فيها قرأت واحداً خلف في نفسي انطباعاً

خاصاً . كان عنوانه « سر ماري سيليست » . وكانت ماري سيليست سفينة ذات صوار ثلاثة أقلعت في شهر حزيران من أحد أعوام النصف الاول من القرن التاسع عشر من هاليفاكس في كندا . وكان على ظهر ماري سيليست ، بالاضافة الى البحارة وضباطهم ، أسرة القبطان ، اي زوجته وطفلاه ، احدهما في الثالثة من العمر والآخر ما يزال رضيعاً . وكانت ماري سيليست تقصد فرنسا باتجاه ميناء الهافر ، لكنها لم تصل قط . وبعد بضعة أشهر وجدت السفينة الشراعية في عرض الاطلسي ، على بحر من الزيت ، تعوم جانحة ، تتعاورها تيارات المحيط الكسلى ، بكل صواريها المحملة بالأشرعة . واقتربت منها السفينة التي شاهدتها ، وأرسلت باتجاهها الإشارات المتعاهد عليها بل اطلقت عدة طلقات مدفعية . لكن ماري سيليست ظلت تسير جانحة . وعندئذ أنزل زورق الى الماء باتجاه السفينة الشراعية . لكن وعلى دهشة من الجميع ، وجدت خاوية تماماً: الضباط ، البحارة : أسرة القبطان، الجميع قد اختفوا . لكن في كل رجو من أرجائها كانت تشاهد علامات انقطاع مباغت عن الشواغل والاهتمامات العادية المطمئنة . ففي حجرة الأكل التابعة للضباط كانت المائدة ممدودة مع الطعام في الصحاف ، والملاعق والسكاكين المتناثرة على السماط ، كما تركها الآكلون . ولم يكن كرسي الطفل العالي قد تحرك من موضعه تقريباً . وكانت الكراسي الاخرى قد أزيحت بما يكفي بالضبط للنهوض عن المائدة بلا عجلة . وبمقتضب الكلام،كان المدعوون قد انصرفوا في منتصف الوجبة ، بهدوء وبلا خوف ولا فوضى . وقدوجدت في أجزاء اخرى من السفينة ، آثار هجران مماثل ، فالبحارة قد كفوا هم ايضاً عن مشاغلهم على نحو مفاجىء ، لكن بدون اي نوع من انواع الإكراه على ما يبدو.ومن جهة اخرى ، كان اولئك الناس قد رحلوا بصورة لا تفسير لها ، ان لم أقل غامضة ، لأن زوارق النجاة كانت كلها في مواضعها . رحلوا من غير أن يمسوا أو يحملوا شيئاً : فمن كان يأكل ترك لقمته على شوكته، ومن كان يرفأ الأشرعة لم يسحب الإبرة من القماش . لقد طاروا كطيور تركت

الغصن الذي كانت تجثم عليه .

ان سر ماري سيليست لم يكشف النقاب عنه قط : فالضباط والبحارة وأسرة القبطان والجميع قد تبخروا . في حين استمرت السفينة الشراعيـــة الكندية في التأرجح على البحر الهادىء ، الوادع ، بانتظار أن يسمح لها حل السر باستئناف الرحيل . وفكرت آنذاك وما زلت أفكر بأن الحل لا بد ان يكون بسيطاً للغـاية ، بل طبيعياً ، من تلك الحلول التي تمر تحت أنفك كما يقال وتفلت ، من هنا بالذات ، من انتباهك . وتذكرت أنني بعد ان قرأت ذلك المقال أمضيت ساعة او ساعتين وأنا أشيـد فرضيات قادرة على تفسير اللغز . وفي النهاية اخذتني سنة النعاس ، فرميت بالجملة وذهبت لأنام .

واليوم ، بعد ان جلت في الشقة الخاوية ، لكن المضاءة ، التي كانت تعج بآثار الحياة اليوميـة ، عاد الى ذاكرتي سر ماري سيليست مثل لغز منسي عاود ظهوره عندما وجد توكيداً له في الواقع من جديد . كانت التشابهات كثيرة : نفس الجو المنزلي العادي الذي اضطرب حبل هدوئه على نحو مفاجىء وغامض ، نفس العجز من ايجاد تفسير يقبل به العقـل ، نفس الجهل المطبق بالشخص او الاشخاص الذين كانوا السبب في هذا الانقطاع والهجران . وكما ان ماري سيليست شردت جانحة خاوية فوق البحر الخضم المليء بالوحوش والمهالك ، كذلك بقيت شقتي الفارغة الخاوية هي الاخرى معلقة فوق مهاوي الوجود اليومي ، المدلهمة ، العامرة هي ايضاً بمخلوقات ممسوخة .

وشعرت اني قلق بما فيه الكفاية لأحاول تفسير هذا الغياب . وقلت في نفسي اخيراً إن عليّ ان أنتظر حتى منتصف الليل ، وآنذاك فقط يمكن أن أواجه احتمال البدء بالتفتيش عن المرأتين . ولم تكن الساعـــة قد تجاوزت التاسعة ، وكانت أمامي ثلاث ساعات قبل منتصف الليـــل : فما العمل ؟ فكرت بأن إقامتي في روما على وشك الانتهاء ، وبأنني سأغادرها في مدى بضعة أيام في رحلة طويلة ، وبأن اليوميات التي قررت ان اكتبهـــا طوال

اقامتي في روما تشارف هي الاخرى بالتالي على الانتهاء ، وكذلك ، ضمنياً ، الرواية التي أنوي استخلاصها من يومياتي . فلمَ لا استفيد في هذه الحال (ولو كان من قبيل اللعب) من اختفاء كورا وبابا هـــذا المساء ، او بالأحرى من التفسير الذي أستطيع أن أجده لهذا الاختفاء ، لأختتم به يومياتي وروايتي على حد سواء ؟

لكن ، مادام المطـــلوب ليس تفسير غياب المرأتين فحسب ، بل ايضاً تخيل خاتمة الرواية ، أفليس من الأفضل ان اسجل على الفور كل ما توحي به إلي مخيلتي بدلاً من الاعتماد على أوهام لا منطق لها ولا نظام ؟ وستكون هذه طريقـــة ، على كل حال ، لتمضية الوقت فيما أنا انتظر . وهكذا غادرت سريري ، وجلست الى طاولتي ، ووضعت ورقة بيضاء في دولاب آلتي الكاتبة وبدأت أدق . وهوذا ما كتبت :

« تقع خرائب مدينة فارس وسط سهـــل شاسع أخضر شاحب كابٍ ، اخضراره من اصفرار الشجيرات الشائكة الكسيحة التي لا يحصى لهـــا عد والتي طأطأها الريح والجفاف . سماء الهضبة العالية ، شبه السوداء من شدة زرقتها الداكنة ، تطل على هذا السهل وتعكس خواءه . في هذه السماء يرسم عقاب دوائر طيرانه الكسول ، باحثاً عن فريسة بين الشجيرات . في هـــذا السهل فلاح وحيد ، صغير ضائع في ذلك المدى اللامحدود ، يدفع بمحراثه في أخاديد حقله . عنـــد تخوم السهل ينتصب حشد من الصخور الحمر الصهباء ، المعرقة بحفر بنفسجية عميقة . ولما اقتربت السيـــارة ميزّنا ، فوق سطح مستطيل فسيح ، صفاً من أعمدة غير متساوية بدت لنا وكأنهـــا نحتت من دخان ، يرتكز الى الصخر . انها أنقاض فارس ، ما تبقى من قصور داريوس بعد الحريق الذي أشعله فيها الاسكندر إبان وليمة . وكانت الآثار ، كلما تقدمنا ، تأخذ أشكالاً اكثر وضوحاً ، وتزداد واقعية ، ويبدو السطح مبنياً من كتل ضخمة هائلة من الحجر ، وتتجلى الأعمدة التي بدت لنا في غـــاية النحافة والضمور في مطلع السهل ، كثيفة ، ثقيلة ، ماردة . وبين الأعمدة

المنتصبة هنا وهناك على نحو غريب ، ترتفع أفاريز النوافـذ والأبواب العالية والواطئـة التي يلمع من خلالها لازورد السماء . لقـد التهم الحريق السقوف الخشبية وأسوار الوحل المجفف الممزوج بالتبن ، ولم يوفر غير الأفاريز الحجرية .

خرجت، ذات صباح،من الفندق الذي لا يبعد كثيراً عن الآثار،وصعدت حتى السطح، وجلست تحت الشمس على تاج عمود مقلوب تجاهالسهباللامحدود المسطح الوضاء. واسترعى انتباهي نقش محفور على حجر التاج بواسطةمسمار. كان موقعاً باسم ل. لوغان ويحمل تاريـــخ ١٧٢٤ . وكان النص هو العبارة اللاتينية التالية : Vae, vae Babilon civitas illa fortis. وتفحصت النقش، ثم نظرت من جديد الى الآثار التي كانت تحلق فوقها العقبان المعتادة وهــي تنعق في السكون العميق . وفكرت بأن التأمل ، في مكان مثل فارس ، في قدم الاشياء البشرية ، في الاسباب التي ادت الى اختفاء العديد من الحضارات الرائعة الى الأبد، في الفساد المتعدد الأشكال الذي سبق وسبب هذهالخطوب، هو شيء محتم نوعاً ما . ومكثت برهة من الزمن ، وعيناي نصف مغمضتين ، تحت الشمس ، ثم سحبت من جيبي جريدة ايطالية كنت قد وجدتهافيطهران وأعدت ، بانتباه آلي ، قراءة كل المقال المكرس لموت كورا وبابا الوحشي الغامض .

لقد اكتشفتهماذات صباح عاملة قدمت الى الورشةووجدت الباب منفرجاً. وبالاضافة الى المعلومات الدقيقة غـــير المجدية (سيلويا فيراري ، ٢٢ سنة ، تقطن شارع غليسين ، ١٩ ، الشقة ١٣) التي لا بد ان توردها الصحافة في في باب « احداث مختلفة » ، كان المقال مكتوباً بلغة مليئة بالأوصاف القوية (مشهد رهيب ، رؤية فظيعة ، وحشية مرعبة ، جريمة شنيعة ، الخ ...)، وكان يروي ان الفتاة وجدت بابا في غرفة النوم ممددة على السرير ميتة ، ثم كورا في غرفة العمل ، ميتة ايضاً . والطريقة التي قتلت بها المرأتان تكشف النقاب عن طباع القاتل وتفسح المجال في الوقت نفسه للتكهن بدوافع الجريمة.

فالقاتل الذي هو بلا ريب زوج امرأة كانت تتردد على منزل كورا (هذه هي الفرضية التي قدمتها الجريدة) ، اجتذب كورا وبابا الى الورشة بحجة ما او بالتهديد في ساعة لم يكن فيها أحد ، وطبق شريعة الثأر بامتلاكه بابا كما امتلك زبائن كورا زوجته ، ثم قتل بابا وكورا . لكن فلنعـــد تكوين الجريمة . فقد وجدت بابا عارية تماماً،لكن لم يكن يبدو عليها انها اغتصبت، ويظهر انه كانت لها ، قبل ان تلفظ أنفاسها ، صلة جنسية طوعية مع قاتلها لم يفرضها عليها فرضاً . وكان سبب الموت الخنق بجورب نايلون ، ولا بد انه كان شديد الإيلام ، لأن القاتل حسبما تقول الصحيفة ، أطال مدة الاحتضار عن طريق مناوبة الخنق والتنفس كما في التعذيب الاسباني بواسطة المضغطة . اما كورا فقد طعنت في ظهرها بمدية او خنجر قدام السرير الذي كانت بابا ممددة عليه ، على الأرجح في نفس اللحظة التي اكتشفت فيها جثة ابنتها وقد دفع بها القاتل الى الغرفة . وقد سقطت أرضاً ، ملطخة بدمها سجادة السرير والحافة السفلى من اللحاف . ثم جرها القاتل (كما جاء في رواية الجريدة)من شعرها على طول المشى حتى غرفة العمل : وبالفعل كانت آثار الدم تخطط بلاط المشى على طوله . وفي حجرة العمل رفع القاتل جسم كورا ووضعه على الطاولة الكبيرة التي تستخدم في رسم النماذج وتفصيلها.وعلى تلك الطاولة، كما لو على طاولة تشريح ، فصل القاتل، بواسطة فأس صغيرة او مدية رهيفة، الرأس عن الجذع ، مجتزاً اياه من الرقبة الى النحر . ثم جر الجثة التـــي بلا رأس حتى الطرف الآخر من الغرفة، وأجلسها باستقامة على احدى الأرائك، وصلب اليدين على البطن . وبجانب الاريكة كان ثمة مانيكان بلا رأس تجرب عليه العاملات الملابس (تجازف الجريدة بفرضية تقول إن القاتل اراد،بوضعه الجثة المفصولة الرأس بجانب المانيكان ، ان يشبع في نفسه دافع السخريـــة المتوحشة والاهانة ، وكأنه اراد ان يشير الى ان كورا لا تساوي اكثر من دمية بلا رأس ، محشوة بالخرق) .

كان في الصحيفة مقال اول عن اكتشاف الجريمة ، كما تبدت لعاملة كورا،

ثم رجال الشرطة الذين وصلوا الى الورشة . لكن كان فيها أيضاً مقال آخر، كتب بلا ريب بعد بضع ساعات ، يحتوي على كثير من التفاصيل : على سبيل المثال ، إن بابا لم تكن تلبس جورباً من النايلون بل جورباً قصيراً من الغزل، فمن اين أتى في هذه الحال الجورب الذي استخدمه القاتل في خنقها ؟ تقول الجريدة إن احدى العاملات كانت قد علقت في اليوم السابق على حبل صغير ممدود أمام النافذة زوجاً مغسولاً من الجوارب لتجففـــه . والحال ان أحد الجوربين كان ناقصاً ، وهو على وجه التحديد الذي استخدمه القاتل . كانت الجريمة ، كما أعادت الصحيفة بناءها ، مقنعة : فبينما كانت بابا تخلع ثيابهـا في غرفة النوم ذهب القـــاتل الى المرحاض ليبول ؛ ولمح ، وهو واقف أمام المرحاض ، الجوربين معلقين أمام النافذة ، ففصل احدهما ودسه في جيبه . ثم عاد الى الغرفة حيث كانت بابا تنتظره بعد ان تعرت . وأرغم القـاتل بابا على التمدد على بطنها ، وألقى بنفسه عليها ، وامتلكها ، وعلى إثر جماعه بها أخرج الجورب من جيبه من غير ان تراه بابا لأن وجهها كان مدفوناً في الوسادة ، ولفّه بسرعة حول عنق الفتاة ، وأفقـدها كل قدرة على الحراك تحت ثقل جسمه ، وشد الخناق وأرخاه بالتناوب الى ان لفظت الروح .

كان مقال الصحيفة الثاني يقـدم ايضاً تفاصيل مثيرة عن موت كورا . فقد وجدت الجثة بلا رأس ، جالسة ، ويداها مضمومتان على بطنها . لكن الرأس لم يعثر عليه ، فأين يمكن أن يكون ؟ ان الجريدة تقول ان الامور جرت على النحو التالي : فالقـــاتل بعد أن أجرى اللمسات الاخيرة على مسرحيته الدراماتيكية أمسك بالرأس من شعره وذهب من جـــديد الى المرحاض ، لكن هذه المرة ليغسل يديه ويمسح بقع الدم التي تلطخ ملابسه . وآنذاك وضع رأس كورا في المرحاض مؤقتاً ، لكن ليس من قبيل الصدفة، ولم تعد تبين منه سوى الجبهة . وغسل الرجل يديه ، ولا شك في انه حاول تنظيف هندامه . وقد تمت عملية الاغتسال بسرعة ، ووجـــدت بقع دموية على المغسلة وعلى المنشفة وعلى قطعة الصابون . وبعد انتهاء القاتل من تطهره

صب اهتمامه على الرأس الغاطس في المرحاض . وحتى يغسله من الدم المتخثر، لكن رغبته في المزيد من الاهانة بوجه خاص ، شد على سحاب المـاء فانهال على رأس الميتة . لكن خزان الماء لم يكن ممتلئاً بكامله ، او لعله كان معطوباً ، وهكذا وجد الكثير من الدم على حوافي الحوض وفي داخله .

وحمل الرأس من ثم بطريقة بالغة البساطة . فقد رجع القاتل الى الورشة، وفتح الخزانة ، ووجد ، بين اشياء اخرى كثيرة ، علبـة من الورق المقوى الابيض ، عالية وبيضوية ، من تلك التي توضع فيها القبعات . لكنها كانت تحتوي على العكس على شرائط ومساطر من النسيج . وقد أفرغ القاتـــل محتوياتها أرضاً ووضع فيها رأس كورا . ثم ربط العلبة بأحـــد الأشرطة ، وانصرف بكل وداعة حاملاً اياها معلقة من عقدتها بإصبعه الصغيرة .

وطبيعي ان القاتل لم تعرف هويته . وقد افترضت الشرطة ألف فرضية، وكانت الفرضية القابلة للتصديق اكثر من غيرها ، كما ذكرت آنفاً، هي فرضية انتقام زوج مخدوع من القوادة التي خرجت بزوجته عن جادة الصواب وقد عرضت حياة كورا، بالطبع ، بتفاصيلها كافة ، لكن المقال كان يشير الى اننا افترقنا ، انا وكورا ، منذ عدة سنوات ، والى انني كنت موجوداً في ايران لحظة اقتراف الجريمة كمبعوث خاص لجريدتي » .

وهنا توقفت وأعدت ببطء قراءة ما كتبته . وسرعان مـا طرحت على نفسي السؤال التالي: لمَ نسبت غياب كورا وبابا الى جريمـــة ، وعلى وجه التحديد الى جريمة من هذا النوع ؟

اشعلت سيجارة ورحت أفكر . بديهي ان تفسيري أسباب غياب بابا وكورا يرجع في أصوله الى ان مخيلتي تستثيرها الفاجعة الغنية بالمعاني اكثر مما تجتذبها عادية الحياة اليوميه اللاغية. والأرجح انني لم أستسلم لفكرة انه لا يحدث في الحياة شيء ، او على الأقل لا يحدث فيها شيء ذو دلالة وانني أفضل، على لغو الرتابة اليومية ، وبصورة شبه غريزية ، ايقاع الدراما وتناغمها.

بعد التنويه بهذه النقطة البالغة الأهمية يبقى علي ان أفسر لِمَ تخيلت انني موجود في فارس، في ايران (التي عدت منها قبل شهرين والتي أستبعدالذهاب اليها ثانية) ، ولِمَ كانت للجريمة تلك الصفات المحددة . وتناولت الصفحات المضروبة على الآلة الكاتبة ، وأعدت قراءتها مرة اخرى ، وتذكرت انني كتبتها كما يكتب المرء تحت تأثير المخدر اعترافاً بشيء يحتل منذ زمن طويل أظلم منطقة في وجدانه وبعبارة اخرى ، أنا لم اتصور في هذه الصفحات خاتمة ممكنة لروايتي فحسب ، وانما سجلت ايضاً شيئاً ما صميمياً وسرياً كنت أنا نفسي غير واعٍ له حتى الآن .

هناك اولاً ايران . وكما سبق وذكرت، كنت راجعاً منها . وعلى هذا كان من المستغرب أن أتخيل انني عدت اليها لأعلم فيها بموت كورا وبابا . ولقد كان المنطق يقضي بأن أعلم بهذا النبأ في الولايات المتحدة ، لأنني كنت أعرف انني سأذهب اليها في الايام القريبة القادمة . ومن المستغرب، من جهة اخرى، ان اكون قد تخيلت انني موجود في ايران في اللحظة نفسها التي قتلت فيها كورا وبابا ، في حين انه اذا كان غياب بابا وكورا نتيجة لجريمة (وهذا محتمل ان لم يكن مرجحاً) فان هذه الجريمة ارتكبت ، في الواقع ، في اللحظة نفسها التي كنت أصفها فيها في يومياتي .

اذن فتفسير حادثة ايران يكمن في انه كان آخر بلد رحلت اليه . لكن آثار فارس ، وتاج العمود المقلوب الذي جلست عليه ، ونقش ج. لوغان (الذي لحظته فعلاً اثناء رحلتي الاخيرة) ، كيف أفسرها ؟ بما كان لدي من حاجة صريحة الى الإعلاء من شأن شخصي، الى ان أرى في نفسي بطلاً بايرونياً غريباً عن مغامرة كورا الدنسة وسامياً عليها في الوقت نفسه . اجل ، انني نفس مرهفة ، رجل مثقف ، شاعر ، رحالة بلا هدف جالس على خرائب مدينة عظيمة يتأمل في قدم الأشياء الانسانية ، بينما كانت كورا وبابا تغتالان بشناعة ، بوحشية ، في مدينة اخرى كبيرة ما تزال سليمة لم تمس بأذى ،

لكن مقضي عليهـــا هي ايضاً بلا ريب ، بسبب فسادها ، بدمار مماثل ، أقصد روما .

لكن تبقى مسألة تخيلي جميع تفاصيل الجريمة وتقديمي فرضيـــة ، قابلة للتصديق بعد كل شيء ، عن تطبيق نوع من شريعة الثأر من قبل زوج مخدوع ينتقم لشرفه . وهـــذا المنتقم لم يكتف بامتلاك بابا كما امتلك زبائن كورا زوجته ، لكنه ما كاد ينتهي من امتلاكها حتى قتلهـــا وقتل كورا . واذا أمكننا ، والحالة هذه ، ان نفهم اغتيال كورا على انه عاقبة الحقد ، فكيف يمكننا تفسير اغتيال بابا ؟

الواقع ان هذه الجريمة الوحشية وغير المجدية ظاهرياً تفضحني بوصفي أنا نفسي فاعل هذه المجزرة ، ولو على صفحات رواية فحسب . فأنا من يحقـد على كورا ، وأنا من كان يهوى بابا ، ولا أحـد غيري ! وفي قرارة نزوات خيالي كان هناك الحب السفاح ، اي العـدم . فبعد ان قبلت به ومارسته ، كان رد فعلي انني قتلت ، جزاء وقصاصاً ، كورا التي شجعت عليه وبابا التي كابدته . أما بصدد الزوج المنتقم لشرفه فلم يكن القاتل الحقيقي غيري أنا . وبذلك يتفسر تخيلي ، بعد ان نسبت الجريمة الى شخص غامض مجهول الهوية (غامض ومجهول الهوية على وجه التحديد لأنني أختفي وراءه) ، انني كنت في ايران لحظة الجريمة ، جالساً على أنقاض فارس ، أتملاها معجباً وأتأمل في قدم الاشياء الانسانية . والواقع ان فارس كانت دليلاً على غيابي عن مسرح الجريمة التي تمت بوحي مني. لكنه دليل أدبي بالطبع ، لأن المسألة كلها مسألة رواية لا مسألة حياة واقعية ، بيد ان هذا لا يبدل شيئاً من كونه مرائيـــاً غير أصيل .

وبالفعل ، ان الخلفية الكامنة وراء هذا كله هي اللاأصالة المميزة للعمل ، وبالتالي لتخيل العمل . فأنا باستمرار أفعل شيئاً آخر غير ذاك الذي أعتقد انني فاعله . فقد كنت أعتقد انني قتلت المرأتين على يد زوج منتقم ، واذا

بي ، على العكس ، أنا الذي قتلها . قد نسبت الجريمة الى حقد معنوي دفين فائق ، واذا بالدافع الحقيقي هو جاذبية الحب السفاح، اي العدم ، وفي الوقت نفسه التقزز منه وهكذا وجدت نفسي من جديد حيال اللاأصالة التي لا يمكن إلا أن تميز كل عمل قائم على العدم ، محدد بالعدم .

هنا طرحت على نفسي السؤال التالي : أينبغي علي أم لا ينبغي علي ان اجعل من هذه الجريمة المزدوجة خاتمة روايتي ؟ لقد ترددت طويلاً ، وفي النهاية وقع اختياري على الصيغة السالبة . فالحقيقة ، مهما تكن ، مفضلة دوماً على الكذب . وعندما ستعود بابا وكورا وأعرف سبب غيابهما ، سأتبين ما اذا كان لقصة هذين الشهرين من إقامتي في روما خاتمة حقيقية ام انها ستبقى بلا رأس ولا ذنب كما يحدث غالباً في الحياة اليومية . وعلى كل الاحوال ، لا مجال لاختتامها بجريمة .

بيد انني لا استطيع ، من جهة اخرى ، أن أؤكد بيقين مطلق ان الجريمة التي تخيلتها ليست سوى كذب ووهم . فصحيح انها لم تحدث في الحياة ولا في روايتي ، لكنها تفيد في كشف النقاب عن احدى امكانياتي النفسية ، وتحدد طباعي ، وتسلط بوجه خاص الضوء على طبيعة علاقاتي مع بابا وكورا . ان أصالتها تكمن ، هي غير الأصيلة على صعيد الواقع كما على صعيد الفن ، في انني تخيلتها . ولهذه الاسباب كافة لن يكون لحذفهـا من معنى سوى الكذب من جديد ، اي بتر جزء كامل من نفسي يعبر عن نفسه على وجـه التحديد في التخيلات وفي الرغبة اللاشعورية في الإجرام .

وفجأة شعرت بالكلل والسأم . وبعد أن نظرت الى ساعتي ولاحظت ان منتصف الليل قد مضى ، نهضت آلياً واتجهت الى سريري واستلقيت بثيابي فوق اللحاف واخذتني سنة الكرى على الفور تقريباً .

استيقظت مترجفاً تحت وطأة الشعور بأنني لم أغف سوى دقيقة واحدة من شدة ما كان سباتي عميقاً ، لكنني عندمـا نظرت الى المنبه الموضوع على

طاولة سريري رأيت انه يشير الى الواحدة والربع . وفي الوقت نفسه فهمت ان ما أيقظني هو وقع خطى بابا وكورا في الممشى .

أرهفت السمع لحظة ، ثم قفزت من الفراش الى الارض ، وفتحت الباب ، ووقفت مشدوهاً على العتبة .

كان الممشى قفراً ، وكانت بابا وكورا قد توارتا. فتقدمت في الممشى حتى انعطافه على شكل زاوية قائمة ونظرت: كان باب غرفة كورا منفرجاً وكان يأتي منه صوت نحيب وكلام متقطع .

فتقدمت ملتصقاً بالجدار حتى فرجة الباب ونظرت الى الحجرة . كان وضعي الجيد يتيح لي ان ارى السرير من زاوية منحرفة ، وكورا الممددة على الفراش ، وبابا التي تدير لي ظهرها وهي منحنية على كورا .

كانت بابا هي التي تنتحب وقد ادركت ذلك إذ رأيت على الوسادة رأس كورا المشعث ساكناً وعينيها مغمضتين . وكان هذا النحيب يعبر بلا جدال عن المرارة والقلق والألم . والحق انه لم يسبق لي قط ان تصورت أن بابا ، الجلمودية القلب عادة والموضوعية ، قادرة على الانتحاب على هذا النحو. ومن خلال نحيبها كانت تصل الى مسمعي عبارات متقطعة : « لا عليك ، يا ماما ، لا عليك ... لا تهتمي يا ماما ، كل شيء سيسوى ، سترين ... » وبينما كانت بابا تتكلم وتبكي كانت تسوي الوسادة تحت رأس كورا وترفع شعرها فوق جبينها . وفي النهاية قالت كورا بلطف ، من غير ان تفتح عينيها :

– اذا لم يكن للأمر من اهمية ، فلمَ تبكين ؟

– لأنني بلهاء ، لا تعيريني انتباهك ... قولي لي بالأحرى كيف تشعرين ...

– تعبة ...

– اذن نامي واستريحي .

– انت تعلمين انني لا استطيع نوماً ...

– خذي منوماً .

– المنومات لا تؤثر في .

– سأبقى بجانبك ، سأسهر معك .

– لا ، لا حاجة الى ذلك . يكفي ان تساعديني على خلع ثيابي

– أحقاً ؟

– اجل ، حقاً .

حسناً ! سأساعدك .

وعادت بابا تنتحب بصوت عال حتى ان كورا قالت لها بقسوة واستياء:

– كفي عن البكاء ، ايتها الغبية ! ما بك ؟ أتستطيعين ان تقولي لي ؟

– سامحيني ، ان اعصابي متوترة قليلاً ، لا تهتمي بي ...

وسكتت كورا هذه المرة ومالت عليها بابا وبدأت تنزع عنها ثيابها وتركتها كورا تفعل ، ورأسها مدفون في الوسادة وعيناها مغمضتان . وخلعت بابا منها حذاءها ووضعتها بعناية تحت السرير . ثم أمسكت بيديها الاثنتين بطرف تنورة كورا ورفعتها بلطف حتى ركبتها . ورأيتها تفك الحمالة وتسحب الجورب بخفة ومهارة ، ممرة يدها حول الساق ، وممسكة في النهاية بالكعب في راحة يدها لتنزع الجورب نهائياً . وكررت العملية مع الجورب الثاني . ثم سحبت التنورة على الركبتين ، وفتحت سحاب الخصر ، وزلقت التنورة على طول الساقين ، وسحبتها من عند القدمين ، ووضعتها على الأريكة بجانب الجوربين . وبقيت كورا في نصيفها الاخضر المشوف بتخاريم صفر . وجردتها بابا منه من رأسها . ولهنيهة من الزمن ظهرت كورا في «السليب» والمشد الأسودين. وامكنني عندئذ ان أتبين مقدار هزالها منذ آخر مرة رأيتها فيها . ان كورا لم تكن نحيفة قط ، وكان جمالها متيناً ، عضلاً .

أما الآن فإنني ألمح على العكس ، عظام خصرها ونتوءات اضلاعهـا المتوازية وتجويف كتفيها . وتذكرت سرتها التي كانت أشبه بنقرة بيضاء صافيـة في لحم وضاء . أما الآن فلم تعد سوى لطخـة داكنة مشرشة ضائعة في العكن المصفرة لبطن متهدلة . وكانت الساقان متباعدتين على سعة من الوركين حتى الكعبين . وبدت الردفان منكمشتين منكفئتين على نفسها ، وبياض الفخذين كابياً يتغضن عليه الجلد المتهدل وترتسم ظلال العضـلات الرخوة . وتتبعت بنظري يدي بابا حتى صدر كورا . ورأيتهـا ترفع كرتي المشد النصفيتين السوداوين ، وفي اللحظة نفسهـا تحت الثديين المتطاولين المسطحين المتهدلين بعد ان فقدا متانتها كجيبين فارغين تشدهما الى الأسفل حلمتان سمراوان ضخمتان . ووضعت بابا المشد على الأريكة ثم سألت بصوت حزين متهدج :

– أين قميصك ؟

– في الجارور .

– أي جارور ؟

– الجارور الاول من الخزانة .

– واستدارت بابا لتتقدم نحو الخزانـة ، فقفزت الى الوراء وعدت نحو غرفتي على اطراف أصابعي . لكني دخلت على العكس، في منتصف الطريق، الى غرفة بابا ، وأشعلت الكهرباء ، وجلست على الأريكة بجانب المكتب . وأدرت الأريكة تجاه الباب ، وتناولت سيجارة ، ورحت أنتظر .

لم يطل انتظاري. ففي غضون عشرين دقيقة دخلت بابا من غير ان تقول شيئاً ومن غير ان تظهر أي دهشة لوجودي . واتجهت نحو الخزانة وشرعت تخلع كنزتها من الرأس أمام المرآة . وسألتها :

– ما الذي حدث ؟ لمَ أوقفتما فجأة عشاءكما وغادرتما بمثل تلك العجلة ؟

فتركت كنزتهـا تسقط أرضاً ، واقتربت من المرآة ، وتفحصت بانتباه وجهها ولامست بأصابعها عينيها الحمراوين المنتفختين . ثم قالت لي :

– حـــدث شيء مزعج . فقد جاء شرطيان واقتـــاداها الى المخفر . وهناك تركونا ننتظر اكثر من ساعتـــين ، ثم استدعيت كورا الى مكتب المفوض ولا ادري ما حدث . لعل الأمر يتعلق بمنزل شارع كاسيا ، وربمـــا بشيء آخر . وقـــد رفضت كورا ان تطلعني عليه . ان ما أعرفه هو انها انزعجت في النهاية وسقطت أرضاً وحُملت الى غرفـــة اخرى . وآنذاك استدعيت وانتظرت بجانبها الى ان عاد اليها وعيها . وفي النهايـــة امكننا ان نرجع الى البيت .

شعرت بنوع من الخيبة وأنا أستمع الى هذه القصة المتقطعة الكثيرة الفجوات. ان الشيء الاكثر طبيعية وبساطة ومنطقية ، اي تدخل الشرطة ، لم يخطر لي ببال ، وإني لأتساءل لماذا . وبالمقابل تصورت الجناية والوحشية والإهانة والموت وقلت :

– أتعرفين ، لقد رأيتك تعرين كورا من ثيابها .

– اين كنت ؟

– وراء الباب . كنت تبكين . لمَ كنت تبكين ما دامت المسألة انتهت على خير ؟

فأجابت بتؤدة بعد هنيهة من الزمن :

– لقد خفت كثيراً .

– مِمَّ خفت ؟

– في المخفر ، عندمـــا رأيت كورا ممددة على ديوان ، خالجني إنذار بأنها ستموت .

– ولمَ الموت ؟ لقد انزعجت ، هذا كل ما في الأمر . والحقيقة أن إغماءها كان ، ان جاز التعبير ، تدبيراً من العناية الالهية .

– لا تمزح ...

– في مثل تلك الظروف ، كل انسان قابل لأن ينزعج ...

– ليس كورا !
– لمَ تعتقدين بأنها ستموت ؟
– آمل ان اكون مخطئة . لكني شديدة الخوف من أن تموت !

لم اقل شيئاً ، وقمت عن الاريكة ، واقتربت من بابا التي كانت ما تزال واقفة امام المرآة ولفت ذراعيها حول عنقي ، ومكثنا متعانقين امام المرآة التي كانت تعكسنا وتؤكد الطابع البريء هذه المرة لعناقنا. ولم أستطع إمساك نفسي ، بينما أنا مشدود إليها ، أربت بلطف على كتفها كما يفعل الانسان مع الاشخاص الذين يثقل عليهم الألم ، عن التفكير بأن كل شيء يتطور طبقـاً لقانون العادية اليومية : فبدلاً من التهديد والفخ المنصوب وانتقام زوج مهان في شرفه ، كان تدخل الشرطة؛ وبدلاً من القتل، الموت على فراش مرض يمكن ان يلم بأي شخص كان . لا مجـال للشك : ان « ex machina deus » تفعل فعلها . فكورا ستموت ، وسأتحرر ، بدون اي جهد ، من علاقات جليدية ثقيلة الوطء ، وستتمكن بابا ، تلك الابنة المخلصة المتفانية الرؤوم، من الزواج بشرف ولن تعود مكرهة على حب أمها التي ليس لديها أي داعٍ لحبها .

كان فكاك عناقنا نهاية هذه التأملات . فقد تمنيت ليلة سعيـدة لبابا وعدت الى غرفتي . كانت الساعـة الثانية صباحاً . واستلقيت على سريري وتناولت كتاباً عن الولايات المتحدة اشتريته أثناء النهـار وقرأت فيه ساعة قبل ان اغرق في النوم .

الثلاثاء في ١٥ كانون الاول

فهمت انه لم يبق أمامي غير الرحيل . وعلى هذا فان خاتمـة يومياتي ، وبالتالي خاتمة روايتي ، ستكون مؤقتاً سفري . لكن اذا ما صدق إنذار بابا وتحقق ، كما هو مرجح ، فان الخاتمة الحقيقيـة لا يمكن ان تكون غير

موت كورا : خاتمة جليلة للتناوب النموذجي للرتابة اليومية ، ذلك التناوب الذي لم يحدث فيه من شيء والذي لم يصدر فيه أي فعـــل عن أي شخص كائناً من كان .

نهضت كورا بالطبع هذا الصباح ، وخرجت ، ثم اتصلت هاتفياً لتقول انها لن تأتي لتناول طعام الغداء . ومن المرجح ان هـذا الانشغال غير المعتاد ليس غريباً كل الغربة عن زيارة الشرطيين مساء البارحة لقد خرجت كورا تحاشياً للتهديد بالاعتقال ، وربما لتغلق مؤقتاً منزلها في شارع كاسيا ، وعلى كل الأحوال لتبرهن لنفسها ولتثبت لنا ان صحتها على ما يرام وانهـــا ليست مريضة ، وانها ليست بحاجة الى المعالجة ولا الى الإقامة في الجبـــل ، مثل الملاكم المنهك القوى ، المتحول وجهـــه الى طبيخ دامٍ ، الذي ينتصب على قدميه ويحاول ان يسدد لكمة اخيرة الى خصمه .

تساءلت عما اذا كان احتمال اعتقـــال كورا ، مع الفضيحة التي ستتبعه واسمي الذي سيلوكه الجمهور ، يخيفني . وتبينت بشيء من الرضى وانشراح الصدر انني لا آبه لذلك البتة . فالمسألة بعد كل شيء لن تكون سوى « حيلة مسرحية » اخرى ، مشابهة لحيلة موت كورة ، تأخذ شكل قصاص يصيبني أنا نفسي علاوة على بابا، وربما ليس ظلماً بعد كل شيء .

ولم ترجع بابا هي الاخرى لتناول طعام الغداء . والارجح انهـا رافقت كورا ، او خرجت مع سانتورو . وأكلت وحدي ، ثم ذهبت الى غرفتي ، وجلست الى مكتبي ، ورحت أتصفح يومياتي .

أعدت قراءة الصفحات الاولى الـــتي نبهت فيها الى انني أحتفظ لنفسي بالحق في ان أضيف الى الوقائع الواقعة فعلاً وقائع اخرى مختلفة تكون بمثابة مستندات للرواية التي أزمع كتابتها فيما بعد . وهويت في تأمل عميق .

لمَ كتبت هذا التنبيه ؟ لمَ أردت ان أحتفظ لنفسي بالحق في إنشاء روايتي في الوقت الذي كنت أسجــل فيه يومياتي ؟ أليس ذلك لأنني اريد ان اقول

بعض الاشياء التي لا وجود لها في الحياة الواقعية ؟ أم لأخفي عن نفسي أشياء أخرى موجودة فيها على العكس ؟

الحق انني اذا كنت أستعد فعلاً لكتابة رواية ذات يوم من الايام ، فعليّ في هذه الحال ان أقبل لا بكل ما أضفته الى يومياتي بهدف تكميل الواقع ، لجعله اكثر واقعية إن جاز التعبير فحسب ، بل عليّ ايضاً ان أحذف كل ما أفادني في تقنيع الوجه الحقيقي لهذا الواقع في كل مرة بدا لي فيها هذا الاخير مشيناً لا يمكن الإقرار به حتى على صفحات يوميات ذاتية . والحال ان عمل التنقيح والتشذيب والصقل هذا تبدى لي أصعب مما كنت أتوقع : فكل تلك الاضافات ، تلك التي أفادت منها في تعميق الواقع وتكميله وتلك التي ساعدت على العكس على تقنيعه ، لم تتبنّت لأسباب أدبية صرفة تتعلق بآلية الرواية ، وانما لدوافع غريبة عن الأدب يصعب عليّ ، ان لم اقل يستحيل ، ان أوضحها حتى أمام وجداني . وبموجز القول ، لم تكن يومياتي يوميات حياتي فحسب ، بل كانت ايضاً المرآة السرية لروحي . ولقد رويت فيها بالفعل ، بالاضافة الى بعض أحلامي التي بدت لي اعمق دلالة من غيرها ، احداثاً وشخصيات اعرف انها مختلقة لكنها أفادت ، شأن أحلامي الليلية ، لحظة اختلاقي اياها ، في إخفاء بعض الاهواء او كشفها .

ان الانسان لا يملك إجمالاً غير الاحلام التي يحلمها في نومه والاحلام التي يحلمها في يقظته ، اما الروائي فلديه ، علاوة على أحلامه ، ابتكارات رواياته. وهذه الابتكارات ، شأنها شأن الاحلام ، ليست في حقيقتها ما تبدو انها كائنة عليه . وهي تعني شيئاً آخر غير ذاك الذي تزعم انها تعنيه . والحال ان هناك نوعين من الروائيين : من يؤمن منهم بابتكاراته ومن لا يؤمن بها . ومن المباح للأوائل ان يكتبوا روايات شبيهة بألغاز يجهلون هم أنفسهم حلها . ويملك الآخرون على العكس مفتاح ما يكتبونه ، فهم قادرون بالتالي على إظهار ما هو مستتر . وواضح انني أنتمي الى الفئة الثانية .

قد يبدو هذا كله غامضاً . لكن فليعمل القارىء فكره : ان اليوميات الذاتية لا يمكن ان تكون هي الحقيقة لأنه في اللحظة التي يسرد فيها من يحررها حدثاً يكون هو بطله ، يكف عن ان يكون الانسان الذي عاش ذلـــك الحدث الذي يرويه . والانسان الذي عاش الحـــدث هو على العكس شخص مختلف كل الاختلاف ليس لكاتب اليوميات من صلة به غير صلة حكم وتقييم، أو إذا شئتم ، صلة تصور . وفي حين انه يصح ان نقول إن هناك تماثلاً كاملاً في الهوية بين محرر اليوميات وبطل الاحداث المروية في اليوميات ، يصـح ايضاً ان نقول إن هذا التماثل في الهواية هو علة جميع التحويرات أو الاكاذيب او التحفظات التي تعدل او تخفي او تبتر الاحداث المروية في اليوميات . والواقع ان اليوميات تكون دوماً صادقة ، حقيقية ، والمطلوب فقط هو البحث عن الصدق والحقيقة فيما وراء الأحداث .

هذا هو السبب الذي يجعل اليوميات الخاصة والسير الذاتية والاعترافات والمذكرات كاذبة جميعها بهذا القدر او ذاك من وجهة نظر الوقائع وصادقة من وجهة النظر النفسية . فمثل المرآة التي نتملى فيها انفسنا والتي لا تستطيع ان تعكس سوى هذه الوقفة او تلك، كذلك هي الحقيقة التي لا تكمن في الصورة بقدر ما تكمن في طباع الشخص الذي يخلق نفسه ، في اللحظة التي تعكس فيها المرآة صورته ، كما لو بسحر ساحر. لكن لا يمكن القبول بهذا الشخص كما هو ، انما ينبغي تأويله ، إخضاعه لعملية نقدية . وآنذاك نتبين انه حصيلة اكاذيب وتحفظات وتنكرات شبه آلية .

وفي حالتي الخاصة ، عمّ تكشف العملية النقدية ؟ انها تــكشف عن ان بطل اليوميات قد ظهر الى حيز الوجود وتــكوّن بواسطة حذف جزء كامل من الواقع ، وعن ان طباعه الحقيقية تتحدد لا عبر الواقع المحذوف فحسب ، بل ايضاً عبر واقعة الحذف بالذات .

وبالفعل ان بطل اليوميات روائي يقرر ان يكتب يومياته عن مرحلة من حياته الخاصة بهدف استخلاص رواية منها فيما بعد . والحال ، وهـــذا هو

الشيء المستغرب ، أن مشروع الرواية قد قوض شخصية الروائي بمجرد وصول هذا الاخير الى خاتمة يومياته . فإذا كنت اريد حقاً ان اكتب ذات يوم هذه الرواية ، فإن عليّ أن أقر بأن مشروع الرواية هذا لم يكن الدافع الوحيد الذي حثني على كتـابة يوميات ، اي على الانتقال من اللا انتباه الى الانتباه ، وبالتالي على قرع باب بابا ، وبأن ذلك المشروع كان شيئاً أقل سمواً بكثير ولا صلة له بالأدب . وقد حذفت «هذا الشيء» لأشيد صورة الروائي. لكن مشروع روايتي يرغمني الآن على الإقرار بوجود ذلك الشيء ، بـل على اعتباره اساس كل هذه القصة .

كنت غارقاً في هذه التأملات عندما سمعت الباب يفتح خلفي ، وتعرفت وقع أقدام بابا . وانتظرت ، بلا حراك .

جاءت لتنتصب امامي وسألتني :

– ماذا تفعل ؟

– انني اعيد قراءة يومياتي .

ينبغي ان اذكر انـــني حدثت بابا مراراً عن يومياتي وعن مشروعي في استخلاص رواية منها . وعلى هذا فقد سألتني :

– أأنت راضٍ عنها ؟

– من اي وجهة نظر ؟

– من وجهة نظر مــا حدثتني عنه . أتعتقد ان هذه اليوميات قادرة على ان تفيدك في كتابة رواية ؟

– نعم ولا .

– لمَ ، نعم ولا ؟

– نعم من بعض النواحي ، ولا من نواح أخرى .

– مثلاً ؟

– انت تعلمين انني كنت ، اثناء كتابتي يومياتي ، أضيف اليهـــا اشياء متنوعة ، أشياء كنت أعتقد انها مفيدة لروايتي .

– أجل ، قلت لي ذلك .

– والحال ان بعض هذه الاضافات تجمل الواقع اكثر واقعية ، وبعضها على العكس ، ذو مفعول معاكس .

– حسناً ! الأمر في غاية البساطة : احذفها .

– اجل ، ينبغي ان احذفها ، لكن ليس هذا بالأمر السهل . فهذه الاضافات ، في معظمها ، تخفي حقيقة . فاذا حذفتها ، ظهرت الحقيقة .

– حسناً ! ألن يكون ذلك أفضل ؟

– نظرياً ، بلى . لكن ..

– لكن ماذا ؟

– يصعب عليّ كثيراً ان اقبل بتلك الحقيقة ، ان أقر بها لذاتي .

– لماذا ؟

– لأنها حقيقة تخجلني .

– اذن فهي شيء رهيب ؟

– اواه ! كلا ، ليست رهيبة البتة .

– اذن ؟

– ثمة أشياء يسهل قولها واخرى يصعب .

– ولمَ هذه الصعوبة ؟

– هنا لب المشكلة . على الأرجح لأن تلك الأشياء لم تقل في الوقت الذي كان واجباً فيه قولها .

– ماذا تعني ؟

– ان بعض الاشياء يصعب قولها على وجه التحديد لأنها كتمت في السابق .

– لماذا ؟

– لأن الزمن طمرها تحت جبال من الصمت ..

– اذن ؟

– مادام انها طمرت فلا بد من الحفر لايجادها ، وهنا المشقة والازعاج .

– اذا كان في ذلك مشقة وازعاج كما تقول فاعدل عن الحفر ، واستمر في لزومك الصمت .

– اجل ، لكن في هذه الحالة ما سيحدث للرواية ؟

– اشرح رأيك .

– أقصد : اذا لزمت الصمت عن بعض الاشياء فسيستحيل عليّ كتابة روايتي

– بموجز الكلام ، ما المسألة ؟

فلم أجب ، ونظر كل منا الى الآخر . وأضافت بابا :

– حاول ان تقولها لي ، تلك الاشياء ، بدلاً من أن تقولها لذاتك . فهناك أحياناً اعترافات ، مصارحة الغير بها أسهل من مصارحة النفس .

– أنت آخر شخص يمكنني ان اعترف له بها .

– لماذا ؟

– اواه ! لسبب بسيط للغاية .

– ما هو ؟

– انها تخصك انت .

– تخصني أنا ؟

– اجل .

ومن جديد التقت أنظارنا . وأحسست آنذاك بانها الشخص الوحيد الذي استطيع ان أعترف له بتلك الاشياء التي لا أجرؤ على البوح بها ، وهذابالرغم من أن لبابا صلة مباشرة بهذه الاشياء . فلقد أحببتها وما ازال أحبها وأشعر بأن الحب وحده هو الذي يسمح بالإدلاء ببعض الاعترافات . ولاسيا اذا كان حباً كذاك الذي أشعر به تجاهها ، حباً يائساً ومرتبطاً نهائياً من الآن فصاعداً بالتخلي والنكوص .

وفجأة قلت بصوت متهدج :

– حسناً .. سأقول لك ، انت ، ما لم أجرؤ على قوله لذاتي . والآن

لنفعل قليلاً كما لو اننا في جلسة تحليل نفسي : ستكونين انت الدكتور وانا المريض . لكن بعكس ما يجري في تلك الجلسات ، سأجلس أنا الى مكتبي وستستلقين انت على السرير .

– لكن لماذا ؟

– ارجوك ، افعلي كما أقول لك .

فتمددت على السرير. ولبثت جالساً الى مكتبي ، مديراً لها ظهري وقلت :

– سأكلمك اذن . لقد رجوتك ان تستلقي على السرير لأنني بهذه الصورة لن اراك بينما أنا اتكلم وستستطيعين في الوقت نفسه ان تصغي إلي على راحتك.

فلم تحر جواباً وتابعت :

– أتذكرين الصورة التي بدأت بها علاقاتنا ؟

– اي علاقات ؟

– أقصد : أتذكرين مـا جرى بيننا مساء قرعت على بابك ، يوم عودتي من ايران ؟

– لا أذكر جيداً . لقد أريتني رسالة مغفلة تتحدث عـن مهنة كورا وسألتني عما اذا كان ذلك صحيحاً . وأجبتك انه صحيح .

– بالضبط . لكن هل لاحظت تاريخ تلك الرسالة ؟

– كلا ، لا أعتقد ... لماذا ؟

– أتعرفين ما كانه ذلك التاريخ ؟

– كلا ...

– ٥ تشرين الثاني ١٩٥٢

– آه ! اذن فهذه الرسالة لم تصل في نفس اليوم ، بعكس ما قلته لي .

– كلا . في الواقع ، كانت قد وصلت قبل عشرة أعوام . أتفهمين مـا يعني هذا ؟

– ماذا يعني هذا ؟

– انني كنت مطلعاً ، بكل بساطة على مهنة كورا منذ عشر سنوات .

– لكنك قلت لي انك لم تعرف ذلك ذلك قط قبل ذلك اليوم !

– بالفعل . لكني كنت اكذب .

– لمَ كذبت ؟

– لمَ كذبت ؟ هذا بالضبط ما لم أجرؤ على البوح به وما سأقوله لك الآن اذا كان لديك الصبر لسماعي .

– سيكون لدي من الصبر قدر ما تشاء .

– عندما تلقيت تلك الرسالة في عام ١٩٥٢ ، كنت قد قطعت كل صلة جسدية مباشرة مع كورا . اما الصلات غير المباشرة ، فلا .

– ماذا تعني ؟

– أعني انني كففت منذ عشر سنين عن فعل الحب مع كورا لأنني كنت أمسيت لا أحبها . والحال انني تلقيت في بيتي ، في تلك الحقبة ذاتها ، بصورة غامضة بعض الشيء لكنها عادية في الواقع بالنسبة الى هذا النوع من العلاقات ، زيارة عدد معين من المومسات اللاتي كنا يزعمن انهن صديقات بعضهن بعضاً . ولو كان غيري في مكاني لوضع حداً بلا ريب لهذه الزيارات من البداية ، لكني أنا .

– أنت ؟

– يطول عليّ شرح السبب الذي قبلت من اجله بأن تأتي اولئك المومسات للقياي في بيتي . فلنقل انني كنت مغتماً موهناً وانهن جئن في الوقت المناسب .

– لمَ كنت مغتماً ؟

– اواه ! لأسباب عديدة ! ان ما ينبغي ان اقوله لك يتعلق بشيء آخر. ذلك انني في الحقبة نفسها التي تلقيت فيها الرسالة المغفلة ، كان قد راودني شك ، فسألت احدى الفتيات وعرفت الحقيقة .

– أي حقيقة ؟

– لا ان كورا تمارس تلك المهنة (وهذا ما كانت الرسالة قد أطلعتني عليه) فحسب ، بل عرفت ايضاً شيئاً لم تذكره الرسالة .

- أي ؟

- أي أن كورا هي التي كانت ترسل إلي اولئك البنات . فعن طريقهن كانت كورا تريد ان تتابع صلتها الغرامية بي ، وتريد بخاصة، على الأرجح ، ان تبرهن لنفسها على انني لم أفلت منها ، او بالاحرى لم أنقض الفكرة التي كونتها عن العالم . والحال ، استمعي إلي جيداً ، إن الفتاة التي أرغمتها على الإقرار بالحقيقة لم تكن لا الاخيرة ولا قبل الاخيرة، بل واحدة من الاوائل.

- ماذا تعني ؟

- أعني اني تظاهرت بأنني لا أعرف شيئاً ، وانني تابعت اداء لعبة كورا ، تابعت الاستفادة منها ، وانني لم أفعل شيئاً ، اللهم إلا بعد مدة طويلة ، كيما تنقطع زيارات المومسات .

- لمَ قطعت هذه الزيارات ؟

- شبعاً ، على ما أعتقد .

- أهذا ما لم تجرؤ على كتابته في يومياتك ؟

- كلا ، ليس هذا .

- ماذا اذن ؟

- انني قادم الى ذلك . اذن فقد وضعت في النهاية حداً لزيارات البنات. ودخلت الى الجريدة التي مـا أزال أعمل لحسابها حتى الآن ، وقمت برحلتي الاولى كمبعوث خاص . لكني لم أنفصل عن كورا بالرغم من كل الاسباب التي كانت تدعوني الى ذلك ، وتظاهرت بأنني لا اعرف شيئاً ، وبقيت أقيم تحت سقف واحد معها .

- لماذا ؟

- غيري سيقول لك : لأنني قبلت بخدماتها : فمادمت قد قبلت بهـا ، لم يعد في وسعي أن ... الخ ...

- غيرك سيقول ذلك ، لكن انت ؟

– أنا ، سأقول لك على العكس : بعامل اللا انتباه .

– أي ؟

– أي انني كنت لم أعد راغباً في ان يكون بيني وبين كورا اي شيء مشترك ، لأنني لم اكن أجد اي دافع ذي قيمة يحتم عليّ ان أتصرف تجاهها بهذا الشكل بدلاً من ذاك . وعلى هذا فقد خيل إليّ ان الشيء الوحيد الذي ينبغي عليّ ان أفعله هو أن أوجد في نفسي نوعاً من اللاانتباه المصطنع . وقد نجحت تمام النجاح في ذلك ، أؤكد لك .

– أنا لا أشك .

– نظمت حياتي بالصورة التي تعرفين : ثمانية أشهر خارج بيتي وأربعة اشهر في البيت، سنوياً . وإبان هذه الشهور الأربعة ، لا صلة البتة مع كورا، ولا معك ، وكأنني مستأجر لا زوجها وزوج أمك .

– أهذا ما لم تجرؤ على البوح به ؟

– ليس بعد . لكننا قادمان . اذن ...

– اذن ؟

– كانت قد مضت اربع سنين على هذه الحياة ، عندما طرأ حدث جديد.

– اي حدث جديد ؟

– كنت في روما بين سفرتين . والحدث الجديد هو انني تلقيت مكالمة هاتفية من شخص يعلمني أن في العنوان الفلاني ، في الشقة الفلانية ، يوجد شيء لي .

– من كان صاحب المكالمة ؟

– كورا . لم تقل من هي ، بالطبع ، لكني تعرفت صوتها .

– ثم ؟

ثم ، بدلاً من ان ارفض بكل بساطة ، او اقول لها إنني تعرفتها ، تظاهرت بأنني لم افهم شيئاً وقبلت .

– وهذا معناه ؟

– انني ذهبت الى العنوان المذكور .

– وماذا حدث ؟

– حدث انني عندما رأيت الشيء الذي قيل لي انه لي وليت الأدبار .

– ماذا كان ذلك الشيء ؟

– لمَ تتظاهرين بأنك لا تعرفينه ؟

– لا أتظاهر بشيء ، انني لا اعرف ، هذا كل شيء .

– انت تعرفينه ، ولقد كنت تعرفينه دوماً .

– لكن ، في النهاية ، ماذا كان ذلك الشيء ؟

– انت تعرفينه خيراً مني : ذلك الشيء كان بابا .

– بابا !

– اجل ، بابا .. وانت تعرفين ذلك وكنت دوماً تعرفينه . .

– هذا غير صحيح . انني اعرف ولقد كنت اعرف دوماً أن بابا ، في المرة الاولى التي اقتادتها فيها كورا الى ذلك المنزل ، لم تجد فيه احداً وانه لم يحدث شيء . لكنني لم اعرف قط ان الرجل الذي كان يفترض فيه أن يأتي في ذلك اليوم ولم يأتِ كان انت .

– بيد ان لدي البرهان على انك عرفت ذلك منذ ذلك اليوم .

– اي برهان ؟

– كانت بابا جالسة مديرة ظهرها للباب الذي كان مفتوحاً ، وكانت تقرأ مجلة ، حانيه الرأس ، وكان أمامها ديوان وفوق هذا الديوان مرآة كبيرة ، أليس هذا صحيحاً ؟

– بلى ، انني انا نفسي التي قالت لك هذه الاشياء عندما رويت لك قصة ذلك اليوم المشهود ، أتتذكر ؟

– انتظري لحظة . ان ما لم تقوليه ، لا ادري لماذا ، هو انني في اللحظة

التي هممت فيها باجتياز العتبة نظرت الى المرآة لأرى وجه بابا ، وعندها رفعت بابا عينيها ، بعد ان كانت تطرقها ، ونظرت بدورها في المرآة بحيث ان انظارنا التقت وتعرفتني بدون ادنى شك .

– أأنت متأكد من ذلك تماماً ؟

– متأكد تماماً . لقد تعرفتني بابا ولبثت ساكنة بلا حراك ترنو إليّ ، منتظرة ان ترى ما سأفعله . وما فعلته ، انت تعرفينه : فقد وليت الأدبار.

– بالمناسبة ، لِمَ وليت الأدبار ؟

– لأنني خفت ان اكون قد اجتذبت الى فخ من قبل كورا وبابا .

– من قبل بابا ؟

– اقصد بواسطة بابا . كنت اجهل (وكيف كان يمكنني أن أعرف ذلك ؟) انها المرة الأولى التي تذهب فيها بابا الى ذلك المنزل ، وقد حسبت انها قدمت اليه مراراً عديدة ، وقلت بيني وبين نفسي ان كورا تستخدم بابا ، بالاتفاق معها ، لتجتذبني ، لتجرني ، لتورطني ، لتربطني بها أو انها تحاول ان تبدأ من جديد ، بواسطة بابا ، ما كانت قد فعلته قبل سنوات بمساهمة مومستها : الحب عن طريق شخص ثالث .

– أهذا ما لم تجرؤ على البوح به ؟

– اجل .

– لِمَ لم تجرؤ على البوح لي به ما دمت مقتنعاً بأن بابا قد عرفتك ؟

– لأنني في اللحظة التي رأيت فيها بابا جالسة في ذلك الصالون ، في تلك اللحظة المحددة ، أولعت بها ، وعلى وجه التحديد لأنني أولعت بها وليت الأدبار . ولم تكن لي الشجاعة لمصارحتك بالحقيقة لأنني كنت أشعر بالخجل إذ هربت بدلاً من ان اتدخل كما كان واجباً علي أن أفعل .

– تتدخل بأي طريقة ؟

– ان اتفاهم مع كورا ، وأنقذ بابا من كورا.

– اعذرني ، لكني لا أرى الصلة بين كونك قد أولعت ببابا وبين كونك قد وليت الأدبار بدلاً من أن تتدخل لصالحها . فقد كان المنطق يقضي ، مادمت كنت تحبها ، بأن تتدخل .

– هذا بالضبط ما عجزت عنه . كنت خائفاً من نفسي على وجه التحديد لأنني كنت أحب بابا . كنت اخشى ، في حال التفاهم مع كورا ، ان استسلم للاغراء ، وان أنجرف وأتورط وأنجذب من جديد ، وهذه المرة بصورة نهائية لا خلاص بعدها . لا تنسي انني كنت مقتنعاً بأن بابا معتادة على هذا النوع من الاشياء . إذن فأنا لم أفكر ببابا التي كنت أعتبرها ضائعة هالكة الى الأبد ، وانما بنفسي . وعلى هذا فقد وليت الأدبار وغادرت روما في اليوم التالي ، مقدماً موعد سفري أسبوعاً .

– ثم ؟

– بقيت طوال عشرة أعوام ، أحب بابا ، مقتنعاً في الوقت نفسه بأن بابا تحبني .

– كنت مقتنعاً بأن بابا تحبك ؟

– أجل . كنت مقتنعاً ، وما أزال ، بأننا ، أنا وبابا ، في اللحظة التي التقت فيها أنظارنا في المرآة ، قد وقعنا في غرام بعضنا بعضاً .

– لكن اذا كان هذا صحيحاً ، فقل لي لمَ لم تأت اليك ، لمَ لم تقل لك : « اسمع ، لقد رأيتك وعرفتك ، وهأنذا ، انني أحبك » . ما كانت دواعي بابا لأن تتظاهر بأنها لم ترك ؟

– أعتقد ان دواعيها كانت كدواعيّ .

– أي ؟

– لم اكن أريد ان أواجه الإغراء ، وكذلك هي . أنا لأسبابي الخاصة ، وهي لأسبابها .

– لكن ما الاسباب التي أمكن ان تكون لبابا ؟

– لقد تحدثنا عن ذلك مراراً عديدة . كانت تريد ان اكون أباً لها ، وكانت تريد ان تكون أبنة لي .

وساد صمت طويل . واخيراً قالت بابا بتؤدة :

– كان المفروض فيّ ان اقول لك ان بابا لا تستطيع ان تغفر لك عدم تدخلك في ذلك اليوم ، عدم سعيك الى التفاهم مع كورا ، عدم سعيك ، كما قلت ، الى إنقاذها من كورا ، أليس كذلك ؟

– بلى ، هذا ما كان المفروض .

– ومع ذلك ، على العكس ، ليس هذا المفروض .

– قولي لي لماذا ؟

– قبل كل شيء ، لم تقع بابا فريسة غرامك. صحيح انها رأتك وعرفتك، أقر بذلك ولا جدوى بعد الآن من نفيه ، لكنها لم تولع بك . فبابا ، في ذلك الوقت ، كانت كالميتة . وكيف يمكن لميتة ان تعشق ؟ كلا، لقد شعرت لحظتئذ بشعور معين ، لكنه ليس شعور الحب .

– أي شعور إذن ؟

– يشق علي التعبير عنه . لنقل انه كان في صميمه الشعور نفسه الذي كان يخالجها تجاه كورا .

– أي ؟

– لنقل : شعور بعرفان الجميل .

– بعرفان الجميل ؟

– أجل .

– كيف امكن لبابا ان تشعر بالجميل تجاه كورا التي سعت الى بيعها ، وتجاهي أنا الذي استسلم لإغراء شرائها ؟

– الشعور بعرفان الجميل جاء فيما بعد . فقد توفيت اولاً بابا القديمة ، بابا البلهاء الساذجة . ثم جاء بعد ذلك بفترة ، الشعور بعرفان الجميل .

– لكن لماذا ؟

– حفظت بابا لكما الجميل لأنكما أرسلتما بها الى العالم الآخر .

– ؟...

– اجل ، لقد ماتت بابا القديمة في نفس اللحظة التي رأتك فيها في مرآة الصالون . وهذا هو السبب الذي جعل بابا لا تخبرك ، طوال تلك الأعوام ، بأنها رأتك في ذلك اليوم وعرفتك . ان بابا التي رأتك في المرآة ماتت ، وبابا التي شعرت بعرفان الجميل تجاه كورا وتجاهك هي بابا جديدة تريد (كما أحسنت التعبير انت نفسك) أن تكون كورا أمها ، وانت أباها ، وهي ابنتكما .

– لكن هل كان يستحيل أن يحدث هذا كله بدون ما تسمينه موت بابا القديمة ؟

– أجل ، كان هذا مستحيلا . أتعلم ...

– ماذا ؟

– إن بابا تعتبر نفسها شخصاً عادياً تماماً ، شبيهاً بكل الأشخاص الذين هم في عمرها ، إلا في شيء واحد : ان معاصريها لم يموتوا ولم يبدأوا من ثم الحياة من جديد كما فعلت بابا .

– ما معنى هذا ؟

– ربما ليس شيئاً أكثر مما أقول .

ولزمنا الصمت هنيهة من الزمن ، ثم تابعت بابا :

– هناك شيء لم تفسره لي . لمَ قررت ، بعد ستة أعوام من الصمت ، أن تقدم نفسك لبابا بحجة الرسالة المغفلة ؟

– لأنني نويت آنذاك ان افعل ما لم تؤاتني الشجاعة لفعله قبل ستة أعوام .

– أي ؟

– في المرة الأولى هربت من منزل كورا . ثم وقعت في غرام بابا ، ولم اكن لأكف عن التفكير بها ، لكني تمكنت دوماً من إمساك نفسي عن تلك العلاقات التي كانت تثير اشمئزازي . ويوم عودتي من ايران ، وربما لأن السفر أتعبني وأهاج أعصابي ، استسلمت فجأة للإغراء ، هذا كل شيء .

– باختصار ، يوم قرعت على باب بابا كنت تفكر بأن تصبح عشيقها .

– أجل .

– ولمَ لم تفعل شيئاً في هـذا القصد ؟

– كنت مقتنعاً بأن بابا هي في الواقع واحدة من مخلوقات كورا العديدات ، تشبه غيرها في كل شيء . وعلى هذا عندما قرعت بابها كنت أحاول إيهام نفسي بأنني افعل شيئاً عادياً تافه الأهمية . وبالفعل ، ما الفساد ان لم يـكن نوعاً خاصاً من العادية الباطلة اللاغية ؟ كنت أعتقد ان بابا تنتمي الى عـادية الفساد هذه ، لـكني عندما قابلتها وجهاً لوجه ، للمرة الاولى ، تبينت على العكس انني أحبهـا فعلاً وان هذا الحب لا يسمح لي إلا بنوع واحد من العلاقة معها .

– وهو ؟

– لا تبتسمي الآن ، حتى ولو بدا لك ما سأقوله بعيداً عن الواقـع لا يصدق ، بل مضحكاً : لم تكن علاقة أب بابنته لأنني لم اكن أشعر بأنني اب تجاه بابا ، ولا علاقة رجل بالمرأة التي يحب لأنني كنت أعرف ان هـذه العلاقة مستحيلة بيننـا . اكرر عليك : لا تبتسمي : كانت علاقة الروائي بشخصيته . ان هذا كله سيبدو لك للوهلة الاولى أدبياً ، لكنه ليس كذلك.

وأمسكت عن الكلام لحظة ، ولبثت بابا صامتة . وتابعت :

– على صعيد العلاقات القائمة في العـالم الواقعي ، لا توجد علاقة واقعية راسخة كتلك التي تقوم بين الروائي وأشخاصه : حتى العلاقـة الغرامية هي أقل صفاء ، اقل شفافية ، اقل غموضاً ، اقل عجائبية ، اقل كمالاً ، من هذه

العلاقة . اجل انني احبك ، واحبك بالتأكيد حباً تحرر ، فيما انا اكلمك، من آخر تَخبّث فيه كقطعة من المعدن بلغت اعلى درجة من الذوبان . ومع ذلك يقل هذا الحب صفاء ويقل واقعيـة عن الحب الذي سيسمح لي بتصويرك في روايتي ، هذا اذا ما أوتيت القوة على كتابتها . وهذا لأن حبي لك يظل في الواقع ودوماً طريقة من طرق العمــل ، ولأنه لا يمكن ان توجد أصالة في العمل . في حين ان الحب الذي سيتيح لي ان أصورك في روايتي يولد وينتهي في التأمل من دون ان يتلوث بالعمل ، في حلم العمل او رفض العمل . انمـا بهـذا الحب أحبك وأنا حافظ لك الجميل كما ينبغي على المرء ان يحفظ الجميل لشخص يوحي اليه بعاطفة نادرة ، صعبة ، ثمينة .

وأخلدت الى الصمت ، منتظراً تعليقاً لم يأت . ثم استدرت على مهل وقد تفاجأت بالصمت الذي طال أمده ، ورأيت ان السرير خاوٍ . لقد نهضت بابا من غير ان أنتبه اليها، واتجهت نحو الباب، وغادرت الغرفة على أصابع قدميها.

الخميس ١٨ كانون الاول

أعدت قراءة الصفحات الاخيرة من يومياتي وشعرت بالحاجة الى انأضيف اليها خاتمة ، على الأقل مؤقتة ، ولا سيما ان هذه اليوميات قـد انتهت فعلاً هذه المرة ما دمت سأرحل الى الولايات المتحدة في غضون خمسة ايام . لكن لأسباب ودوافـع ستبدو بديهية جلية في نظر من يطالع هذه الصفحات حتى النهاية ستكون خاتمتي ذات وجهين ، ان جـــاز التعبير ، كل منهما صحيح ومقبول وان كان يختلف عميق الاختلاف عن الآخر ، وكل منهما صالح لختـم الرواية .

هوذا الاول : أريد ، قبل ان أسافر، أن أسجل هنا بأن المشهد الاخير،

مشهد اعترافي لبابا ، مختلق من أساسه . وانه لشيء مثير للفضول ان اكون قد تركت نفسي أنقاد ، كلما تقدمت في تحرير يومياتي ، أكثر فأكثر وراء اختلاق تفاصيل وأحداث ، بل أحياناً مشاهد كاملة . لكن ربما لم يكن ذلك مثيراً للفضول والاستغراب بالقدر الذي أقول : فهذا في الحقيقة برهان على ان مخيلتي ، من شدة تركيز انتباهي على الموقف ذاته ، قد انشحذت شيئاً فشيئاً ، واختمرت واهتاجت ، وانتقلت على نحو غير محسوس من ملاحظة الواقع السلبية الى تصوره الحقيقي .

وعلى كل الاحوال ليس ثمة من أهمية تذكر لكوني لم أفعل قط في واقع الحياة الاشياء التي اعترفت بها لبابا ، وعلى هذا فإن اعترافي نفسه قليل الأهمية ، كذلك ليس ثمة من أهمية تذكر لكون الرسالة المغفلة قد وصلتني حقاً في اليوم المذكور ، ولكوني قد جهلت كل شيء قبلها عن مهنة كورا الثانية . ليس لهذا من أهمية تذكر لأنني لم آبه طوال عشر سنين ، مهما كان السبب ، لبابا ولمصيرها ، في حين انه كان ينبغي عليّ أن أهتم بها بوصفها ابنتي مادمت أحب بابا حقاً ، لأن يكون هذا الحب قد دام ستة أشهر او ستة أعوام .

ان المشكلة الوحيدة التي تبقى قائمة هي معرفة ما اذا كانت روايتي ستنتهي على هذا الاعتراف . ام انني سأتركها معلقة مع ظهور الشرطة ، وعودة كورا وبابا الى المنزل بانتظار « الحيلة المسرحية » المتوقعة ، المحتمة ، حيلة موت كورا الطبيعي ، الشيء الذي سيمكنني من إنهاء قصتي كما بدأتها ، تحت عنوان العادية اليومية .

اما الوجه الآخر لخاتمتي فهو على العكس التالي : ثمة شيء عليّ ان أقبل به لأنني اذا لم أقبل به فانني متأكد من انني لن أستطيع ان اكتب روايتي ، أعني قبولي بأن مشهد اعترافي لبابا قد حدث فعلاً بنفس الكلمات وبنفس الحقائق التي تم البوح بها . اما ما هو مختلق وكاذب فهو ، على العكس ،

الملاحظة التي أضفتها لتوي والتي صرحت فيها بأن هـذا المشهد نفسه كاذب وثمرة اختلاق محض وفي هذه الحال يتوجب عليّ أن احدد الآن لمَ لم أشأ القبول ببعض الاشياء ، حتى تجاه ضميري ، لأنني حتى عندمـــا قبلت بها ندمت وأسرعت أنفي ان اكون قد قبلت بها . ربما لأنني ، باعترافي بها، قد اعترفت في الواقع بأن الخجل الذي يوحي به إلي ماضيّ ليس هو ، كما أردت أن ألقي في ذهن القارىء ، الخجل الذي يوحي به وهمٌ تسلط عليك وأسرك ، وانما الخجل الذي يمكن ان ينشأ عن خطأ دنس به الانسان نفسه.

لكن من الصحيح ايضاً انني بقبولي عرض كورا وبذهـــابي الى منزل مواعيدها قد سقطت في فخ وهم . ذلك الوهم الذي كانت كورا موزعتـــه ومثيرته . وبعبارة واحدة ، الوهم الذي تتجلى فيه أضغاث أحلام الحيـــاة الشائعة المبتذلة بكل ماهيتها وامتلائها . وعلى هـــذا فان مشروع روايتي ذاك قد أفادني بوجه خاص في التحرر من خجلي من انني عشت .

هذان هما اذن وجها الخاتمة ، الوجهان المناسبان كلاهما لختم الرواية، لكن كلاً منهما من زاوية خاصة وبطريقة مغايرة .

فالوجه الثاني ، الوجه الذي يؤكد واقع الاعتراف ، يضفي على الروايـــة كلها طابع آلة أُحسن بناؤها . صحيح ان هذه الآلة داخلية كلها ان جاز التعبير ، تعالج تطوراً نفسياً اكثر مما تعالج احداثاً واقعية ، لكن صحيح ايضاً ان الرسالة المغفلة التي اطلعت عليها بابا بعد عشر سنين من تلقيها، والزيارة التي قمت بها لمنزل المواعيد وهربي من غير ان اعلن عن نفسي، ثم الصمت الذي لزمته طوال ستة اعوام عن الزيارة وهذا الهرب ، اقول صحيح أيضاً ان هذا كله تفوح منه رائحة التركيب ، الحبك ، العقدة الروائية ، حتى ولو كان العنصر النفسي هو العنصر المهيمن فيه. بيد انه ينبغي ان أقول بأن هذا يحدث في الحياة واشياء اخرى كثيرة غيره ايضاً. وبأن الانسان اذا ما كتب روايات روائية الى جانب روايات اخرى لا يحدث فيها شيء ، فهذا يعني في الحقيقة

انه حتى في الواقع المعاش ، الى جانب غياب الاحداث ، توجـــد وفرة من الاحداث . واخيراً ، ينبغي ان أشير الى ان الاعتراف الذي أدليت به لبابا يعطي الرواية مفعولاً مبطلاً لمفعول الكذب والتضليل ، مفعولاً يكون معناه: لا وجود لعدم انتباه يدوم عشر سنين من دون ان يكون هناك دافع لمثل هذه الظاهرة . وبذلك اكون قد شرحت هـذا الدافع تماماً كما انه لا يمكن ان توجد ، في « اوديب ملكاً »،أسرار وألغاز لا بالنسبة الى المؤلف ولا بالنسبة الى القارىء ، انما فقط بالنسبة الى الشخصية — البطل .

أما الوجه الأول من الخاتمة ، الوجه الذي ينفي واقــع الاعتراف ، فهو ينقل على العكس الرواية من صعيد الأحداث الواقعية الى وعي الروائي . فلا تعود قصة الشعور بالغلطة ، المتولد عن الغلطة المقترفة فعلاً،وانما قصة الطريقة التي يواجه بها الروائي مشكلة تصوير الغلطة والشعور بالإثم . ان روايـتي ، مع الوجه الاول من الخاتمة ، ستكون دراماتيكية، ومع الوجه الثاني ستكون دراما إبداع رواية .

قد يريد قارىء من القراء ان يعرف أي الخاتمتين تنطبق على الحقيقة . اي معرفة ما حدث فعلاً . لكن هذا ما لن اقوله ، لأنه ليس من الضروري ، في الحقيقة ، ان اقوله . وبالفعل ،وبعد ان قلت كل ما يجب قوله ، فان مشكلتي، في خاتمة المطاف ، ليست مشكلة اتهام نفسي او تبريرها او هتك الحجب عنها، وانما هي مشكلة أبسط بكثير ، مشكلة كتابة رواية. صحيح انه لا يمكن ان تكتب رواية إلا اذا قيلت الحقيقة . لكن من يستطيع ان ينكر ان خاتمتيّ حقيقيتان كلتيهما ، حتى ولو كانت كل واحدة منهما حقيقية على طريقتها الخاصة؟

الخاتمة

إن الـ « deus ex machina » ، أقصد موت كورا الطبيعي ، فعل فعله بدقة ، كما توقعت. كان قد مضى على وجودي في نيويورك عشرون يوماً عندما تلقيت من بابا رسالة تعلمني فيها ان كورا قد قررت نهائيـاً الذهاب لاستشارة طبيب ، وان هذا الاخير قد شخص مرضاً مميتاً . ولم يكن هذا المرض سلا كما حسبنا ، وانما سرطان رئوي . كما أعلمتني بابا ان الطبيب اعطى كورا من ستة أشهر الى سنة من الحياة . وعلى هذا ليس هنـــاك من ضرورة عاجلة لعودتي الى روما .

وتلقيت ايضاً رسالتين متفائلتين بالاحرى : فصحة كورا تتحسن وحالتها تتقدم ، والطبيب لم يعد يفهم شيئاً واخذ يتكلم عن معجزة .. ثم ، على حين غرة ، تبدل مفاجىء : برقية تعلمني بأن كورا تحتضر .

بينما كنت أحلق فوق الاطلسي ، كنت أتساءل عما أرغب فيه قبل أي شيء آخر . وتبينت انني أتمنى على الاخص ان اصل الى روما بعد وفـــاة كورا . فقد كانت فكرة احتضار كورا ، ونحن ، أقصد أنا وبابا ، ساهران عند سريرها ، كانت هذه الفكرة التي ترضي بكل تأكيد بابا المتشبثة ببرنامجها الخاص عن إعادة توطيد العلاقات العائلية ، لا تطاق بالنسبة إلي . فأنا لااريد ان أعيد توطيد أي شيء . فكورا هي ، في نظري ، ما هي عليه ، كما ان بابا هي ما هي عليه وأنا ما أنا عليه . ولا مجال للكلام عن عائـــلة . وأنا افضل ، شخصياً على الاقل ، ان اكون ما أنا عليه على ان احاول ان اكون

ما كان يجب ان اكونه .

لقد استجاب « deus ex machina » لرجائي بكل حسن التفات . فعند وصولي الى روما لم ألف احداً في البيت . وأعلمني الخادم ان كورا توفيت البارحة عند الفجر ، وان بابا موجودة في العيادة من اجل الجنازة . وبعد تردد وجيز (تساءلت عما اذا لم يكن من الافضل ان أبقى في البيت متظاهراً بأنني لم أصل بعد) تمسكت بحبل الشجاعة وذهبت الى العيادة. ولقد وصلت في الوقت المناسب بالضبط لأشاهد القبارين الأربعة يحملون التابوت ويتجهون نحو العربة الجنائزية التي كانت تنتظر في الساحة . كان تابوتاً من خشب فاهي اللون ، شبه خام ، من الطراز الاكثر شيوعاً . وفيما كنت أسير وراءه ، بصحبة والدي كورا وبابا وسانتورو ، شدهت بالسرعة ، بل ، يمكن القول، بالعجلة المحمومة اللامبالية التي كان يحمله بها القبارون الذين نزلوا الدرج ركضاً تقريباً ، ورفعوه بخفة وكأنه تبرة قش نحو فتحة العربة ، ودفعوا به الى الداخل ، وأغلقوا الابواب ، وصعد اثنان منهم وثباً الى العربة ، واحد من كل جانب ، وصعد الآخران الى سيارة صغيرة سوداء. وما كاد صوت الأبواب التي أغلقت بعنف يتلاشى في سكون الحديقة حتى كان المحرك قد أخذ يزمجر وتحركت العربة الجنائزية. وصعدت الى سيارتي وجلست بابا بجانبي، وانطلقنا في موكب صغير مؤلف من اربع سيارات ، سيارة الجنازة وسيارة اهل كورا وسيارة سانتورو وسيارتي ، يتبع بسرعة العربة المأتمية التي كانت تجري عدواً في ممرات حديقة العيادة . وعبرنا البوابة ، وتقدمنا باتجاه شارع كاسيا كان السير كثيفاً ، لكن سائق العربة المأتمية كان يسرع كالمجنون من غير إبطاء ويقوم بتجاوزات خطرة . كان ، طوال الطريق ، يضغط على زمور السيارة ويتغلغل بين عربتين في خضم السيارات ، ويستفيد من الفسحات الخاوية لينطلق بأقصى سرعة ، ويشد على الفرامل ويعاود الانطلاق بخشونة . وقلت لبابا التي كانت تدير وجهها بعناد نحو نافذة باب السيارة :

– ما بهم ؟ لمَ يسرعون على هذا النحو ؟

– انهم على عجلة من أمرهم بلا ريب . لعل عندهم دفناً آخر بعد هذا
ولم أقل شيئاً . لو كنت تكلمت ، لقلت ما كنت أفكر به أو بالأحرى ما كنت أحس به . أجل ، ربما كان القبارون على عجلة من أمرهم لأن لديهم دفناً آخر ، لكن عجلتهم تبدو لي ناجمة عن دافع آخر . دافع التخلص من كورا ودفنها بأقصى سرعة ممكنة حتى لا يعودوا الى التفكير بها لقد كانت كورا شيئاً غريباً ، معادياً ، سلبياً ، هداماً ، على الأقل في العالم الذي ينتمي اليه القبارون أنفسهم . ولقد كان من الواجب إبعاد كورا ، هي الحضور المزعج المرهب ، بأقصى ما يمكن من السرعة كما يبعد الجسم شيئاً ليس غريباً عنه فحسب بل ضاراً به أيضاً : سماً أو شظية . لقد آمنت كورا بالعدم ، ومثلت العدم ، وجسدت العدم . والآن يستعجلون الخلاص منها . واذا لم يكن جثمانها قد ألقي في حفرة الأقذار ، فليس ذلك ، بكل تأكيد ، بعامل الشفقة ، وانما بحكم المنطق الصلب للعالم الذي رفضته وحاربته .

فيما أنا أفكر كنت قد وصلت مع الآخرين الى المقبرة التي دشنت ولا شك منذ عهد قريب ، لأنني تبينت ، بعد عبور البوابة ، ان الممشى عار ، تحفه أشجار سرو صغيرة مسنودة بأوتاد ، وقد انتشرت هنا وهناك قبور جديدة متألقة برخامها الملون ومتلألئة بالنقوش ذات الأحرف المذهبة .

كان النهار بارداً كالحاً مثل غيره من نهارات روما في الشتاء ، والمطر رذاذاً متقطعاً ، والسماء رمادية صقيلة ، لا تحددها تضاريس الغيوم ، وكأن اللون الرمادي هو لونها المعتاد بدلاً من اللازورد . وكانت العربة المأتمية تدور وتلف حول القبور بنفس السرعة المحمومة ، ثم توقفت فجأة في فسحة جرداء . كنا عند سفح تل ، وكانت الأضرحة تصطف في أربعة صفوف يعلو بعضها بعضاً على المنحدر . كان المشهد واسعاً كئيباً : ريف روما باخضراره الشاحب ، بلا أشجار ، بلا منازل ، وخطوط التلال الواطئة المتماوجة ترتسم الواحد تلو الآخر حتى سمت الأفق . وانفتحت أبواب السيارات كلها دفعة

واحدة ، ونزلنا منها : بابا ، والدا كورا ، سانتورو ، فتاة شابة هي على الأرجح أخت هذا الأخير ، وأنا . لكن ما كدنا نهم بالاقتراب من العربة المأتمية حتى كان القباررن قد أخرجوا النعش وحملوه ، بسرعة خارقة ، نحو إحدى الكوى العديدة التي ما تزال فارغة . وكان يتبعهم رجلان يحملان اكاليل صغيرة من الزهر ، ثم نحن وقد رحنا نحث الخطى بأسرع ما يمكننا . كانت الكوة تقع في أعلى صف ، وكانت صقالة صغيرة موضوعة أمامها يمكن الصعود اليها بواسطة سلم متحرك . وصعد عليها القباررن الذين كانوا يحملون النعش على اكتافهم ، ودفعوا به الى الكوة ، ونزلوا بسرعة . وصعد عاملا بناء بدورهما ، أحدهمـــا يحمل سلة من الآجر ، والآخر سطلاً من الكلس ومسجة . وبالسرعة نفسها سدت الكوة من قبل العاملين النشيطين الماهرين المقعيين على الصقالة : صف من الآجر ، طبقة من الملاط ، ثم صف آخر من الآجر وطبقة أخرى من الملاط، الى ان سدت الفتحة كلياً . كنا واقفين حول الصقالة ، رافعين أنظارنا ، وفكرت فجأة بأن كورا التي سدت عليها الكوة حية وليست ميتة ، وربما لأنه خيل إلي أن مثل هذه العجلة الكبيرة تناسب عدواً قادراً على الأذى اكثر مما تناسب جثماناً خامد الحياة عاجزاً عن الأذى.

بعد أن سدت الكوة ثبت العاملان على الآجر بالاسمنت اللوحة التي تحمل اسم كورا وتاريخي ميلادها ووفاتها ، ووضعا على جانبي اللوحة اكاليل الزهر الصغيرة ، ونزلا . ولا ريب في ان هذا كله دام فترة طويلة بما فيه الكفاية ، لأن سد كوة وتثبيت لوحة عليها عملية تستغرق وقتاً طويلاً ، لكن خيل إلي أن المسألة كلها لم تتجاوز الدقائق . وفي النهايـــة ، وفي جو محرج مراء من الصمت ، تمت المصافحات المعتادة وهزات الرأس المليئة بتعابير الأسى. وقالت بابا لسانتورو وهي تشير إلي :

– باولو ، انني ذاهبة معه . سنلتقي فيا بعد .

وصعدنا الى سيارتي ، وقدتها بسرعة أبطأ بكثير من السرعة التي تبعت بها

عربة الموت . وخرجنا من المقبرة ، واخذنا مكاننا في خضم الرتل الطويل من السيارات المتجهة الى روما . نظرت الى بابا خلسة . كانت ، بثيابها السود ، شديدة الشحوب ، قد احمرت عيناها وتورمتا من الدموع . ولم أستطع إمساك نفسي عن التفكير بسخرية : « هي حقاً الابنة التي لا سبيل للعزاء الى قلبها تبكي موت أمها . ان كل شيء منتظم حسب الأصول » . وفي النهاية قالت لي من دون ان تنظر إلي :

– آسفة ، لكني لن أستطيع ، مدة اقامتك في روما ، ان اكون بصحبتك كثيراً . فأنا ، منذ حوالي شهر من الزمن ، أقيم مع سانتورو .

فلم أقل شيئاً . واضافت :

– سوف نتزوج خلال خمسة عشر يوماً .

– أأنت مسرورة ؟

– أجل . في الحقيقة ، هذا ما كنت أرغب فيه .

هكذا فان كل ما كان بيننا او بالأحرى كل ما كان يمكن ان يكون بيننا ، قد كثفته في هاتين الكلمتين : « في الحقيقة » . إن « في الحقيقة » هذه تعني : لقد أحببتك ، وما أزال أحبك ، وكان في وسعي ان اذهب معك حتى الحب السفاح ، لكن من الأفضل ان أتزوج سانتورو من غير ان أحبه ، ان أؤسس معه أسرة ، ان أنجب أطفالاً ، وأن نبقى ، نحن الاثنين ، او بالأحرى نصبح نهائياً أباً وابنة .

لم أفش شيئاً من هذه الأفكار لبابا ، لإحساسي بأنني لن استطيع ان اكون صادقاً معها كل الصدق من الآن فصاعداً . وبعد صمت ، سألت :

– ماذا سنفعل ؟

– سأعاود الرحيل غداً الى الولايات المتحدة .

– ثم ؟

– سأستمر في فعل ما فعلته دوماً : الصحافة .

– وتلك الرواية التي كنت تزمع استخلاصها من يومياتك ، هل ستكتبها ؟

– لا أظن . على كل الاحوال ، سأكرس اليوم الذي سأقضيه في روما لهذه المشكلة . سأدرس يومياتي وسأرى ما بوسعي ان أفعله بها .

كانت تلك هي آخر عبارات تبادلتها مع بابا . كنا قد وصلنا الى ساحة فلامينيو فرجتني ان أتوقف . ونزلنا وتعانقنا ، هي باندفاع بنوي ، وأنا بسلبية أبوية . ثم صعدت من جديد الى السيارة وعدت ادراجي الى بيتي .

كنت اريد دراسة يومياتي ، لكن رحلتي الطويلة بالطائرة وجنازة كورا كانتا قد أتعبتاني . ولذلك ، وبعد ان قلبت عدة صفحات ، بصورة شبه آلية ، قمت لأستلقي على سريري . وسرعان ما سدرت في السبات وشاهدت الحلم التالي : أتت بابا وكورا للقائي ، وكل منهما ممسكة بيد الأخرى، متقدمتين في ممشى لامتناهي الطول تعرفت فيه ممشى المقبرة . وبالفعل كان يحفه على مد النظر صفان من القبور الجديدة المتألقة ، المشادة من الرخام اللماع الذي يقدح شرراً تحت الشمس وكانت هذه القبور على شكل كنائس ومعابد صغيرة وأجنحة ودور صغيرة. وكنت أقف بقرب واحد من هذه القبور ، وبابه البرونزي مفتوح على مصراعيه فيبين فراغه من الداخل . وكان فوق الباب نقش بأحرف مذهبة ، لكن الشمس كانت تسطع فوقه ، وكان وهج الذهب يمنعني من القراءة . وكانت كورا وبابا قد وصلتا قدامي . كورا ترتدي كعادتها تنورة وسترة حمراء . اما بابا فترتدي ، على العكس ، وبقلة لياقة ، ثوب عروس: برقع أبيض طويل يغطي كالغمام رأسها وكتفيها ، وعلى رأسها تاج من زهر البرتقال ، ورداؤهـا الحريري الأبيض مزدان بذيل طويـل . نظرت اليهما ولاحظت بذعر ان وجه كورا ، المؤطر بخصلتين طويلتين من الشعر الأسود ، ليس وجه امرأة حية بوجنتين حمراوين وعينين زرقاوين ، وانما وجه امرأة ميتة ، وجه أصفر مظلل بسواد الموتى ، وبعينين مطفأتين ، كابيتين ، شبه بيضاويين لكن لم يكن يبدو على بابا انها منتبهة الى ذلك . فقد رفعت الى شفتيها يد كورا ، يداً صفراء ميتة مثـل

الوجه ، وقبلتها بتفانٍ ، وقالت بصوت جمهوري : « هي ذي أمي كورا التي أدين لها بكل شيء لأنها فعلت في سبيلي ما لم تفعله قط أي أم في سبيل ابنتها وأنا أحبها وعرفاني لها بالجميل لن يكون له ابداً من نهاية » . وهزت كورا برأسها موافقة على هذا الكلام ، لكنها فعلت ذلك كميتة ، بطريقة واهنة شبحية . ثم اتجهت الاثنتان نحو القبر الذي كنت أقف بجانبه ، وبابا ما تزال تمسك بيد كورا وكأنها تقودها . ودلفت كورا الى القبر العالي الضيق الذي بدا صغيراً بالنسبة اليها ، وانطبق باب البرونز . ان بابا تدير لي الآن ظهرها ، ويقف بجانبها سانتورو ، في ثياب العرس هو الآخر : رداء أسود وباقة من الزهور في يده اليمنى . وأعطته بابا ذراعها وابتعد الاثنان في ذلك المشى الطويل ، الطويل ، بين صفين من القبور . وسرعان ما أصبحا مجرد نقطتين سوداوين صغيرتين . وفي تلك اللحظة ، استيقظت .

كنت ما أزال مضطرب الجأش لهذا المنام وكأنني مغتم لخطب عظيم يتهددني . لكني فكرت وفهمت انني حلمت ، في الواقع وبصور الحلم ، بما قالته لي بابا ذات يوم بالكلمات : اي انها حافظة لكورا الجميل لأنها أماتتها وأتاحت لها ان تبعث من هذا الموت ، ولأنه لولا كورا لما كان حدث شيء من هذا ولبقيت شبيهة بالكثيرين من معاصريها الذي يجهلون ما الحياة على وجه التحديد لأنهم لم يعرفوا تجربة الموت . وأسكن هذا التفكير روعي ، فنهضت وغسلت وجهي بالماء البارد ، ثم جلست امام طاولتي . كان تعبي قد زال ، ففتحت يومياتي على الصفحة الأولى وشرعت أعيد القراءة وأعدت القراءة طوال فترة بعد الظهر . وفي النهاية اتضح لي مطلق الوضوح أن علي ان أعدل عن استخلاص رواية منها كما كان قصدي .

وبالفعل ، كانت هذه اليوميات مؤلفة من قسمين متمايزين وغير متعادلين : الأول ، وهو الأطول ، يحتوي على عدد كبير من الصفحات التي كان من الممكن ان تكون صفحات دراسة أو مقالة،وهذا بغض النظر عن الاختلافات

العديدة التي لم أستطع إمساك نفسي عن إضافتها كلما رويت الأحـــداث ؛ والثاني ، الأقصر ، هـو ، على العكس ، سرد لما حدث فعلاً . والحال انني كتبت القسم المتخيل الذي له طابع الدراسة مع العزم المسبق على عـدم نقله الى الرواية ، وهو في الواقع تسجيل لكل ما يمكن ان يخطر ببـال الروائي اثناء تفكيره في الرواية التي يريد كتابتها ، لأشياء قد تساعده على كتابـــة الرواية لكن لا يمكن ، بكل بداهة ، ان تمثل فيها . بيد انني اذا ماحذفت هذا القسم ، فلن يبقى شيء كثير للرواية الحقيقية . وبالفعل ، لم يحدث من شيء يصلح لأن يكون عقـدة قصة . وفضلاً عن ذلك ، وبالرغم من انـه لم يحدث شيء ، لم أذكر في يومياتي تفاصيل الحياة اليومية التي لا يحصى لها عد كما كنت أزمع في البدء ، فقد نهاني عن ذلك الجانب الاستثنائي للموقف الذي وجدت نفسي فيه . لكني عندما وصلت الى هذا الحد من تأملاتي ، اكتشفت اكتشافاً أذهلني بل أغضبني تقريباً لأنه كان في الواقع اكتشافاً لشيء طبيعي وبديهي كان يجدر بي ان افكر به على الفور : لا ضرورة لاستخلاص رواية من يومياتي ، فروايتي قد كتبتها وانتهيت منها حتى من دون ان انتبه الى ذلك .

ان هذه الرواية ليست شيئاً آخر غير اليوميات نفسها ، كما كتبتهـا كل يوم بيومه ، لا بالاحداث النادرة التي حدثت فعلاً فحسب ، بل ايضاً وعلى الأخص بالأحداث التي لم تحدث البتة ، والتي حلمت بها او تخيلتها او قدمتها فقط كفرضيات .

لقد خيل إلي دوماً ان الرواية التي سأستخلصها من يومياتي يجب ان تكون رواية عادية لها بطل يكون أنا نفسي وشخصيات كثيرة . والحال ان يومياتي ، التي هي في الواقع رواية كاملة مكتملة ، لهـا بطل ليس بشخصية وانما كيان أدبي ، أي بالضبط الرواية التي كنت أزمع كتابتها فيما بعد .

وبمقتضب القول ، كانت الرواية هي البطل الحقيقي لليوميات ، وليس أنا ،

كاتب اليوميات . وهذه اليوميات رواية كاملة مكتملة لأنني لم أرو فيها قصتي ، وانما قصة الرواية التي كنت أنوي كتابتها .

وكنت أدرك ، من جهة اخرى ، ان الرواية – بطلة – اليوميات ليست رواية كغيرها من الروايات ، لكن ، وكما ذكرت اكثر من مرة ، طريقة في فهم الصلة بالواقع . والحقيقة انني رويت في يومياتي كيف تكونت هذه الطريقة في فهم الصلة بالواقع ببطء ، وتوكدت ، وانتظمت ، ليكون لها القدح المعلى في النهاية .

وهنا تصورت انه ربما وجد قراء يعترضون : « اذا كانت أشياء كثيرة قبلت بها في هذه اليوميات هي ثمرة ابتكارك المحض ، أي مجرد أضغاث أحلام في خاتمة المطاف ، فمن يضمن لنا ان الأشياء التي زعمت انها واقعية ليست ، هي الاخرى ، من بنات مخيلتك . من يضمن لنا ان اليوميات بكاملها ليست مختلقة وليست ، هي الاخرى ، حلماً ؟ »

اعتراض وجيه . والجواب الوحيد الذي استطيع ان أقدمه هو ان يومياتي حلم ، لكنها ايضاً ، وكما يشير عنوان مسرحية درامية اسبانية مشهورة [1] ، الحياة بكاملها . وبالفعل ، ان الفرق بين الاشياء المسماة واقعية والأشياء المحلوم بها فرق تافه ضئيل . فالأحلام تكون أحلاماً من الدرجة الاولى ، او من الدرجة الثانية ، او من الدرجة الثالثة ، الخ ... لكن من الصحيح ايضاً انه يمكننا القول ، اذا عكسنا المخطط ، ان بعضاً من هذه الاحلام هي وقائع من الدرجة الاولى ، وبعضها الآخر وقائع من الدرجة الثانية ، وبعضها الآخر ايضاً وقائع من الدرجة الثالثة ، الخ ... وبالفعل ، واذا كان صحيحاً ان الأشياء المحلوم بها ليست ، بمعنى ما ، واقعية ، فمن يستطيع ان ينفي او يشك بأنه حَلَمَ ، وعلى وجه التحديد هذا الحلم او ذاك وليس غيره؟ هل نستطيع ان نقول لشخص يروي

(١) « الحياة حلم » لكالدرون ديلا باركا .

حلماً حلمه : « كلا ، هذا غير صحيح انت تكذب ، انت لم تحلم بهذا » ؟ وعلى هذا ، وعلى فرض ان الأشياء المحلوم بها غير واقعية (او على الأقل غير واقعية على طريقة الأشياء المسماه واقعية) ، فإن عملية الحلم هي بدون ادنى ريب واقعية .

وبعبارة أخرى ، اذا كان صحيحاً ، كما هي قناعتي ، ان الرواية لا يمكن إلا ان تكون واقعية ، فإن يومياتي تبرهن على انه لا وجود للواقعية من حدود وانــه لا يمكن استبعاد شيء من الواقع ، ولا حتى الأحـــلام ، ولا حتى الأكاذيب ، ولا حتى ذلــك الوهم الحيوي الذي اوحى إلي ذات يوم بالخجل من انني عشت .

ان الدرس الوحيد الذي استخلصته من مطالعة يومياتي هو أن اكثر مـا علي هو أن أجد بقدر الإمكان الوسيلة التي تتيح لي ألا أحلم إلا أحلاماً معينة أما كيف السبيل الى ذلك ، فهذا ما لا أدريه ، لكن يكفيـني ان أشير الى حل المشكلة المرجح . ولقد خيل إلي ، على كل حال ، ان يومياتي ، وان كانت مؤلفة جزئياً من أحلام ، أقدر من الرواية الـتي كان يسعني استخلاصها منها على إعطاء فكرة صحيحة عما كان يمكن ان تكونه الرواية ذاتها : شيئاً كنت سأكتبه لأعرف لمَ أكتبه ، شأن الاحساس الذي خالجني دوماً بأنني أحيا لأعرف لمَ أحيا .

لقد كتبت يوميـــاتي لأعرف السبب الذي سأكتب من أجله روايـــة . والأجدر بي ان أحافظ على طابع البحث هذا وألا أعطي شكلاً نهائياً لمـــا لا يمكن على الارجح ان يكون له شكل نهائي .

لهذا قررت أن أنشر يومياتي كما كتبتها ، مكتفياً بتغيير أسماء الأشخاص وبعض الأماكن . وهذا ما فعلته . إن ما يظهر اليوم في شكل رواية ليس، بالفعل ، من شيء آخر غير يومياتي التي أضفت اليها تمهيداً وخاتمـــة ، لكني

حافظت على العنوان « الانتبـــاه » الذي هو ايضاً عنوان الرواية التي كنت أزمع كتابتها . انه عنوان مناسب ، على الأقل هذا ما أعتقده . وفضلاً عن ذلك أخشى ان تبدو القصة مشوشة بعض الشيء ، وبذلـك يكون حفاظي على العنوان أشبه بدعوة الى القارىء لكي يخص هـذا الكتاب بالانتباه نفسه الذي يعيره عادة (ينبغي أن نأمل ذلك) لأحداث حياته الخاصة .

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير تلفون ٢٧٦٥٢٨ ـ ٢٣٣١٨٤
حارة حريك ـ لبنان

هـــذه الروايـــة . . .

أصبح الكاتب الايطالي البرتو مورافيـــا روائياً شهيراً في اوساط الادب العالمي . وقد عرفه القرّاء العرب عبر روايات رائعة أشهرها « **السأم** » « **والاحتقار** » .

ورواية : « **الانتباه** » هذه تثير اليوم ضجـــة كبيرة في الندوات وبين النقّاد ، لا سيما وان مورافيـــا يطرح فيها ، لاول مرة ، مشكلة الكاتب الروائي امام أبطاله ، كيف ينبغي له ان يواجه واقعهم وواقعه : ايكـون صادقاً مئة بالمئة ، ام يحوّر في هذا الواقع ؟

كلّ ذلك يرويه مورافيا من خـلال قصة غـرام مثيرة : قصة صحفيّ يملّ زوجته فيهجرها ويسافر في رحلات طويلة ، وحين يعود يكشف ان زوجته تـــدير « بيتاً للمواعيد » ، كما يكتشف ان ابنتها من علاقة اولى غـــير شرعية قـــد كبرت وأصبحت جميلة ، فاذا بالصحفي الزوج يقع في غرام الابنة ...

رواية هامة سيقرأها القاريء بشغف . . .

الثمن : ٣٠ ل. ل. او ما يعادلها